

الشيخ ربحاء

أحمد زبء غنيم

دار
البنك
للنشر والتوزيع



دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس

٠٠٩٧٢٢٣٤٠٠٣٥

info@aljundi.biz

www.aljundi.biz

✱

أحمد زيد غنيم

الشيخ ربحان

✱

الطبعة الأولى (٢٠١٤).

✱

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الكاتب و الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher

سرديات من القدس

الشيخ ربحاء

أحمد زبد غنيم

الشيخ ربحاء سيد أولياء المدينة

كلما مررتُ بمقام الشيخ ربحان،
أشعر بوعى انطلاق دفقات من
الجازبية بيني وبين المقام،
كأن قوة عظيمة تشدنا معاً.

الإهداء

إلى والدي ووالدتي رحمهما الله،
وقد وهباني القدرة على الحياة
نمين مختلفين في عمر واحد.

صورة من حروف وكلمات

ربما تتطابق بعض أحداث هذا السرد، وبعض أسماء الشخصيات أو الأماكن مع الواقع، إن هذا التطابق ليس صدفة، غير أن ما بين يديك هنا ليس سيرة ذاتية لأي شخصية أو أسم ورد فيه، ولا تسجيلًا تاريخيًا للأحداث.

أنا أحب القدس وأتحمز لها، ولست حياديًا في حبها، أمشي في طرقاتها، أنظر إلى الناس وجدران البيوت، يكسوها الندى من خجل النوم في الصباح، وتغرق من كد السعي في النهار، أشم رائحة الياسمين وهي تُدلي جدائلها من خلف سناسل الحواكير، أداعب أوراق الدوالي وأقطف حبات الميس، أهيم على نفسي في الوديان، أنظر الحجارة الصغيرة بإصبعي النابذة من ثقب حذائي البالي، عليّ أتعثر بقطعة أنتيكا أو أثر من حدوة حصان أو قطعة من سيف أو رمح لجنود الناصر سحبتها مياه الأمطار من تلال المكبر إلى الوديان السحيقة، أشعبط التلال المحيطة بأسوار المدينة، وأهيم بشقائق النعمان الماثورة على مدى السناسل المتدرجة من قمة جبل الزيتون إلى أحضان البتول الناصرية، ألتقط روعة المدينة كأنني آلة تصوير، أكتب الصورة بحروف وكلمات، وأكسو عظام اللحظة لحماً كي أرجع الزمن إلى الخلق القديم، أميل إلى الكتابة الفوتوغرافية، وإلى قلب القاف ألفاً في عاميتي الكنعانية، فأسمع همس الصبايا توشوش الليل، تطربني موسيقى الباعة الجوالين، ويسحرنني صوت الأذان، وأجراس الكنائس، وتثور في قلبي نار

غاضبة، عندما يُقتل الطين، أنا لا أبحث في سرديتي هذه عن الموضوعية أو الإبداع، لست سوى فوتوغرافي يكبس على زر آلة التصوير، يوقف الزمن ليحتفظ بالصورة كما هي، أو يعود إلى مسودة فلمه القديم ليُرجع الزمن إلى حيث كان جميلاً، لم تزيفه الألوان المبهرة، تشغلني ذاكرة المكان، صور أبي المتروكة في صندرة الوعي واللاوعي، ذاكرة المدينة، وذاكرات الناس، أنفاس التاريخ التي تبثها جدران الأزقة وأرصعة الطرقات.

هنا في القدس، هنا، ربما يكون ما أقدمه في هذه السردية قد حدث فعلاً، وربما اختلط الواقع مع الخيال والهوى وأقوال الناس، لكن الحقيقي بما لا شك فيه في هذا العمل، هو ذاكرة المكان التي أُعيد تشكيلها كما كانت، بعد أن عبث بها القرصان.

قد تتضمن سرديتي هذه نثراً من حكايا المدينة، وقد يختل الترابط أحياناً بين الأحداث، وربما اقتحم المشهد من لا تبدو له علاقة بموضوع الحكايات، غير أنني أنعف على صدر هذا البياض، نثراً من سجل مدينة تقاطرت روحها على شاسع من زمن، وتداخلت أحداث كل حقبة على واسع من أمم وناس، تشابكت وتقطعت صلاتهم، حتى بدا نسج حكايات المدينة بالشكل التقليدي للسرد الروائي، أقل من أن يحيط بتلك الحكايات، قد لا يكون ما بين أيديكم رواية بالمعنى التقليدي، ولست بوارد الجدل إلى أي شكل أدبي ينتمي هذا العمل، وعلى طريقة إدواردو كاليانو في ذاكرة النار، أنا أيضاً "لا أومن بالحدود التي تفصل بين الأجناس الأدبية استناداً لضباط جمارك الأدب".

من المؤكد أيضاً أنني لا أرغب بإعادة صياغة التاريخ، وإن كنت أعلم أن معظم كتب التاريخ لم ترو الحقيقة، لأنها غيبت الناس، فقد أرخ

القادة والحكام لأنفسهم، وأبعدوا الحقيقة إلى الظلمات، ربما كان هذا الجهد المتواضع فرصة لبقاء الناس العاديين في صدر المشهد، كما كانوا دائماً: بائعة الخضار، الفران، مصلح البوابير، المنجد، بائع الحليب، مشردي الطرقات، حراس المدينة، البلهاء، المجانين.

قد يبدو هذا العمل مكتظاً بالمقولات الفكرية والفلسفية أحياناً، ومسترسلاً في وصف الأماكن والمهن والعادات، وكأن أحدهم أراد أن يقول كل شيء مرة واحدة، الواقع أنني عرفت أشخاصاً أرادوا أن يتحدثوا، لكنهم لم يستطيعوا، ربما منعوا، ربما لم يتح لهم الحديث، ربما قالوا لكن أحداً لم يسمعهم، أريد هنا أن أمكنهم من قول ما أردوا قوله دون خوف من حسيب أو ناقد أو رقيب. وأعرف أناساً أحبوا القدس لكنهم لم يدخلوا إليها أبداً، ربما منعوا وربما لم يُتَح لهم القدوم إليها، أو ربما جاءوا متأخرين، بعد أن غيّر عبث الغريب في صورة المكان، فبدا كأنه ليس هو الذي عرفوه أو سمعوا عنه، أردت بهذا العمل أن أحمل القدس إلى كل هؤلاء كما كانت، وحيث كانوا أو حيث أحبوا أو أرغموا أن يكونوا، وأن أعيد تشكيل ما غيّر الأعداء من معالم المدينة، أرضها وعماراتها، ناسها وأشجارها، طرقاتها، طيورها، فصولها، أمطارها، نسباتها، جبالها، وديانها، الناس، من ذهبوا ومن رحلوا، من هُزموا ومن صمدوا.

إنني أدرك أن البناء الدرامي في هذا العمل مختلف عن بعض أنواع الدراما، لأن المكان وهو القدس شكّل ركيزة هذا البناء، الذي يسعى لتقديم صورة وصفية متحركة للمكان، في تتداخله مع الزمن ضمن الأحداث وحركة الشخصيات الأساسية وتطورها والثانوية "الكومبارس" بلغة السينما ومدى ضرورتها، كذلك مع الشخصيات

التاريخية والرمزية المقتبسة، التي تم توظيفها في النص لتعميق الدلالة، وهذا التداخل بين الزمان والمكان " الزمكان " هو حالة دينامية متداخلة الأبعاد، لا فصل بحدود جامدة بين مكوناتها، سواء على مستوى الزمن بأبعاده الثلاثة الماضي الحاضر والمستقبل، أو المكان بأبعاده الثلاثة أيضا. إن النظريات الحديثة تُعْتَبَر أنَّ كل ثانية وحيز، جزءٌ من الكون الواسع بأبعاده المتعددة، وهناك نظريات أخرى أسقط بعضها المكان من عناصر الرواية واكتفى بالزمن وعاءاً تاماً لكل عناصر الرواية، بينما بعض آخر رفض الأقرار بوجود شكل محدد للرواية، لعل محاولتي في هذا العمل كانت، اقتحام المسافة الفاصلة بين مفهوم الرواية ومفهوم الحكاية الذي لم يترسخ بعد، وفي المسافة بين الفشل والنجاح يكفي دائماً شرف المحاولة.

قد تكون مهمة الفن أو الأدب أن يصنع من الغموض لحظة الدهشة، التي تفتح على مدى لحظات الوعد، ألف احتمال للفرح أو الحزن، للخيبة أو الأمل، للقوة أو العجز، أو أن تكشف عن لوحة الكون سحر الجمال وروعة التماهي والاختلاف، غير أن مهمتي هنا كانت أن أفك طلاسم الغموض الذي غيب الوعد، وأنضو عن الدهشة خداع الحبكات المسبوكة بإبداع الكتاب والرواية، لأن الدراما المحبوكة عن قصد إن لم تحاكي الواقع ليست سوى خداع للعقل والبصر، لن تجد هنا سوى حقيقة واحدةٍ القدس في رابعة نهارها الدائم للأبد.

أكتب من عالم الأمر، قبل أن تحلّ الروح في حيّزها الفاني، وقبل أنسياب الوجود إلى وعاء الكون، وقبل أن يبرأ الله الحياة، حينها لم يكن للمادة شكل، ولم تكن الفكرة قد سكنت حدّ الوعي، والروح في تلك اللحظة كلّ متحرّراً من علة الحيّز والزمن وصفة الشيء، أجبتُ بلى، على جلال السؤال، ثم شغل هبائي في العدم استفهامية أين، المبنية لمفعول فيه تعلّق بخبر لمبتدأ لم يأت بعد، ولم يكن هباء العدم قد اتسع لسؤال متى، فتلك استفهام الساكن على محلّ الفرض من الأمر الآتي في كن فيكون.

وأين، سؤال همّ اللاشيء المنثور على أسرار جينات اللاحسوس من الخلق ومن أمر ربي، أكتب من قبل الوعي ومن حلمي، أي أحلم بأين الممتدة من حدّ الأمر إلى حدّ الخلد، تلك هي حيّز وجودي، قدسي مدينتي وبيتي وروحي الباقية فيها إلى أبد الدهر.

الجزء الأول

بائعُ الحليب

أحلام صغيرة

رأى باب المرقد يُفتح، ظنَّ للوهلة الأولى أنَّ أحد المُكلَّفين برعاية المقام قد انتهى من عمله وهَمَّ خارجاً، تلوَّى النور من سراج المقام وتمَّوج في رذاذ تسلل من صير الباب، فاحت رائحة زكية وأُعْبِق الزقاق بفنec وطيب، فجأة رأى شيخاً عَطَرْدُ القامة، مضمخ بالمسك، يعتمر عمامة بيضاء، أبلج الوجه، وديع المظهر دون إخلال بهيئة الهيئة والقوام، ذو عينان سوداوان براقتان، يرتدي جلباباً داكناً فضفاضاً، وعباءة خضراء امتدت إلى القدمين، عبَرَ من نقطة ما تحت قوس الضياء، متحرراً من علة الزمن، كأنه يَهْدُجُ² فوق جسد التاريخ، .

بَعَثَتْ الدهشة عمر فَبَغَمَ من هول المفاجأة، اندفع إلى الخلف بشكل عفوي، أَحَسَّ بقشعريرة اعترت جسده، ارتجفت يده، اتسع جفنا عينيه، شحب وجهه، بدا مَشْدُوها كمن صببت عليه لعنة الأبد، حلق بالرجل وَهَّتْ، أَحَسَّ بخوف شديد، أضعف قدرته على التفكير السليم، ما عاد يدري أختِرمة³ سكته أم هترمة، تتمم بشفتين مرتعشتين. - دستور، بسم الله الرحمن الرحيم، يا لطيف.... يا لطيف الألفاف نجنا مما نخاف، سلام قولاً من رب رحيم، سلام يا أسيادنا... سلام، ما عاد عمر يقوى على التنفس، كاد يُعْمى عليه من هول المفاجأة،

١ طويل القامة

٢ يسير متثقلاً

٣ صمت عن وعي أو فزع

دَرَدَبَ^٤ إلى الخلف، غير أن الشيخ دنا منه بفحجة واحدة، شعر عمر بيد تربت على كتفه، وعيون متقدة تحملق به، تبدلت ملامح وجهه، بينما ظلّ الشيخ هادئ القسمات.

- بسم الله الذي لا يفات ولا يلات^٥، قابض الأرض والسموات، وجابر العثرات، والسلام على عبد الله حاضر البيت، اللهم بارك عبدك ضيف مقامنا هذا، واستر عورته وأجر حوبته وآمن روعته، ما بك يا بنيّ، واهي الجأش، ترفّ عينيك ويرتعد جسدك؟ هل بك دَوَشٌ^٦ أو رَصَدٌ^٧ أو وَصَبٌ^٨؟ هل أصابك مكروه أو شر لا قدر الله؟

سأل الشيخ بنفس هادئة وقلب عطوف، بينما هَلَجَ عمر بصوت متهدج مرتعد ولهجة مقدسية.

- "مين... بسم الله... بسم الله..... بس كيف.... ليش...".

- ما بك يا رجل لماذا تفقّف وتطفط^٩، ألم تعرفني أنا جارك الشيخ ربحان؟

- بلى عرفتك يا سيدنا، عرفتك، "بس..... يعني... مش أنت.... كيف .. يعني بقصد أنه يا سيدنا شو طلعك من القبر، مش أنت ميت من أيام سيدنا عمر بن الخطاب، كيف أنت..... طلعت هون! دستور دستور^{١٠}، يا الله يا لطيف اجعل البلا خفيف.

-
- | | |
|----|--|
| ٤ | عدا عدو الخائف إلى الخلف، يعدو ويتلفت |
| ٥ | لا تشبّه لديه الأصوات ولا يحتجب عنه الدعاء |
| ٦ | ضعف في البصر |
| ٧ | اقتران مؤذي مع الجن |
| ٨ | التعب والفتور في البدن |
| ٩ | تهذي أو تثرثر دون فائدة - تلغو |
| ١٠ | تستخدم باللهجة المحلية المقدسية للتعوذ من الشرور غير المرئية |

الله أكبر.... الله أكبر... إنه صوتُ الشيخ خليل الأنصاري يَنسابُ عذباً جميلاً عبرَ الأزقةِ الضيقة، يَدْخُلُ إلى شبائِك البيوتِ ومَسَرَّياتِها، وما إن يُلامسُ أَسْماعَ النَّائمين لطيفاً مطمئناً خاشعاً، حتى تَسْمَعُ في الأنحاءِ وَقَعَ أَقدامِ وقباقيب وخريرمياه، وتمتدَّت خافَتُهُ تَذَكُّرُ اسمِ الله، تَرُقُّ المدينةُ وتحنو للنداءِ بيوتها وطُرقاتها وحِجارةِ الجدران، إنه أذانُ فجرٍ جديد، يبعثُ الحياةَ في عروقِ الشوارعِ والأزقة، فيتنفَّسُ الصُّبحُ ويفيضُ النَّاسُ جموعاً إلى المسجدِ الأقصى من كلِّ أوبٍ وحارة، مكبرين مسبحين في جلال هادئ لا تعكره إلا قَهَقَهاتُ بعض جنودٍ انتشروا في غير زقاقٍ هنا وهناك.

ما إن سَمِعَتْ صوتَ أَقدامه وقرقعات دلات الحليب بين يديه، حتى تنبَهت أعصابها وارتخت عضلاتها وحنَّت نُخامياتها وحرَّكت ذيلها وقوائمها الخلفية وتمايل ضرعها، اقتربَ منها نظرٌ إلى عينيها، رَمَسَتْ بهدوء وهزَّت رأسها، حنَّ عليها، هَنَّدَها ومَسَّدَ على جسدها، جاء بكرسيه ذي الأقدام الثلاث القصيرة إلى بائنِ الضرع، بسَمَلَ وأضاف، ما شاء الله، غَسَلَ ضِرْعَ المَوْشِيَّة¹¹ بئاءِ فاتر، ثم نَشَفَه بقطعةِ قماشٍ طاهرة، دَلَّكَه قليلاً، تَهَدَّلَ الضرع بين يديه، وتَدَلَّتْ حلِمتانِ القوان¹² إلى أسفل، فركها بنعومة، وقبَضَ برفقٍ وشَدَّ إلى الأسفل، رشقة أولى من كل حلمة في إناء أسود، نظرَ إلى ما في الإناء من رشقات حليب أولى، تأكد من نقائه وصحته، بدَّلَ الإناء بسطلٍ من التوتياء، ثم ضَفَّ¹³ باقي أبقاره وغَسَقَ¹⁴ حليبها في دلاتٍ كبيرة مطمئناً راضياً.

البقرة ذات اللون المختلف	١١
البقرة	١٢
حلب	١٣
صب	١٤

يدركُ عمر بائع الحليب، ابن الخامسة والعشرين حولاً، أن تحنينه على بقراته الخمس لا يزيد من وفرة حليهن فقط، وإنما يمنحه شعوراً بالرضا والراحة، ذلك لعلاقة ودِّ مميّزة بينه وبينهن بعد طول عشرة ولقاء، فهو يعرف كل واحدة منهن، ورغم ميله إلى الكسل والنوم تحت شجرة التين نهاراً، فإنه ما أهمل بقراته يوماً وما صَنَّ عليهنَّ جُهداً أو رعاية، بل منحهن دائماً حُبّه ورعايته واهتمامه، هنَّ صديقاته اللاتي يثبتهن شجونه ويشكوهن متاعبه، هنَّ سلواه وأنيسات فجره ونهاره، يُميّز حركات كل بقرة، فيعرف ما يُرضيها وما يُزعجها، يُدرك معنى أن تميل برأسها أو تهش بذيلها، معنى أن ترفع قوائمها أو تحرك جفونها، يراقب اهتزاز جسدها ونبضات قلبها، فيعرف إن تضايقت من حرٍّ أو ارتعشت من برد، إن تأملت من مرض أو انتعشت من وافر صحة، إن خارت من جوع ومن عطشٍ أو هنتت من طعام أو شراب، إن حزنت من وحدة أو أنست برفقة، يشعر أنها تُحنن عليه كما يُحنن عليها، ما إن يفك ذيلها المربوط إلى رجلها الخلفية ويُنهي حلبها ويلامس ضرعها مودعاً إلى بقرة أخرى، حتى تُحرك ذيلها فيلامس جسده تحية فرح ورضا هادئ.

نهَضَ عمر حاملاً كرسيه القصير، نظرَ إلى عيني الموشية، رمشَ الجفن الثانية، وضعَ يديه على حَجَبَتَيْهِ، فردَّ قامته وقد انتهى من حلبِ بقراته الخمس، ثم دنا من الحَوَّار¹⁵ بحذر، فرغم ما يكنّه من ودِّ له فإن طبع القرهب¹⁶ الحاد لا يترك مكاناً للهزل معه، شدّه من قرنه، تنبّهت مجساته عافط ونَقَطَ¹⁷ وخار، نفلَ عمر ربطة من البرسيم رفده بها، وتتم

١٥	الثور
١٦	الثور
١٧	عطس، ونثر بأنفه

حمداً لله، ثم نادى بصوت خافت على زوجته هدى، طالبا منها أن توقظ أختيه فاطمة ونرجس لتحضير مؤن العلف والقش والبرسيم، نفّص يديه، تقدّم إلى حيث الحوض قُرب شجرة التين، خرير ماء تساقط من الدَّلْوِ المعلق على سارية بين رافعين من خشب الزيتون، قاما فوق راعوفة¹⁸ البئر، سحبَ عمر إليه الحبل، مألّ بالدَّلْوِ على مرفقيه، انسابت صفحات الأيام، لم تكن تقلبات الزمن وصور الوجوه المتبدلة والأيدي الممتدة إلى الماء ذات مغزى مختلف، أنفاس حياة لافحة قادمة من بعيد، ترَجَّلَ فرسان أطلّوا من جبل المكبر والمشارف، افترشوا الأزقة والطرقات، قال الفاروق، بعد أن التفت إلى الشيخ ريحان، جاوزت قِبْلَتَهُمْ يا كعب، التفت إلى الخلف، أزال بيده أوساخاً من زمن مُلتبس، فردّ عباءته، أتموا الصفوف وسدوا الفرج، صلى الفجر حاضراً في المسجد الأقصى.

طرقٌ خفيفٌ على الأبواب، أيقظَ صغار الحي، فتحوا أبواب الفجر، مدّوا كسرولاتهم¹⁹، سكَبَ فيها من حنايا الروح حُبّاً ومن دلالاته حليياً طازجاً دافئاً. صوت المؤذن وطرقات بائع الحليب، ساعتا المنبه الوحيدتان للناس في البلدة القديمة، لكل حارة موعد يقظة، وشارة صبح وبائع حليب.

ما إن نسخَ الظلُّ شامسه قُرب حوض الماء وألقى الفَيءُ بساطه تحت شجرة التين حتى استلقى عمر بجسمه النحيف، ووجهه النحيل ذي اللحية العارضة، والبشرة الداكنة، هناك في دعة وصفاء، كدأبه صباح كل يوم بعد أن عاد من صلاة الفجر وانتهى من توزيع الحليب،

١٨ صخرة عند البئر يجلس عليها المستقي

١٩ كلمة مقدسية تعني اناء الحليب

ثنى ذراعاه، توَّسَّدها ثناءب، مطَّ قدميه بتثاقل وخمول، غفي لهلجِه²⁰ وأحلامه المعتادة على صوتِ بابور الكاز، وقرقة خفيفة لحلل تستقُّ بالأرض بين يدي أخته فاطمة، كان عمر يحلمُ بغمام أبيض، وأبقار تهيم وسطَ سماءٍ ذات ضروع كبيرة، وزخات حليب تنهافت من أهذاب الغيم وتترقرقُ على وجهه ناعمة رقيقة، أفاق من غفوته، رفع يده بتكاسل، مسح وجهه، فتحَ عينيه، نظر حوله، ما زالت أمه تجلس إلى الرحي تحكُّ بحجر بعض الحلو²¹ وتطحنُ بعضه ثم تدَحْشه في مكحلتها لتعالج رَمَدًا في عينيها وعوار القذى عن عيون الصغار، صكَّ عمر أسنانه وحرك شفتيه، عادَ وغفا من جديد، قلبَ ساعات النهار، وعند السَّراة أفاق من تهوُّمه²² ونهَضَ متثاقلا، أقترَبَ من البئر مالَ بالدُّلو قليلا، سنَّ الماءَ على وجهه، انبعثت رائحةُ قدحة الثوم بالسمن البلدي والكزبرة الجافة، قبَضَ حفنة أرز من الحلة أزدردَها على عجل، بينما كانت أخته نرجس تفرد طبليّة الطعام عند حوض الماء، وتتذمر بسرّها من أبناء أخيها، كيف بعثروا أعواد الملوخية في حوش البيت بعد أن كدَّت في شطفه وتنظيفه منذ الصباح، تناول طعامَ الغداء مع أسرته مبكرًا بعد صلاة الظهر على دأب أهل القدس، فنَفَشَ كفه مسحَ بها على شفتيه بعد أن هَبَرَ ما في القدر، أخبرته أمه أن السقا غابَ عن موعد الماء، فنفد بئر البيت أو كاد، أكثر ما يزعج عمر إحضار الماء من أبيار الحرم الشريف، أو بير أيوب، وعين أم الدرج في سلوان،

٢٠	احلام غامضة
٢١	حجر يُستشفى به من الرمد
٢٢	نومه

أو سبيل باب السلسلة أو الواد والتي تزود المدينة بالماء من برك سليمان عبر قنوات تحتية من جنوب غرب البلدة القديمة، ليس أشق على عمر من تلك المهمة، التي تتطلب حمل تنكيتين موصولتين إلى حبلين يتدليان من طرفي رافع من خشب البلوط الغليظ على كتفيه، ثم صعود درجات عقبة دير العدس والشيخ ربحان ذهاباً وإياباً حتى تكتفي البئر، لذا أجّل المهمة ليوم آخر، علّ السقا الذي يخدم الموسرين من أهل القدس، يأتي ويفرط في سقاء البئر ويكفيه شرّ هذه المهمة القاسية، استلقى عمر من جديد في ظلّ التينة الباسقة، عاد إلى شخير البطيء وأحلامه الصغيرة، دقت أجراس كنيسة دير اللاتين، نهض إلى دلو الماء، مَتَحَهُ²³ وصبّ بعض ما فيه على رأسه، ثم نفّض رأسه ليترد عن وجهه بعض قطرات الماء المناسب وبعض من وسوسات قيلولته المزمّنة، فردّ جسمه ورفع وجهه نحو السماء، بدت صافية زرقاء إلا أنها نيسانية لا تخلو من بعض غيمات سابحة في ملك الله، قدّر أنها قد تُبدّل حالها دون إنذار، لذا تناول سترة الكتان المعلقة على مسمار خلف باب غرفته الخشبي، نهّر على زوجته هدى كي تُنظف باحة البيت حتى لا تزعج نرجس بما تركت خلفها من أثار الطبخ ثم خرج من البيت، مرّ بمقام الشيخ ربحان، سلّم على ساكن المقام، واصل طريقه قريباً من دير العدس إلى باب الغوانمة، دنت برتقالة العصر من وسادتها فوق حي الشرف، مدّت خيوط نورها البرتقالي على صفحة القبة، تلوّنت وجنة الأفق وزهت، ارتفع صوت الأذان، مدّ يديه تَوْضاً من مياه بركة النارنج عند سبيل قايتباي قرب باب السلسلة، انسابت صفحات الأيام، لم تكن تقلبات الزمن وصور

الوجه المتبدلة والأيدي الممتدة إلى الماء ذات مغزى مختلف، أصطف رجالاً من أجناد الشام على جانبي نهر من ماء وخضرة وتلال، علّق شداد بن الأوس²⁴ بيرقاً على سارية البئر، استوى عبادة ابن الصامت²⁵ للناس في مجلس قضائه اليومي، صلى العصر حاضراً، قضى ما تبقى من نهار جوال في أحياء المدينة، اقتربت حبة البرتقال من مرقد نومها وفرشت سجادة من حمرة ناعسة على تلال بعيدة خلف الأسوار وعلى أكنان²⁶ ضمها الأفق وحصنتها الغابات الخضراء، وشيئا فشيئا أرخى الظلام جفونه وارتدت المدينة حلة المساء.

جلس عمر إلى كرسي من القش في مقهى الباسطي قرب الهوسبيس السويسري، كان المقهى مكتظا بالسامرين، أخذ رشفة بصوت مرتفع من فنجان قهوة على طريزة صغيرة أمامه، أربك الراوي وخلخل انسياب الرواية، رفع أبو وهيب خيزرانتة وحملق في وجهه بغضب شديد، تمايلت كوفيات واهتزت طرابيش على الرؤوس، تدارء القوم وعجت أجواء المكان برائحة التبن، نهض الأسد الكرار، والبطل المغوار الذي شاع ذكره في الأقطار، أقسم أن ينقطع عن اللهو والشراب، وأن يعتزل النساء والديار، طوال ليله والنهار، امتشق المهلهل سيفه البتار، نادى في تغلب يا دم كليب، فأرهب القبائل والأمصار، صرخ في جمع من قومه والأنصار، "انهضوا من سبات الذل إلى ثأركم، لا أصلح الله

٢٤ من صحابة رسول الله صاحب علم ومعرفة، بشره الرسول بفتح القدس وانه سيقم فيها، جاء القدس عاش ودفن فيها في مقبرة باب الرحمة
٢٥ من الصحابة عمل قاضي في القدس ودفن فيها في مقبرة باب الرحمة
٢٦ كل ما يُكنّى ويستتر به بيتا أو غارا منحوتا

منا من يصلحهم حتى يصلح ذئب المعزِ راعيها".
 عادَ إلى أهيل بيته، قريباً من مقام الشيخ ريجان، عند مفترق الطريق
 الواصل بين عقبة خضير وباب العامود، تُطلُّ بوابة البيت الخشبية
 إلى فِرْسَاخٍ من الأرض، يتفرَّعُ منه طريق زقاق يؤدي إلى دير العدسِ
 من جهة، وإلى طريق الوادِ من الجهة الأخرى، تُعبرُ من البوابة إلى
 حوشٍ مستطيل، عند طرفه الأيمن شجرة تين فارعة بأوراقها الكثيفة
 وأغصانها الباسقة، فرشت ظلّها فوق حوضٍ ماءٍ دائري كَتِنَتْ شقوقُ
 حجارتِه عن بعض طحالب وأزهار خضراء، ينساب فيه ماء فرات
 من ميزابان يتصل ببئر يقوم فوقه رافعان وعارض من خشب الزيتون،
 يتدلّى منه الحبل الموثوق إلى دلوٍّ من كاوتشوك أسود في جراب البئر،
 ومن يسار البئر شجرة جُميز تَمُدُّ أطنانها على طيَّات البيت لكنها بدَتْ
 شاحبة الأوراق ذابلة، وإلى الجهة الأخرى جدار من الحجارة المنقوشة
 المظللة بأغصان مدادة عجوز، تدلت أوراقها على ثلاثة أبواب خشبية،
 تفصلُ بين كلّ واحدٍ منها نافذة من زجاج براق ملون، تعكسُ ضوءاً
 خافتاً ينسابُ مثل الماء من قنديل زيت معلّق على الجدار المقابل، الذي
 تتوسطه نافذة غرفة أخرى وضعَ عند طرفها كوزاً تَعَرَّقُ بالماء، وإلى
 جواره زير من الفخار.

ألقي عمر تحية المساء على أمه وأختيه، اللواتي رقدنَّ من تعبٍ يوم شاق،
 في غرفة إلى جوار مخزن المُون والعلف، أطلَّ بنظرةٍ إلى يخور البقر في
 الواجهة المقابلة لبوابة الحوش، حيث يربُّعُ هناك خوار وخمس بقراتٍ
 درابٍ وعرابٍ وفراشٍ وقهيدٍ²⁷ رضيع، ويضعُ عزراتٍ ساجسيةٍ وشاميةٍ
 نفصنَّ بين فينةٍ وأخرى بذيوهنَّ قوراَصَ البعوضِ والبق، أشعلَ عمر

بعضاً من الروث الناشف، فنفر قرقس²⁸ الليل وجرجسه، دخل عمر إلى غرفته، ألقى نفسه بضع دقائق إلى فراش فوق حصير من القصب، ضم أطفاله عادل وصابر وربى، قبلهم مد الغطاء فوق أجسادهم الطرية ونهض، خلع ثوبه ودس نفسه بهدوء من تحت غطاء ثقيل إلى جوار زوجته وغط في نوم عميق.



حكاية البئر

للبر أن تستقبل الصباح بفرح، فهي على موعد مع غداءها وملاكها الجميل، ببشرة فاتحة السمرة وجديلتين دجوجتين^{٢٩} تدلتا على أكتاف الصبا، ينعكس وجه فاطمة على صفحة الماء يراح قرص الشمس بنور نجمتين كحيلتين وأنف دقيق، أنزلت فاطمة الدلو إلى البئر وتيدا ثم شدت الحبل برفق فارتفع الماء ولا مس بناها الناعم، مالت قليلاً بالدلو، دفعته إلى حوض ضاق صبراً من طول الانتظار، وأتعت دلواً بآخر، عبت حتى دسق^{٣٠} الحوض وتموج الماء ونضا عن وجه مهاء وحشية تذكّت غداؤها وعانقت بلورة النهار، بجّت^{٣١} في باج شعاع من براءة غازلت من صفوها صفاء السماء، عشرون عاماً والبئر جزء من الحكاية وأسرارها، تحب فاطمة البئر والدلو والشعر وخير الماء، وقمرها يسافر إلى كل الدنيا، ثم يعود إليها وفي حوض البيت ينام، فاض الحوض وميزابان القلب أو كادا، وشح ماء البئر أو كادا، وما بين هذا وذاك زمن من وصل وفصل ووداد، انتشلت فاطمة الماء وجادت به على ورد الحوش وشجرة التين والمدادة العجوز، ولها أن تجود ما شاءت الروح حُباً وماءً، ولها أن تفلت أنفاسها ليحب منها الورد ويتضوع ويفح عبيره في الأرجاء.

لم تنس فاطمة أن تملأ مشارب البقرات بعد أن ضفت، نادى كل أفرار

شديدة السواد	٢٩
امتلاً	٣٠
لمعتا	٣١

الغن فأتتها تحني الرأس ثم ترفع عينها نحو سيدة البئر، وتدعو باري الكون لساقيتها، أكملت فاطمة توزيع العلف والبرسيم في مواضعها، وقبل أن يشدو الحسوني للصباح عادت إلى البئر ودلو الماء، غسلت كفيها، فتحت للروح فضاءاً لتخلق مستلقية تحت التينة ترقب ميلاد يوم جديد، لم تعب ولم تمل من ثقل السنين على وعدها الذي غاب، كانت تعلم أن الانتظار سيطول، وأن من لا يعرف أن في الحياة إجبار لا يعرف الحياة نفسها، لكنها لم تستسلم عندما هتت الدنيا دهاكلها وأثقال من البلاء على صدرها، قررت أن تصبر وتكافح، لأن الصبر دون الكفاح عجز واستكانة، لم تذهب سنوات الدراسة سدى، تمكنت من إقناع والدها قبل أن يسقط شهيداً في ثورة البراق بأن الدراسة في مدرسة الراهبات في حارة النصارى ثم في كلية البنات في القدس، ليست حِكراً على بنات الأغنياء والعائلات الكبيرة من الطبقة العليا فقط، بل إن ابنة بائع الحليب يمكنها أن تتعلم، وأن تتفوق أيضاً، وأن التعليم لن يمنعها من واجباتها في الأسرة من حلب للبقرات وإطعام الدجاج وكل مسؤوليات الفتاة، بل إن العلم قد وسع أفقها، ورفع من شأن قيمة العمل لديها، وساعدها على نبذ الوهم والجهل، وأثار لها السبيل لتكون أهلاً بها كلفها الله به من عبادة وعمل، كان ما اختارته فاطمة، وتمكنت من تحقيقه أشبه بالمستحيل على فتاة في زمنها، إلا قلة من طبقة خاصة، بالتأكيد أن عائلتها لم تكن منها، لقد آمن الناس حينها أن البيت هو كل عالم الفتاة، فيه تولد وفيه تكبر وفيه تموت، ولا تخرج منه إلا لضرورة قصوى، وإن فعلت، فذلك قبل أن تبلغ الحيض وبرفقة الكبار من النساء، لزيارة أهل أو جيران على مقربة من البيت، تكون

الفتاة الصغيرة قد لبست عبَّ³² النساء الكبريات، مما فُضِفَص من اللباس والغطاء.

درست فاطمة الآداب واللغة الانجليزية، لكنها عشقت الرسم وكتب التاريخ وقصائد أبي القاسم وإيليا والمتنبي، وربما حسدت في سرها ماري الصفوري على هيام إبراهيم طوقان بها، وكتبت للبر ودلو الماء وحجارة الطرقات، ولحبات السمس في لقمة زعتر، ولفارسها الجامح مثل نشيد الحرب، كانت تُخفي ما تكتب في صندرة بعيد عن الأيدي والعيون، آمنت أن زماً سوف يأتي تنفجر فيه الكلمات ينابيع من تحت الصخور، ما تعبت من الانتظار، يعلم جميع من في البيت أنها تنتظر وعداً هو حلمها ومصدر إلهامها وحيويتها وبرق النور في عينيها، تعود أفراد عائلتها على هذا الوعد، وتقبلوا هذا الانتظار، بل واحترموه، ربما لا يعرف أحد غيرها من يسكن هذا الوعد أو يشغل ذاك القلب، لكنهم قبلوه، لذلك ردت أمها ورداً أخوها من تقدم لطلبها دون أن يعرضها لسؤال قد يجرح صورة الوعد، أو يشكك بجدوى الانتظار، كان ذلك استجابة لوصية والدها الشهيد، الذي طلب من ابنه أن يُحسن إليها وأن يحترم خيارها ما دامت تُقيم واجبها وتلزم دينها وتحترم قيم أهلها ومجتمعها. فاطمة المعلمة في مدرسة المعارف، صاحبة الوجه الملائكي والشخصية القوية، المتعاونة المحبة للآخرين، حازت على حب واحترام كل من عرفها، وإن بدا غريباً على بعض أبناء الحي وبعض الجارات كثير مما كانت تقوم به من أعمال، كانت تكافح لإقناع أهالي الحي من نساء ورجال، أن يوافقوا على إرسال بناتهم إلى المدرسة، رغم مشقة ذلك على

الكثيرين بسبب من الفقر والفاقة والعادات، لذا جعلت من ساحة البيت وظلّ التينة حلقة لتدريس فتيات الحي وبعض الكبار من نسائه، أحيانا تعامل أبناء الحي معها كأنها أحد رجالهم، كانت صاحبة رأي ومشورة، أحبّها الناس، وكنت تسمعهم يقولون هكذا قالت الست فاطمة، فتاة الحي، معلمة المدرسة، ابنة بائع الحليب، مصدر فخر الحي واعتزازه، أحبّها أهل البيت وزملاء الدرس وأهل المدينة وتمناها الكثيرون، لكن قلبها تمنى فشقي العقل والجسم في مناه.

سعتُ فاطمة دائماً لتضييق الفجوة بينها وبين أختها التوأم نرجس، ريحانة البيت التي يتضوع المكان بعطرها دون أن يلتفت أحد لوجودها، تمتعت ببطونة فطريه وطبّع لطيف، لكنها لم تنل حظّها من التعليم ومن الحياة مثل أختها، كانت كغالبية بنات المدينة تلزم البيت الذي هو كل عالمها، فيه ولدت نرجس وفيه تحيا وكانت مقتنعة أنها فيه أو في بيت زوجها ستموت، حاولت فاطمة أن تشركها في حلقات الدرس، لكنها لم تنجح، لم تعرف نرجس من الدنيا إلا حدود البيت، ومن الرجال إلا أباه وأخاه، وبعض الصبية الذين يحضرون إلى البيت لشراء الحليب، لم تذهب يوماً إلى مدرسة ولا حتى إلى كُتاب، كانت ساعد أبيها ثم أخيها وأمها في البيت، ريحانة البيت، تصلي الفجر منفردة، وتبدأ بكس البيت وشطفه ولا تسمح لأحد بالحركة حتى تحف الأرض، نرجس رغم طبعها اللطيف، مسرّبة حتى الهوس، تغسل الملابس، خاصة البيضاء منها بالشبة، تدعكها بيدها عدة مرات بقوة حتى يزهو لونها، ثم تصعد بها عشرين درجة على سلم خشبي إلى السطح، تنشرها هناك في وجه الشمس، ترفض نشر الغسيل بحوش الدار، تقول أن أطفال البيت يعرضوه للاتساخ، والحقيقة كما تقول فاطمة أن نرجس تريد أن

تزهو بفسيلها النظيف أمام الجارات، فهي تطرب عندما تسمع إطراء إحداهن على همتها ونشاطها وبهاء ألوان غسيلها، فاطمة تعتبر جهد نرجس الزائد وسر سبتها نوعاً من إثبات الذات أكثر منه وسواس قهري، مقابل إنجاز الست فاطمة وإطراء الناس على وعيها وقوة شخصيتها.

ما إن تنتهي نرجس من الشطف والغسيل وحمّامة البيت، تتفرغ لترتيب غرف النوم وركن الفرش وطيّ اللحف الحرامات على غرها وتصنيفها بعضاً فوق بعض بالركسة بترتيب لافت للانتباه، وإذا وضعت الوسادة البيضاء ذات الأستك الأحمر والشرشف الأبيض على السرير الوحيد في غرفة أمها، فإنها لا تسمح لأحد لمسه أو الجلوس عليه، حتى أن الجارات الزائرات لأما يتعجبين من إبداع عائلة يضم بيتها يخورا للبقر وأفراخا وبطاً وبعض عنزات وشجرة تين تسقط أوراقها وتجذب القوارض والحشرات، كيف تتمكن تلك العائلة من جعل هذا الحيز المكتظ بالحياة بحوشه وغرفته ويخوره نظيفاً على مدار الساعة، تَفْعُو³³ في جنباته روائح حياة مفعمة بالأحياء مع روائح من العطر والبخور المنعش، كل ذلك بفضل ست البيت نرجس، أما الطبخ رغم مهارتها به فإنها تركته بعد استشهاد والدها لأما أو لهدى زوجة أخيها لأنها لم تُطق أن تسمع إطراء على طبخها غير الذي قاله والدها "نرجس ست الستات وست البنات". تُحب نرجس أن تُعين أخاها في حلب البقرات، التي تألفها كما تألف عمر، وترمش بجفونها ترحيباً ورضاءاً بقدمها كما تفعل مع أخيها، لم يسلبها كد السنوات جمالها الفاتن، وربما أنها لم تدرك

في زحمة عملها في البيت، كم هي بارعة الجمال، ذات وجه بيضاوي
وسمرة براقّة وأنف دقيق، كانت ترفع رأسها بحركة خفيفة يمينا لترتفع
خصلات الشعر الدّجوجيّ عن عينيها السمرات المحاطة بمحار من
البياض يوقظ قمر الانتظار، لم تكن تقل فطنة وذكاء عن أختها فاطمة،
لكن انتظارها لم يكن وعداً، بل قدر للغياب والعزلة، نرجس لا تحب
الوعد، لأنها تأتي من بعض الجارات أو الأقرباء وعداً لا تعرف شكله
أو طبعه أو هواه، والأدهى أنها لا تتمكن من رسم صورة له في ذهنها،
وإن حلمت به ذات مرة فإن وجهه غالباً ما يكون مظللاً بالنور، ربّما
لكونه وعداً تنتظر أن يضيء ليل صباها المظلم، أو ربّما أنها قادرة
على تصور شكل هذا الوعد، لأنها لم تر من الرجال إلا أبيها وأخيها.

نرجس ورده البيت المتزوية خلف جدار العيب والممنوع، التي يصعب
رؤيتها وتمييز وجودها في ظلّ زمنٍ مكّدى بالعرق والجهد والتعب،
إنها رغم إبداعاتها الكثيرة كست بيت ناجحة، لكنها منظوية على ذاتها،
تسرق من الزمن لحظات قليلة لتخلو إلى نفسها، تحلم بفارس يعبر
كالبرق من تحت كوفيات بيضاء، ووجوه كثيفة دون ملامح، يخمشُ
صرة الأفق، ثم سرعان ما يغيب الحلم وتعود للزمن المرصوص
بالأعمال وربّما الإهمال من الآخرين، لا تذكر أن كان لها رأى بشيء غير
أعمال البيت ونظافته وترتيبه، لا تذكر أن أحداً سألها أمراً في شأن الحياة،
أو حتى في شأن يخصها، ولم تعرف كلمة لا إلا في تشهدها، تتذمر
بسرّها، وتغضب بسرّها وتضحك وتفرح بسرّها، ومن شدة قربها تكاد
تُحجب عن ما حولها، ليس لأن والدها كان متزمتاً، بل هو المجتمع
بقيوده وعاداته وتقاليده، مجتمع الرجال الذي سجن المرأة، وأخفى
خلف قضبان سجنها ضعفه وانكساره أمام روحها الجميلة، كان والد

نرجس حنوناً محباً، كلما أقبلت لتقبل يده ضم رأسها إلى صدره بحنان، وقَبِلَ وجنتها وقال: لك الرضا يا ابنتي رضا ربي ورضا قلبي، ودعا الله دائماً أن يُحَنِّنَ عليها ويوفقها مع ابن حلال يسترها ويكرمها، هذا أقصى ما استطاع رجل في عصره أن يتخطى من قيود المجتمع من أجل ابنتيه، من بادرت فحجزت لنفسها مقعداً مبكراً في قاطرة التَّحَضُّر، ومن سكنت فلم يشعر أحد أبداً بعزلتها ولا بألمها، تلك طبيعة الحياة لكل فتاة في ذلك العصر، كنَّ وقدر العزلة والغياب في تلازم لا انفصام فيه. ربّما اعتقد الجميع أن داخل نرجس راكدا، لكن قلبها يخفق ويحلم بفارس الجمرات يلتهم تفاح الصبا ويحتاج أعماق الجسد ويبعث جيوشاً من النمل تحت جلدها الطري، فتضم كفيها إلى صدرها، وتشد ساقها إلى بعضهما بقوة، وتنفض رأسها تخلصاً من ذاك الشعور، وتحمّر وجنتها خجلاً، تتلفت حولها خائفة مرتجفة خشية أن يطلّ أحد من في البيت على مكنون الرغبة ورجفة السؤال.

كانت نرجس أحياناً تغار من فاطمة وتحسدها على حظها في الحياة، فهي تخرج كل يوم من البيت، تبدل ثوبها البيتي بآخر للحياة، تحدثت الجارات عن جمالها وعن علمها وعن رأيها، وكثيراً ما تمتتها بعض النسوة زوجة لأحد أبنائهن، وإن عبّرَ أحياناً عن خشية من أمنيتهن تلك، لأن الزواج بفتاة بمواصفات فاطمة أمر لم يجرب في مثل تلك الأحياء، ولم تعرف طبيعته من قبل، كانت فاطمة مصدر الإلهام الخفي لكل ما هو جميل في ذهن نرجس، كانت تحبها وتحسدها وتحشاها، لكنها غالباً ما كانت تغار منها، كانت تؤمن أن حالتها هي القاعدة وأن فاطمة هي الاستثناء، بل الانحناء الحاد نحو الاستثناء، ورغم غيرتها الشديدة منها، لم ترغب يوماً أن تكون مثلها، فهي لا تعرف تماماً ماذا يعني

مثلها، ولا تذكر كيف درأت فاطمة خباء التواري والعادات واقتحمت
 جدار الصمت والمألوف وقفزت إلى حيث المختلف والغريب، هي
 لا تعرف بمقياس الأفضل، هل قدرها هو الأفضل، أم خيار فاطمة
 ووعداها السحري المجنون، كثيراً ما شعرت بخفقان قلب فاطمة وهي
 نائمة إلى فراش بجوارها، كانت تشعر بيدها تسحب من تحت الغطاء
 تمسح عن خدها دموعاً ساخنة، وأحياناً كانت تسمع منها بعض تمتمات
 عفوية، كأنها توشوش الليل أو تناجي وعداها الغريب، لكن نرجس
 لا تعلم كثيراً عن هذا الوعد، وما الذي يجعل الانتظار حاراً ومؤملاً
 وجميلاً إلى هذا الحد.



مجد

الشيخ ربحاء سيد أولياء المدينة

رتبةً تسير حياتكم لأنكم لم تعرفوا مجد، ولم يسلبكم شعره المخضب بالجلنار³⁴، ووجهه الوردي الذي قبلته العصافير، فتمشت وجنتيه، كيف للقلب أن يخفق دافئاً وليس تُوقد فيه رغبة ونار الاشتياق، وبلا مجد هل تكون الدنيا إلا لحظة للسهو تعبر ليس تعرفها الأماني ولا تحاكيها الأغنيات، لماذا لم تعرفوا مجد، وقد سافرت أنا في ربيع عينيه، وما تعبت خطاي، لماذا لم تسمعوا همس الأحلام توشوش الليل وطرقات القدس وتبكي حين يغالبها الوجد وتساءل، أما عاد مجد، خَطَّتْ سيدة الحكاية كلماتها في دفتر صغير، و"نونست" ضوء المصباح وغالبت جفونها المتعبة.

مميّزاً ليس لحمرة وجنتيه، وندى الصبح على جبينه ودُمائة خلقه وحسب، بل للصبا المتوقد فرحاً وحُباً للأرض وللناس، حنونا مثل جُدران المدينة، تعانق بعضها وتحضن الأهل والأحباب، ناعماً مثل نداء الفجر، طيباً كحبات العنب وجامحا مثل رياح كانون إن جدّ النزال، منذ صغره تعود أن يحضر كل مساء إلى مقام الشيخ ربحان، سيده الذي ما رآه يوماً، لكنه آمن دائماً أنه حارس الأحلام التي لم تولد، ما بخل مجد يوماً على المقام وسيده بزيّ أو شموع، أضواء عتمة المغارة الصغيرة

من فتحة نافذة عند الجدار الأيمن لبوابة المقام الخضراء، الذي يقع في البلدة القديمة من القدس، عند مدخل زقاق ضيق في حي يحمل اسم سيد المقام، محاذيا لوسط الجهة الشمالية لبوابة الغوانمة، إحدى بوابات الحرم الشريف، التي تصل طريق الآلام مع عقبة الراهبات، حيث أعلى درجات تتوسط دير العدس وراهبات الوردية، صعودا إلى اليسار بضع درجات أخرى، تعبر إلى زقاق ضيق، من تحت بناء حجري قديم على شكل قوس يمتد حتى نهاية البناء المسقوف، تطل من أعلى واجهته الأمامية شبايك البيوت والمشربيات الخشبية، إلى يمينها نوافذ الطابق العلوي للمقام، يقع تحته باب لمغارة معتمة صغيرة، يقوم فيها ضريح الشيخ بحلته الخضراء، يُفضي الزقاق إلى مفترق يصل عقبة الميلوية وحارة السعدية مع الشيخ ريحان، تتواصل البيوت يحضن بعضها بعضاً، حجر يحضن حجراً، ونافذة تهامس أخرى وسطح يسامر سطحا، وقبة تمتد إلى أخرى، ومقام يناجي مقاما، حتى تلف المدينة على نفسها وتتشابك حاراتها وأسواقها، أحياءها وأمواتها، ماضيها وحاضرها، بعضها يحتوي بعضاً، تتداخل أحيائها كأنها نسيج كائن أسطوري.

هنا كل شيء عزيز، كل شيء نفيس وذو قيمة، البيوت والحجارة والجدران، ذاكرة مجولة بالقداسة والأحلام وتراويل الأنبياء، هنا تدوم الدهشة وتومض مفاجئات الانبهار، هنا يدوي العادي وتفتت رتبة الصيرورة، وتفشخ الروعة ناصية الحضارات، فتفيض روح المكان المُطهمة بالقداسة وتتجلى القدرة الإلهية مع عظمة الإبداع الإنساني في عُبارِق المعمار الذي يُعبرُ عن صفاء روحي فريد، هنا حيز يتسع لأكثر من زمن في آن معا، هنا يحيا التاريخ داخل الناس ويحيا الناس داخل التاريخ

الذي تُشتم أنفاسه في كل زاوية وزقاق، هنا أزقة ضيقة لا يتسرب منها الماضي من زمن إلى زمن آخر بشكل تام، هنا تحمل المدينة بين جنباتها وأضلاعها الماضي بكل أحداثه التي كفنها وقبرها في صدر الأرض، وأنشأ شواهدا على السطح بعداً آخر للحاضر، هنا تدلّج الحضارات حكاياتها على وجه الحجارة والناس، هنا لا يولي الزمن ولا يطوي أيامه بل يرسم على جباه المدينة صورة لحاضر مستمر، هنا تخاطبك روح المكان التي تنسل إليك من عقب صوفي عتيق، وتَسْبُحُ في فضاء المدينة جزر من نجوم تتلألأ في الغامق، فيمور النور وتتنزل الملائكة والروح فيها، ترتل فيغمر صوتها تلال الحلم وشفاه الهواء، هنا يُسبح لجلال الخالق كل شيء، الناس والحصى وحبات القمح واليام، هنا ليس لك أن تمشي إلا خاشعاً وثيد الخطي، لأن أقدامك تحط على فدّاد³⁵ من القوم وعلى أديم من العالمين، هنا قد يشيخ الناس وتبدل الوجوه، لكن المدينة تبقى في شبابها القديم، متحفاً مأهولاً ليس في جنبات الأرض له مثل، هنا القدس طاهرة الاسم في دلالة معناه تنزهت عن كل عيب ونقيصة، هنا مدينة حية تنفث روحها على مدى الزمن، من بدايات بعيدة ليس تنتهي.

قد يبدو لمن هو غير عارف بالمكان أن مدينة يتكدر فيها الألم والفقر والبؤس في الطرقات، وينخر الإهمال عمرانها، ويعشعش الفُدس والهَبُور³⁶ في حنايا أزقتها، ليست جديرة بامتلاك آيات الجمال، وقد يعتقد البعض أن الحديث عن ذلك الجمال ما هو إلا هوس عاشق انصهرت روحه في روح المدينة، فبات لا يرى جمالاً يوازي جمالها، لكن

٣٥ أشداء

٣٦ والعنكبوت النمل الصغير

أهوالاً من واقع ثقيل عبر عهود ممتدة، جثمت على صدر المدينة، غير أنها لم تمنع بعث النضارة في وجهها الشاحب من لحظات هوت بها عن قمة مجد طَحَّطَحَه^{٣٧} الجهل والعجز والخذلان.

دنا كعادته هادئ الخطى من نافذة المقام، أشعل شمعة مال بها، انسابت قطرات بلورية لزجة، ثَبَّتَ شمعته على بلاط النافذة، ترنح نور الشمعة مع أنفاسه الساخنة، مَدَّ يده إلى سراج قرب الباب ملأه زيتاً فتلاًلاً نور خافت في أرجاء المكان، كشف عن مرقد ساكنه ذي الحلة الخضراء والشاهد المغطى بعمامة بيضاء، للوهلة الأولى يُخِيلُ للنظر أن الشيخ قد استلقى في مجلسه وسط الحجرة معتمراً عمامته متوسداً وجهه المستدير بكف يده، وقد تلاًلاً جبينه الأَبْلَجُ^{٣٨} وبانت قسَمَات وجهه الهادئة، وربما اعتقد الناظر إلى الضريح أن الشيخ يغفو في دعة وسكينة بعد جهاد يوم طويل.

أطلَّ مجد إلى نافذة المقام، تتم بفاتحة الكتاب همساً، كي لا يورق نوم الشيخ الجليل، تملكه شعور بالرهبة وهو يرى النور يترنح هادئاً كأنه يداعب عمامة الشيخ بجلال وخشوع، شعرَ بحرارة تسري في عروقه، هو الخوف حيناً والحب والتبرك والإجلال حيناً آخر، كان يعلم أن عدداً من أبناء الحي يُحْضِرُونَ الزيت والشموع للمقام المبارك قبل أن يَدْهَمَ الليل، لكنه أحسَّ دائماً أنه مختلف عن الآخرين، شيء ما يربطه بهذا المكان، ليس ما تعودته الناس من رغبة بالتبرك وزيارة المقام وحسب، شيء ما يشده إلى هنا، كأن قوة عظيمة تربطهما معاً، ربما التبس عليه تفسير ذاك الشعور أو فهم معناه، شيء ما يدفعه دوماً إلى

٣٧ بدده

٣٨ المنير

هنا، أحبَّ مجد الحي والزقاق وسيد المكان، وأحياناً كان يصعب عليه فهم الفرق بين الشيخ وبين المقام، وأغلب الظن أنه كان مقتنعا بأنها شيء واحد، وأنها كانا هنا دائماً.

يظن كثير من سكان الحي وبعض أهالي القدس أن الشيخ الصالح الذي جاء إلى المدينة مع الفاتحين في عهد الخليفة عمر، رضي الله عنه، كثيراً ما كان يخرج من مقامه، خاصة أيام الخميس من كل أسبوع، يتجول في أنحاء الحي والمدينة، وربما يدخل إلى أحد البيوت يجالس أهله ويأنس بهم بعض الوقت، ثم يخرج دون أن يُحَدِّث أحداً، وما إن يشعر أحد من سكان الحي بالشيخ الزائر، حتى تسمع صوت البسمة والتمنّات الوجلة، وربما أشعل البعض نوعاً معيناً من البخور المفضل للضيف المبارك، منذ مدة طويلة انقطع خروج الشيخ من مقامه، وما عاد الناس يذكرون أنهم شاهدوه يتجول في أنحاء المدينة، أو أنه زار بيوتهم، إلا أن الجدات ما برحن في ليالي القدس المدهّمة الماطرة يروين قصة الشيخ الجوال لأحفادهن، خاصة عندما يجلسون إلى كواوين الدق ذات الجمرات المُلْتَهَبَة، التي يداعب وهجها عيون الأطفال وينشط خيالهم، فيُحلقون في فضاءات بعيدة، يرسمون في أذهانهم صورة للشيخ بملابسه الغربية وعمامته البيضاء، وربما تخيلوه يقف أمامهم، أو أنه يفتح أبواب البيت ويدخل إليهم، ومع أن الأطفال والناس عامة في القدس قد ألفوا حكاية الشيخ حتى أصبحت والشيخ جزءاً منهم، إلا أن رهبة المقام وهيبته بقيتا في قلوب الناس دائماً.

آب عمر عائداً إلى طيّه في ضوء قمر أوشك على الرحيل، تابع أبو وهيب السرد ولوّح بخيزرانتة فألهب أسماع الحاضرين، بدا الزقاق حلماً، تفتحت شجرة الجميز، خيال مشربيات النوافذ وستائر عشت

بها نسيمات ريح لطيفة، انعكست صورتها على جدار الطريق، سَبَّحَ الله وشكر فضله ونعمته عليه وعلى عائلته بما مَنَّ عليهم من رزق، أشعل بعضاً من روث ناشف وطوى ليله حتى بزغ فجر جديد، قام وصلى وهزت أبقاره ذيوها أنساً، ثم حملَ عمر دُيَّ الحليب وانطلق إلى زبائنه مع دُعْنَه³⁹ نهاره الجديد، يَمَمَ شطر مقام الشيخ ريجان، قرأ فاتحة الكتاب، رفع يده تحية، السلام على ساكن المقام، قال، وأغلب ظنه أن الشيخ انتهى من صلاة فجره، وتوسَّدَ كفه وغفي من جديد، كان في ذهن عمر أن يصل إلى بيوت زبائنه سريعاً، حتى يُسَلِّمَ لهم حليبا طازجا دافئا ولبناً طليماً، انطلق مهرولا يُسَبِّحُ ويُتِمِّمُ باسم الله الرزاق الكريم، رأى باب المرقد يُفْتَحُ، ظنَّ للوهلة الأولى أن أحد المُكَلِّفِينَ برعاية المقام قد انتهى من عمله وهَمَّ خارجاً، تلوَّى النور من سراج المقام وتموَّج في رذاذ تسلل من صير الباب، أعقب الزقاق بفتح وطيب، فجأة رأى شيخاً عَطَرْدُ القامة، مضمخ بالمسك، يعتمر عمامة بيضاء، أبلج الوجه، وديع المظهر دون اخلال بهيئة الهيئة والقوام، ذو عينان سوداوان براقتان، يرتدي جلباباً داكناً فضفاضاً، وعباءة خضراء امتدت إلى القدمين، عبَرَ من نقطة ما تحت قوس الضياء، متحرراً من علة الزمن، كأنه يَهْدُجُ⁴⁰ فوق جسد التاريخ.

- دستور، بسم الله الرحمن الرحيم، يا لطيف.... يا لطيف الألفاف
نجننا مما نخاف، سلام قولاً من رب رحيم، سلام يا أسيادنا... سلام،
ما عاد عمر يقوى على التنفس، كاد يُغْمَى عليه من هول المفاجأة،

٣٩ يوم شديد الغيم والظلمة
٤٠ يسير متأقلاً

كَرَدَبَ⁴¹ إلى الخلف، غير أن الشيخ دنا منه بفحجة واحدة، شعر عمر بيد تربت على كتفه، وعيون متقدة تحمق به، تبدلت ملامح وجهه، بينما ظل الشيخ هادئ القسمات.

- بسم الله الذي لا يفات ولا يلات، قابض الأرض والسموات، وجابر العثرات، والسلام على عبد الله حاضر البيت، اللهم بارك عبدك ضيف مقامنا هذا، واستر عورته وأجبر حوبته وآمن روعته، ما بك يا بني، واهي الجأش، ترف عينيك ويرتعد جسدك؟ هل بك دوش أو رصدا أو وصب؟ هل أصابك مكروه أو شر لا قدر الله؟

سأل الشيخ بنفس هادئة وقلب عطوف، بينما هلك عمر بصوت متهدج مرتعد ولهجة مقدسية.

- "مين... بسم الله... بسم الله..... بس كيف.... ليش...".

- ما بك يا رجل لماذا تفق وتفظظ، ألم تعرفني أنا جارك الشيخ ربحان؟

- بلى عرفتك يا سيدنا، عرفتك، "بس..... يعني... مش أنت.... كيف .. يعني بقصد أنه يا سيدنا شو طلعك من القبر، مش أنت ميت من أيام سيدنا عمر بن الخطاب، كيف أنت..... طلعت هون! دستور دستور، يا الله يا لطيف اجعل البلا خفيف.

تجاهل الشيخ خوف عمر وهلعه، بدا كأنه يكمل حديثاً متصلاً سابقاً ومعلوماً.

- أين هو، أما وجدتموه بعد؟

- "مين يا سيدنا، مين بتقصد، مين؟" ... سأل عمر بصوت مرتعش.

- هلا هدت يا رجل وأخبرتني هل وجدتم مجد.
- "مين مجد يا سيدنا، ما بعرف عن مين بتحكي؟".
- مجد يا رجل ابن جارك الشيخ نامق، لقد أطل غيابه عني، منذ زمن طويل لم يُحضر لي زيتاً ولا شمعاً، وما عاد زارني في ليل أو نهار، وما عُدت رأيته في الجوار ولا الديار، أين ذهب مجد يا ولدي؟
- "مجد...مجد...آه... عرفت مين تقصد"، توفي والده الشيخ نامق منذ عدة سنوات، وما عدنا رأينا مجد بالحى بعد عزاء والده، يقال أن الإنجليز خطفوه ويقول آخرون أن اليهود قتلوه، "أقصد يعنى أنه استشهد".
- أن يكون مجد شهيداً، فهذا ما يُجَل، لكنه لم ينل شهادته بعد، فما زال أمامه درب ووعد، لو كان مجد بين الشهداء لعلمت أنا بذلك يا ولدي، لأننا نحن أولياء المدينة نحتفي بشهداء بيت المقدس لحظة صعودهم.
- "نعم..نعم، أنت أدرى، وإلا كيف يعنى، تتم عمر باستسلام.
- ماذا تقول، بماذا تهمس أنا لا أفهمك، تراك تطفط من جديد، قال الشيخ.
- "قصدي... يعنى...."، يقول البعض إن مجد هاجر إلى ألمانيا، وأصبح ثرياً جداً، وما عاد يذكر القدس، ويقول آخرون إنه سافر إلى أمريكا، وهذه بلاد بعيدة ربما أنك لم تسمع بها، يقال إن مجد انشغل باللهو والخمر والنساء والعياذ بالله.
- ضاق الشيخ ذرعاً بما سمع، أمسك بتلابيب عمر، شدّه إليه، وقال:
- يا هذا لا تَفْتَأْ⁴² على الفتى، ليس ما تقوله صحيحاً، إنه مجد يا

رجل، أنت لا تعرف مجد، سيد فتیان المدينة وأمرها الأحمر، إنه الزيت الذي يضيء ظلام القلوب، والوعد الذي ظلّ حيا يوم غاب الأمل عن العيون، سيف الرباط، حامل اللواء، وحارس أحلام المدينة، العاشق العابد التقى الورع، الساجد القائم المجاهد، أنت لا تعرف مجد أيها الرجل، فمثله ما كان يوماً ليهون أو يضعف أو يُفِرط بالأمانة، لا غربة الدار إن حلت، ولا المال ولا النساء، ولا ملذات الحياة وملهياتها ستأخذه من إيمانه ومن قدره العظيم، هو حي في الشجر والحجر والبشر، إنه في مكان ما، أبحثوا عنه ولا بد ستجدونه، وكلما عجلتم بعودته، دفعتم ظلام الليل عني وعنكم، أتفهم ما أقول، عليكم أن تجدوه، وأن تعودوا به لبيت المقدس، وإن لم تفعلوا، فأذروا بظلام يدوم وخراب يحوم.

ثم مدّ الشيخ يده إلى بهو مرقده المجلل بالعمّة والظلام، وجاء بذبالة يتخافت نورها من غير زيت أو سراج، ألقى بها إلى عمر وقال بصوت تهدج كأنه يأتي من غور عميق:

- يا عمر أريدك أن تكون عذيري من الوحدة، ونصيري من الغياب، وعوني على الظلمة والخطوب، خذ إليك ذبالتني هذه قبل أن يجف زيتها وتذويها الريح وابحث عن مُوقد ناري، وأهل مرقدي وعمارتي، قل له إن للشيخ ربحان عتباً شديداً، لأنك منذ مدة طويلة لم تُحضر له زيتاً ولا شموعاً، قل له منذ زمن لم يتلأأ في مرقدي سوى شحيح من نور وضياء، ثم دَهَمْنَا الليل وغيبنا الظلام، أنظر إلى نافذتي وقناديلي، جفّ زيتها وغاب نورها بينما أضواء في غير مكان، ما فتى الناس في سهوهم عنا حتى ضعف ودّهم وكادَ يَنْصَبُ عطاؤهم، لقد وهنَ عزمهم وما عادوا

وبهؤوا⁴³ بهذا المقام، وأخذهم اللهو عنا، وألقوا بنا إلى ماضي الكتب المقدسة، جعلونا سيراً بالية، ولولا ذاكرة المكان، لغيبنا النسيان، فما عاد القوم وهلّوا، ولا شدّوا الرحال وحلّوا، أنطوى الواحد منهم في هذه الدنيا على نفسه، ليس يرى فيها إلا ظله.

انفض بنيّ وذبّالتي هذه، أسرج جواد المهمة، انفض عنك رتيب العيش، أقرع أبواب الأمة، ابحث عن وعدنا وعهدنا ومجدنا، قل لهم مضى على الغياب زمن طويل، وبيت المقدس اليوم في كرب عظيم، إننا في الجوار نسمع ديبب أقدام غريبة، تعيث فساداً في المكان، قم بنيّ استنهض الناس ولا ترنّ للنعاس، اصرخ في عار العروش وذللّ الجيوش، من أغمدوا السيوف وغادروا الصفوف، وتخلّوا عن الواجب والمهمة، قلّ للقادة والسادة والمتكئين على الوسادة: عار وأي عار أن تترك ساحات الوغى والشغور، عار أن تحتبى جحافل الإمارة خلف أطفال الحجارة، قل لهم منذ زمن لا أسمع إلا مطارق ثقيلة، تدق أحجار المدينة، تهدم البيوت على الرؤوس، وتقتل البشر وتقلع الشجر وتسدّ الطرق على العباد، منذ زمن لا أرى إلا كاسيات عاريات يتجولن في الجوار يتضاكن ويرطن بلغة غريبة، لم أفهمها قط، منذ زمن وأنا أشاهد أناساً غرباء، يمرون أمام مرقدى دون سلام، ما من فاتحة تُقرأ، وما من دُعاء، ما من زيت وما من ضياء، منذ زمن أسمع نفخ بوق، ونعيب بوم، كأن البيوت في الجوار قد بدلت أهلها، وغيرت نهلها وركنت لسهلها، اذهب لمجد قلّ له: ما عاد الشيخ يطيق صبراً، وهو يرى بيوتاً للخير تهدم، وبيوتاً للخراب تقام، قل له لم يعد الغياب مقبولاً ولم يعد

الصمت مفهوماً، قُلْ له إنني وبيت المقدس والناس وطالعه على ميعاد.
ودون أن ينتظر الشيخ تعقياً أو إجابة، خطأ تحت قوس يزوي من
ضياء، عائداً من حيث جاء، ثم ران الصمت في المكان، وغاب الشيخ
في ظلام المقام.



أبواب موصدة

طبول كشافة دير اللاتين وصنجات الرواد راقصت أسماع المشاهدين الذين اصطفوا على جانبي الطريق من بواكير الصباح، انتشر باعة الشعبيات والزلاية والهريسة وشعر البنات وبيض الخميس الملون في ساحة الأسود الواسعة أمام بوابة الحرم الشريف، وانبعثت رائحة شواء اللحم من الكوانين والبسطات قريبا من حمام ستنا مريم، وجال باعة شراب الورد والعرق سوس والخروب بأجراسهم اليدوية وأباريقهم وأكوازهم الكبيرة المحمولة على الظهر، بخراخيشها التي تداعب أسماع المارة.

من قدرون الواد الذي تمتزج به رائحة الحياة والموت، ونضرة الورد المتفتح مع صفرة الأشواك، هنا حيث ما زالت خطى الأنبياء طرية فوق ميداء الطريق وميتاؤه⁴⁴، وأجواء المكان تعبق بأنفاس ملائكة طاهرة وروائح مسك لا يذوي مهما زاحمه في الحيزنتن من ربح يهوذا أو مرجوس الشياطين، هنا حيث يتعايش الماضي والحاضر في تداخل فريد على طرفي الزمن والمكان، تُطلُ الكنائس العريقة والأديرة القديمة من خياشيم التلال، وتنتشر المدارس ومساطب العلم تحت ظلال المساجد وفي جلايب أروقتها، وتمتدُّ بيوت الناس على سطحات التلال المحيطة بالمدينة، ويحفر الوادي قبور لغزاة كثيرين.

يتكى أصحاب البسطات على حواف التاريخ، يفرشون قدور الزاد

ولائم الرحمة، ويفردون قلوبهم بساطا لضيوف المدينة، من أعلى التلة عند أقدام الباب الذهبي حيث يرقد على طيب من الثرى عبادة بن الصامت ويستفيء ظلّ الفتح شداد بن أوس، إلى تلة يسوع وعتبات قبور الأخشيد في طريق المجاهدين، ومن صلاحية الناصر لدين الله ودير العذراء عبر طريق الآلام إلى مرمى عباءة بن الخطاب قرب كنيسة القيامة، يمرغُ الناس وتتابع أنفاسهم وتتعالى أصوات باعة البليلا والكعك بالعجوة والسسمية، ويفوح الزمن برائحة القداسة والبخور، ويهبش الحاضر من وعاء ماضيه فتبدو المدينة أوسع من حدّ أسوارها وأكثر اكتظاظا من نشور لحظتها، وأعمق وعياً وتنوعاً ممن تصارعوا عليها، تمتدُّ إلى رئات الحضارات وإلى صدور الناس، إلى الفلاحات القادِمات من سريس وبيت محسير وقطنة وأبو غوش وعين كارم ودير ياسين واللطرون وأم طوبا وكفر عقب وشرفات والسواجرة، يَحْضُرْنَ مع عبق الليمون وطيبات الحقول وأنفاس التاريخ تمور وتشدُّ ساعداً إلى ساعد، في سلسلة متتابعة تُسَوِّرُ المدينة وتحفظ جلال حضارتها الكونية ورسالتها الإنسانية من مقت أسطورة الوهم وعنصريتها الخبيثة.

يستمر توافد الناس من أنحاء المدينة والقرى المجاورة، يصعدون تلة اليوسفية وباب الرحمة، يتدفقون في شرايين الشوارع من جبل التين إلى مرقد القبر المقدس. أمهات بغطاء رؤوسهن البيضاء وبراقعهن السوداء يحملن أطفالهن على صدورهن أو أكتافهن، وصبيان بأقدامهم الخافية وسراويلهم البالية، شباب وكهول بقنابيزهم وكوفياتهم البيضاء وعباءاتهم المطرزة، شخصيات رسمية بثياب مميزة بأناقتها وياقاتها البيضاء، رجال بطرايشهم الحمراء، وقسيسين ورهبان، جاؤوا

للاحتفال بأحد الشعانين.

يُطلُّ موكب الفرسان من أعلى الجبل، يتقدمهم فارس بملاحم جندي من القرون الوسطى، يمتطي فرساً كهزمانياً⁴⁵، يتبعه في صفين متوازيين أحد عشر فارساً على جياد شقراء، يتوسطهم فارس على حصان أبيض، يحمل راية المدينة، بينما يرفع باقي الفرسان رايات وشارات الطوائف والكنائس والمدارس، يليهم قارعوا الطبول الكبيرة المربوطة إلى الأكتاف والأجساد التي تميل إلى الخلف من وزر الأحمال، ومن ورائهم تتوافد زرافات الفرق الكشفية للمدارس والأديرة، صورة من ذاكرة المدينة وثقافتها المتنوعة المتداخلة لا تطرد قيمة فيها قيمة أخرى.

كان يعلم أنها ستمرُّ من هناك، بقي أبو جريس وقد دَهَّه العشق واقفا طيلة ساعات منذ الصباح الباكر، مرت مواكب كنائس وأديرة القدس وبيت لحم تباعا، وفود من أصحاب النيافة مطارنة وبطاركة وارشميندرات ورهبان وراهبات، بقلاسيهم وياقاتهم البيضاء وأثوابهم السوداء الممتدة إلى أقدامهم، نزلوا من جبل الزيتون، مرّوا بوادي الموت والحياة، ثم صعدوا إلى طريق الآلام عبر باب الأسباط، يتقدمهم قادة مشاة الكشفية بزيم الكاكي وأربطة العنق الموشحة بخيوط ملونة، والمرباط البيضاء العريضة حول أعلى القدمين فوق الأحذية الجلدية السوداء، وبعضهم الطويلة المزينة بالنقوش والخزف، يدورونها بأيديهم بمهارة، ثم يلقون بها إلى الأعلى على نغمات القرب وموسيقى المارشات والفرق النحاسية، تشخص عيون الجموع إلى العصا التي يطوّحها الهواء حتى تتلقفها أيدي القادة بمهارة عالية، يلوحون بها على جوشهم ذات اليمين وذات اليسار، بينما وجوههم مثبتة النظر إلى منصة

٤٥ حمراء تميل إلى الصفرة

كبار الضيوف على تلّ ترابي قرب باب حطة، وفجأة تهتف حناجر الجموع، تُحيي النازل بجلال من بيت التين نحو الأسوار، متمثلاً وقار وتواضع من أبى أن يعبر المدينة ممتطياً ظهر حرب أو حصان، وجاء على آتانه الصغير تعبيراً عن رسالة المحبة والسلام، قُرعت أجراس الكنائس وصَدَعَت الحناجر بالصلوات، ثم عَلَت أصوات الجموع ترحب بمواكب الوافدين إلى المدينة.

ظلّ أبو جريس ثابتاً في مكانه أمام باب الصلاحية، قرب حمام ستنا مريم، يتدافع بجسده حيناً وييديه حيناً مع بعض الصبية والشباب ليمنع أجسادهم من أن تحجب الرؤية ومسيرة عيد الفصح عن عينيه، وكلما دُفِع إلى الخلف قليلاً، تأفف ورفع جسده منتصباً على رؤوس أصابعه بأقصى ما يستطيع، كان يخشى أن تمرّ ماري بَعْتَةً ولا تلمحها عيناه.

فجأة تقدمت مجموعة راهبات دير اللاتين، يسرن على طول صفين متقابلين يتقدمهن المطران سمعان، رآها تعبر من تحت أقواس البوابة الكبيرة، في الصف المقابل لجهته تماماً، بَعْثَاء⁴⁶ الوجه بَدْرَة العين، نحيلة الجسد، تحمل بيدها سعة نخيل، وتنشد والجموع مزامير الشعانين، وكلما اقتربت تصاعدت نبضات قلبه وهُيئَ له أنها تهرع إليه، تسارعت أنفاسه دفع جسمه بكل قوة، ارتفع على أطراف أقدامه أقصى ما استطاع، كاد يهتف باسمها، تدفق كل ما في الكون من هب إلى صدره، كأن الحياة فارت وأطلقت لظاها من دُجى الوجد في لحظة واحدة، تقدم في الحيز المكتظ خطوة أخرى، لهج⁴⁷ باسمها، لكن ماري مرت بسرعة

٤٦ بياض يضرب إلى الحمرة

٤٧ كرهه أكثر من مرة

خاطفة مثل ملائكة الفصح، وزعت هدايا العيد نظراتٍ من عيونها الساحرة على جموع الحاضرين، رآها بجلال رداها الأسود وقلنسوتها البيضاء، وصدرها المطوق بياقة بيضاء تمتد إلى أسفل الرداء، التفتت نحوه، فَرَدَّتْ شفيتها حتى غمازات الوجنتين، برقت عينيها، بدا له أنها ابتسمت، دفع بعضاً من حشدٍ أمامه بقوة، حاول التقدم لكن الحشد دفعه إلى الخلف من جديد، هل فَرَدَّتْ شفيتها حتى غمازات الوجنتين، هل ابتسمت حقاً، قلبها خارج منطقة الاستقبال البشري، قالت له أمه، لم تعد ماري تلك الطفلة الصغيرة التي كانت تشاركه اللهو إلى جوار شجرة السرو في ساحات الدير، منذ عاد في إجازة دراسية من جامعته في لندن، حاول أن يراها، لكنه لم يتمكن، قيل له إنها في عبادة خليوية منذ تسعين يوماً على قمة جبل التجربة في دير القرنفل قرب مدينة أريحا، مرّت ثلاث سنوات لم ير ماري، توقع أن تزور أمه في سبت النور مع والدتها كما تعودت دائماً، لكنها لم تفعل، لذا بدا المشهد عزيزاً عند بوابة الصلاحية.

- عليك أن تنساها وتحرّر قلبك من ذنب التعلق بمن ليس إلى سبيله رباط، تلك أبواب موصدة، دونها الخطيئة والذنوب يا أنطون، قالت أمه.

أطلّ من نافذة غرفته ومن ديماس⁴⁸ غربته على ضفة نهر التايمز، هفّت نسيمات هواء داعبت خضارب الماء، تيار هواء لفتح وجهه فأستنشق رذاذاً من ضباب رطب، غشي أجواء المكان وقلبه المهموّم، لكنه لم يحجب عنه مرأى النهر وجسر البرج الذي تجلّل بوشاح من بياض شفاف منذ أعلاه الملك ادوارد، مدّ أبو جريس أطراف لحظه حتى لامست بحنان صدر

اليابس المَضْبَكُ⁴⁹ على جنبات الماء، وتدفقت نبضات الزمن برناتها العالية من أعلى برج الساعة على الطرف الجنوبي لمبنى البرلمان لتنصت لصخبها جنبات الأرض خلف بحار بعيدة، ملح عجوزاً يجلس إلى مقعد بجوار حانوت للعصائر والكتب على الرصيف المقابل، بدا هادئاً بارد النظرة كأنه لا يُحدق في مكان محدد، أو كأنه لا ينتظر شيئاً، ربما طوى سنوات عمره مع عمل رتيب في إدارة حكومية، منحني الظهر منكباً على ملفاته يُمحّصها من خلف نظارته الغليظة، أو أنه جلس إلى ضفة النهر بعد سنوات من الكدّ في أحد مصانع الإنتاج الحربي، وربما كان عائداً من إحدى المستعمرات البريطانية البعيدة، هَرَّتْ ذاكرة أبو جريس ودَحَّتْ ما فيها على صفحة الماء، صورة والده جالساً إلى كرسي من القش أمام راهبات الوردية، بعد سنوات من الكدّ في مطحنة القمح في طريق الواد، صافي القلب والسيرة، لم يعمل في مصنع حربي، وليس عائداً من إحدى المستعمرات البعيدة، كانت نظراته حنونة تلاحظ المارة، وربما تحصى خطى العابرين إلى طريق الآلام.

ليس بعيداً من الرجل العجوز قرب النهر، وقف شاب ببزة عسكرية إلى جوار فتاة تطاير شعرها الأشقر على ظهرها، بينما طَوَّقَ الشاب بذراعه كتفها بحنان، كانا يجذقان بمركب كبير يمخر النهر، فيتموج الماء الهارب خلفه عن رغبة بيضاء، تتابعه عيون أطفال وعجائز من نوافذ البيوت وبعض الجالسين تحت مظلات المقاهي والأكشاك الصغيرة، عله يحمل لبعضهم نسمة من كيمبل أو قنديل من اكسفورد أو نفحات عشق من حبيب في ريدنغ، يصبها إلى الشرق في رطانة عند بحر الشمال،

كان الجو باردا بعض الشيء، ضم الشاب الفتاة إلى صدره، لا بد أنها أحست بدفع أضلاعها الملتهبة من الانتظار، مسح أبو جريس بيده على صدره، لسعته لفحة برد مفاجئ، ضمَّ يديه على فراغ صدره، لم تفلح نار الشوق الملتهبة داخل قلبه في تدفئة أضلاعه العارية، أحس بقهر الوحدة ووحشة الغربة، حدّق بالعاشقين على ضفة النهر، بدا أن الشاب يتحدث إلى فتاته بفخر لافت، لعله يؤدّعها للذهاب إلى بلد بعيد، أو عله كان عائد من الحرب في الهند أو شمال أفريقيا، أو ربّما حملته نفس السفينة التي جاءت بأبي جريس من ميناء حيفا بفلسطين قبل ثلاث سنوات، ومخرّت بحار وأهوال وحملت من موانئ كثيرة جنود متعين.

عاد الشاب وضمّ فتاته إلى صدره من جديد، بدا أنه يهوس في أذنها، لعله يبيها أشواقا خبأها تحت جمر سنوات الغربة الموحشة، أو لعله يسرّها بعضا من مغامراته في فلسطين، ربّما يحدثها عن صبيّة اعترض طريقها في أحد شوارع يافا أو أحد أزقة القدس، لعله يحدثها عن تعليمات الجنرال الجديد هناك، أو عن الرجال ذوي الكوفيات الذين تتشابه سحناتهم تحتها، حتى أنه لا يكاد يفرق بينهم وهم يعبرون الحواجز العسكرية في طرقات البلدة القديمة، أسند الشاب وفتاته ظهرهما إلى سياج من الحديد على ضفة النهر، نظرا إلى الأفق المجلل بالضباب، ثم فجأة التفتا ناحية النافذة البعيدة، بدا أن الشاب يشير بيده، ارتعدت فرائض أبو جريس، لعلّ هذا الجندي القادم من فلسطين يشير إليه، أو لعله يقول لها إنّه لمخ هذا الفتى المختبئ خلف النافذة البعيدة قريبا من باب العامود، لم يكن يرتدي كوفية كالآخرين، لكن سحته لا تختلف عنهم.

أطلق المركب صافرة الوصول، تراحم الناس على ضفة النهر، لعلهم قادمون في نزهة من لوندس، أو عائدون إلى المرسى قبل أن يفيض النهر

من كيمبل، أو يهبط القلب مع الجرف ونزعة السطوة عند وادي النهر في طانزة، دقت أجراس الساعة واصطف الحراس على بوابات الحلم وأسوار القصر الملكي، لم يعد أبو جريس يرى العاشقين، فعاد عن نافذته إلى هياض قلبه ووحشة غرفته الباردة وإلى كتبه ودفاتره الملقاة في كل مكان، على طاولة المكتب، وعلى أرض الغرفة، ها هو عطيل⁵⁰ يُطل من تحت قبة كاسيو⁵¹، يخاتله المنديل، تلفظ ديدمونة⁵² انفاً طاهرة، وهناك إلى جوار المدفئة ينكمش دافيد كوبرفيلد⁵³ مرتعساً من البرد، بسترته البالية، وجبينه الملطخ بالسخام، وتستلقي جنية بيرسي⁵⁴ على السجادة الخمرية الداكنة في وسط الغرفة ساخرة من كوميديا دانتي، وعلى كرسي هزاز مضطرب يجلس سيد الغثيان⁵⁵، يتلصص على العابرين من خلف الجدار، وتُطل الكلمات من معطف سارتر على حيز واحد لزمين منفصلين، ويبقى التخيل حالة الانفعال المثير في وجودية

-
- ٥٠ مسرحية لشكسبير تحمل اسم بطلها عطيل، الجنرال العربي المغربي في جيش البندقية، كتبت المسرحية سنة ١٦٠٣
- ٥١ مساعد عطيل الذي يغار منه الشرير اياغو، فيفسد بينه وبين عطيل، بإقناع عطيل أنه يخونه مع زوجته ديدمونة.
- ٥٢ زوجة عطيل البريئة التي يخنقها عطيل، وعندما يكتشف الحقيقة يطعن نفسه - جوهر معنى المسرحية الصراع بين الخير والشر.
- ٥٣ رواية تشارلز ديكنز.
- ٥٤ الملكة ماب قصيدة كتبها بيرسي وهو من أشهر الشعراء الأنجليز الرومانسين، وعمره ١٨ عام، وهي عن ملكة تراها العذراء يانت في حلمها جنية تصعد بها إلى النجوم، لتشهدا حاضراً الأرض وماضيها ومستقبلها، لترى الملكة بطروظالم الحكام وبؤس الفقراء فتطلق قولتها الشهيرة السلطة كالطاعون المدمر.
- ٥٥ روكتان بطل رواية الغثيان لسارتر.

ولسون^{٥٦} ودهشته واغترابه من رتابة العادي وعادية اليومي والرتيب. مدّ أبو جريس يده إلى فنجان القهوة، ما زالت دافئة طيبة، لكنها ليست مثل قهوة أمه التي تحرص على شرائها من مطحنة إزحيان عند فم السوق في باب خان الزيت، تصر على أبو السعيد أن يضع كمشة كبيرة من الهال، يبتسم أبو السعيد، وتلقى أم انطون ما تريد، لتناول القهوة مع أمه طقوس مختلفة، فهي تأتي بإسكاملة صغيرة ذات ثلاثة قوائم، تجلس إلى دوشك في شرفة البيت المطلة على قبة الصخرة المشرفة، تتكىء إلى جاعد ماعز أسود، تُشعل فتيلاً من القطن المرخ بالسبيرتو في موقد البريستو الصغير، ترفع بكرجاً نحاسياً من على صينية مزخرفة تضم ثلاثة فناجين نحاسية، تضعه فوق النار الهادئة، وما إن يغلي الماء تضيف إليه نصف ملعقة من السكر وملعقتين ونصف من القهوة بالهال، ثم تنتظر برهة وما أن تفور القهوة تصب قليلاً منها في أحد الفناجين، ترفع يدها بخفة لتضع البكرج على النار من جديد، ثم تصب قليلاً في الفنجان الآخر، وتعيد البكرج مرة أخرى إلى النار، وعندما تفور تسكبها في الفناجين الثلاث، يلف أبو أنطون سيجارتين من الهيشة، أحضرها له صديقه أبو عصام من يعبد، يُناول أم أنطون واحدة بعد أن يُشعلها من طرف القطن المشتعل بلهب أزرق، تسحب نفساً عميقاً تنظر إلى أبو جريس، لا تأخذ عناء عادة التدخين يا انطون، تقول وهي تحرق بسحابة من دخان تتلوى أمام وجهها، ثم تبدأ بحديث لا يتوقف عن البدوية بائعة اللبن المخيض التي تأتي من البعيد قريباً من الخان الأحمر، وعن مُصلح البوابير، وعن أبو جورج الذي لا يكف عن الشجار مع

زوجته، وعن الحاج بدوي غوشة صاحب الحانوت المجاور الذي تجدد في حانوته كل شيء إلا ما تريد، وعن ماري وراهبات الدير، وعن حارس الكنيسة الذي يطارد أطفال الحي المزعجين، وبائع الحليب الذي لا يتأخر دقيقة عن موعد الصباح.

أخذ أبو جريس رشفة من فنجان، سحب من سيجارته نفساً عميقاً، اعتذر بسرّه لأمه لأنه خالف وصيتها، تنهد، نظر إلى أوراقه المبعثرة وإلى منفضة سجاجره المليئة بالأعقاب، إلى زق الكُمّة الذي أحضره له الأب سمعان من اللطرون، ثم إلى كراكييه الكثيرة في غرفة عزلته في لندن، هذا دفتر يومياته منذ كان تلميذاً في مدرسة الترسطة في القدس، يحضر صديقه وعد في كل صفحاته، كان وعد يُحب مطاردة الفراشات الملونة لكنه يكره القبض عليها، هو يعرف أن وعد هو اسمه في شهادة الميلاد، لكن العائلة وأبناء الحي ينادونه باسم آخر، وعد لا يكف عن الابتسام، ولا يكف عن الكلام، يتلألاً وجهه المنمش في صفحات الدفتر، يشعر أبو جريس ببرودة تحتاج أنحاء جسده، كأنها برد القبور، يوحد نار مدفئة إلى يسار رفوف الكتب، يتوسط أحد تلك الرفوف صورة أمه وأبيه بالإكليل، إلى جوارها زجاجة من زيت الزيتون مقفلة بقطعة من الفلين، عزّ عليه فتحها منذ جاء إلى لندن، تحيطها بعض حصوات أتى بها من جرنٍ بجوار كنيسة القيامة، ومن على الجدار تدلّت قلادة من خشب الزيتون، أهدته إياها أمه في الجمعة الحزينة قبل العاصفة يتوسطها صليب من خشب البلوط، ورثه أبوه عن جده انطون، وعلى طاولة في بهو الغرفة مجسم من العاج للطفل أمام المذود، وذباله يترنح نورها في بنورة من غير سراج ليس يذكر من جاء بها إليه، بدا له أن روحه المعلقة بين روكتان وانسيلموس مثل غرفته موحشة وتعجُّ بالكراكيب.

عاد إلى النافذة، لا أثر للعاشقين، أخذهم المدى المجهول، الذي يأخذ الكثيرين ممن يمرون في جنابات الغرب، ولا تبقى لهم ذكرى، أرخى الليل جفونه على ضفة النهر، أحسَّ أبو جريس بوحشة واغتراب، حركَ شفتيه المتيسيتين، لا رغبة له لقراءة أو دراسة، بل لا رغبة له في شيء، أخذ الحنين والشوق لماري، للقدس، لأنه لأبيه، لطرقات بائع الحليب على بوابة البيت كل صباح، لصوت أبو جورج يصرخ على زوجته العجوز، لبقالة أبو بدوي التي لا تجد بها ما تريد، ماذا أفعل هنا قال لنفسه، ربما ليس هناك بدٌّ من الدراسة، لماذا ليس هناك من بد؟ لما عاد ذاك الجندي من حربه إلى فتاته الشقراء قرب النهر، ماذا أفعل أنا هنا قال لنفسه، ماذا يفعل ذاك الجندي في فلسطين؟ لماذا يحارب الإنجليز في بلاد بعيدة؟ لماذا أجيء أنا للدراسة في بلاد الضباب الكثيف؟ أليست القدس أولى بوجودي بها الآن؟ ماذا كان يهمس الجندي لفتاته قرب النهر؟ هل عاد من فلسطين حقاً؟ أهى معركته تلك التي هناك؟ أم أنها معركتي أنا؟ حربي أنا، روحي، كراكبي التي أحملها معي، أمي، ماري، وصليب جدي وقلادة الجمعة الحزينة، وذباله يترنح نورها في بنورة من غير سراج آه لو أذكر من جاء بها إليّ؟

"طوبى للحزاني الآن، لأنهم سيتعزون" (متى 5: 4).

كانت ليلة طويلة موحشة، قضاها إلى جوار نافذة غرفته في دير العدس، ليس سوى الخمر والتحفز للقاء ماري مهما كانت الصعاب، سأراها وأحدثها بما يغمر القلب من شوق وحنين قال لنفسه، لن أتردد، ولن أخشى الخطيئة التي تخشاه أمي، يمكن لماري أن تُعيد قطع المسافة التي خطتها بالاتجاه المعاكس، ثم بعد ذلك ما من خطيئة ولا يحزنون،

عندما شدني الشوق إلى القدس، قطعتُ المسافة بينها وبين لندن بالاتجاه المعاكس، لا شك أن الأمر أكثر سهولة مما يبدو لوالدي، قال لنفسه وهو يتجرع كأساً من النبيذ، قضى ليله بين وجه ماري وقباب القدس التي تُشرف عليها نافذة غرفته الصغيرة، بدا له أن ماري والقدس مثلتا روحه.

دملكَ كفه وصب ملء الراح من عطر الزنبق الذي اشتراه من سوق العطارين، قال له أبو صالح العطار: اغمر كفيك بهذا العطر وافرك بقوة وجهك والذراعين، سيهف الزنبق ويذهب برائحة النبيذ التي تنز من جلدك يا أبا جريس، نفخ على ظاهر كفه واشتمها ليتأكد أن الرائحة المجنونة تلاشت، "ربّ أعطني ينابيع دموع كثيرة، كما أعطيت في القديم المرأة الخاطئة" اقترب من الشماس عند بوابة الدير، ألقى تحية الصباح، تنفس الصعداء ليس سوى رائحة الزنبق، يمكنني الذهاب إلى عملي مطمئناً، قال لنفسه، يُعرّفه العاملون في إحدى الفصليات الأجنبية في القدس بالسائق انطون التلحمي⁵⁷، حيث تعود أن يعمل في إجازاته الصيفية، بينما يكنيه أهل القدس بأبي جريس، وما من جريس، هو حلم طالما انتظر أن يكون واقعاً، هل يأتي الفرح يوماً عروساً تمسح تعب الغربة، وتُبرد نار الوحدة وتُضمّد جرح الأيام.

كان في طريقه إلى عمله في حي الشماعة قرب باب الخليل، مرّ بجوار مقام الشيخ ربحان، تتم بسرّه السلام على ساكن المقام، ما كاد يرفع

٥٧ انطون داود من بيت لحم أحد أبطال الجهاد المقدس، قام بتفجير مبنى الوكالة اليهودية في ١١-٣-١٩٤٨ مستخدماً سيارة القنصل الأمريكي، الذي كان انطون نفسه سائقاً له، وبعد مطارده خرج من فلسطين إلى مصر ثم بعدها إلى كوبا والتحق بالثورة الكوبية

رأسه حتى رأى رجلاً ملقى على الأرض أمام البوابة الخضراء، عرفه على الفور إنه عمر بائع الحليب، لا بد أن الرجل تعثرت قدمه فسقط أرضاً قال لنفسه، اقرب منه، قال بصوت خافت، فهو يدرك أنه ما زال في حضرة الشيخ ذي الهيبة والوقار، باسم الرب تحميك العذراء، ماذا جرى لك أيها الجار العزيز، رفع عمر رأسه ولم يكن قد استيقظ تماماً من هول الصدمة، فما زال صوت الشيخ يطن في أذنيه، قال وهو يفرك عينيه بيديه كأنه يستيقظ من حلم مزعج.

- صباح الخير يا أبا جريس، لقد تعثرت قدمي وسقطت أرضاً.
- لا بأس عليك.... سلمك الرب، المهم أنك بخير، أما الحليب فعوضك على الله، دعني أساعدك، انهض باسم الرب.
أمسك عمر بيد أبي جريس وأسند جسمه إليه، ثم نظر من حوله كأنه يبحث عن شيء ما، مدّ يده إلى نافذة المقام جاءت بيضاء من غير سوء، مشياً حتى عبرا الزقاق باتجاه بيت عمر، قرع أبو جريس الباب فتحت الست فاطمة، وما كادت ترى أخاها مستنداً إلى كتف أبي جريس حتى صرخت بصوت مرتعش:

- خير، ماذا حدث لأخي.
- بأمر الله يا ست فاطمة هو بخير، لا تخافي، ما شاء الله، مثل الحصان، يبدو أنه تعثر وسقط على الأرض.

نظر عمر إلى أخته طمأنها ببعض كلمات، التفت إلى أبي جريس، شكره ودعاه لتناول طعام الإفطار، اعتذر الرجل وعاد إلى طريقه.
بدا عمر شارد الذهن، لم يستلق تحت شجرة التين، لم يغف، ولم يستمتع بأحلامه البسيطة كعادته، يكاد لا يصدق ما رأى وما سمع فجر هذا اليوم، هل حقاً خرج له الشيخ ربحان... بشحمه ولحمه، يجب أن لا

أطلع أحداً على ما حدث، قال لنفسه، سيظنّ الناس أني أهذي، بل ربما ظنّوا أني جُننت، لكن ماذا علي أن أفعل، وهل ستركني الشيخ لحالي، وقد طلب مني أن أبحث له عن مجده الذي ضاع، أين سأبحث عنه وأين سأجد هذا المجد ولماذا أنا لماذا أنا يا شيخ ريجان، وهل أستطيع، وماذا لو كان مجد هذا خارج البلاد فعلاً، كيف أبحث عنه هناك، وأنا الذي لم يغادر القدس يوماً، ثم إن استطعت، كيف لي أن أعود به، هل يعبر مجد من حدود؟ هل حدث هذا يوماً، ثم ماذا لو كان ميتاً... لا.. لا كما قال الشيخ، لو كان ميتاً لعلم أولياء المدينة، الأموات كالأحياء يلتقون، وربما يتحدّثون ويتسامرون، من يدري، إذاً ما العمل وماذا علي أن أفعل، أي مجد هذا الذي سأبحث عنه، وقد غادر أهله الحي منذ زمن بعيد، وما عاد لهم وجود، لا يعرف أحد أين ذهبوا، توفي الشيخ نامق ومجد ولده الوحيد، من سوف أسأل، ثم إن مجد هذا اختفى بصورة مفاجئة، ولا أحد يعرف أين ذهب، إذاً ما العمل، من أين أبدأ، وهل أبدأ، أم أنسى كل ما حدث وأعود إلى حياتي كأن شيئاً لم يكن؟ أجل.. أجل... ربّما كنت أهذي، بل ربّما جُننت فعلاً، وما من شيخ، وما من مجد وما من مقام، ربّما أن كل ذلك وهم....، يا إلهي رأسي يكاد يتفجر، أكاد أجن، آه...آه... ماذا عن الحليب، ماذا عن الزبائن، لعنة الله على... كدتُ أنسى نفسي،... لولا أبا جريس لبقيت طريح الأرض حتى أفاق الناس، يجب عليّ أن أذهب بالحليب لزبائني، تأخرت على الصغار وسوف يُوبخني الكبار.

هكذا حدّث عمر نفسه قبل أن يطلب من زوجته أن تُحضر له دلة حليب أخرى، كانت زوجته هدى في تلك اللحظة، تطارد طفلها الصغير صابر، الذي خطف بيضة من تحت الدجاج ووضعها تحت السرير ثم وضع عليها وسادة ولحافاً وغطاها بطنجرة، أرادها أن تفقس

له كتكوتاً صغيراً فوراً، صرخت الزوجة، عليك به يا عمر لقد خطف البيض، وقبل أن يجيئها عمر، تقدمت أم عمر بوجهها الأجدع وبنيتها القوية وشعرها الأبيض، وعيونها الصافية التي يُطل منها بريق حزين ونظرة تدل على بساطة وحكمة، ومسحة من جمال لم تطوِّها السنين، تقدمت منها وقد لاحظت شرود ذهن ابنها عمر، سألته:

- خير إن شاء الله يا ولدي، لماذا عُدت متكتاً على أبا جريس.

- خير.... يا أمي، ليس من شر، تعثرت قدمي ووقعت أرضاً.

- دعني أدعك رجلك بزيت الزيتون لن تشعر بأي ألم بعد ذلك.

- لا تقلقي يا أمي لا اشعر بأي ألم، أنا بخير.

أدارت الأم ظهرها وقد اطمأنت على ولدها، أمسكت بيد الطفل صابر برفق، طلبت منه أن يُعيد البيضة إلى مكانها تحت الدجاجة، وقالت:

- يا ستي، علشان تفقس البيضة وتصير كتكوت، لازم تبقى تحت الدجاجة وقت كافي، إذا أخذتها من تحت الدجاجة يا ستي عمرها ما بتصير كتكوت، فلكل مخلوق رسالة، ولكل شيء أوان وحضن ومكان قال عمر وكأنه يُكلم نفسه، وقد أنصت إلى كلام أمه:

لكل مخلوق رسالة، ولكل رسالة أوان. انتهت الزوجة لحال زوجها، وثيابه التي بللها الحليب، وشرود ذهنه وتمتماته، سألته عن حاله وملابسه المبتله بالحليب، زجرها قائلاً:

- يا امرأة ألم تسمعي؟ لقد وقعت أرضاً.

ثم طلب منها أن تُجهز دلة حليب أخرى على عجل بدل الذي أريق على الأرض، وحتى لا يطول انتظار زبائنه، حمل الدلة وخرج من البيت متفادياً المرور بجوار مقام الشيخ ربحان، أخذ طريقاً آخر من الناحية الخلفية للزقاق مقابل دير العدس، حتى لا يجد نفسه مرة أخرى أمام الشيخ الذي نفذ صبره وهو يبحث عن مجده الضائع.

عيون الحتمة

تصحو المدينة كعادتها على مهلٍ قدسي كسول، لكنها سرعان ما تعج بالحياة، هواء نيسان هَفَّاف بارد في الصباح، لكنه لطيف في النهار، يتصاعد في الأنحاء عقب دخان خفيف لخطب الكينا الممزوج بطعم السمسم، رائحة الكعك المخبوز آتية من فُرْن أبي رباح في عقبة درويش، هنا لا معنى لنهار خال من كعكة بالسمسم تُوحد فئات المدينة على مائدة الإفطار، فقراءها وأغنياءها.

استيقظ عيسى صبي الفرن باكراً جَهَّز بيت النار بينما ما زال الليل يلف جسد المدينة، كان أبو رباح قد أدى صلاة الفجر حاضراً بالمسجد الأقصى وعاد إلى فرنه، خلع قُمبازه عن قميص من المنصوري الكالنج وشمر ساعد العمل، أحكم ربط دكة شرواله الأسود الفضفاض، نزل إلى جورة بيت النار، تناول الكناسة ذات الشراشيب الطويلة، غمرها بالماء من حوض صغير إلى يساره، ثم دفعها مرة تلو أخرى، حركها فوق الأرضية الساخنة من طرف إلى آخر حتى تأكد من نظافة مرقد العيش، إلتفت إلى يمينه، تناول كمشة من طحين نشرها فوق بلاطة الرق، ضرب كفا بكف ونثر كمشة من السمسم فوق الطحين، إرتشف بعض الماء الطاهر من إناء أمامه، بخه فوق نثار السمسم وَرَقَّ بخفة قطعة من العجين المكور، دَوَّرها بعناية ثم وضعها فوق كفة الزانة الخشبية المستندة بذراعها إلى طرف الجورة الخلفي، رَقَّ قطعة أخرى من العجين المكور وبخ فوقها الماء، وضعها فوق الزانة وأتبعها بثالثة ثم

رابعة، رفع الزانة، دسها داخل بيت النار وسحبها وهو يميل بحافتها ناحية الجمر المشتعل بمهارة، فانزلت كعكات السمسم صفاً فوق البلاط الساخن، وسرعان ما تنفست ونفخت صدورها، دس أبو رباح كف الزانة من تحتها، رفعها بخفة بعيداً عن وهج الفود⁸ مبدلاً صف بصف، احمرت وجنات الكعك، سحبته خارج بيت النار وألقى كعكة تلو أخرى في طرحة طويلة من خلفه.

وقبل أن تمدّ خيوط النور ضيائها على بوابة الفرن، كان عيسى وعدد من باعة الكعك قد صفوا الكعك بطرحاتهم وانتشروا في أحياء المدينة، تصدّح حناجرهم بلكنة مقدسية: "كعيك سخون" مع مدّ الياء بكلمة كعك ومدّ الواو بكلمة سخون بشكل مميّز، قال عيسى لأحد زبائنه من زوار المدينة: تذوق هذا الكعك بالسمسم أيها السيد، لأنك لن تجده في أي مكان آخر، إنه واحد من أسرار القدس الكثيرة، مهما حاول الناس تقليد صناعته خارج القدس، وإن استخدموا نفس المكونات فلن يحصلوا على المذاق نفسه.

عند يسار المدخل الشمالي لباب خان الزيت من ناحية باب العامود، ألقى عمر تحية الصباح على عيسى صبي الفرن بائع الكعك، وتناول على عجل كعكة بالزعر المملح ثم واصل طريقه نحو دكان أبي فؤاد الهدمي بائع الأجبان عند مدخل السوق بجوار جامع الشوربجي، سلمه دلة حليب كبيرة، وأكمل طريقه إلى السوق كعادته، ناول أبا جمال شاور بائع المشهيات عند مفرق حارة النصاري دلة حليب أخرى وتابع سيره، بدأ الصبح يفرد جدائله الذهبية في الأنحاء وبدأت الفلاحات

القادمات من القرى المجاورة بأثوابهن المطرزة البديعة وشالاتهن البيضاء الملائكية الساحرة، ينتشرن في غير مكان من السوق، كُنَّ يحملنَّ على رؤوسهنَّ أسفاط الخضروات والفاكهة التي عملن في زراعتها موسماً كاملاً، وسهرن ليالي ليحضرنها إلى السوق طازجة شهية، فردت أم ناصر القادمة من قرية قطنّة شمال غرب القدس سفت الباذنجان الأسود، إلى جوارها افتشرت أم جعفر القادمة من قرية سلوان بسفت البقدونس والنعناع والفجل البلدي الأرض، نهرهما أبو وليد البيتوني بائع الخضار، وطلب منها أن تأخذ زاوية الطريق حتى لا تسد بأسفاطهن بوابة دكانه مقابل معصرة اللداوي، لا يشغل بال المرأتين سوى إرضاء أبي الوليد بكش الذباب عن بضاعته كما عن بضاعتهم كي تحففا من وطأة المنافسة التي يشعر بها تجاههما. أما أكبر هم أم ناصر فكان كيف توفر من مدخول أسفاطها تلك بعد أن تلبى طلبات صغارها الثمانية، بعض النقود وتُحرّز عليها، حتى يعود ولدها ناصر في إجازة الصيف من الدراسة في الأزهر الشريف ويحمل معه عند رجوعه إلى هناك الزيت والزعر والقطين، وأمنيات أمه وأهل بلدته، والنقود التي صمّدتها له والدته لعام دراسي كامل. وما كان هم أم جعفر مختلفاً سوى أنها كانت قد فقدت إحدى عينيها وهي تدود عن زوجها، عندما دهم جند التاج البريطاني بيتها في سلوان عشية أحداث النبي موسى. شيئاً فشيئاً بدأت الحوانيت تفتح أبوابها وبدأ السوق يعج بالناس، تعالت أصوات الباعة تندح بسيمفونية السوق اليومية، تنادي للباذنجان البتيري وريحوي أبو نملة يا موز، وخليلي يا عنب، يافاوي يا برتقال، وحمرة يا حدود الست. لم يشعر عمر بجمال هذا الصباح، وهو يطبعُ على وجه المدينة لوحة

لمجد الحياة تدب في كل مكان، توافد الناس من كافة أبواب المدينة وحاراتها، نساء بأثوابهن المطرزة بهية الألوان، رجالاً بكوفيات بيضاء وقنايز الروزا والعباءات المندشرة من أطرافها بخيوط ذهبية، وآخرين بجلايب مرتوقة وأثواب ومُسوح بالية، وبعضاً من سادة وأعيان المدينة بطرايشهم الحمراء ومنشاتهم البيضاء تفح منها روائح العطر وندح العيش بينما يتدافع من حولهم أطفال بأقدامهم الخافية، وسراويلهم المرقعة ودشاديشهم وصدورهم العارية أحياناً وابتسامة شفاههم الموصولة إلى قلوب بريئة.

ما زال الندى رطباً نئشَ التتح⁵⁹ على حجارة الطرقات، هنا إلى اليمين معصرة الحاج حلمي الطزيز، وإيقاع أقدام تراقص لزيج الكسبة ورائحة السمسم، وهناك رائحة الزعر والتوابل تتضوع من دكان العم شنار الغاضب على الدوام من العرب والانجليز واليهود وباقي الأنام، وثغاء شياه وأخرى معلقة على الكلابات في ملحمة بن يحيى، صاحب البسمة التي لا تزول، وعربات تحمل ما لذ وطاب من فاكهة وخضروات، صواني البُرمة والبِقلاوة والكنافة في صدر الطريق، وبائع العوامة والزلابيه يحمل بيمينه ملعقة صغيرة وتقبض يساره عجنته البيضاء الطرية، يحرك يديه كأنها تتراقصان مع رذاذ الزيت الساخن المتطاير من القدر الكبير، كرنفال مقدسي، هو متعة الحياة التي تعودها عمر، لكنه اليوم لا يشعر بروعة هذا المشهد الخلاب لنشوة الحياة تدب في السوق، كان مأسوراً بها شاهد وسمع من الشيخ ربحان، طفا على سطح أفكاره أن يزور كل أولياء المدينة، الشيخ مكي، والقرمي

والشيخ حسن، عله يتأكد أنهم نائمون في مقاماتهم، لا يخرجون منها ولا يحدثون المارة عن أمجادهم الضائعة، عاد أدراجه مروراً بعقبة الشيخ ريحان ومقامه من جديد، أراد أن يواجه خوفه وضعفه وحيرته القاتلة، تقدم بخطى متسارعة، اقترب من بوابة المقام، قرأ الفاتحة وقال السلام على ساكن المقام، جهَّز نفسه لكل طارئ، وأغلب ظنه أن الشيخ سيرد عليه السلام، أحسَّ بثقل اللحظة، ساد صمت عميق، أبطأ الخطى علَّ الشيخ يفتح الباب ويأتيه من تحت خط الضياء بصوته الذي يفهق ستار الزمن، إنتظر برهة من وقت... ما من طلة ولا صوت ولا إجابة، لا مكان في حيِّز واحد لزمنين في آن معاً، واصل سيره باتجاه عقبة شداد، ماراً بالخوانيت وأفران الحطب والبيوت المتلاصقة بحجارتها القديمة ونوافذها المطلة على الطريق، كان يسمع أحياناً صوت طفل يُلقِي عليه السلام، وأحياناً يقف مع أحدهم لتبادل أطراف الحديث، حرص على أن يُلقِي التحية على كل من يلقي في طريقه حتى لا يظنَّ الناس به الظنون، وصل إلى مفترق يهبط بزقاق ذي درجات طويلة من عقبة شداد إلى باب حطة، عند منتصف الدرج توقف أمام مقام الشيخ حسن، سلَّم على ساكن المقام، أشعل عند النافذة شمعة صغيره، قرأ بسرّه فاتحة الكتاب، قال لنفسه: ساحك الله يا شيخ ريحان، ألا ترى كيف ينام الشيخ حسن في مقامه بسلام، لا يتجول في الطرقات ولا يزور البيوت ولا يُحدثُ المارة، لم نسمع من أحدٍ يوماً أنه اعترض طريقه، أو طلبَ زيتاً أو شموع، قال في سرّه لا حول ولا قوة إلا بالله. تابع سيره شهلاً باتجاه عقبة حب رومان، وفجأة سمع صوتاً ينادي:

- عمر.... يا عمر، أقبل إليّ، أين أنت يا رجل؟

للوهلة الأولى ظنَّ نفسه قد سقط في شباك صباحه الحائر، معتقداً أن

الشيخ حسن خرج عن صمته الطويل وعزم على ما فعل الشيخ ربحان، التفت خلفه مرتباً، تنفس الصعداء إنه أبا يحيى بائع الحمص في باب حطة، صديقه القديم الذي رافقه الدراسة في كُتاب المدينة، حمّد الله فالشيخ حسن ما زال راقداً في مقامه، أصرّ الرجل على عمر أن يتناول عنده صحناً من الحمص أو الفول، حاول عمر الاعتذار، لكنه خضع لإرادة صديق لحوح، أخذ عمر مقعده داخل محل ضيق بالكاد يتسع لثلاثة مقاعد من القش، اصطفت أمام رف من الخشب مثبت إلى حائط تتلطح جدران به سبخام من السواد وتحجب ستارة قائمة عنه نور النهار. أدار أبو يحيى وجهه حيث يجلس عمر، بينما كان يقبض على مدق خشبي يضرب ويهرس ما في طاسة من نحاس، وهو يميل برأسه ذات اليمين وذات الشمال مع حركة المدق، تخطى مقلاة الفلافل الكبيرة الممتلئة بالزيت الساخن، وضع طاسة الحمص على الوجاق، دقّ بالهاون بعض الثوم، وقال لصبيه وهو يرفع أقراص الفلافل:

- ارفع البؤش.

وتابع وهو ينظر إلى عمر:

- زارتنا البركة أهلاً بعمر، منذ مدة لم نرك يا رجل.

ثم سكّب ملعقتين كبيرتين من الحمص في صحن من الفخار، دوره بالمدق الخشبي وحزّ حواف الصحن بإبهامه، أضاف إليه تبيلة الثوم والليمون ورشة كمون، ووضع الصحن وبعض التصليحة وأرباع الليمون أمام عمر، أخذ عمر قطعة كبيرة من رغيف خبز طازج مخروم ومزين بالقزحة "حب البركة"، دغبل القطعة وغمسها بأربع أصابع منفرجة دبلها، وردّ على سؤال أبي يحيى بصوت ثقيل بينما كان يزدرّد الطعام:

- مشاغل يا صديقي العزيز، مشاغل.
دفع إلى فمه ربعاً من الليمون، تَحَلَّبَ فمه، هَزَّ رأسه، وأغمض عينيه
مُتَلَزِحاً، بينما قال أبو يحيى:
- زارني هذا الصباح أستاذنا الشيخ إسلام شيخ الكتّاب، تناول فطوره
لديّ وسألني عنك.

ما إن سمع عمر باسم الشيخ إسلام، المعلم الفقيه، حتى كادت اللقمة
تقف في حلقه، وقد خطر له أن الشيخ العالم هو ما كان يبحث عنه
لخلاصه من حيرته، قال لنفسه: لا بد أن لدى الشيخ إسلام أجوبة لما
حدث معي، فهو عالم فقيه، صاحب تجربة كبيرة ومعرفة واسعة، نهض
مسرعاً مبتسماً وكأنه وجد ضالته، قال لنفسه:
ليس سوى الشيخ إسلام. اقترب من أبي يحيى قَبْلَ رأسه وخرج على
عجل.

قال أبو يحيى:

- ما بك يا رجل إلى أين تذهب؟
أجابه وهو يهيم مغادراً:

- لاحقاً أشرح لك الأمر يا صديقي، أشكرك على الفطور.
فجأة تمايل نور ذبالة في بنورة من غير سراج خلف ستار قاتم، ما كاد
عمر يدفعها عنه حتى ذوى نورها، توقف برهة كاد يسأل أبا يحيى عن
مصدر الضوء لكنه غادر على عجل متوجهاً من عقبة حب رمان في
طريق مختصر، عبر حي البسطامي، ثم إلى حارة السعدية ومن هناك
إلى زقاق البوس نزولاً إلى كتّاب الشيخ لولو يسارا من مدخل باب
العامود، وهو كتّاب القدس الكبير، حيث يُدرّس الشيخ إسلام في
ساعات الصباح، دخل عمر من البوابة الكبيرة المؤدية إلى ساحة

الكُتاب، جلس إلى المسطبة التي تتوسط الساحة، نظر إلى الأطفال الذين يفتشون الأرض، كانوا يتلون آيات من القرآن الكريم بصوتهم الجماعي، تذكر عمر السنوات التي قضاها في هذا الكتاب، هنا بقرب البوابة الكبيرة زير الماء الضخم الذي يتشعبه الصغار صباحاً لإفراغ ما بزق كل منهم من ماء، يغطي الزير صحن من الفخار تتدلى منه كيلة الشرب مربوطة إلى سلسلة من الحديد، وإلى يسار الباب صندوق كبير يُلقي به الأطفال أرغفة الخبز وأقراص البيض ومناقيش الزعتر التي يحضرونها من بيوتهم، وقرب مداخل الغرف الحاجز الخشبي القصير حيث يخلع التلاميذ نعالهم قبل دخولهم إلى غرف الصف المفروشة بالحصير، إنتظر حتى أنهى الشيخ إسلام الدرس وخرج إلى الساحة، تقدم عمر من الشيخ، ألقى التحية، وانحنى على يده قبلها قائلاً:

- السلام عليك يا شيخنا الجليل.

رفع الشيخ إسلام يده وقال مُرحباً:

- مرحاً بك يا عمر، منذ زمن لم نرك، أرجو أن تكون قد أحضرت لي بعضاً من الجبنة المغلية واللبن الرائب.

- سامحني يا أستاذنا الشيخ، لقد حضرت إليك على عجل من أمري، بإذن الله سأرسل لك ما ترغب قبل مساء هذا اليوم.

- إذاً ما الأمر يا ولدي، أراك متوتراً ومرتبكاً، ارفع رأسك لماذا تنظر إلى الأرض، ما بك لماذا ترتعش؟

- أنا بخير يا سيدنا، أريد أن أستشيرك بأمر مهم حصل معي هذا الصباح، ولكن أرجو أن لا تسخر مني.

- لا يكون لمعلم أن يسخر من تلميذه وإن فطفت، حدثني بما جرى بهدوء ودون انفعال.

ترجع الرجلان إلى المسطبة وسط ساحة الكتّاب، قصّ عمر على أستاذه ما كان من أمر الشيخ ريجان، ابتسم الأستاذ الشيخ بهدوء وربّت على كتف عمر، وقال:

- لا تقلق بني، بإذن الله ستكون بخير، قل لي: هل هناك أية علاقة بينكم وبين عائلة الشيخ نامق رحمه الله والد الفتى مجد؟
- ما من شيء خاص يا سيدنا، لكن أهل المدينة كما تعلم عائلة واحدة كبيرة رغم اختلاف طباعهم، مع ذلك ليس بيننا قرابة أو نسب أو خلطة عن قرب، كنت أحمل لبيتته الحليب مثل كافة عائلات الحي.

- وماذا عن مجد هل من شيء خاص؟
- لا... لا شيء خاص، كان أحياناً يأتي إلى بيتي لشراء الحليب في صباه، عندما كان الشيخ نامق يطلب من زوجته أن تصنع له المهلبية ليلاً.
- إذاً، اسمعني جيداً يا عمر، أنت رجل عاقل وقد أمضيت عندي في هذا الكتّاب سنوات عديدة، درّست كتاب الله وعلوم الدين، ومع أنك انقطعت عن الدراسة مبكراً، إلا أنك صاحب عقل راجح مُتزن لا علة فيه ولا عتّه.

اعلم بني أن للمكان ذاتاً مثل ذات الفرد وذات الجماعة، وهناك ثلاث طرق يمكن للمرء فيها أن يفهم مكنون ذاته وذات جماعته وذات المكان الذي ينتمي إليه، الأولى أن يمتدّ إلى خارج هذه الذوات الثلاث، عندها لن يدرك من أي منها إلا ما يرى، والثانية أن يمتد إلى داخل كل منها، فلا يدرك إلا هواجسها وغرائزها ومخزون كراكييها، أما الثالثة فهي أن يُقدر بوعي العلاقة بين الذوات الثلاث داخلها وخارجها، ويغسّف عنها أسرار التماهي الذي يسبر معنى الكينونة، وهي القدر الممزوج من عجين الروح ومكنونات الذات فرداً وجماعة ومكاناً، وهي ما جبله الله

في كل واحد منا، من فطرة تمتص روح الجماعة وروح المكان وتنصهر فيهما.

فكما للمكان سطح يمكن ملاحظة ملامحه وأشكاله دون كثير من عناء، فإن لذات الفرد وذات الجماعة والمكان داخلاً ليس من اليسر دائماً ملاحظته أو فهم مكنوناته العميقة، إن مدينة فريدة مثل القدس لها ذات غنية بغنى الحضارات التي شكلتها، وليس لمن ولد وعاش فيها في أي حقبة من زمن إلا أن يمتد هذا الغنى إليه ليصبح جزءاً من ذاته وهويته وجوهر كينونته.

إن مدينة تعبق بأنفاس الملائكة والأنبياء، وتفيض بنور الحضارات وتعج ذاكرتها بأهوال وخطوب، لها روح وذات وكينونة، تحب وتكره، تقبل وترفض، تُظهر وتُخفي، تصبر وتثور.

- يا سيدي قد أفهم أن القدس جزء من تكويني ومن شخصيتي ومن هويتي، لكن ما دخل هذا بقصة الشيخ ربحان معي؟

- ليس في الأمر سوى ما قلت، بداية عليك أن تعلم يا بني أن الأموات لا يخرجون من قبورهم أبداً إلا يوم يبعثون، وأن الأموات لا يتجولون في الطرقات، ولا يتحدثون مع الناس، إن ما يعتقده البعض من حديث الأموات معهم ما هو إلا حديث الأحياء لأنفسهم، حين تضيق بهم سبل الحياة، يتحدثون أنفسهم عما يُقلقهم أو عما يرغبون في تحقيقه، علّ ذلك يُخفف من قلقهم وتوترهم، أو يأتيهم بحلول لمصاعب تواجههم، أو هموم تثقل عليهم دون أن يُسعفهم وعيهم المباشر للتعامل معها، وإذا كان الشخص سوياً، فإنه غالباً ما يفعل ذلك أثناء نومه، عن طريق أحلام يراها، ذلك إن استثنينا الرؤيا، فهي أمر مختلف لا مقام للخوض به الآن، أما إذا كان الشخص عليلًا لا قدر الله، فإنه يتخيل في نهاره

وليله وغفوته وصحوته، ويسمع ويرى ما هو غير موجود، وليس من الواقع ولا من الحقيقة في شيء، إنه الوهم والتخيل حيناً، والتقمص والفصام والتصور حيناً آخر، حين تلبس الأوهام ثوب الحقيقة. اسمع يا بني أنا أعرفك منذ زمن بعيد، ولا أعتقد أنك تشكو من علة ولا تحتاج مني ولا من غيري أية رقية أو علاج، إن ما حدث معك فجراً هو أحد احتمالات ثلاثة، الأول أن هناك من أراد أن يمازحك ويلهو معك وتقمص شخصية الشيخ ريجان، وإذا كان هذا هو الأمر فسرعان ما سيعلم لك هذا الشخص عن نفسه، إن كانت نيته المزاح فقط وليس إلحاق الأذى، والاحتمال الثاني أنك لا قدر الله تعاني من علة الوهم أو الفصام، حيث يرى ويسمع البعض، خاصة في مثل سنك، ما هو غير حقيقي وغير موجود، وأنا أستبعد هذا الاحتمال لمعرفتي السابقة بك، ولأن عوارض علة كتلك لها مؤشرات لا شك أن مثلي كان سيلحظها عليك لو وجدت، أما الاحتمال الثالث، فهو أنك كنت ضحية وعيك وموروثك والعتمة، لأنك تمتدُّ من حيز الذات إلى حيز المكان باتجاه واحد.

كان عمر يستمع باهتمام للأستاذ الشيخ، لكنه شعر أنه يزداد حيرة كلما تعمق الشيخ في التحليل، ربما لأنه قد ألف الحياة الرتيبة البسيطة التي أصبحت جزءاً من ذاته، أو لأنه كان يبحث عن إجابة أكثر سهولة للسؤال الذي سلبه رتابة حياته التي اعتاد، ومع ذلك لم يجد سوى أن يتبع الشيخ، خاصة أنه أتى إليه بنفسه مؤملاً وراجياً، لذا قال:

- ماذا تقصد يا سيدنا بأنني ضحية وعيِّ موروثيَّ والعتمة؟
- اعلم بني، أنَّ لا حقيقة في الظلام، نحن عادة نخاف المجهول، والعتمة كالمجهول، تحجب النور، وتخفي الواقع والأشياء، أنت تعلم

أن المدينة وأزقتها تدخل في ظلام تام أواخر الليل بعد أن ينفد زيت القناديل، خاصة في الأزقة المسقوفة، وأي همسة أو حركة في الظلام توقظ عيون الموروث، أي أنك لا ترى بعينيك الحقيقتين، وإنما ترى بعقلك المسكون بالموروث، والموروث هو كل ما اختزنه العقل من معرفة مرتبطة بثقافة بيتك، حتى بعض الحقائق الرتيبة المملة التي تُحفز الخيال، مع كل ما سمعناه من الآباء والأمهات والأجداد والجذات من قصص، واقعية كانت كقصص الأولياء، أو قصص الجان باعتباره موروثاً معرفياً دينياً يقينياً مسلماً بوجوده دون أن نراه، أو من قصص وحكايات من نسج الخيال، ومع الزمن امتزجت وتفاعلت محتويات الموروث داخلنا مع معطيات الواقع ومنتوج الفكر والخيال، حتى ضعف التمييز بينهما عند البعض، والوعي يا ولدي هو ملكة التمييز لدى الفرد، وبقدر ما يتمكن وعي الفرد من التصدي لعيون الموروث السابحة في غمار العتمة والخيال، بقدر ما يتجاوز المرء لحظات العتمة بسلام، لذا تجد عيون العتمة أكثر فاعلية عند الأطفال، لأن الموروث لديهم طري وحاضر، أما الوعي فهو ضعيف وغائب، والعتمة لديهم لصيقة الخوف والوهم والخيال، فأقل صوت أو حركة في الظلام توقظ لديهم عيون الموروث، ولا يرون إلا بواسطتها.

عليك أن تعلم أيضاً أن المرء مهما بلغ من وعي وعلم وثقافة، تبقى لعيون العتمة والموروث سطوة عليه، وإن تفاوتت درجاتها، لأن هذا الموروث المخزن جيداً في العقل كان قد تكوّن في مراحل مبكرة من عمر الإنسان، وترابط بالشرط مع لحظات الخوف والرغبة، وامتزج معها حتى بات الفصل بين الفكرة ومكوناتها اللفظية أو الصورية أو الحسية أو الشمية ومصدر الرغبة والخوف مستحيلاً، ناهيك عن قدرة

هذا الموروث المختزن عميقاً في الذات على الفعل والتأثير بشكل خفي أحياناً دون شعور الفرد بذلك، وهذا قد يفسر حالتك.

حاول عمر إيقاف الشيخ عن الحديث متعذراً بالاستفسار عن بعض الأمور، فقد صعب عليه فهم الكثير مما قاله الشيخ، إلا أن الشيخ تابع حديثه وكأنه يُقدم درسه اليومي في جمعٍ من الطلاب على إحدى مساطب الدرس في المسجد الأقصى، قال:

- ثم عليك أن تعلم، ليس كل الموروث عيناً للعتمة والوهم والخيال، وليس كل الموروث سالب المحتوى وضالاً، بل إن الموروث هو أحد أركان المنظومة الفكرية للفرد، بمكوناتها الروحية والنفسية والاجتماعية، وهو ضروري لوجود التوازن بين القوى المادية والروحية، يمكنك أن تقول إن الموروث هو المحتوى، أي ما احتواه العقل، ظاهره وباطنه طبقاً لقول الله جل وعلا، "يعلم الجهر وأخفى" وأن الوعي هو ملكة التميز والاختيار، طبقاً لقول الله جل في علاه في أكثر من مقام "تفكروا"، وبينهما أداة للحكم لتحديد الخير والشر، طبقاً لقول الله تعالى "وهديناه النجدين"، ويجب أن تُدرك أن العتمة والموروث والوعي مكونات لقانون لا ينطبق على مدينتنا وأمتنا فقط، وإنما هو قانون عام لكل البلاد والشعوب والأمم والأفراد، لكنهم عاجلوا عتمتهم، وتغلبوا عليها، وامتدّوا داخل وخارج ذواتهم وأعماق أنفسهم في حيز المكان بوعي واتزان، أطفأوا بالعلم والمعرفة السالب من عيون موروثات الوهم لديهم، واستبدلوا بطاقات الخيال والإبداع، فأضعفوا سلطة الوهم، وأعلوا من شأن ملكة التمييز، حتى أصبح العلم عندهم هو رسول الحقيقة، لكنهم غالوا بذلك بعض الشيء، فتعالت أهمية القيم المادية على الروحية.

أخيراً يا ولدي، عليك أن تعلم أن الوعي يضل أحياناً، فيكون أشدّ عمى من عيون الموروث، وعليك الآن أن تُحدد، هل ضلّ موروثك فأضلك، أم ضلّ وعيك، فأعماك؟

ما إن انتهى الشيخ الأستاذ من حديثه المُطبّب ومن درسه المطوّل، حتى انتبه إلى عمر يجلس القرفصاء، وقد غلبه التعب وربما استعصى عليه الوعي، فشدّ على رأسه يديه كلتيهما، هزّه يميناً ويساراً، وقال:

- عفواً يا سيدنا، يعني باختصار خلاصة القول أنني إما عليل مريض، أو واهم ضال، أو أُنّي تعرضت لخداع أحدهم فجرّ هذا اليوم.

- لا يا بني ربما ليس كل ذلك، خلاصة القول أنك ربما تلقيت رسالة من داخلك، من نفسك أنت، من ذاتك، وليس لك الآن سوى أن تمتد إلى أعماق روحك وزمنك ومكانك، لتدرك غاية وجودك وأين تقف منها ومما أنت فيه.

قال الشيخ الأستاذ بهدوء، ثم نظرَ إلى عمر بثقة، وتابع بحسم:

- اسمع يا ولدي، لا حاجة لك بمجد الشيخ ربحان، ابحث عن مجدك أنت، أو مجد شيء تحبه وتعظمه وتُعلي من شأنه، أما الشيخ ربحان فقد صنع مجده ومضى.

الشيخ عبد

ودَّعَ عمر الشيخ إسلام كدرًا مهمومًا أكثر مما كان عليه، مضى على غير هدى حتى وجد نفسه يجلس على كرسي من خشب البلوط مدور القوائم في مقهى الباسطي في حي الواد، كان فرحات^{٦٠} عامل المقهى ينزوي وبن يحيى اللحام خلف الوجاق، إلى يمينه جلس أبو إبراهيم بائع الخضار، وعينه الوحيدة على بسطته أمام مستشفى الهوسبيس، أما الأخرى فكان قد فقدوها في أحداث ثورة البراق، ومع ذلك لم يكن بوسع أبي عبود الهندي المكوجي، الذي جلس قبالة على طاولة قصيرة القوائم، أن يغلبه في لعبة الداما، كان أبو إبراهيم يقبض بيساره على قطعة الستة ترس الأخيرة من حجارة الداما، بينما يرفع أربعة أحجار أخرى معاً بيمينه يقربها من عينه ويحكها بحدة، يعدُّ ويحسبُ ويقرر أن يغلق على عبود قطب اللعبة الأخير، ثم يقرر وأنفاسه تصفر مثل قاطرة يافا، وصدره يعلو ويهبط نشوة، ويقول:

- راحت عليك يا صديقي، ما ظلَّ أمامك أي مهرّب، تربستُ عليك الأبواب مثل ما عملنا "بهدولاك أخوات الشليته بحارة المغاربة". إلى جوارهما جلس رجل مُحمر الوجنة، صفعته أشعة شمس لم تمنعها عنه برنيطته الغريبة، تلفتَ مذعوراً من قهقهات أبي إبراهيم، وما إن أدرك مغزى ما يدور حوله حتى سحبَ بغرور واشمئزاز نفساً من

٦٠ عبد القادر فرحات، أبو محمد السدمير أحد أعضاء فرقة التدمير

غليونه الأسود، ثم نفث من فمه سحابة دخان عجت منها الأجواء واحتوت سحابات التن التي انبعثت من سجائر وأراجيل رواد المقهى، نَفَصَ قدمه بقوة من قرصة بعوضة أسفل بنطاله الكاكي القصير، بينما ضرب جليسه وهو عجوز ذو بشرة شقراء بمنشته سطح الطريزه، أثار صوت الضربة المفاجئة، رساماً شاباً وضع إطاراً من الكرتون الأبيض على ركبتيه وخط بقطعة فحم آخر لمسة في لوحة لشارع الواد، بيوته المقبية وحوائيتها ذات الأبواب الخشبية، ولنحت يجسد سيد المدينة يرزح مثقلاً تحت الصليب فوق بوابة الكنيسة الأرمنية الأنجليكانية، وبعض صبية يلهون تحت نقش للوالدة العذراء تشير إلى المدى المفتوح قرب المرحلة الرابعة، وقف هناك ثلاثة من الجنود الإنجليز، تقدم أحد الرجال من الرسام الشاب، دقق في اللوحة بإعجاب، ثم نظر إلى المشهد أمامه، وسأل:

- لماذا لا يظهر الجنود قرب الكنيسة في اللوحة؟

أنا لا أراهم قال الشاب الرسام، إنهم خارج المشهد وليسوا جزءاً منه، أتم الشاب لوحته، نظر إلى الخلف حيث الصوت المفاجئ، هز رأسه استنكاراً، بدا أجعد الشعر، غير أنه منمش الوجه كأنه يضع شعراً مستعاراً، التفت ناحية عمر، ابتسم عمر ابتسامة ذات مغزى ونهض، نظر إلى اللوحة كان في أعلى طرفها خيال ذبالة كاد يترنح نورها تشع من بنورة من غير سراج، تقدم عمر من الرسام وهم بالسؤال، غير أن الرسام الشاب كان قضى مضى.

- بعد ساعات قليلة ضجت أحوال المدينة عندما قامت مجموعة من فرقة التدمير بعملية جريئة قُتل فيها الجنود الإنجليز الثلاثة قرب الكنيسة.

ابتسم عمر، لكن ليس للرسام الشاب الذي مضى إلى شأنه المعتاد في حي الواد وعقبة الخالدية من دون أن يتبته له عمر، بل لرجب الفتى السمين قصير القامة، فطى^١ الهيئة بعيونه الغائرة حتى عظام الوجه، مرّ بالجوار بعض جنود يصوبون فوهات بنادقهم إلى الأعلى ويتلفتون يمنة ويسرة، قال أحد الصبية لرجب: "أعطي واحد....، أعطي واحد...."، قهقهه رجب حتى اتسعت فتحتا أنفه، صَمَّ قبضته، رفعها إلى طرف فمه ونفخَ فيها، صَرَقَعَ صوتٌ كصوت الضراط فذهب بسحابة الغليون، وأثار دعر الجنود وصاحب البرنيطة من جديد، زَمَّ صاحب المنشة شفثيه متأففاً مستنكراً، بينما جلس الشيخ عبد هناك وسط المقهى منذ عدة ساعات، يتأمل سقف المكان دون همسٍ أو كلام، بديايته المُرْقطة ونثار من قشرة شعره الأبيض المنفوش على كتفيه، غرف من علبة الزعوط، دَسَّ ما رفعته السبابة والإهام إلى أنفه، أغمض عينيه، سحب نفساً عميقاً وأرخاه بارتياح، عَطَسَ فتناثر رذاذ في الأجواء، توجه إلى من بالمكان بنظرة تنم عن غمط واحتقار، وقال:

- العبواسواسوادون صراخ ولا هياج، كلكم إخوة بالرضاعة، ما عدا أبو منشة وأبو برنيطة، والتفت إلى عمر وتابع قوله:
- مزبوط يا أبو البقرات، ثم نظر إلى رجب وزجره بغضب قائلاً:

- ماذا تفعل هنا، ألم أقل لك إن هذه منطقتي؟ ثم صرخ بوجهه:
- أنصرف قبحك الله.

قفز رجب هارباً، ضحك رواد المقهى، رمقهم الشيخ عبد باحتقار من جديد، أدار وجهه، حدّق بالرجل ذي البرنيطة، وقال بلهجة مقدسية:

- كل واحد يشوف شغله، بلاش فلسفة إحنا مش بكتّاب الشيخ ربحان، أيوا الشيخ لولو، هنا الجامعة العبرية، ثم حلق بالرجل ذي البرنيطة وزميله على نفس الطاولة، وأضاف بدهاء:
- مزبوط يا راغب بيك النشاشيبي، ولا عندك اعتراض يا سيدنا القاضي علي بيك جارالله، وأضاف محذراً:
- والله واسم الله، إذا ما بشوف كل واحد منكم شغله لأجييله أبو جلد⁶²، ولا بدكم اللورد بلفور يا عرصات، كلكم جقم وعور، خلّو الطابق مستور.
- قال عمر لنفسه: حتى أنت يا شيخ عبد شغل عقلك الشيخ ربحان.
- طلباتك يا عمر.
- قال فرحات عامل المقهى، ذو الوجه المتقد توهجاً على الدوام.
- انتبه عمر لنفسه، وقال:
- ها...ها...آه...آه...كوباً من الشاي، وأضاف، وكوباً آخر للشيخ عبد على حساي، نظر الشيخ عبد إلى عمر بازدراء، وقال:
- أنا ما بشحد منك، والله أبو محمد فرحات بسوى عشرة زيّك بس ما حد عارف الحقيقة.
- ثم تابع منادياً فرحات،
- يا أبو محمد، هات منه ملينين فوق الطلبات زيادة، وصحن مهلبية وسطل حليب، وبلاش يتهبل علينا ويطنش وهو فاهم، أنا الي عارفه يا سدмир
- أخرج عمر من جيبه بعض ملايم ناوها للشيخ عبد، وقال:

٦٢ أحمد المحمود من قرية طمون عمل حمالاً في حيفا، وهو شخصية شعبية ألقت الرعب في قلوب السماسرة والعملاء بعد التحاقه بالثورة، بينما كان معروفا وزميله العزميط قبل ذلك بأكثر زعران فلسطين خشية

- مرحبا بك، مع أني ما فهمت عليك اشي، بس مرحبا بك، مُر علينا في البيت بعد العشاء وكل طلباتك مُجابه.

تنحى الشيخ عائداً إلى مجلسه، بينما حاول عمر أن يُراجع ما فهمه من كلام الشيخ إسلام في الكُتّاب، وقارنه مع ما حدث له، قال في سره:

- الأموات لا يقومون ولا يتحدثون مع الناس، لو كنت تبعْتُ الشيخ ربحان فور دخوله المقام، لكنْتُ عرفت إن كان هناك من يباحثني، وبما أن الأموات لا يخرجون من... لا.....لا....، هذا يعني أنني عليل، أو أنني مضطر للبحث عن مجدي، أي مجد هذا الذي أريد، أنا أحب بقراي ودجاج البيت وفراخ البط وعائلتي، هذا هو مجدي وقدري، لا أبحث عن مجد آخر، إنني مكثفٌ بحياتي، أعمل كي أوفر الطعام لأسرتي، لا شأن لي بذات المكان وعيون الموروث ولا إعلاء طاقة الوعي والتميز، ثم ما لنا ولقوى الخراب والسراب يا شيخ ربحان، ها نحن بخير، نتعايش مع العتمة، نضيئها بقناديل الزيت ما استطعنا، ألا تكفي شمس القدس الجميلة ونورها العظيم لتعويض ظلام الليل الطويل؟ عليَّ أن أطرّد كل هذه الأفكار عن ذهني، الشيخ ومجد، المورث والعتمة والوعي وذات المكان، وأعود إلى حياتي وعائلتي وآجالي وحليبي، للبرغز والموشية والدراب.

نهَض كأنه نفَض عن كاهله حملاً ثقيلاً، وعاد أدراجه إلى حيث شجرة التين، استلقى هناك وعادَ إلى أحلامه الصغيرة.

السلام عليك وعلى ساكن المقام

دنت الشمس من لحظة بياتها، صبغت ظهر الأفق بلونها البنفسجي، بدأ عمال البلدية يجوبون الشوارع لإضاءة قناديل المساء، وشيئاً فشيئاً زحف ديجوج الليل الذي بدده رذاذ من النور المتناثر هنا وهناك، على واجهات المحال التجارية وفوق بسطات الباعة في الطرق والأزقة والحارات، تلاًلاً وترنح مع هواء المساء، راقص أطياف المارة التي انعكست على الجدران الداكنة وقد صاحبته أصوات الباعة المتعبة من نداء النهار، وهي تتلاشى مع هبوط الظلام رويداً رويداً حتى غابت تماماً وحل مكانها صوت بوابير الكاز الكبيرة لباعة الفلافل في غير حي وزقاق من أحياء المدينة وأزقتها، وما هي إلا لحظات حتى جاء صوت الشيخ الأنصاري من جديد يرفع أذان العشاء، استعادت المدينة أنفاسها واستراحت من تعب يوم شاق.

تمتم عمر بذكر الله وهو يلج إلى آجاله^٦، أخذ منها وجبة المساء ثم عاد إلى حيث حوض الماء، مدّ يده إلى الدلو، مأل به على مرفقيه انساب الماء نحو الحوض، عاد صوت خرير المياه، انسابت صفحات الأيام، لم تكن تقلبات الزمن وصور الوجوه المتبدلة والأيدي الممتدة إلى الماء ذات مغزى مختلف، خاطب عزت بيك جمع الوافدين إلى المضافة، بعيونهم الشاخصة ووجوههم الواجمة، ستغادر قواتي المدينة خلال

نصف ساعة. همس لورنس^{٦٤} في أذن البيداء وأسر لها أن يهود الدوما استولوا على خاتم الصدر الأعظم وأخذوا يحركون بيادق الخليفة على رقعة الأستانة، بكى الحسين ابن علي من وجع الليل الطويل فثارت جحافل الصحراء، ما إن توارى ظل الناصر عن شاهد الإمارة حتى استنصر الملك الكامل^{٦٥}، مطرود الكنيسة الإمبراطور فريدريك ضد أخيه الملك الأشرف، وفتح أبواب بيت المقدس للغزاة بعد أن أتم الجند قيام الليل وغفوا قليلا في انتظار الفجر، تقدم الجنرال النبي^{٦٦} من أسوار باب الخليل، أعلن انتهاء الحروب الصليبية، توشأ عمر، اطمئن أن الدجاجات عادت إلى أقنانها، وأن نرجس قد جهزت دلة الحليب لزبائن الليل الذين تعودوا أن يقرعوا باب البيت بعد صلاة العشاء لمن احتاج الحليب ليلاً، خرج عمر لصلاة العشاء في المسجد الأقصى، لا يدري لماذا كان يحاول أن يتجنب الشيخ إسلام، ربما شعر أنه كشف ضعفا في شخصيته ما كان يريد لأحد أن يطل عليه، التفت عمر وهو يهم بخلع نعله أمام بوابة المسجد، التفت عيناه بعيني الشيخ إسلام، حرك رأسه تحية للشيخ، لم يقبل يده كعادته، هروك إلى المسجد، وما إن انتهت الصلاة حتى خرج مسرعاً دون أن يسمع موعظة العشاء، مر بمقام الشيخ ربحان، وقف أمام البوابة طويلاً، لم يقرأ الفاتحة كالعادة،

-
- ٦٤ توماس ادورد الضابط البريطاني الملقب لورنس العرب
 ٦٥ الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، شقيق صلاح الدين الأيوبي، والكامل تحالف مع الصليبيين وسلم القدس لفريدك الثاني سنة ٦٢٦ هجري ١٢٢٩م، بعد أن كان السلطان صلاح الدين قد حررها في ٢٧ رجب ٥٣٣ الموافق ١١٨٧ الثاني من أكتوبر
 ٦٦ إدموند هنري هاينمان النبي، الضابط البريطاني الذي احتل القدس بعد انسحاب العثمانيين منها بتاريخ ١١-١٢-١٩١٧

وإنما تأمل الباب ملياً ثم قرعه بقبضة يده، حاول أن يفتحه لكن دون جدوى، ربما احتاج التاريخ أكثر من هذا لرجع الصدى، انتبه لخطوات بعض المارة بالجوار، تظاهر أنه يوقد زيتاً للمقام، سمع أحدهم يُلقِي عليه السلام، لم يُبدِ اهتماماً لمن حيّاه، لكنه ردّ السلام همساً، وأتبع همساً مخاطباً الشيخ ربحان:

- لماذا أنا يا شيخ.. ماذا تريد مني، أم تراك ترقد في مقامك بسلام، وأني أحدث نفسي؟ أم ترى أحد الأشرار قد تقمصك وسخر مني؟ اسمع يا سيدنا سأحدث إليك مباشرة ودون وسيط، إن كنت خرجت لي حقاً، فأنت بحاجة إليّ، إذا كان الأمر ما أظن، فاخرج لي الآن، وقل ماذا تريد.

صمتَ عمر برهة، ما من مجيب، لاحظَ أنه يخاطب الشيخ دون هيبة ودون وقار، حاول أن يفتعل ذلك في نبرة همساته، انتظر طويلاً، كان يسمع بين فينة وأخرى بعض المارة، يُلقون عليه وعلى سيد المقام السلام، كان بعض المارة يهمسون بخشوع، السلام عليك وعلى ساكن المقام يا عمر، شعرَ لوهلة أنه والشيخ والمقام شيء واحد، هل يتسع حيّز واحد لزمينين في آن معاً، لا يدري كيف ولماذا انهمر الدمع من عينيه، انتحب بشدة، خشي أن يراه الناس على هذه الحالة، رفع رأسه وقال بوقار شديد: السلام على ساكن المقام. وقفل عائداً إلى بيته .

جنيات الليل

مضى دَهْلٌ^{٦٧} من الليل فاستوت الدراري فوق الأسوار واصطف حراس المدينة في أفلاكهم حول لؤلؤة المساء، نجوم القدس ودراريها الباهرة مجهولة الأسماء مثل الشهداء لكنها ثابتة لا تغير أماكنها، تصطف في أفلاكها كأنها جنود في وردية حراستها الليلية.

نسج الهَبُور خيوطه على فاه النافذة وفَرَدَ سيد العتمة فراشه، وتسلفت قصبات فضية انسابت من حاجب نجمة الشعرى الشامية^{٦٨} وتهتكت عند فرزات رموش أذبلها النعاس، قبض صابر ابن السنوات السبع على ركبتيه وضَمَّهما إلى صدره، شعرَ كأن الأرض تهتز تحت فراشه، تتمم وجمجم وهمس كأنه يهمس في أذن الليل، علَّ أخاه الأكبر الذي ينام إلى جواره يسمع هسيسه، نادى بصوت خافت مرتجف:

- ...عادل...عادل. هل تسمع.... إنها العامورة السمرء.

ثم همس مرتعداً، مرة وأخرى حتى جاءه صوت أخيه، يهسهس ويسبس:

- بس.....هُس.....هُس.... لا تتكلم حتى لا تسمعك الخوابل والجنيات.

لملَمَ عادل أنفاسه اللاهثة واستجمع قواه وزحف نحو أخيه صابر، ضمه إليه، كان جسدهما يرتعدان وأسنانهما تصطك بعضها ببعض، بدا

٦٧ ساعة من الليل

٦٨ أقرب النجوم إلينا وأكثرها سطوع، من نجوم كوكبة الكلب

لها أن ديب عصي ثقيلة وأقداماً تخطو على الدرجات المجاورة للنافذة العالية المطلة على بيت أبي خليل، كان الصوت يرتفع كلما اقتربت الأقدام من النافذة رغم سمك الكلين، بدا الجدار وهمياً لا يعزل حتى أنفاس النائمين في البيت المجاور، كان ديب العصي يتلو خطو الأقدام مرة تلو أخرى، متثاقلاً بطيئاً كأنه صوت كائن ضخم عجيب يضرب الدرج بأقدامه الثقيلة، زحفَ الصوتُ باتجاه نافذة في دُجَّة من الليل، خُيل لصابر وأخيه أن عيون الخوايل تهتُّ غزل الهَبُور وأن الجنيات تُعارك العامورة السمراء وتتهامس وتُشاور العتمة وهباين الزوايا والحارات كي تدخل إليهما من نافذة البيت أو ربما تخترق إليهما الجدار السميك، تذكرنا قصص الجدة أم عمر عن العامورة السمراء، وعن جنية الليل وغيلان العتمة، تمنيا أن تهزم الجنيات الرحمانيات المؤمنات كما قالت الجدة خوايل العتمة الشيطانيات الكافرات، والعامورة الشريرة الماكرة التي تُغير شكلها وهيئتها كالحیوان مرة وكالإنسان مرة.

- إنها تقترب منا بأرجلها الست، ألا ترى أنها تُحدق بنا بعينها الوحيدة الطولية، وتنصت إلينا بأذانها الكبيرة المستطيلة، وتمدُّ أيديها العشرة لتقبض علينا وتهبرنا بفمها الكبير وتطحنا بأسنانها الحادة، قال صابر.

اقترب ديب العصي وخطو الأقدام حتى كاد يلاصق نافذة الغرفة، ارتعد الصبيان وشدا أغطية نومهما فوق رأسيهما، وكوَّما جسديهما الصغيرين وضماً أقدامهما إلى صدريهما خوفاً، صرخا بأعلى الصوت، فزعت أمهما هدى ونهضت من سريرها، احتضنت طفلها ثم هرعت الجدة من غرفتها على وقع الصوت الرهيب، بينما غطَّ عمر في نوم عميق، جاءت الجدة بطاسة الرجفة، ملأتها بالماء وقرأت ويدها تلامس

الماء معوذات الكتاب، وأسقت الصبيين بينما كانت تتمتم بالأدعية والآيات، ضمت هدى طفليها إلى صدرها ورقدت إلى جوارهما فذهبا في نوم قرير العيون كأن شيئاً لم يكن.

بعد ليلة مخيفة مثقلة بالأصوات والتخيلات استيقظ صابر وعادل على صوت أمهما وهي تنادي عليهما كي يذهبا لإحضار شوربة التكية، رفسا عنهما الغطاء ونهضا، نظر أحدهما إلى الآخر مبتسماً، فقد نجيا مرة أخرى من الخوابل والجنيات، إنه الفجر عاد أو كاد، دون أن تُنفذ العامورة الشريرة عبر الجدار الملاصق لبيت أبي خليل إليهما، حمل كل منهما وعاء من نحاس وانطلقا لإحضار شوربة التكية طبق الصباح اليومي على مائدة الإفطار، والتي تُوزَّعُ مجانا على فقراء المدينة وأغنيائها. وقف الطفلان أمام بيت أبي خليل، نظر أحدهما إلى الآخر، تمنيا لو يعرفان ما خلف هذه البوابة الموصدة على الدوام، بعض بيوت القدس ليست كغيرها، أبوابها موصدة، وسكانها منعزلون عن الناس منغلِقون على أنفسهم، لا يتزاورون مع الآخرين، ملابسهم أنيقة، وطلاتهم ذات هيبة، حتى نساؤهم، والعجائز منهن خاصة يختلفن عن باقي سكان الحي، ملايتهن بالكاد تغطي بعضاً من الشعر الأبيض المنفوش فوق رؤوسهن، وغالباً ما يكون سكان هذه البيوت من البدخاء أبناء العائلات الثرية، التي امتد نفوذها على مدى سنين طويلة وربطتهم علاقات وطيدة مع الباب العالي، مكنتهم من شغل مناصب مرموقة في المجتمع، بينما بيوت أخرى خَوْخَة الجنبات، فتحت أبوابها لكل عابر، واشترك سكانها بكل شيء، بثر الماء، ومتنفس الحوش، ودهليز المدخل وحتى بيت الخارج "المرحاض"، لا مكان في مثل هذه البيوت لخصوصية زائدة، نوافذها مثل قلوب ساكنيها تطل من الداخل بعضها

على بعض، وتفتح من الخارج قلوبها للنور والهواء وعبق الحارات، وتطرق أسماعها لخبج الجيران ونحنحة المارة وأصوات الباعة وهتاف الأطفال، وربما كان حيز الحياة للأسرة لا يزيد على غرفة واحدة، هي مكان النوم والطبخ والاستحمام، وغالبا ما فضلت مثل هذه العائلات الطبخ والغسل في ساحات الحوش المشترك، والاستحمام في الحمام العام، مثل حمام العين، وحمام ستنا مريم على الاستحمام في البيت، وهناك أسر أخرى بين هذا النمط وذاك، بيوتها ذات حوش مستقل وأبواب مغلقة لكنها غير منطوية على نفسها، مثل بيت عمر، وحوش الشهابي، وحوش الشاويش، وربما اشتركت عائلة ممتدة بحي مستقل أو بعقبة كاملة، مثل عقبة شداد، وعقبة البسطامي، وعقبة غنيم. معظم أصحاب هذه البيوت من أصحاب الحرف والأعمال، ومتوسطي الحال، وربما كان بعضهم من أصحاب الوظائف البسيطة.

بدت لدى الطفلين رغبة شديدة في إزعاج سكان هذا البيت العجيب، الذي لم يشاركهما أطفاله اللعب في ساحة الحارة، ولا الخروج لإحضار شوربة تكية، قرعا الباب بشدة وهربا ضاحكين، وفي الطريق سخرا من نفسيهما في عتاب طفولي بريء، قال عادل:

- أنت كنت مرعوباً ترتعش، أما أنا فلا.

ما إن تجاوزا الزقاق الضيق، حتى التقيا مع عدد من فتيان الحي، الذين كانوا يحملون أطباقهم النحاسية، ويكبرون ويهللون، كأنهم متجهون إلى عرس صباحي، تصادف مرور عمر عائداً من جولته اليومية وقد أفرغ ما بدلاته من حليب، سمع غناء الأطفال وتكبيراتهم ودعاءهم لسيدة السرايا، تذكر سنوات المجاعة التي ضربت القدس، أنه وأهالي المدينة لن ينسوا فضل هذا الصرح الكريم، الذي كان ملاذ الناس

الوحيد طيلة سنوات القحط المجاعة، تذكر كيف طحنوا قراديس الذرة خبزاً، وأكلوا شوك الجبال، تذكر يوم وقف في الطابور نهراً كاملاً كي يحصل على بضع أرغفة من الخبز ويملاً وعاءه من الشوربة الساخنة، قال لنفسه: تلك مفارقة مؤلمة في ذاكرة القدس، التي حصنها السلطان سليمان القانوني^{٦٩} بسورها العظيم، الذي وهب المدينة جلالاً فوق جلال، ووهبتها زوجته السلطانة روسكانا خاصكي^{٧٠} من ملح الروح ضمناً لفقرائها من ذل السؤال والحاجة للآخرين، وخصتها ببناء سرايا جعلتها نزلاً من خمس وخمسين غرفة وإسطبلات ومخازن للتموين، لخدمة القادمين إلى المدينة، إضافة إلى مطبخ ومطعم عام لهم وللفقراء من أهالي القدس، استمر برُّ هذا الصرح دون انقطاع منذ ذلك الحين، بينما سلَّب الحكام المهزومون لحزب الاتحاد والترقي في الإمبراطورية المنهارة قوتَ الناس خلال سنوات الحرب، أغبط عمر الفتیان على فرحهم وترخَّم على سيدة السرايا وزوجها.

عند بوابة السرايا العالية الكبيرة توقف الفتية عن الغناء واصطفوا في الطابور أمام بناء فسيح من الحجارة البيضاء والحمراء بالتبادل، دلالة على رسالة السلام التي تبثها المدينة والتضحيات والدماء التي سالت من أجل تلك الرسالة، زُينت البوابة بعقد حجري دائري وإفريز مزخرف وخطوط كأشعة الشمس تغطي العقد على شكل محارة تعبيراً عن نور الحضارة الإسلامية التي فاضت من جنبات هذه المدينة وغمرت المعمورة كلها، من البوابة تعبر إلى مربع واسع من الأرض

٦٩ عاشر سلاطين الدولة العثمانية من ١٥٢٠ - ١٥٦٦ ، هو الذي بنى سور القدس، هو سليمان خان الأول بن سليم خان الأول، الملقب سليمان القانوني

٧٠ زوجة السلطان سليمان القانوني شيدت السرايا سنة ٩٥٩

تصعد بضع درجات يمينا إلى غرف النزل الواسعة المقببة السقوف التي تفتح قلوبها للنور، على نمط العمارة المملوكية، ثم إلى يسار المدخل من الساحة يمتدُّ درج طويل على مدى عرض الضلع الأيسر للمربع، ينتهي إلى باحة منخفضة، تتوسط صفين من الغرف الكبيرة يمينا ويسارا حيث يقع المطبخ وفرن الطبخ إلى الجهة الشرقية من السرايا، وفي الجهة المقابلة ضريح للشيخ المجاهد سعد الدين الرصافي، وغرفة الطعام الكبيرة الواسعة بسقفها الذي يعلو إلى عشرة أمتار عند الفرن الأول، يتوسطها دست ضخمة تُوقد تحته نار من قطع الحطب الضخم وينبعث منه البخار طيلة النهار، ويقف طبّاخان ماهران متقابلان من حوله، يقوم أحدهما بفتحِ الشوربة من القدر، ويصبها في قدور الحاضرين تباعاً، أما الثاني فيحرك بمغرفة ما في الدست مشيحاً بوجهه بين فينة وأخرى بعيداً عن البخار المتصاعد من الدست الكبير، وبمرور الوقت أصبحت شوربة الفريك الوجبة الطيبة الطبق اليومي على مائدة أغنياء المدينة كما فقرائها، لاعتقاد الكثيرين أنها مباركة، كان هناك طابور طويل من الناس يحملون قدورهم وينتظرون بصبر متثائب، يتبادلون أطراف الحديث، انضم الجمع الجديد من الصبية إلى الطابور الطويل، وقبل أن يعود رجال الحي من صلاة الفجر إلى بيوتهم كان الجميع قد حصلَ على شوربة الفريك الشهية.

عادَ عادل وصابر بصحبة العشرات من أبناء الحي إلى بيوتهم، مهللين مكبرين يدعو بعضهم لسيدة الدست المبارك أدعيةً الخير والرضى، وينشدُ بعضهم، ويهلل، ويكبر البعض الآخر.

فاطمة

خَرَجَتْ فاطمة من مخدع الليل لتعانق ظبية الصبح وهي تستلقي في عمق حوض الماء، وتعكس أشعتها في فضاء البيت، كانت نرجس قد استلقت في فيء شجرة التين قريباً من حوض الماء، بعد أن جُسِئَتْ⁷¹ على الآجال أيديها، بينما تغريد الطيور يبعث الروح في جنبات المكان، أَلَقَتْ بنفسها إلى جوار نرجس دون كلام، نظرت الأختان إلى عيني بعضهما بفرح حنون، ودون أن تقولاً شيئاً انفجرتا ضاحكتين، أَسْمَعَتْ ضحكاتها أخاهما عمر، الذي كان يُلبِنُ ويُجَبِّنُ في كوة البيت، خرج إلى أختيه وقال:

- آه كم أنا بحاجة لأضحك مثلكما، رأيتهما مستغرقتين بالنوم، ما هَانِ عَلَيَّ إيقاظكما، لقد قُمْتُ بنفسِي بكل العمل، حلبْتُ البقرات وأعددت الدلات، ثم صمت لبرهة، نظرَ إلى ظلِّ الشمس قريباً من الحوض، استدار يميناً ثم يساراً ونادى باقي أفراد العائلة وأعلن أن موعد الإفطار قد حان.

كان أفراد العائلة يُرَبِّعون إلى حوض الماء عندما فرش الظلُّ بساطه تحت شجرة التين، بسمل عمر داعياً أهل بيته للطعام، بينما كان صوت الشاي المنساب من الإبريق في يد نرجس يغرغر ويخاطبُ لَوْبَ⁷² الصباح، قرأت فاطمة الفاتحة على روح أبيها الذي ظلَّ مقعده شاغراً

٧١ ينست وتصلبت من العمل

٧٢ عطش رغم قربته واستدارته حول الماء

على البساط الذي احتضن أفراد العائلة حول طبلية الطعام منذ غاب، ازدانت مائدة الصباح بطاسة شوربة الفريك وكعك السمسم وبعض الفلافل وزيت الزيتون والزبدة والجبن المجهر من حليب البيت، لاحظت أم عمر أن ابنها شارد الذهن يَلْمَجُ ويلبُّ الطعام، لكنه في الحقيقة قد زهد فيه.

- سألت: ما بك بني؟

نظرَ عمر إلى والدته، شعرَ كأن حملاً ثقيلاً يجثم على صدره، كادَ ييوح لأمه بل وللعائلة كلها بما حدث معه، علَّه يتخلص من هذا الحمل الثقيل، أو علَّ أمه تخبره شيئاً عن مجد أو عائلته، أو علَّها تُهدئ من روعه وتقول له أن ما رآه ليس إلا وهمماً وخيالاً، بسبب ما لاقاه من تعب في خدمة البقر، أو هذيان بسبب نوبة الحمى التي كانت قد أصابته في أيام خلت، لكنه تمالك نفسه خشية أن يضعف أمام زوجته وأطفاله وأختيه، صمت لبرهة وقال لأمه:

- لا شيء يا أمي، تشغلني بعض أمور العمل.

أرادت الأم أن تبعث بعضاً من روح المرح على مائدة الإفطار، علَّها تُخفف عن ابنها بعض ما يُشغله، فقالت مبتسمة لحفيدها عادل:

- هلا أخبرت والدك كيف أمضيت وصابر ليلتكما أمس.

ابتسم عادل، وقال:

- أنا لم أكن خائفاً يا جدي، لكن صابر ارتعد خوفاً، لقد ضربت الجنية بعصاها على النافذة ثم تقدمت من بيت العنكبوت، إلى وسط نسيجه تماماً، بدا النسيج يتسع باستمرار، ثم اهتزَّ فجأة، فَعَتَّ الجنية عن صوت يزحك على البلاط، مدَّت أطرافها إليّ، وفَحَّتْ أنفاسها

الساخنة في أوردتي، شعرتُ بجسمي يكبر، حتى صرْتُ بحجم الغرفة، ثم حولتني الجنية إلى شجرة غاصت جذورها بالأرض، مدَّت الشجرة أغصانها فوق سطح بيتنا، ثم امتدَّت إلى بيوت الجيران وحضنت الطرق والأسوار، غير أن غولاً ضخماً وقف أمام الأسوار فغر فمه وتحفز للانقضاض.

أما أنا يا أبي، قال صابر:

- فقد رأيت الجنية تضرب بعصاها الغليظة أمام فراشي، انتصبت أمامي، رأيتهَا كانت عينيها بالطول إلى أسفل الوجه، الغريب أن شعرها لم يكن أسودَ منفوشاً كما وصفتها جدي ذات يوم، بل كان أشقرَ ناعم الملمس غطى رأسها ووجهها النحيف وانساب حتى غطى الأرض من حولها، كانت أظافرها طويلة مدببة تسيل منها الدماء، لم تجعلني شجرة، بل فتحت فمها، وصكت أسنانها، أخذت تلتهم الحجارة والجدران والأشجار الخضراء، ثم تقدمت مني ومدَّت يدها إلى عنقي، كادت تلتهمني لولا أني صرخت، ووجدت نفسي في حضن أُمي عندها المَلَمَت الجنية شعرها المفروود وهربت.

التفت صابر إلى جدته وأضاف: لقد هربت الجنية لأنها تخشى أُمي يا تيتا، ضحك الجميع عدا عمر ونرجس، بالكاد ظهرَ على مُحيا عمر ظلّ ابتسامة بائسة، بينما وجهت نرجس لأن الجنية الشقراء كانت هاجسها الذي لم تجرأ يوماً الأخبار عنه مثلما فعل صابر وعادل، ضحكت فاطمة وقالت:

- إن ما سمعته الليلة ليس جنية الليل، بل جارنا الحاج أبو خليل، كان ينزل من بيته متكئاً على عصاه ليصلي قيام الليل بالمسجد الأقصى، رفعَ عمر يده ومسحَ بعض حبات من العرق من على جبينه، هزَّ رأسه وقال

وهو يضحك بصوت عالٍ:

- الحاج أبو خليل، أجل إنه الحاج أبو خليل..... إنها عيون العتمة.....
العيون اللعينة... عيون الموروث..... أجل إنها كذلك، ما أعظمك
يا فاطمة..... إنه الحاج أبو خليل، نظر الجميع إلى عمر بذهول، حدّق
عمر بوجه من حوله، ضحك بصوت عالٍ، ضحكت نرجس وأمها،
بينما وجّم الأطفال، قالت فاطمة:

- لا بد أن المغزى أكثر عمقاً مما نسمع أو نرى.

قال عمر لنفسه: إنها الست فاطمة، أقسم أنك تستحقين هذا اللقب،
بل ست الكل فاطمة، رحمك الله يا أبي هكذا كنت تناديهما، بالوعي فقط
بالوعي، أطفأت فاطمة عيون الظلام، ببساطة قالت إنه الحاج أبو
خليل، الحاج أبو خليل يا شيخ ربحان، عليّ أن أخبر فاطمة بما حدث
معني، لا عيب في ذلك، فاطمة أكثر وعياً وتعليماً مني، إنها كذلك،
وكما قال الشيخ إسلام، كلما ازدادت مساحة الوعي تقلصت مساحة
العتمة، وضعفت عيون الظلام، لا بدّ من إخبار فاطمة، وأنا على يقين
أنها ستُحسن نصحي فيما أنا فيه.

وقبل أن ينهض أحد من على مائدة الإفطار، نظر عمر إلى فاطمة وقال:
- هيا يا ست فاطمة طالباتك بالانتظار، سأرافقك الطريق إلى المدرسة،
قاطعته نرجس وبدا عليها بعض الحيرة والتردد، كيف خانتها الفطنة
ولم تدرك أن دبيب العصي الثقيلة والأقدام التي تخطو على الدرجات
المجاورة للنافذة العالية، ليست جنيتها الشقراء المخيفة، وإنما هو الحاج
أبو خليل، تماكنت نرجس نفسها وغيرت وجهة ما عزمت على قوله،
وقالت:

- على مهلك يا عمر، يجب أن نرتب البيت أنا وفاطمة أولاً، عليها أن

تساعدني، خاصة أن أماننا عملاً شاقاً هذا اليوم.
 كاذ يُدير ظهره دون أن يقول شيئاً لـنرجس، فهي موجودة دائماً ولا
 ضرورة للشعور بوجودها سواء تكلمت أم لم تتكلم، لكنه لأول مرة
 أحسّ بشعور مختلف تجاه نرجس، إنها المسافة بين عيون العتمة وعيون
 الوعي، تذكر والده الذي قال له: احترم وعد فاطمة وعقلها، فما لديها
 حملها خمسين عاماً من حيث نرجس وربما من حيث أنا وأنت. أحسّ
 بألم نرجس، عاد وأدار وجهه مبتسماً، نظر إليها بحنان وقال:
 - بارك الله بك يا أختي الحبيبة، كان الإفطار شهياً، ستكون زوجتي
 هدى بعونك، لكن على فاطمة أن لا تتأخر عن موعد طالبتها.
 لم يدرك عمر ما كان يعتمل في نفس نرجس من خوف، ولم يدرك أنها لا
 تعلم تماماً ما معنى كلمة تأخر، لأنها ببساطة لم تكن يوماً على موعد
 مع أي شيء أو أي أحد، وأن الإحساس بالزمن لديها شبه معدوم،
 فالزمن بالنسبة لها رحي تدور وتدور، تطحن عظام النهار ولا تبرح
 ركنها أبداً.

- ربما هي المرة الأولى التي أرافقك إلى العمل، قال عمر لفاطمة، لقد
 حققت ما لم أتمكن أنا من تحقيقه، استكملت دراستك، وتقومين بعملٍ
 عظيم، تربيين النشء الجديد، تعلمينهم ليكونوا صالحين منتجين قادرين
 على خدمة البلاد والعباد، إنني أغبطك على هذا، إنها رسالة الأنبياء،
 أما أنا فإنني أشعر أن حياتي رتيبة كالدائرة، تحبس روحي، وتُكفن
 عواطفِي، أسير وربما أجري أحياناً، لكني أعود دائماً إلى حيث كنت،
 أستلقي تحت شجرة التين، أغفو مع أحلامي البسيطة، حياتي عبثية
 فارغة بلا هدف ولا طموح، لا أقدم نفعاً لنفسِي ولا للناس، كثيراً ما
 أشعر أنني مفصول عن العالم بجدار سميك، إن في العالم ألم أكثر كثيراً

مما تحتمل روحي، لذا تريني أهرب منه إلى عالمي، إلى شجرتي الحبيبة، أدور كالرحى بين بيوت الناس ويخور البقر، حتى أبي ما استطعت أن أكون مثله، لقد جعل من مهنته ميّزة، فتحت عليه أبواب الحياة، لم يكتف ببيع الحليب، كان مع الناس في أفراحهم وأتراحهم، شاركهم الجهاد ضد المحتل حتى لقي ربه شهيداً، أين أنا من أبي، أين أنا منك، أين أنا من نفسي، لكل كائن هدف ورسالة، حتى الدجاج له رسالة، فمن أنا، ما هدي، ما رسالتي، لماذا خلقت، ومع ذلك أحياناً أشعر أنني مكثف وراضٍ بما أنا فيه، لأن حياتي بسيطة لا زيف فيها ولا تكلف، ولا أرجو من الحياة أكثر مما لدي، لي بيتي وعائلي وأبنائي، ورزقي، وأحلامي الصغيرة، ربما لست وحيداً بهذا، كثيرون مثلي، البقال والخباز والحلاق وبائع الخضروات وآخرون، نظر إلى فاطمة وهو يعلم أن حياتها بلا بهرجة ولا تكلف أيضاً، لكنها ليست مثله، قال:

- ربما أنت استثناء، كما قال أبي رحمه الله، أنت استثناء في المكان والزمان، في الذكور والإناث.

نظرت فاطمة إلى وجهه، بدا حزيناً متوتراً، لكن وميضاً شاحباً شع من عينيه، كانت فاطمة تعلم أن أخاها يملك وعياً فطرياً أكثر بكثير مما يبدو للآخرين، وربما أكثر مما يعرف عن نفسه، وأن ما حصّله من علم في الكتاب والمدرسة عدة سنوات قد صقل وعيه الفطري لكن الحياة لم تمنحه ما يستحق.

أجابت:

- ربما أنت محق، ليس من السهل أحياناً أن يتعرف معظمنا إلى ما يملكه من طاقة وقدرة، لذا قد يصعب على البعض أحياناً تحديد ما يريد تحقيقه، قد لا تكفي الحواس كي ندرك ذاتنا، لا بد من قدرة أخرى للتمييز،

المهم أن لا تصبح رتابة الحياة وفراغها واقعاً دائماً، لا يوجد أحد لم يمر بالحالة التي أنت عليها الآن يا عمر، إنها اللحظة المهمة لفهم الفرق بين الرضى السلبي الذي يؤدي إلى الرتابة، وربما إلى العزلة والاستكانة، وبين الرضى الإيجابي الذي يفتح بوابة العمل والطموح، فيوظف المتاح فيما لدينا، مهما كان ضئيلاً ليفتح بوابة الأمل، وبين الأمل والطموح تتفجر الطاقات، ويولد الإبداع، الأمل يجعل من الانتظار طاقة جبارة في خدمة الطموح، طاقة التغير وبوابة الإبداع والانجاز، سواء كان هذا الطموح شخصياً أو عاماً، المهم هنا وعي الذات لنفسها، لواقعها وإمكاناتها، وأين هي من المجموع، كي تتمكن من تحديد أهدافها، إنها المسافة بين ما تريد وما نريد، بين أنا ونحن، وكلما قصرت المسافة بينهما ارتفعت وتعالق قيم هذه الأهداف إنسانياً، وساعدت الفرد على الاستقرار وجدانياً.

ابتسم عمر وقال لنفسه إنها فاطمة، مهما بدت أفكارها صعبة، إلا أنها قريبة من القلب والروح، مع فاطمة أنت تفهم بقلبك لا بعقلك، وقبل أن يهم بالدخول مباشرة إلى الموضوع الذي رافقها الطريق من أجله، كانا قد وصلا إلى زاوية الهنود قرب باب الساهرة، كان هناك عدد من الرجال بكوفياتهم البيضاء يقفون ووجوههم إلى الحائط وقد أحاط بهم عدد من الجنود الانجليز الذين صوبوا بنادقهم نحوهم، قال أحد الجنود متوجهاً لعمر وفاطمة:

- قف عندك، ارفع يدك، وجهك إلى الحيط.

تردد عمر قبل أن يستجيب لأمر الجندي، بينما وقفت فاطمة مكانها دون حراك، أضاف الجندي مخاطباً فاطمة بلغة عربية ركيكة:

- وإنّ كمان ارفع أيديك إلى الحيط.

شعرَ عمر بآهانة وخرج وعجز شديد، كيف لا يستطيع الدفاع عن أخته.

- ماذا تريد منها، دعها، لا شأن لك معها، قال عمر للجندي.

- أنت إخرس، وجهك للحيط، صرخ الجندي.

همَّ عمر بفعل ما لا تحمد عقباه، ارتعبت فاطمة وخشيت أن يلحق بأخيها أذى، تقدمت من الجندي وقالت له بلغة انجليزية رصينة:

- تأدب أيها الجندي، أنت لا تملك أي حق في اضطهاد الناس بهذا الشكل، إن كان لديك مهمة تؤديها معنا فافعل ذلك دون إهانة.

- الحق؟ من يملك القوة يمتلك الحق، قال الجندي وأشار إلى السلاح الذي بيده.

- القوة هي القانون قالت فاطمة، وأشارت إلى الكتب التي تحملها.

استغرب الجندي من هذه الفتاة العربية المحجبة التي لا تتحدث الانجليزية وحسب، وإنما تعلم ما يمنحها القانون من حقوق، سألها:

- هل أنت محامي؟

تعمدت أن تبقى إجابتها مبهمّة:

- أنت تعرف أن من حقّي أن أقاضيك أمام محكمة عسكرية إذا تجاوزت ما يمنحك إياه القانون من صلاحيات.

هزَّ الجندي رأسه، وفتح الطريق وقال لفاطمة وعمر وللآخرين: هيا اذهبوا من هنا.

لم يفهم عمر معظم ما قالت أخته للجندي، لكنه فهم من لهجتها أنها صدّت هذا المتغطرّس بشجاعة، شعرَ بفخرٍ شديد، تذكّر حديث الرسول ص: من تعلم لغة قوم أمّنّ شرهم. ومع ذلك شعر بعجزه وضعف حيلته، وتفاديا لأي حرج، قالت فاطمة:

- لا تحزن يا أخي، حُكْمٌ ضَلَّ ما ظل، هذا الجندي يعتقد أن القانون هو القوة الغاشمة بيده، المهم أن نعمل نحن كل ما نستطيع لمقاومته.
- نحن بلا حول ولا قوة يا فاطمة، دعي الخلق للخالق، غداً سيهيئ الله لهذه الأمة من ينهض بها.

- لا يا أخي، نحن الأساس، وعلينا أن نحمل مسؤولية استنهاض الأمة، الوضع خطير جداً، أخشى أننا نواجه مستقبلاً قد تشكل فعلاً، لكنه ما زال مرناً، يمكن أن يتغير.

- لم أفهم، ماذا تقصدين؟

- إن لم نقاوم الانجليز، فستسرق بلادنا وتُعطى لليهود، وسنصبح غرباء في وطننا، إنَّ المهمة الأساسية لقوات الاحتلال البريطاني هي تنفيذ وعد بلفور، وإقامة ما يُسمى وطناً قومياً لليهود في فلسطين، هذا ليس مجرد تصور من قبلي، بل إنه النص الحرفي في المادة الثانية لصك الانتداب، نحن نواجه قوتين منظميتين يا أخي: بريطانيا العظمى، والحركة الصهيونية المدعومة منها ومن دول أخرى، إننا كما تعلم غير منظمين، ولا نملك رؤى لمواجهة هذا التهديد.

- كان من الأفضل لو حافظ العرب على عهدهم مع الخلافة العثمانية، ألا تعتقدين صواب ذلك؟

- كان ضعف الدولة العثمانية قدراً محتوماً بعد ما آلت إليه أوضاعها الداخلية، مع ذلك لم يدرك العرب بتياراتهم المختلفة، سواء من ثاروا على العثمانيين، أو من نأوا بأنفسهم عن ذلك أن يدركوا خطورة التضليل الذي مارسه الغرب المستعمر، ومدى تحالفه مع مشروع الصهيونية العالمية.

كان عمر معجباً بثقافة أخته العالية، لكنه قلق عليها أيضاً، ثم ليس

من أجل هذا رافقها اليوم، لذا لعن بسره الصهيونية والإنجليز وذاك الجندي، فقد أفسدوا عليه ما رافق فاطمة من أجله.

- الله يهديك يا أختي ابتعدي عن السياسة، واتركي هذا الموضوع للمفتي وكاظم باشا والأحزاب والقيادات، هذا عملهم، وهم أدرى بذلك، لقد رأيت ما حصل للمسكينة فاطمة غزال⁷³، قتلوها دون رحمة.

قالت فاطمة لنفسها مع إدراكها لوعي عمر. إنه مثل كثير من العامة وبعض المثقفين والسياسة، يعتقدون أن السياسة والجهاد عمل أو وظيفة مثل بيع الحليب والتعليم أو البقالة وعمل البلدية، وما دام هناك من يعمل بها فلا شأن للآخرين.

- فاطمة غزال شهيدة يا أخي مثل والدي، لا تنسَ هذا، استشهدت من أجل هدف وقضية، إنها وأبي وأمثالهم أحياء عند ربهم يرزقون، الوطن مسؤوليتنا جميعاً يا عمر، أنا وأنت وكل أبناء الأمة، بالوعي والسياسة الحكيمة والمقاومة والشهادة يمكن أن نتصر ونطرد المحتل وأعوانه، تخيل أن أولادك غدا سيواجهون الموقف الذي واجهته أنت اليوم، واجبنا نحن أن نفتح لهم طريقاً آخر، طريقاً يمكنهم من العيش بشرف وحرية وكرامة ومجد، يجب أن نناضل ونضحى نحن الآن لنوفر على أبنائنا عناء ذلك في المستقبل، علينا أن نسعى كي تكون حياة أطفالنا مثل كل أطفال العالم، هادئة دون خوف أو تهديد.

- إنك صاحبة فكرٍ مستنير وخلق عالٍ، لكنّ عالم السياسة غير عالم الأخلاق، ولا شيء مشتركاً بينهما، إنني أخشى عليك من هذا العالم.

٧٣ مناضلة فلسطينية قاتلت البريطانيين واستشهدت بتاريخ ٢٦-٦-١٩٣٦ في معركة وادي عزون

وصلا إلى المدرسة، حيّا عمر أخته وقال:
مع السلامة، الله يحميك.
- نظرت إليه وقالت: ربنا معك، لن أطيل الغياب بعد المدرسة سوف
أذهب للمكتبة ثم أعود للبيت لنكمل حديثنا.



ملكوت الروح

نسمة هواء لطيفة تسلت من نافذة غرفتها، ما إن انتهت من صلاة الهجعة الثانية عند منتصف الليل حتى أطلت بَعْثَاء الوجه ذهبية الشعر على القباب التي تجاور بعضها كأنها سلسلة من العاشقين، تشد كفاً إلى كفٍ عبر زمن من بدايات بعيدة، نظرت إلى الناحية الأخرى، كان واقفاً إلى جوار نافذته المجاورة، هناك حيث كان من بدايات زمن قديم.

- إذا أَنْتَ هنا من جديد، قالت:

وسرعان ما توارت إلى غرفتها للحظات قليلة، وضعت قلنسوتها على رأسها وأطلت مرة أخرى، انساب صوتها في أذنيه مثل تراتيل الصلاة، تحفَّزَ الوجدُ وهتفت الكائنات الصغيرة في شرايين جسده، تفتحت كرمة عنب في وجنتيه المحمرتين، وانتقدت شعلة من الجمر في قلبه الملتهع، استجمع ما تبقى من عزم بددته مفاجأة اللقاء، تدافعت كلماته خلف أنفاسه اللاهثة، أراد أن ييثها شجونه وأشواقه وحيرته وارتباك، تمنى لو يضع رأسه على كتفها وينام، أغمض عينيه للحظة، ثم سرعان ما فتحها، ما زالت أنفاسه تسابق كلماته، ما كاد يستجمع أفكاره، أو يشحذ قواه، حتى دهمه صوتها من جديد.

- طِبَّتِ مساءً، قالت بوقار.
- طِبَّتِ مساءً، قال بصوت مرتجف.
- أرجو أن تكون موفقاً بالدراسة، أَنْتَ على وشك الانتهاء من دراستك الجامعية، كما تقول العمة أم انطون.

- أجل.

أجاب بينما حبات من العرق تنساب على وجنتيه، حاول أن يدفع أنفاسه المتدفقة إلى صدره من جديد، سحب نفساً عميقاً، حرَّكَ لسانه، كادَ يقولُ أحبك، علَّها تعود بالمسافة التي قطعتها بالاتجاه المعاكس، تلغثم، سابقته الأنفاس اللعينة، هكذا هو دائماً، يعشقُ ماري التي هَنَدَت بقلبه ويُحِبُّ كلَّ ما هو طاهر وجميل في الحياة، ويُحِيل إليه أنه قادر على اقتحام المجهول والخطر من أجل ما يحبُّ ويعشق، لكنه ما إن يُقَدِّم حتى تَسْبِقُ أنفاسه كَلِمَاتِهِ، وتَسْبِقُ مخاوفه قناعته فيُحْجَم.

- عمتَ مساءً، علي العودة للصلاة، قالت بهدوء، وتوارت خلف النافذة المقابلة.

بدا أنها زمت غمازات وجنتها وابتسمت، هل ابتسمت حقاً، ليتها انتظرت قليلاً، كدتُ أبثها أشواقَ وحنين قلبي الذي لا يكف عن حبها، قال لنفسه.

عادَ إلى أعْداف⁷⁴ ليله الموحش، ليس سوى الوحدة والغربة والسفر من جديد بين اللغات والأماكن والكلمات، سفر طويل متعب لا يخلو من بعض مغامرات عابرة، لكنه موحش لطالما نقل إليه اغتراب وألم وأنين الآخرين أكثر مما بثهم شكواه وآلام غربته، وحيداً في ليل لندن الطويل، نسمة هواء لطيفة كأنها قادمة من هناك من بعيدٍ تعبر من نافذة قريبة إلى سريره، تلامس وجهه، يُطلُّ وجه ماري خلف قباب القدس من نافذة البيت في دير العدس، ثلاث صور تغمر القلب نشوة وحنيناً، ماري وقباب القدس، وصورة أمه إلى جوار والده بثوبها الأبيض وإكليل من الورد يتوج رأسها، وصورة أبيه كهلاً يجلس على كرسي من القش أمام

راهبات الوردية في طريق الآلام، ليس في النفس متسع لأي شيء آخر. تراها زمت غمازات وجنتيها وابتسمت، هل لقلبها الذي هو خارج نطاق الاستقبال البشري أن يلتقط موجات قلبي؟ هل لها أن تدرك أن شراييني تكنظ بمخلوقات صغيرة تنبض على مدار اللحظة بحبها؟ كيف تجرأت على الانتقال إلى ملكوت أخرى؟ قال لنفسه وهو يُطلّ وحيداً من نافذة غرفته الباردة على نهر لا تصب مياهه في بحر ملكوتها البعيد.

الوحدة تأكل أحشاء الانتظار، تمدُّ اللحظة في الأفق بعيداً، تمضي خطى الزمن بطيئة تمتص العمر، تُشعل نار الذكريات، صور أطفال خائفين في باب الخليل، أوراق شجرة الحمير الذابلة في ساحة الدير، جديلة أمه المعلقة على جدار الآلام، وجنية هربت من عتمة الليل لتراقص نجمة الصبح، لولا ضوء الفجر لنامت على ثوب الهزيع. وحيداً مثل آدم، أخفى في الأضلاع رفيقة دربٍ ربما تؤنس وحشة ليله الطويل، وحيداً إلا من رفقة كأسه، يُمعن النظر إلى زجاجة انسيلموس^{٧٥} على رفّ مكتبته الصغيرة، صب من كرامة القلب نبذاً تعشق من الجوى والحنين، وانسيلموس الذي حبس أنفاسه قبل أن يغفو في زجاجة الأحلام، ما زال تائهاً يبحث عن قدره الذهبي، وليس سوى ليل طويل، كان لا بد من اللقاء، ليت أني انتظرت يوماً آخر، ساعة أخرى قال لنفسه، تذكر

٧٥ هو القديس انسيلموس البينديكي المولود في روما ١٠٣٣، كان كثير الحيرة، مر بفترة طيش في حياته، ثم استعاد طريق الايمان، تناول سيرته عدد من الكتاب، أهمهم ستالي كوفمان في كتابه القدر الذهبي، يعتبر كوفمان أحد أبرز كتاب الرمزية الفرنسيين، الذي حبس بطل روايته في زجاجة وضعها على رف المكتبة في مواجهة عظماء التاريخ

كلماتها أيام الطفولة، إن غبتُ عنك انتظرنى ساعة أخرى أعود إلى حيث شجرة الجميز.

ليت أنى انتظرت ساعة أخرى، يوماً آخر، عاماً آخر، قبل أن تكشف الطبيعة عن طفولة الجسد النحيل أسرار الصبا والبلوغ، وقبل أن يدرك العقل معنى الإيمان أو الخطيئة، قبل أن تنتقل إلى ملكوت أخرى، ليت أنى قلتُ أحبك، ربما جعلتها أمام حدّ الاختيار بين ملكوت الروح وملكوت القلب، ترى هل زمت غمازات وجنتيها وابتسمت حقاً، ليس سوى أن أعود، وليس سوى أن أراها من جديد، ماذا لو قلت لها أحبك؟ ماذا لو قبلت العودة إلى ملكوت القلب وقطعت المسافة بالاتجاه المعاكس؟ ماذا لو فعلت؟ هل تهجر ملكوت الروح وزمن السماء وخلود الأبد، لتحطّ على زمن الأرض المجرد وملكوت القلب الفانى؟ ومن أنا وما أنا فى ظلّ الله، لست سوى تراب ولحم خاطئ وروح تائهة ووعد بعيد.

أى خاطئ أنت يا انطون، قالت له أمه، يوحنا ونهر المغطس لن يطهرا روحك الأثمة، زكا أعطى كل ما يملك، أما أنت فتسعى لأخذ ما هو ملك لله، أى خاطئ أنت يا انطون.

ماذا لو رفضت، قال لنفسه، ماذا لو كنت فى مخيلتها مجرد ذكرى لطفولة إلى جوار شجرة الجميز ليس إلا؟ أىّ خاسر أنت يا انطون، من يعيد إليك أيقونتك النفيسة، أىّ بائس أنت يا انطون، ليس سوى أن أعود، ما تبقى لي فى لندن من شيء اللهم إلا اجتياز الألم المعتق كالنبذ المر فى دافيد كوبر فيلد، وبعث إرادة الوجود فى سمناش شكسبير، أكون أو لا أكون، وأمام لحظة اللقاء من جديد ستولد آلاف اللحظات، آلاف

الاحتمالات، المهم أن أقول لها أحبك، أن أنتصر على أنفاسي اللعينة التي تسبق كلماتي، وأن يخفق القلب وتهتف الكائنات الصغيرة بالشرابين أحبك، يا مسيح روحي التائهة، ليس سوى أن أعود وماري هناك إلى جوار شجرة الجميز، طفلة صغيرة في انتظار لقاء جديد.

ليل لندن كان موحشاً دائماً وطويلاً، وليل القدس بات مظلماً وطويلاً أيضاً، قطع المسافة بالاتجاه المعاكس، وما في الطرف الآخر مُسْتَقْبَلٌ أو رفيق، الدير بيته من جديد، والخمر أنيس وحدته الدائمة، أخذ الانفجار في باب العامود كل من أحب، أمه وأباه وبعض الجيران، وراهبة وهبت للرب القلب وزهر البستان، وما وهبته إلا ذكرى تنعش وجد العشق وتكويه، ذهب ماري دون وداع، كان يظنُ القداس يدوم طويلاً، تحميه ملائكة المذبح، هربت فيفياني من أنشودة شيلي ييش إلى كهنوت القلب، "بعثرت كلظى من مدفأة لا تحبو، وماري مثل التراب على شفتيه وأرض نائمة". انتظر طويلاً على الجهة المقابلة من النافذة لكي يراها تقطع المسافة بالاتجاه المعاكس، لكنه لم يتصور أبداً أنها ستواصل السفر بعيداً في نفس الاتجاه نحو أسرار السماء البعيدة، عند ملكوت الرب وأنهار الروح، كان يعلم أن الثوب الرهباني يبعدها عنه كثيراً، لكنه أحبَّ جلال رداءٍ يقربها من الله ويحميها، كيف ذهب ماري وغيبها الانفجار، وقف عند عتبة الفصح ليس بعيداً عن مغارة القبر المقدس، كان على يقين من أنه على موعد مع لحظة اللقاء التي ستولد عندها ألف لحظة واحتمال، هل زمت غمازات وجنتها وابتسمت، من أغلق أبواب الكنيسة، لماذا لم يخرج البطريرك، من منع فصحي من القيام؟ من أخذ مسيحي وكسر صليبي؟ أذهبُ حيث قال الناس إنهم صلبوك، من جلجلة القيامة إلى جلجلة باب العامود، القاتل نفس

القاتل، ببلاطس^٦، والهاكانا وكهنة المعبد، أخذوك وكان يكفيني أن أراك أو أكون قريباً منك، وأنت تسيرين على درج البخور، إلى جوار كرسي الكأس، وحين تركعين أمام المذبح، كنيسة كنت، أيقونتي وكتاب البشارة وصلاقي.

يا أمنا العذراء، عندما تبلى أجسادنا هل تبقى القلوب؟ تقتلني الوحدة، وتأكل أحشائي، مصلوباً في زجاجة انسلموس، ضيقتُ قدري الذهبي، أحياناً لأن الرب أعطانا الحياة، ما عاد السفر ملاذاً، وحشة الدار كوحشة الغرب، ليلها طويل في لندن وهو في القدس طويل أيضاً، الليل بطن العتمة قبر الأحياء، لا شيء سوى عباءة السواد تلف الدنيا وتطوي السماء، وما طال الليل، أجيء إليك يا سيدة المهدي وحارسة القيامة، ألمم جرحي ونهاري المثلث بالأحزان، أشكو همومي وأبكي ملء القلب وملء العين.... حتى يحرق الدمع جفوني، أجثو من تعب، ثم بدف عيونك أغفو وأنام، ليس إلا أنت، وما سواك فراغ يتلاشى في المدى.

سائق القنصل

هل كنت تدرين يا أماه وأنت تحيكن لي كنزة الصوف أن حيّر الكون الذي تبقى لي ثلاثة قبور وسعفة نخيل، قبرك وقبر أبي وماري؟ قلت وصنارة الخيط بيدك تعانق الصنارة باليد الأخرى: أقسم بالرب أني أحبها كما أنت تحبها، لكنها اختارت من أحبت يا ولدي، قلبها ليس لك، إنه للرب، وهي ملك قدرها وثوبها ونُسكها، ما يأخذه الرب ليس تناله يد العبد يا انطون، ماري خلقت لقدر آخر، فاذهب لقدرك يا ولدي، وانهل مما أعطى الرب جهلاً، والكون حيّر خطاك.

آه يا أماه تعبت خطاي، والكون حيّر غربتي وجفاف شراييني وظلمة روحي، ما عاد الكون جميلاً يا أمي، وقد غابت القدس وصوت أبي ولمسة يديك وماري، ما تبقى سوى الذكرى طرية، ترطب القلب لكنها توقظ الأحزان، لقد عيل صبري وما عدت أطيق الانتظار، ليل لندن طويل، طرقاتها بلا نهاية، نبیذها مُر وعطرها مالح، وجوه الناس صماء، الجامعة كثيبة، زملاء الدراسة باهتون، المدرس أنيق لكنه بارد بلا روح، الأدب الانجليزي جميل والشعر منه خاصة، إلا أنه خادع، الوحدة سجن الذات، دائرة محكمة الإغلاق، بريميثيوس⁷⁷ ليس طليقاً، هزمته الغربة والمنفى، لكنه في روما ما زال يتوق لانتصار الحياة، كلماته كالشرر على شفاه البشر، أكره الليل وأكره النوم لأنه كالموت يأخذك وماري مني، أعود إليك يا أماه وقبرك حيّر الكون، وعيناك

المدى المفتوح على الأبد، وروحي قُبارة تائهة، وذكراك قوت أيامي
الباقيات، وليس سوى القدس مهدي وقبري وقيامتي وجنتي الدائمة.
قال الراكب في المقعد الخلفي لسائق السيارة: إلى مقر المندوب السامي يا
انطون ثم تابع حديثه مع الرجل إلى جواره:

- واضح أن الهاك اناه وراء الانفجار في باب العامود، لقد سقط
27 قتيلا و120 جريح من العرب، ويُحشى من ردة فعلهم، لذا على
المندوب السامي أن يتخذ إجراءات حازمة لمنع ذلك.
ارتجفت يدُ أبي جريس القابضة على مقود السيارة، وتسارعت نبضات
قلبه، كاد ينحرف بالركبة عن الشارع، فصرخ القنصل:
- انتبه يا انطون، تكاد تصطدم بالرصيف.
أجل سيدي أجل.. أجل.

تمالك أبو جريس نفسه، أعاد توازن المركبة، إلى أن وصل إلى جبل
المكبر حيث مقر المندوب السامي، الذي يقع على قمة جبل عالٍ يشرف
على مدينة القدس ويطل مباشرة على المسجد الأقصى، ركن المركبة بين
عمودين عند زاوية المدخل الغربية، ترجل الراكبان ثم ولجا بوابة المقر.
نهض من على مقعده الجلدي الوثير إلى النافذة المطلة على أسوار المدينة،
قضم قُمع سيجاره الفاخر، أشعله وسحب نفساً، وأطلقه باتجاه
الأسوار، تملكه شعور أنه من هذا المكان يقبض على أنفاس المدينة وربما
أنفاس العالم، قال دون أن ينظر إلى ضيفيه الجالسين إلى الناحية المقابلة:
- لا تقلق سعادة القنصل، إنهم دهماء، بل هم قوة عمياء، أعمى يقود
أعمى، لن يكون هناك رد فعل ذات مغزى من قبل العرب، قواتهم
عاجزة غير منظمة وضعيفة التسليح، نحن نتحكم بهم، نأخذهم حيث
نشاء، لقد زرعنا بينهم الحقد والعداوة والبغضاء، أعطينا هذا سلطة

هزيمة، ومنعنا عن ذلك، سنعطيههم وعوداً وابتسامات، حتى يخضعوا لنا، ويزحفوا أمامنا مثل الكلاب، جعلنا أفرادهم وقياداتهم يكره ويحسد بعضهم بعضاً. هجوم القوات اليهودية كان متفقاً عليه، علينا أن نُتعب العرب بالحرب والترهيب، لأن الدهماء بعد كل مواجهة عنيفة تتعب ويسهل وضع القيد في أقدامها.

نفث دخان سيجاره من جديد في المدى المفتوح المٌطل على ساحات الأقصى، ثم أدار ظهره ونظر إلى ضيفيه وتابع: لن يتم الأمر الذي نريد إلا بخطة محكمة، لتنفيذ الوعد بشكل قاهر مُستبد حتى النهاية.

- لكن الوسائل العنيفة القاهرة ستؤدي إلى سقوط ضحايا كثيرين، قال القنصل الضيف.

- في سبيل الغايات الكبيرة لا وزن للوسائل والضحايا.
- أرجو أن لا ينسى سعادة اللورد أننا أمام عهد جديد، لن يقبل العالم هذا الإهدار لحرية الإنسان وكرامته.

- أفهم توجهات بلادكم الجديدة، لكنها سوف تتغير بسرعة عندما تقبضون على مفاتيح القوة والصراع.

- لقد مُنحتم حق الانتداب من أجل تطبيق مفاهيم العدل بين الطرفين، نحن ندعم بشده تنفيذ الوعد وإقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين، لكننا نريد أن يتحقق ذلك بأقل سفك للدماء.

- لقد مُنحنا حق الانتداب لنطبق الوعد بما نملك من قوة، إن الحرية والعدل والمساواة مفاهيم واهية، مضللة، الطبيعة نفسها لا تقبل هذه المفاهيم، هل نتساوى أنا وأنت وهؤلاء البدو المتخلفون.

- إن أسس مجتمعاتنا تقوم على هذه المفاهيم.
- هذا هناك عندنا وعندكم، أمّا هنا، فالطبيعة هي التي صنعت الفروق

في الأذهان والأخلاق والأجسام والقوة والأشياء وتوزيع الثروات،
العدالة خرافة، الغرائز هي المصالح، والسياسة تقوم عليها، والمصالح
ضد العدالة.

- هذا منطق خطير.

- إن الخطر علينا جميعاً يأتي من هنا، من روح هذا المكان، من الرسالة
التي يبعثها، لذا علينا أن نخضعه لروايتنا.

- أرجو أن تُدرك حكومة صاحب الجلالة ما تفعل في حدود التفويض
الأممي الممنوح لها، سنكون معكم بتنفيذ الوعد، وسنكون أول من
يعترف بالوطن القومي لليهود، لكننا قد نختلف معكم بالوسائل.

كان أبو جريس على يقين أن اليهود هم من فجر العبوة القاتلة بباب
العامود، لكن حديث القنصل أيقظ أحزان ما فتئت تطارده حيث كان،
صور ماري، أمه، أبيه، وصور أطفال مزق الانفجار براءتهم.

المدينة نفس المدينة، وطريق الآلام طويل، ضاقت أزقة الحارات، عَبَر
من باب الخليل، جرى دون توقف، شعر بضيق شديد، جفَّ حلقه،
مدَّ يده إلى سبيل الماء قرب سوق الحصر، سمع خرير الماء وهو ينساب،
غَبَّ من نهر الجرح فأنى له الارتواء، انسابت صفحات الأيام، لم
تكن تقلبات الزمن وصور الوجوه المتبدلة والأيدي الممتدة إلى الماء
ذات مغزى مختلف، تقدمت القديسة فيرنوخيا، تخطت طوق الجنود،
مسحت عرقً عمئويل بمنديلها الأبيض، بكت صبايا المدينة، قال
صاحب إكليل الشوك:

"لا تبكوني، بل ابكوا ضحايا القدس من الشباب".

أخبريني يا ماري من قطف الياسمين وأشعل النار في الوادي، أما آن
لبيلاطس أن ينتهي، كم مرة سيُصلب مسيحي، ويُكسر صليبي، القاتل
نفس القاتل.

مخارة القبر المقدس

كلما مرَّ أبو جريس بمدرسة الترسنطة، تذكر صديقه القديم صاحب الاسم الثنائي المتماثل ضرباً وعروضةً وقافيةً للنشيد، ليس من شعور يغمره الآن أقوى من شوقه إليه، ورغبته مجالسته وبثه شكواه كما كان يفعل في سنين خلت، فيه يرى عنفوان الحياة، وطاقة لعطاء لا ينضب وعزيمة لا تلين مهما أجأثتها^٧ الأحمال، ما زال يذكر كم كان سريع البديهة حاد الذكاء، أحبَّ فيه جسارته وجموحه وحبه الكبير للقدس، لكل ما فيها، شجرها وبشرها، سمائها وهوائها، كنائسها ومسجدها، طرقاتها وبيوتها، مقاماتها وأوليائها، كان يراه مستمتعا وهو يسير في طرقاتها وأزقتها، يشدو ويغني أحيانا مثل عصفور، ويُرتل ويدندن أحيانا أخرى مثل ناسك أو إمام، يفتش الأرض ويرسم معالم الطرقات، يساعد عجوزا يحمل على ظهره دلاء الماء، أو يسامر صاحب حانوت، يداعب طفلاً يلهو في الطريق، أو يلهو كما الأطفال في الحارات، يُصلي في مساجد المدينة، أو يُضيء الشموع في كنائسها ومقامات أوليائها، وإذا حدثك عن القدس تكاد تظنه يتحدث عن حبيبته التي يشفق لها حتى عندما تكون بين أحضانه.

ليس كالقدس مكان في الدنيا يا أبا جريس، كان يقول، إنها ليست عاصمة الوطن والعالم فقط، بل هي عاصمة الزمن، تتزاحم أنفاس التاريخ في مساحتها الصغيرة، تتكدس فيها طبقات فوق طبقات

في تنوع وحضارة وناس منذ بدأوا لا ينتهون، تحبب العصور وتعين الأرملة وتبث للندى روحها المتقدمة على الدوام، فيذب العالم في فضاء أزقتها المتنافذة، تشابك على جسدها وجغرافيا وجهها نقوش ونصوص وآيات، يستحيل تفتيت عمرها وفقا لمزاج سياسي أو عالم آثار، في جنات هذه المساحة الصغيرة التي لا تتعدى كيلو متراً واحداً، وضع الله أسرار الحكاية كلها، وجعل من كل شبر فيها موطناً لنبي أو رسول، وفي كل ساعة من زمن سيرة لملاحم من بطولة وتضحية وفداء، إنها مدينة لم تنجح عن درب الجلجلة والآلام منذ عصور طويلة، ما من عظيم إلا وشعر أن هيلمانه ضعيف دونها، وما من ملك أو سلطان إلا وظن أن ملكه سيقى ناقصاً دون أن يبسطه عليها، طويت تحت ترابها حضارات أمم كبيرة، وسالت عليها ومن أجلها دماء ودموع كثيرة، إن أنفاسها التي تتطوق للسلام، تحثنا على النضال من أجل ذلك حتى لا تُزيّف الحكاية، ولا تُسرق روح المدينة، ولا تحل الأسطورة مكان التاريخ والحقيقة.

لذا كان غضب الصديق من مدرسة الترسلطة ساحقا، عندما رأى الأعراب يزحفون إلى المدينة ويستولون على بيوتها، قال لأبي جريس يوماً: اضرب رأس الحية ولا تبحث عن الذنب، "حرك بيت العقرب تخرج مكرهه"، قال سنضرب رأس الحية هذا اليوم.

تذكر أبو جريس يوم طلب وعد منه أن يؤمن له ولصديق آخر مكاناً يستتران فيه من مطاردة الإنجليز لهم، قال له يوماً: نحن عازمون على القيام بعمل هام، وسوف تطاردنا كلاب الانجليز وعملاؤهم. يعتقد البعض أنك سوف تنتقم لاستشهاد صديقك من مدرسة الرشيدية سامي الأنصاري، قال أبو جريس وهرت ذاكرته برد وعد، الانتقام

ليس هدف، لا شك أني حزين وربما غاضب لما فعلوه مع سامي، لكن الأمر أكثر خطورة، إن الناس مصابون بالإحباط من كثرة اللجان التي جاءت وذهبت ولم يسفر عملها عن شيء، إن الإنجليز يحاولون أن يكسبوا الوقت بإشغالنا بهذه اللجان، حتى يتوافد اليهود على فلسطين من كل أقطار الدنيا، ولكي يصبحوا جاهزين للسيطرة عليها، عندها سيخرج الإنجليز ويسلموا بلادنا لليهود. يا أبا جريس، علينا أن نضرب الإنجليز بشدة الآن، ونفتح الطريق لثورة أعم وأشمل وأكثر تنظيماً، علينا أن نجبر الإنجليز على الرحيل الآن، وقبل أن تقوى شوكة الصهاينة وحلفائهم، عندها سيعلم هؤلاء الشذاذ أن ما من سند لهم وسيهزمون. أعلم أن الأمر قد يكون أكثر تعقيداً مما أقول، لكن، من المهم أن نبدأ، إن القيادات السياسية مشغولة مع اللجان التي ترسلها الحكومة البريطانية بين فينة وأخرى، وربما أصبحت تلك القيادات جزءاً من خطة الإنجليز، سواء شعر أفرادها بذلك أو لم يشعروا، لقد دفعوا الناس إلى حلقة مفرغة، إننا نخشى على الناس من سياسة التيئيس، إن بريطانيا تُلقي بكل ثقلها على كاهلنا الضعيف، إنهم يضربون بقسوة على كل محاولة للمقاومة، ليس عبثاً أن يُحكم على المرء بالإعدام لحيازته رصاصة، أو بالسجن والتعذيب لسنوات لحيازة شبرية راع، إنهم يسعون لتخويفنا وتيئيسنا من المقاومة، وبالمقابل يفتحون أبواب الهجرة إلى بلادنا لليهود، ويمدون لليهود بالمال والسلاح والعتاد، علينا أن نُعيد الأمل للشعب، وأن نرفع من معنويات الناس ونظهر لهم بوضوح أن النصر ممكن، سنضرب اليوم بشدة رأس الحية، ولي بك أيها الصديق أمل كبير مثلما كنت دائماً، فكن جاهزاً، فقد نحتاج إليك.

تصاعدت أنفاس أبو جريس وهو يستعيد تلك الذكريات، كأنه

يعيشها الآن، وكادت أنفاسه تسابق كلماته، تملكه بعض الخوف، لكنه قال: نعم أنا جاهز دائماً، إنني جاهز... إنني جاهز... ثم انتبه أبو جريس إلى أنه يحدث نفسه، نظر حوله كأنه يتأكد أن أحداً لم يُطلّ على ما تحتويه ذاكرته الخطرة، كم أنت رائع يا صديقي، لن تتركهم يحرقون وردّ الصباح، ليت أي كنت معك يومها، لقد جنّ جنون الإنجليز من شدّة الضربة، واختفى اليهود من شوارع المدينة، تتم أبو جريس في سره، وكان قد وصل إلى ورشة الماكنجي أبو فؤاد في الدباغة، وهي كشك من الخشب المطلي بلون أخضر جميل، يقع عند الزاوية المؤدية إلى مسجد عمر وكنيسة القيامة، حيث يعمل مهران، كانا وواعد معاً في مدرسة المار يوسف قرب باب الخليل قبل انتقالهم معاً أيضاً إلى مدرسة الترسنطة، ما زال يذكر ما قاله الأستاذ كستنا لمهران ذات يوم: أنت مشروع قسيس يا مهران الصغير. كان فتى طيباً صادقاً أميناً يحبّ خبز الطابون وزبي الفلاحات وأجراس الكنائس، أرسله والده لتعلم حياكة جلود الأحذية عند أبي فؤاد في الدباغة، كان يحضر إبريق الوضوء لأبي فؤاد، ويقول له ما إن ينتهي من صلاته: تقبل الله صلاتك يا معلمي، لم يتفاجأ مهران عندما طلب منه أبو جريس أن يُجهز مكاناً ليستتر فيه اثنان من مجاهدي المدينة، بل تحمس كثيراً، خاصة عندما علم أن أحدهما هو صديقهم القديم من مدرسة التراسنطة، قال له: بعيني يا أبا جريس، أنا أفديهم بروحي، لا تقلق أبداً، سأجهز كل ما يلزم. عندما وصل أبو جريس، كان صوت مهران ينداح عالياً وهو يجلس لماكينة الحياكة منشداً صلاته باللغة الارمنية.

- ما أجمل هذا الصوت أيها العزيز مهران، لا شك أنك مشروع قسيس كبير. رفع مهران رأسه، وكان يمسك بيديه قطعة من الجلد يُدورها

تحت مسند لإبرة الماكينة، قال:

- ها... أبو جريس عندنا ولا تفوح منه رائحة النبيذ، يا مرحباً...
- لا تسخر مني يا رجل، إنها الوحدة تدفعني للخمر أحياناً.
- ولم الوحدة، أنا هنا، ألسنا أخوة يا رجل؟ أنا صديقك ورفيق طفولتك.
- يُدرِكُ مهران عمق الألم الذي يعانيه أبو جريس، وقد فقد كل من أحب.
- إني مشتاق لصاحبنا، قال أبو جريس.
- إذاً دعنا نذهب إليه معاً، سنشتري رطلاً من الشقف والكباب، من الجميل تناول الغداء مع الصديقين، كل دقيقة أفضيها معهما أتعلم شيئاً جديداً، إنهما كنز ثمين يا صديقي، منذ اعدتهما إلى المخبأ بعد مهمة عاجلة قبل اسبوعين لم أرهما، إني في شوق لهما، حمهما الرب.
- هل الطريق آمن؟
- لا تقلق إنهما في غرفة جدتي، وأنت تعرف ما غرفة جدتي، مثل حصون الرومان، لن يدركها الإنجليز مهما حاولوا.
- انطلقا من سوق الدباغة بجوار مسجد عمر في حارة النصارى، وصعدا الدرج المؤدي إلى ساحة باب الخليل، مروراً بالقشلة، ثم إلى زقاق ضيق إلى اليسار، حيث البوابة الكبيرة لدير الأرمن، دخلا إلى يمين زقاق البوابة عدة أمتار، انحرفا بعض خطوات إلى الساحة الكبيرة للدير، ثم يسارا وتابعوا السير إلى الأمام ثم يميناً مرة أخرى إلى فناء صغير، ثم زقاق ضيق غير مسقوف، ومنه إلى فناء آخر، ثم إلى زقاق ضيق مسقوف ومعتم لا تكاد ترى موضع خطوتك في نهار مضيء، ثم إلى فناء على شكل مغارة ومنه إلى ساحة صغيرة أخرى، صعدا عدة درجات إلى اليمين، هناك حيث بيت الجدة، قرع مهران الباب، استقبلتهما أمه،

وهي امرأة في منتصف العقد الخامس، ذات شعر أبيض كثيف، دخلا غرفة صغيرة يتوسطها دوشك وطاولة من خشب البلوط، مستطيلة الشكل ذات قوائم قصيرة، توسطها سراج الكاز الصغير، وزُين جدار الحجرة بصورة للعدراء تَحْمِلُ صغيرها وإلى يسارها صليب ومسبحتان من عجم الزيتون، وذباله يترنح نورها في بنورة من غير سراج، رحبت أم مهران بهما بحرارة وعاتبته لأنه انقطع عن زيارتها منذ مدة طويلة، خاصة أن أمه قد أوصتها به قبل رحيلها، قرّعه أم مهران على ما سمعت عنه من ابنها من تعلق بشرب الخمر.

- دعينا من هذا يا أماه وافتحي لنا باب الغرفة، نريد زيارة جدتي، قال مهران.

أدركت أمه المغزى، ودون أن تقول شيئا، أحضرت مفتاح الغرفة في الطابق السفلى، قال مهران وهما ينزلان بضع درجات إلى زقاق ضيق داخل البيت:

- كانت جدتي رحمها الله تقول إن غرفتها تشبه مغارة القبر المقدس، ومن يسكنها يبقى في حماية سيد القبر. عبرا من جُؤْجُؤ بالكاد يمكن أن ترى منه موقع أقدامك، قرع مهران الباب بضربات خفيفة مميزة، فتح سعيد راضي الفدائي ابن الثالثة والعشرين، ولاقاهما معانقا، هاشا باشا سعيداً برائحة الكباب.

كان الصديق الآخر يجلس إلى طاولة صغيرة، وبدا أنه منشغل بالكتابة، لكنه ما إن سمع صوت زواره حتى نهض، عانق أبا جريس بحرارة، وما كاد أبو جريس يثته همومه وشكواه حتى بادره وعد:

- وصلت بوقتك يا أبا جريس أنا أحتاجك لأمر مهم.

- كذلك أنا، أجب أبو جريس

جلسوا جميعاً إلى مائدة صغيرة إلى جوار سرير خشبي في زاوية الغرفة، قال أبو جريس

- اليوم تأكدت أن اليهود هُم من قاموا بعملية باب العامود، لقد سمعتُ القنصل يقول هذا لأحدهم أثناء نقلي لهما إلى مقر المندوب السامي، وقد أراد القنصل أن يبحث مع المندوب السامي هذا الأمر، إنهم يحاولون منع ردة فعل عربية، هزّ وعد رأسه بأسى وقال:

- نحن نعلم منذ البداية أن اليهود وراء الانفجار، دماء شهدائنا لن تذهب هدراً، دع القنصل يُناقش مع المندوب السامي ما يريد، ردنا قاب قوسين أو أدنى، ومع ذلك نحن لن نعمل بردات الفعل، لقد جهزنا أنفسنا لمقاومة منظمة، لدينا نقص بالسلاح، بعض الإخوة يعملون على هذا الجانب، منذ عودتي من ألمانيا، خاصة بعد عمليتنا الأخيرة تطورت أمورنا، نحن جاهزون لتحضير كمية لا بأس بها من المتفجرات، على كل حال لقد قام مهران بمساعدتنا كثيراً بالاتصال بالمجموعات، ولكنني أريد أن أرسلك إلى إحدى مجموعاتنا التي ليس لمهران ساتر أو حجة الوصول إليها، ستحمل لهم رسالة مني، وسيكون عليهم أن يجهزوا لخروجي من هنا، سنرد بمجموعة من العمليات الكبيرة، أعتقد أننا جاهزون للتقدم إلى مرحلة جديدة من النضال.

هزّ أبو جريس رأسه مستحسناً، وقال:

- كلنا جنودك، ورهن إشارتك، مهما كان الأمر صعباً، أيها البطل العظيم.

- لا عظيم سوى الشعب ولا أبطال سوى الشهداء يا صديقي، إننا يا أبا جريس لا نتحدث عن بطولات خارقة، أو مقاومة خيالية يعجز عنها الإنسان العادي، إن نضالنا هو جزء من النسيج الحياتي للناس،

نحن نختبئ لمرحلة مؤقتة، زملاؤنا في المدينة يعيشون حياة طبيعية، إنهم يأكلون ويعملون ويتحدثون ويقاومون، دائماً وبالضرورة هناك أهمية للتضحيات الفردية والجماعية، ولكننا لا نتحدث هنا عن بطولات فردية، لا أبطال فردين إلا في الخيال الشعبي للناس، البطولة نتاج لمخزون طاقة شعبية خلاقة وشجاعة، قد تتجسد في أداء الأفراد في لحظة ما، وفي موقف ما، وقد تتكرر مع هذا الشخص أو ذاك، وربما تصبح نمطاً في سلوك شخص ما، وفقاً لخصائص الأفراد وتفاعلهم مع البيئة والحدث، إلا أنها تبقى نتاج القوة المبدعة الخلاقة للشعب، يسكبها في حراكه الفردي حيناً وفي حراكه الجماعي حيناً آخر، وعند هذا فقط، تصبح تلك القدرة الخلاقة طاقة تغيير ثورية هائلة، قادرة على تحقيق التحول أو الإنجاز أو النصر، أما الأفراد فهم أصحاب طاقة محدودة مهما بلغت، يُقدمون أحياناً ويُججمون أحياناً، تعزيرهم مشاعر القوة حيناً والضعف حيناً آخر، يتواضعون ويتباهون، فيهم الأتقياء ومنهم الأشقياء، بعضهم أوفياء شجعان مقدمون، وآخرون جناء متخاذلون، منهم البسطاء والفقهاء، رجالاً ونساء، شيباً وشباناً، أما الشعب فهو كل هؤلاء، لذلك فهو مبدع وخلاق، إن مهمة الأفراد أمثالنا هي أن نفتح الطريق أو نزبل العوائق، وربما أن نقرع الجرس أحياناً، لننطلق تلك القوة العظيمة.

أما أنت يا صديقي، فلا تستعجل، لكل شيء أوان، وسيكون لك ما تريد، فبك من الخصائص ما يجعلك قادراً على العطاء دائماً.

على كل حال لا شك أنك تعرف الست فاطمة، المعلمة في مدرسة المعارف.

- أجل... أجل أعرفها، إننا نسكن الحي نفسه.

- أريدك أن تحمل لها رسالة مني، الست فاطمة سيدة شجاعة ومتفانية.

لفاطمة التي تحرس ورَدَ الصبا
الرسول أمين والوعد صادق
ولنا زهرة الصبح إن طال الظلام
لا يجف الدم في باب العامود
قبل أن يُطْلَقَ الفارس
ويتوقف الإصدار

.....وعد

وعده لا يلين

على ترانيم أنشودة صياح الليل وضوء قنديل خافت جلس أفراد أسرة عمر "مترعين" لتناول طعام العشاء، حول طبلية مستديرة من خشب الصنوبر، نهض عمر متاقلاً من حيث مجلسه تحت شجرة التين، انضم إلى أفراد أسرته، بدا مهموم البال بعيداً عن أي رغبة في الكلام، ظل باب البيت يُقرع بين فينة وأخرى، فتنهض فاطمة حيناً ونرجس حيناً، تتناولان بينهما دلة الحليب الجاهزة إلى جوار الباب، تصبآن الحليب للطارق، وتأخذان منه بضع ملينات تضعانهما في صفيحة صغيرة قرب الباب، ثم تعودان وتجلسان إلى مائدة الطعام دون أن تقولاً شيئاً. قُرع باب البيت مجدداً، فتحت نرجس، رفع رأسه، نظر إلى وجهها، برهة من حلم هرب إلى زمن بعيد، نظرة واحدة من لحظها الفاتر، أصابت قلبه وأشعلت فيه نارا لا تطفأ، ألقّت أسرار جمال معتق فاح فجأة مثل نبذ وانساب داخل شرايين القلب، انحدرت على جبينه قطرات رطبة، وغطى أطرافه عرق لزج، دقت أجراس كنيسة الراهبات، رجع صداها إلى فناء الروح، تردد لبرهة، أغمض عينيه، اخترق جفونه المسبلة بهاء مَهْمَا انبعث من عينيها البجّاوين، صلى لملائكة العيون السوداء، انتابه إحساس رغبة بالتحليق عالياً، اهتزت زجاجة انسليموس فوق رف مكتبه الصغير، ابتسم، قال:

- مساء الخير أنا أبو جريس، جئت لزيارة الصديق عمر.

نظرت إلى صفاء بلوريتين حزينتين صامتتين، عبرتا عن صفاء في

الروح، ربما فهمت من العيون المتعبة ما لم تقله الشفاه الحائرة، نبض قلبها بارتباك مثل عصفور خائف، لمع في عينيها وميض نجم هارب، شعرت أن أملا قفز من نافذة القلب وحطم زجاج الانتظار، ارتعشت، وغطى يديها زغب ذهبي، أزهر لون وجهها، بدا له أنها زمت وجنتها وابتسمت ثم سحبت برفق خمارها الأبيض الذي انسب على وجهها مثل غمامة بيضاء بعد أن ومض من أعلى طرفها نور نجمتين سابحتين، ارتدت نرجس إلى الخلف.

- من الباب يا نرجس، قالت أم عمر.

- شخص اسمه أبو جريس، جاء لزيارة أخي عمر.

سمع أبو جريس اسمها، وقع على أذنيه كأنشودة فرح حميم، نهض عمر مسرعا وهو يقول:

- والله فيه الخير.

وتابع وهو يهرول نحو الباب:

- انهضوا إلى الداخل.

فهرعوا وغابوا عن المكان، رحب عمر بأبي جريس، وقال:

- والله فيك الخير يا صديقي، تفضل ادخل، إني أجلس إلى السفرة، ويسعدني أن تشاركني عشاءي.

سحب أبو جريس نفسا عميقا، تذكر المهمة التي أتى من أجلها، استعاد وعيه الذي تاه في فضاء من عيون سوداء، هل زمت وجنتها؟ هل ابتسمت حقاً؟

- مساء الخير يا عمر، حضرت كي أطمئن عليك، بعد هذا الغياب

الطويل، كيف أنت يا جاري العزيز؟ أرجو أن تكون بخير.

- إني بخير أيها الجار الطيب، قد يطول الغياب، وقد تتغير بعض الأمور،

لكننا نبقى هنا.

قدم عمر بعض اللبن الطازج لضييفه، تبادل معه الحديث في أمور العمل والحلي، وفرح عمر أشدَّ الفرح عندما علم أن أبا جريس أنهى دراسته وقرر الاستقرار في القدس.

تلفت أبو جريس يميناً ويساراً، لم يرَ فاطمة، ثم قال:
- جيد لقد اطمأن قلبي أنك بخير، اسمح لي أن استأذنك،
وحبذا لو أخذت معي بعض الحليب.
نادى عمر فاطمة، وقال:

- أحضري كسرولة مملوءة بالحليب لجارنا أبي جريس.
ثم مدَّ عمر يده إلى كيس اللبنة المعلق على نافذة المطبخ والذي ينز قطرات بيضاء، حلَّ رباطه وناول ما غرفه من الكيس إلى أبي جريس ثم دخل إلى المطبخ لإحضار بعض الجبن لضييفه العزيز.
تقدمت فاطمة من أبي جريس، تحمل يمينها دلة حليب كبيرة وبالأخرى كسرولة صغيرة، ألقت تحية المساء، وهمت تصب الحليب لأبي جريس الذي قال:

- مرحباً يا ست فاطمة، وأضاف همساً. أحلُّ إليك رسالة من وعد، مدَّ يدا نحو كسرولة الحليب وأخرى تحمل الوعد الذي لا يلين.
ما إن سمعت فاطمة باسم وعد، حتى مدَّت يداً واثقة إلى زاجل الليل، بينما انتفض عصفور القلب شوقاً ولهفةً وحنيناً، نظرَّ أبو جريس في أنحاء البيت علَّه يلمح راهبة الخمار الأبيض، عبرت ماري بين لحظ العين المملوءة أملاً، ودويَّ الانفجار، انقبضت أسارير الوجه وانساب الندى على الوجنت، وفاضت أشجان الروح، وشدَّت زراير الليل.
خطا الزائر على مهل حنون إلى حيث جاءت به الخطى، لعل خبيثة

البيت تُطل من زوايا الجدار، غير أن الليل التهم آماله رويداً حتى أتى عليها وغاب في بطن الظلام. دخلت فاطمة إلى غرفتها، أنزلت الفراش من الركسة، فرشت باحة الغرفة استعداداً للنوم، ألقت نرجس رأسها إلى وسادتها، حدّقت بنور قنديل تسلل من النافذة وتمايل مع نسيمات هواء خفيفة، أعادت رسم الابتسامة الحزينة لصاحب العيون المتعبة في مخيلتها، لم يطرق ذلك الباب إلا الصبية طلباً لبعض الحليب، قالت لنفسها، وعندما آن للطارق أن يقرع أبواب القلب، جاء قدراً مستحيلاً لا تناله الأمنيات، تلك بداية تُحطم القوادر، اغرورقت عيناها، أدارت وجهها إلى الفراش على يمينها، هناك استلقت فاطمة تضم إلى صدرها وعداً سيقرع أبواب السماء.



نحن أمة رسالة

حطّ رجال من تعب التيه على ربوة من رمال حمراء، واستلقى كليم الله كدراً مع من تخلفوا وراء الجبال خشية من قوم جبارين. ثم جاء الزمن على خب جياذ وقعقة سيوف في الجلبوع، حتى ارتفعت فوق جباه التلة تيجان أباطرة وقياصرة وملوك.

تقدم سيد الوادي بطيء الخطوة واثق النفس من مجرى الماء، خطا حتى غمرت قداسة النهر ويدا يوحنا رأسه ومسحت خطايا ناسوته الفاني. ثم حملت فرس مجنحة بشيرا فحطّ عند ميناء وحيد بين أرض الله والسماء، ما كان الرسل فرسان حرب أو دعاة بغي وإنما أنبياء الله مبلغين، ولم تكن الرسالة إلا واحدة، وما كان النهر حداً، فليس للرسالة حدود، هي بشارة الوعد بالمحبة الأبدية، والخلاص من ذنوب الأرض، غير أن مشعوذاً من مجمع كليرمونت^{٧٩} امتشق سيف الحرب ونادى من خلف بحار بعيدة، فأشعل أوربان الثاني نار الفتنة وأعمل بالوديان سيف القهر، فسالت دماء الخطية من تلال الكرك حتى ضفاف النخيل والزيتون ولم تتوقف قط.

تدفقت قوافل القادمين من كافة المدن، من دمشق وعمان والكرك وجنين والخليل إلى الطرقات، فجّوا إلى الربوة الحمراء، يرفعون الرايات بألوانها المزركشة ورسوماتها الفيّروزية، تصدع حناجرهم بالتكبير فردد الصدى في جنبات الوادي من تلة مأدبا والربوة الحمراء وبحر ٧٩ مجمع المؤتمر الذي عقد في مدينة كليرمونت الفرنسية سنة ١٠٩٥م، ألقى فيه الأمبراطور أوربان الخطاب الذي جند للحروب الصليبية

الملح، حتى أسوار المدينة.

لم يدخل النبي موسى إلى مقامه هناك قط، ولم يرقد فيه ساعة من ليل ولا من نهار، ولم يعبر النهر إلى ضفة بيت المقدس، غير أن القائد صلاح الدين، وقد رأى مشاعل "ري يوم دو جيرو ساليم"^{٨٠} تغطي تلال القدس، أراد أن يجعل لجيشه مشاعل لا تقل هبة عن التلال المقابلة لأسوار المدينة، ولأسباب عسكرية أكثر منها دينية، أقام في ذلك المكان مقاماً للنبي موسى عليه السلام، هو أشبه بقلعة عسكرية، محاطة بسور كبير، وأروقة داخلية وساحة واسعة، وقد جعل الناصر صلاح الدين الاحتفال بموسم النبي موسى ملازماً لاحتفال الطوائف المسيحية بعيد الفصح في الرابع من نيسان، وما كان ذلك إلا في مواجهة استعراض الصليبيين لقواتهم أثناء احتلالهم المدينة.

أعدَّ عمر وزوجته وأخته منذ أيام بقج السفر والإقامة في النبي موسى لكل أفراد العائلة، إرضاء لأمه التي تحرص على الإيفاء بنذورها في المقام المبارك، بينما يحبُّ عمر المشاركة بالموسم، لأنه يُذكره بوالده الشهيد، كان عمر صغيراً لم يبلغ الخامسة، لكنه يذكر بشكل ما أن معركة دارت هناك مع الانجليز والصهاينة شارك بها والده، وعلم منه فيما بعد أنها كانت ثورة الشعب في وجه المغتصب الغازي وعملائه من الصهاينة القادمين إلى فلسطين لتجسيد وعد بلفور، قال له والده إن الانجليز يومها عزلوا الباشا الطيب موسى كاظم الحسيني من رئاسة البلدية وحكموا بالسجن عشرين عاماً على الشاب الشجاع أمين الحسيني الذي أصبح فيما بعد مفتي فلسطين، وعلى وجهي القدس كامل البديري وعارف

العارف، ثم سرعان ما رضح الإنجليز وألغوا ذلك الحكم أمام غضب الناس.

كان موسم النبي موس بالنسبة لعمر دائماً أشبه باستعراض عسكري منه إلى مناسبة دينية، لكنه في هذه المرة، يذهب إلى هناك مع رغبة أخرى، علّ هذه المناسبة الجليلية تأخذه من همه وحيرته، وتُسري عنه، كان في أشدّ الحماس وهو يُقبل مع العائلة على ركوبة مثل أبناء العائلات الميسورة، أمه وزوجته يهودجين مع الصغار وأختيه يهودجين إلى جوارهما، بينما امتطي هو فرساً بيضاء تقدمت الركب وقد تدلى جانب خُرجها من وزر ما تحمله من عُلسٍ وعُلوس⁸¹، شعرَ بفخرٍ عظيم وقد تَفَنَّق⁸² على نفسه وعائلته وبعث ذلك في نفسه الطمأنينة والتفاؤل.

توافد الناس من كل شعبٍ وفجاجٍ على مدار الأسبوع الأول من نيسان، واصطف أعيان القدس ووجهاء المدينة في استقبال الوافدين، كانت مواكبهم تُطلُّ تباعاً من بين التلال، جياد تحمل الماء والمؤن، يليها فرسان يحملون ييارق العائلات المقدسية، ومشاة يرفعون رايات الضيوف الوافدة، ومن بعدهم المشاة من الرجال بقنابيزهم وجلابيبهم وكوفياتهم المغبرة، والنساء بملاياتهن السوداء وقد عفرتها الرمال، وبدأت عليهن مشقة السفر، انتشرت الخيام داخل المقام وفي محيطه كأنها أشجار خضراء نبتت فجأة في قلب صحراء قاحلة، بينما شغل أبناء العائلات المرموقة وكبار الضيوف الغرف الداخلية للمقام. كانت أصوات الأبواق والطبول تصدّع منذ ما بعد صلاة الفجر حتى

٨١ طعام وشراب

٨٢ بذخ

وقفت الجموع في مشهد عظيم لصلاة الظهر والعصر جمعاً وقصراً، وما إن أدى الناس صلاتي المغرب والعشاء حتى أصبح التلُّ بسطاً من نار ومشاعل، تتقد وتتسع كأنها ستنقض على وحش الكايميرا، لكنها لا تستهين بحصان بيجاسوس^{٨٣} المجنح، كانت حزم النور المنتشرة على مدى الربوة العالية تشق ثوب العتمة على المدى المفتوح حتى أسوار المدينة التي غرقت في لجة سواد قاتم مخيف كانت قد أفلتت من أسر غيومه بضع نجوم.

عاد عمر وأفراد عائلته من الاحتفال البهيج بعد سبعة أيام وثنائي ليالٍ قضوها في العبادة حيناً، وفي التجارة مع الوافدين حيناً آخر وفي السمر في مجالس الرجال على صوت الأهازيج القادمة من خوابي النساء في المقام ما بعد صلاة العشاء. كان التعب قد أخذنا نشاط أفراد الأسرة الذين رقدوا في غرفهم، وقد خيم الصمت على أجواء البيت والحوش. استلقى عمر قريباً من حوض الماء وقد نال منه التعب، حلق في أنحاء البيت، كأن شيئاً لم يتغير، كان كل شيء في مكانه، البئر والوزير والحوض ودلو الماء وقنديل الجدار والمداة العجوز، غابت صورة المشاعل المضئية وأصوات الطبول وتكبيرات الرجال وأهازيج النسوة، وحدهما الحيرة والقلق عادا ليحتلا حيز النفس، انقبض صدره من همٍّ ومن تعب، كأن ماسحاً غريب الأطوار مسح بكفه أثر الليالي الممتعة التي قضاه في مقام النبي موسى، عاد للتحديق في جنبات البيت، تمايلت أضواء قنديل المساء الحافت في حوش الدار، وداعبت نسبات هواء خفيفة أوراق المدادة العجوز، قلبت لأولوة السماء مزاجها وتحذبت خلف غيوم

٨٣ هو الحصان الأسطوري المجنح في الميثولوجيا الأغريقية، الذي قتل الوحش الاغريقي متعدد الرؤوس الكايميرا

نيسان الخادعة، بدا بريقها المتموج على صفحة ماء الحوض زائفاً كبقعة ضوء باهتة سُلبت من شمس النهار، ليس سوى جدران البيت، ونشيد رُزُور حزين يغني ليؤنس ليل وحدته الحائرة، خلا عمر إلى نفسه مع يأسه وحيرته وعجزه، جلس وحيداً تحت شجرة التين، عادت صورة الشيخ التي لم تفارق خياله إلى ذهنه من جديد، ما زال صوت الشيخ المتهدج يطنُّ في أذنيه، شعور أقرب إلى الحلم، حاول ترتيب الأحداث التي مرَّ بها، قال لنفسه المتعبة:

- لحظة خرج الشيخ ربحان من المقام كان الفجر قد ذهب بثوب العتمة، ما رأيته لم يكن وهماً، يدُ الشيخ كانت على كتفي، صوته كان متهدجاً لكنه كان دافئاً حنوناً، كنت قد عُدت من صلاة الفجر، حملتُ دلات الحليب، وخرجتُ بعد أن كشفَ الصبحُ عيون الضياء، لم تكن عتمة كما ظنَّ الشيخ إسلام، كنتُ أرى بعيني هاتين، لم أكن أرى بعيون الموروث اللعينة، كنتُ بكامل قواي العقلية، أدرك ما أحمل وإلى أين أذهب وماذا أريد، لم يكن بي علة أو مرض ولم أكن أهذي. ليت أني تَبِعْتُ الشيخ إلى المقام قي تلك اللحظة، لو فعلتُ لكنتُ على يقين إن كان هناك من تَقْمَصُ شخصية الشيخ وسخر مني، آه لو تناله يدي.

وبينما كان عمر غارقاً في أفكاره الحائرة، سمعَ ما بدا له أنه قرع خفيف على الباب، نهض متأففاً، يسأل: من جاء يرجو الحليب في دجى هذه الليلة، فتح باب الحوش، أطل فلم يجد أحداً، سار خطوتين إلى خارج البيت، نظر إلى يمين الطريق، كان ممتداً خالياً مغموراً بصفرة قاتمة تموج فوق حجارة الجدران، بينما براميل النفاية مختلفة الأشكال والأحجام أمام بوابات البيوت تكاد تبدو مثل كائنات متحفزة على جانبي الطريق، نظر إلى يساره، كانت كوة من ظلامٍ قد التهمت فضاء الطريق إلى دير

العدس عبر زقاقه المسقوف، شعر كأنه يُطلّ على هوةٍ سحيقة، أعاد الكرة ونظر إلى جانبي الطريق برهبة، رفع رأسه، نظر إلى الأعلى، كان طارق السماء ثابت المكان بينما لا حَبَّارٌ^{٨٤} لطارق الليل، أطبق الصمت على عنق الرِّبْض^{٨٥}، هز عمر رأسه بتعجب واستغراب، وسرعان ما خطا نحو بوابة البيت، رتج المدخل، وهم بالعودة إلى حيث كان، تمايلت ذبالة القنديل وخفت ضوءها حتى خاب منها الرجاء، غابت لأولؤة المساء عن صفحة الحوض واختبأت خلف نَجاء أسول، أرخت قسورة الليل أسدال الظلام، حلق عمر في حزمة من نور ظهرت فجأة قريباً من مجلسه تحت شجرة التين، هزعت فرائضه وانتابته رعدة مفاجئة اقشعر لها بدنه، ولم يصدق ما ترى عيناه، إنه الشيخ ريجان بعمامته وثوبه الأخضر، يجلس هناك، مُكفَّهَر الوجه قاضب الحاجبين، أخذ عمر نفساً عميقاً، شحب وجهه، تتم في سره حتى لا يوقظ أهل بيته أو يُسمع الزائر ما يوحى بخوف أو هلع.

- بسم الله، أعوذ بالله منك إنساً كنت أو روحاً أو جاناً.

وما إن استجمع بعضاً من قواه المرتبكة، هرول ناحية الشيخ، هاجمه وأمسك بتلابيبه وصاح:

- إن الأموات لا يخرجون من قبورهم ولا يتجولون في الطرقات، ولا يزورون بيوت الناس، إنهم هناك في قبورهم ساكنين آمنين، من أنت ماذا تريد مني؟ أنت كاذب، تتقمص شخصية الشيخ ريجان رحمه الله، حتى تسخر مني، إن الشيخ ميت، قل لي من أنت..؟ من تكون؟ أنت أيها....

٨٤	أثر
٨٥	نواحي المدينة

فجأة أحسَّ عمر بقوة غريبة تطبق على صدره تبهّزه بعيداً عن الشيخ وتطرّحه أرضاً، ربّما كانت يد الشيخ، أو يد خفية تحرّسه وتحميه، ربّما....، غير أن هول الصدمة كان أشدَّ على نفس عمر من قوة اليد الخفية، فما كاد يستيقظ من البهْزة العنيفة، حتى رأى الشيخ ينظرُ إليه بغضب، ويقول:

- ما بك مَبْدُوع^{٨٦} يا هذا، أما زال الرعب والفرع يُعطّل عقلك وقلبك وروحك، أما زلت أسير عجزك ورتابة حياتك، تسير مُهْطِع^{٨٧} القامة من بيتك إلى المسجد ثم إلى آجالك فبيوت الناس، لا ترى ما يحدث حولك، كأنك على هامش الحياة، من أخبرك أن الدين صلاة وصيام وقيام فقط، من ذا هيأ لك أن إطعام أطفالك وأهل بيتك هو مسؤوليتك وحدك، ما من دابة إلا رزقها على الله، "نحن نرزقكم وإياهم"، هذا قول الحقِّ جلَّ في علاه، الله الرزاق، والحياة فوق هذا عقيدة وجهاد، ألا ترى ما يحيط ببيت المقدس والمسجد الأقصى من مخاطر؟ ألم تسمع بوعد الإفرنجي الملعون لليهود؟ ألا ترى ما يفعلون إلى جوار البراق؟ ألم يوجعك أنين القتلى والجرحى؟ أنتم في أتون الحرب باجَّ مختلف على نفسه، دون استعداد ولا قوة، انتم على وشك إضاعة كل شيء، ثم من قال لك إنني أقيم شخصية الشيخ.

نظرَ الشيخ بِلوم إلى عمر، وأضاف بصوت قوي حازم:

- أنا الشيخ ربحان الأزدي الأنصاري، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحبه في جهاده وغزواته، أنا أبو ربحانة سرية رسول الله، أنا صاحب الرفقة من الصحابة الأبرار، والرواة الأخيار، سيد المجلس

٨٦ مذعور من الخوف

٨٧ من ينظر في ذل وخضوع

والمقام، أنا الشيخ ريجان المؤمن عن يقين، والعارف من رسالات الأقدمين، أنا رفيق عبادة بن الصامت، وشداد بن الأوس، وكعب، وابن الجراح، وخالد بن الوليد، والفاروق، سادة الفتح العظيم، نحن أهل الرباط الطويل، حراس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، من قال لك إننا أموات، إننا بين الشهداء والصديقين، والشهداء بعزة الله وقوته أحياء يرزقون، ألم تقرأ قول الله تعالى "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون".

لا يَعْرِتُكَ بغثاء^{٨٨} من الأحياء، إنهم يتحركون ويتحدثون، يسرحون ويمرحون، يأكلون ويشربون، لكنهم في حقيقة الأمر أموات لا يحييون، يلجون في قعر واقع زائف مخادع، بينما برشاء^{٨٩} من الأموات تمرُّ على أجداثهم، يأخذك ما يوحيه صمتها العميق من رحابة واتساع، تُحدّق بشواهدا الشاخصة، تشعر أنها تنظر إليك، تخاطبك بعظمة ما سجلت على ظهر الأرض من جلال، إن من يرقد بسلام داخل تلك القبور أحياء تتدفق حياتهم في المدى، تتواصل عبر الأجيال، تؤثر في الناس والأحداث، لا يقوى الزمن على تغييبهم.

حدق الشيخ بالمدى، رفع رأسه إلى الأعلى، كادت لؤلؤة السماء تُطل من مخبئها خلف النجاء^{٩٠}، عاد والتفت إلى عمر وتابع كأن صوته يأتي من فضاء رحب:

- هذه بيت المقدس، يا رجل، أولى القبلتين، لم يكن الإسراء إليها عبثاً ولا نزهة، وإلا فبلاد الله واسعة، لم يُخلق ذاك البراق بالحبيب

أخلاط من الناس	٨٨
كثير	٨٩
الغيم	٩٠

منها إلى سدرة المنتهى لأنها كغيرها من بقاع الدنيا، ولم يُصلِّ المصطفى فيها إماماً لمئة وعشرين ألف نبي ورسول لأن في الكون مسجداً أعظم من الأقصى، إنها ميناء الله الوحيد على الأرض، إنكم على وشك أن تضيعوها بضعفكم وهوانكم، أين التزامك بعهد الله؟ أين وحدة الأمة التي إذا اشتكى لها عضو؟ إنكم تضيعون كل ما حققناه وبذلنا من أجله الدماء، فهل تُرانا نسمح لكم، أذَّارُتُمْ ورضيتُمْ أن تكونوا مع الخوائف، اسمعوا وَاَعُوْا وانهضوا لنصرة الله ونصرة أنفسكم.

قال عمر وقد أيقن أنه أمام الشيخ ذي الهبة والجلال مرة أخرى، وكانت علامات التعب والإرهاق والانفعال بادية على وجهه:

- أرجوك يا سيدي أن تقبل أسفي وتنفهم حيرتي وجهلي، قد يتسع حيز المكان لزمين في آن معاً، لكن حيز العقل قلما يتسع لذلك.

- ألم تسمع قول الله جل في علاه: "فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً" (أهل الكهف) آية رقم 5.

- أرجو يا سيدي أن لا تُحملني عجز الأمة وتفريطها وهوانها، إنني أصلي الفجر حاضراً في المسجد الأقصى، وأصوم وأقوم، وأُسَبِّحُ وأُستغفرُ، ولا أغبن الناس حقوقهم، ولا ألحق أذى بأحد.

ما إن سمع الشيخ قول عمر حتى انتفض صارخاً:

- ويحك يا رجل، وبهذا ترجو الجنة، والله لو كان الإيذان الحق ما تقول، لعبدنا الله في مكة وما خرجنا منها أبداً، ويحك ما شاقَّ الفاروق أن يأتيها راجلاً، وما جاء بأمثالي إلى هنا، وما حملنا دعاة مجاهدين إلى فارس وبيزنطة، وإلى الهند والسند، وما حمل أبو بكر أن يتمسك بلواء أسامه بن زيد الذي عقده رسول الله والدولة الوليدة على أبواب فتنة وردة، لو تعلق الأمر بالسلطة والجاه لاحتفظ الرجل بالجند إلى جوار

مقعده حتى لا يهدد سلطانه أحد، ويُحكم هل شغلتم الحياة الدنيا عن الآخرة؟ هل السلطة أهم وأعظم من الدعوة إلى دين الله والذود عن حياض الأمة ومقدساتها؟ لست أنا يا بني من يُحملك مسؤولية هوان الأمة وضعفها وذلها، إنك مسؤول عن ذلك أمام الله، أقسم برب العزة ليسألنكم الله فرداً فرداً عن هذا الهوان، ليس بالصوم والصلاة وحدها نرجو الجنة، نحن أمة رسالة، نور وجهاد وهداية، إن مجد الذي حدثتك عنه أيها الرجل الرجل، ليس فتى يُضيء لنا بزيته ليل العتمة فقط، إنه الأمل الذي بقي يوم اختلفت الأمة وضلت وعجزت واستكانت فذلت وهانت، إنه التاريخ، يصرخ في وجوهكم، مجد هذا هو ذات المكان تُحاطب ذاتكم العاجزة وحاضركم الدليل، إنه المجد الذي ضيعتم، إنه نداء الشهداء، ورائحة الدم الزكي الذي سال حتى قناً منه الثرى، فانهض أيها الحفيد العربي، انفض عنك غبار الذل والمسكنة، وابحث عن المجد في كل مكان، لا تهن ولا تحزن، "إن تنصروا الله ينصركم"، اذهب لفتى القدس الذي سيقدر ذات يوم شرارة من حجارته تشتعل لتضيء ليل الأمة الذي طال.

نظر الشيخ إلى عمر ففاضت عيناه دمعاً وهو يرى الأسى على محيا الرجل الذي اقفهر وذبلت عيناه، كأن ألف عام من الهوان قد ألقيت على كاهله، ناحت أغصان شجرة التين وتدلت فوق رأس عمر، همعت^{٩١} أوراقها، رَقَّ قلبُ الشيخ لحال عمر، نظر إليه، سكب الروح في المدى أملاً، مدَّ يده، أمسكها عمر ونهض.

أمي

دجى الليل وبسط فحمة على إرادة الأضواء، تطوّح السكون من رهب العتمة وخم أنفاس الدراري، تلفع وجه القمر الشاحب من حيرته وهجع في حوض الماء، نام الوعد وحارس الجوري الأبيض وصغار المدينة على سرير الانتظار، ولما تلبد اليأس في فضاء الكون واستحكم القنوط ميداء الذات، استيقظت أحلام أمي ورداً وزعتراً، فنكست أسرار الدجى، تداكأ حراس الليل رويداً رويداً حتى تقصبت الشمس وأرخت أطناها، وأشد الحسون للفرح المختبئ في عباغب الجبال.

نهضت أم عمر من نومها وسارت إلى حيث بثر الماء، وما كادت تسحب الدلو إليها كي تمسح وجع الليل عن عيونها المتعبة، حتى رأت ولدها عمر قد افترش الأرض تحت شجرة التين، كان ينام مثل طفل في حضن العراء، جلست قريباً منه، رفعت رأسه، ضمته إلى صدرها، هتف القلب، وبرفق كما تلامس الملائكة جبين الأنبياء، مسحت بيدها على صباح الجفون الذابلة، فاستيقظ الحلم همساً ناعماً، عمر، قم يا حبيبي، يا وجع قلبي المهيض⁹²، وأنت تفرش الأرض وتلتحف السماء، انهض بني، لك من ضلوعي مهد ومن قلبي رداء، نظر إلى قسما وجوها المتعبة، مال برأسه على كفيها، قبلها بحنان شديد، تلفت حوله كأنه يبحث عن مفقود غاب، بدا العالم أصغر من حضن أمه الدافئ، تمنى لو

قضى العمر هنا في حجرها صغيراً لا تطاله يد السنوات.

أشعر بدوار ووجع في رأسي وظهري وكل جسمي يا أماه، وكأنني خرجت تَوّاً من غَيْهَبٍ سحيق، أو كأن غيبوبة غَشَتْ على قلبي قبل أن تمسحها يدك الناعمة الطيبة، قال عمر بآلم وأسى شديد لم تشأ أمه النهوض حتى لا يتعد عن حضنها، نادى على نرجس، ناولتها طاسة الرجفة، فاض ميزاب القلب وغرّب العين ودلو الماء، قرأت أم عمر معوذات الكتاب وقربت الطاسة من فم ابنها، كأنها تسقي رضيعاً صغيراً، بسملت، وتمتمت ومسحت بيدها على جبينه الرطب، ثم طلبت من نرجس أن تحضر كاسات الهواء، إستلقى عمر على بطنه أمام والدته باستسلام هانئ، أشعلت بعض ورق الشجر الناشف، ألقت به في كأس من زجاج، نفخت داخله بقوة، انطفأت النار، ألصقت بسرعة الكأس إلى ظهر عمر، أتبعته بكأس أخرى، تركتها حتى تحذب جلد ظهره وأحمر من لسعة الهواء الساخن في الكأس، ثم خلعتها وكررت ذلك بضع مرات في أماكن محددة، وما إن انتهت من كاسات الهواء، ربت برفق على ظهر عمر، فاستوى أمام أمه جالساً القرفصاء، كان مدركاً المرحلة التالية من العلاج البارع، وكان مؤمناً بشفاؤه من الوجع والآلم على يد أمه المباركة من الله، قرّب رأسه من صدرها، تناولت قطعة من القماش عصّبت رأسه، أغمض عينيه، شدّت أمه العصبية بمفتاح الباب الكبير، قفلت الرأس ثم وضعت طاسة الرّجفة قُرب فمه، غَتَّ منها، فتح عينيه، قالت أمه بصوت خاشع حنون: انهض بني باسم الشافي المعافي الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء.



إن جعلتَ الحلم أماً
فعدد لعمره ساكن الأهل
كبي يبقى الرجاء

الفراغ

امتدَّ عمود من الدخان الساخن المنبعث من فرن أبي رباح نحو السماء، فتلاشى الضباب الهابط من الأعلى فوق المئذنة الحمراء وأسطح المنازل، وأطلَّ وجه الجونة^{٩٣} على خجل من خلف النجاء، تروَّحَ الشجر وفرد جدائله على أكتاف السناسل وحجارة الجدران التي بللها الندى.

قبض بيمينه الجساء^{٩٤} أعلى الزانة ورفعها من أسفل منتصفها بيساره الكداء، دسَّها في بيت النار، أبعد صنية من الصفيحة عن الجمر الملتهب، شدَّ إليه "الكناسة" ذات الذبول الطويلة من شراشيب الخيش وغمرها في حوض ماء صغير إلى يساره، أرسلها وأعادها مرات عديدة بعيداً إلى أقصى ما تصل يديه داخل الأفؤود^{٩٥}، حتى تأكد من نظافة أرضيته، أخذ رَشَّة طحين من "الزلاقة" أسفل بلاطة الرق، نثرها فوقها ثم تناول قطعة مكورة من العجين من "طرحة" مستطيلة إلى يمين البلاطة، ألقى بها على الطحين المنشور، بَسَطَ القطعة بيديه بضربات ماهرة، دورها، خرمها بعشر من الأصابع، وضعها على كفِّ "الزانة"، أتبعها بأخرى رفع الزانة، دفعها إلى بيت النار، سحب بخفة زانة الخشب، انزلت حمولتها على البلاط دفعة واحدة، مَسَحَ بكمه حبات من العرق الساخن عن جبينه، ناول أحد الزبائن طرحة ملأى بالخبز الطازج بعد أن أخذَ

الشمس	٩٣
اليَد المتصلبة من العمل	٩٤
بيت النار في الفرن	٩٥

منها رغبين بدل أجرة، نظر إلى بيت النار من جديد، بدأ سطح الأرغفة بالتوهج والانفخاخ، دسّ الزانة مائلة إلى حافتها، أزاح صفّاً من الأرغفة التي أفادت^{٩٩} إلى اليمين بعيداً عن وهج النار، بدّل مكانها بصف آخر من اليسار، نظر إلى خلفه، حثّ صبي الفرن على ترتيب الطرحات الفارغة قريبا من الجورة، وأخذ يُخرج صفّاً تلو الآخر من أرغفة الخبز ويلقي كل صف إلى الطرحة الخاصة به دون خطأ أو ارتباك، وما إن انتهى حتى سحب بكفة من الحديد ذات يد خشبية طويلة قبساً من النار والخطب الملتهب وألقاه داخل برميل مستدير من التنك الصدئ، أغلق بوابة الجمر التي خفّ لهيها بعد يوم عمل طويل امتدّ من قبل نداء الفجر إلى ما قبل نداء العشاء، تتمم أبو رباح الفرن، كفاهها الله، وحده وشكر فضله على نعمة الرزق الحلال، نادى على صبي الفرن، أمره أن ينظف المكان، ويُبعد قطع الخيش المُبتل عن "قبة" بيت النار ليحتفظ بحميته لفجر جديد، ثم طلب منه أن ينصب المجلس، مدّ يده إلى إبريق بجوار حوض ماء صغير ملتصق بجدار جورة بيت النار، انسابت صفحات الأيام، لم تكن تقلبات الزمن وصور الوجوه والأيدي الممتدة إلى الماء ذات مغزى مختلف، عبر الصحراء الملتهبة في خمسة أيام، وخذّ الجيوش في جيش واحد جنوب غرب القدس، علّق معاذ بن جبل علماً فوق سارية جسر من خشب، "إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي الفخر فيه أو البغي، أخلصوا جهادكم، وابتغوا الله بعملكم، فإن هذا اليوم له ما بعده"، قال خالد بن الوليد، توضأ وخرج إلى صلاة العشاء، أسند الصبي دوشكاً من الخشب إلى حائط مقابل بوابة الفرن، قرب تقاطع الطريق

بين عقبة الشيخ حسن وعقبة شداد، مع الطريق القادم من باب الساهرة إلى باب الأنبياء في الحرم الشريف عبر عقبة درويش، وضع الصبي بضعة كراسي من القش، وجاء ببرميل التنك الممتلئ بالخطب الملهب إلى وسط المجلس، كان أبو هشام موظف البلدية أول الواصلين، جلس إلى جوار الموقد، سأل الصبي عن إبريق الشاي "والاستكانات"، أتى الصبي بإسكملة صغيرة وضع عليها إبريقاً كبيراً من التوتياء لفحته جذوة النار حتى اسود، وضع الاسكملة إلى يمين الدوشك، وصل أبو رباح متأبطاً يد أبي منصور وإلى جوارهما سار الحاج إبراهيم المنجد، بدا وكأنهم يتهامسون، تبعهم ببضع خطوات زيد الشاب الوسيم من حارة الشرف، ناجي مصطفى عامل البناء أبو مصطفى من عمواس، ومصطفى علي، وأبو محمد السدمير عامل المقهى، ثم ترك عبد الله أبو طلال دكانه المجاور للفرن وانضم للمجلس، تحلقوا حول البرميل الذي توهجت في جوفه جمرات الخطب، أمسك أبو رباح قضيباً طويلاً من الحديد ذا يد خشبيه، قلب الأيام على جمر ساخن، حرك النار، طقطقت شذرات الخشب المحترق وتناثر السنا. إشتعلي، آن أوآن أن تشتعلي، قال بصوته الحماسي، لذعته جذوتها وتصاعدت السنة لهبها، لفحت بعضاً من وجوه قريية، بينما تصاعد بخار من إبريق الشاي الذي كان أبو هشام يصبه في الاستكانات واحدة تلو أخرى، كان يقترب بيده من الاستكانة ويرفعها عالياً بمتعة كأنه يُمرجح طفلاً صغيراً، فيغرغر الشاي المناسب وتعلو الرغوة سطح الاستكانة الصغيرة، بدا الحلم قريباً من موقد النار المتألئ، وصل أبو ربيع المزارع من قطنة يحمل سلة مغطاة بورق الدوالي.

- هذه سلة العنب التي أوصيتني بها يا أبا رباح، قال الرجل المتلفع

- بكوفية بيضاء.
- ضعها إلى جوار كومة النشارة، أجب أبو رباح بهدوء دون أن ينظر إلى الرجل الذي غادر من فوره.
- أين الآخرون، سأل زيد.
- هات لنا بعض العنب أيها الصبي، قال أبو طلال.
- لا تقترب من السلة أيها الفتى، قال أبو رباح بغضب، بينما نظر إلى أبي طلال وتابع: هذه السلة أمانة لا أملك التصرف بها يا صديقي، سأوصي لك بسلة غيرها غداً.
- المغزى أكثر اتساعاً مما يبدو، تتمم زيد.
- بن يحيى سيلتحق بنا متأخر، قال مصطفى العلي.
- لقد تخلف عن مجلسنا أكثر من مرة، عسى الأمر خيراً، سأل أبو هشام.
- جره الجند إلى سجن القشلة بعد أن حطم رأس جندي من الإنجليز، لأنه تحرش بامرأة في سوق اللحامين قريباً من دكانه، أصر الجندي على خلع ملأية المرأة وتفتيشها، فار الدم برأس بن يحيى فخلع نطع الجندي، وعندما حاول أخوه عبد الله إنقاذه أُعتقل معه، قال السدمير.
- ألا يخشى هذا الرجل أن يطلقوا النار عليه ذات يوم؟ سأل أبو طلال.
- بينه وبين الموت ثارات لا تنتهي، كلما طارد الموت في موقع أفلت منه إلى آخر، كما يقول دائماً.
- لو كنت مكانه ألا تُنجد المرأة المستغيثة يا أبا طلال؟ قال السدمير.
- وكيف لي أن أنجدها يا رجل وأنا أحتاج من ينجدني، إني رجل مريض ويكفيني ما أعانيه في حياتي.
- ماذا عن الشهامة؟ ماذا عن الرجولة يا أبا طلال؟ امرأة عربية تُهان من جندي انجليزي، ألا يثير ذلك النخوة فيك؟ ماذا عن المشاعر الوطنية؟

- ماذا عن الكرامة والحرية؟ قال السدمير.
- لا أفهم ماذا تقصد يا سدمير، تراك تقصد إهانتني، أنا رجل صاحب نخوة وشهامة، لا أسمح لزوجتي أن تسير بالأسواق أو تتعرض لمثل هذا الموقف من جندي أو غيره، كان علي بن يحيى أن يُوسع زوج تلك المرأة ضرباً بدل ضرب الجندي.
- لا تعتبوا على أبي طلال، قال زيد، فعلى الأقل هو واضح لا يدعي أمراً لا قبل له به، السدمير لا يقصد إهانتك لا سمح الله، لكننا نتحدث عن جندي إنجليزي مُحْتَل يا أبا طلال.
- ما لي وللجندي، لم يفعل لي شيئاً، لا شأن لي به.
- هذا حكى "ملاوقه"، قال مصطفى العلي، المقصود ظلم الاحتلال وقهره وأهمية النضال من أجل حريتنا.
- كل شيء يسير بأمر الله، "هينّا ما شاء الله علينا، بنوكل وينشرب وبنسهر باب الفرن كمان"، أجاب أبو طلال بلهجته المقدسية البريئة من الخبث.
- يبدو أن الأمور سوف تشتد وتسخن، رجال الأمن في كل مكان، جند الإنجليز يحيطون بمعظم أحياء المدينة، قال أبو منصور عائداً بالحديث إلى حيث كان.
- كُفَّ يا رجل، دعنا من السياسة وهمّها، ألم تكتف بعد، هل تبقى من أسرتك أحد لم تجره إلى الموت أو السجن، قال أبو طلال، وتابع: هات الدامة يا ولد، دعني أغلب وكيل الحروب ومندوب عزرائيل الدائم في القدس وقضائها.
- تجاهل أبو منصور مزحة أبي طلال الثقيلة، تلفت إلى زيد وقال بصوت منخفض:

- الصهاينة عازمون على أمر خطير، وحكومة الانتداب في خدمتهم. بدا لأبي طلال أن القوم عازمون على مواصلة الخوض في شأن لا يعنيه فهض واستأذن مغادراً، هو لا يقصد إفساد المجلس، لكنه هكذا دائماً كلما همّ الرجال بالحديث عن السياسة وأهمية مقاومة الاحتلال، تسلل مستأذناً، لا يلوم أحد في محضر أبي رباح صديقهم البقال أبا طلال المريض بالسل، والذي يُعيل عدداً كبيراً من الأطفال، لذا سرعان ما شيعوه بالسلامة.

- مهلكم على الرجل، قال زيد، ما بالكم؟ بدا كأنكم ترغبون بتشوير الأمة من خلال أبي طلال، لا تفرغوا طاقاتكم بهذا الرجل، إن أمامنا عملاً كبيراً.

- مثلي يستطيع أن يفهم أبا طلال، أنا مريض مثله، لقد شخّص الأطباء مرضه، أما أنا فلم يعرفوا المرضي اسماً بعد، لكن ذلك لم يمنعني من النضال والتضحية قال أبو مصطفى.

- بعض الناس، أبسط مما تتصورون، لا تبدو المفاهيم واضحة عندهم، كما هي عند البعض الآخر، صاحبنا طيب وبسيط، "الي بقلبه على لسانه"، إنه لا يعرف من الناس غيرنا، ولم يتلقَ من العلم إلا أسبوعاً في الكتاب قال الحاج إبراهيم بحكمته المعهودة.

- وهل تراني خريج السوربون يا صاحبي؟ قال أبو مصطفى.

- ما أقصده أنه لم يحتك بمواضيع الظلم والفقر والاحتلال بشكل مباشر، ألا ترى أنه لا يبرح بوابة دكانه إلا عشرة أمتار إلى مجلسنا هذا، أخبار الحي المجاور تصل إليه كأنها أخبار من مكان بعيد أو من عالم آخر، جُلّ ما يشغله مرضه، آلامه الشخصية وقلقه على أبنائه من بعده، مفهوم الوطن لا يتعدى عنده مفهوم البيت، إنه يعتبر الناس كائنات

مستقلة، كل مسؤول عن حياته فقط، سألته يوماً هل يزعجك مجلسنا يا أبا طلال؟ أجاب ببساطة: أجل، يصعب علي أحياناً أن أفهم ما تقولون، لكن لا أصدقاء لي غيركم "العصافير تستطيع الأكل وحدها، لكنها تعشق الغناء معاً".

- على أي حال وقد غادر أبو طلال، هل تُعلمنا لماذا طلبت الجميع لهذا اللقاء يا زيد؟ سأل أبو منصور.

- تلقيت رسالة من وعد، كونوا جاهزين، لا بدّ من الرد على هجمات اليهود، علينا أن نضرب بشده، ليس سوى المقاومة كي نوقف تدفقهم إلى فلسطين، يبدو أن أماننا مهمام كبيرة، ربما الحديث عن مجموعة متتالية من العمليات، الأمور تتطور بسرعة، الإنجليز يسلمون الصهاينة بأسلحة ثقيلة، لقد أرسل وعد إلى كل معني بالأمر كي يكون على أهبة الاستعداد، سيقود العمليات بنفسه هذه المرة أيضاً، جهّزنا لخروجه من المخبأ فجر الغد، سيكون اللقاء في مقرنا السري القديم في حي الواد، قال زيد.

- بُورك أبو ربيع، لقد جاءنا بسّل العنب في الوقت المناسب، قال أبو رباح ثم حرك قضيب الحديد، لألأت النار، طقطق شرر الحطب المتقد وتتطاير في الهواء، أشاح أبو رباح وجهه بعيداً عن وهج النار، لسعته شرارة متطايرة، اشتعلي، آن أوان أن تشتعلي، قال.

انفض مجلس الثوار، شمّر أبو رباح عن يديه، تناول "المكيال"، غرف من شوال الطحين الكبير، عدّ في سره ما يغرفه ويلقي به في وعاء العجن الضخم، نونس ضوء الشمبر الباهر، فترنح على الجدار نور ذبالة في بنورة من غير سراج، نظر أبو رباح إليها، ابتسم ومدّ بساط العمل وجهّز نفسه ليلية عمل طويلة على عادة الفرانة في القدس.

الحياة بين الحقة والجل

مع فَوْعَةٍ^{٩٧} النهار ترك عمر بيته وقد عزم على أمر، أدى صلاة الظهر في المسجد الأقصى، وخرج من باب المجلس أمام رباط علاء الدين البصير مقر الجالية الأفريقية، استوقفه نداء زبوبا، فتى فذرا مذبوب^{٩٨} أو تحسبه كذلك، في العشرين من عمره، وربما أن زبوبا ليس اسمه الحقيقي، بهذا الاسم عرفه أهل المدينة، كان ينادي بأعلى صوته: صلوا... يا عباد الله.. جاهدوا يا... عباد الله، هيئة المنادي لا تنسجم مع النداء، مُعَقَّر الوجه، يسيل لعابه بغزارة على أطراف فمه ورقبته، رث الثياب وقد ربط حبلًا بسرواله الواسع، وأمسك بين أصابع يديه حبلًا آخر، وقف عمر متأملا حال الشاب الذي بدا منهما كما بعقد حبله عُقدًا متتالية يشدُّها إلى بعضها بقوة، ثم سرعان ما يُعيد فكها ثم يعقدها ثم يهتها من جديد، وهكذا على مدى النهار، كان زبوبا يُدرك موعد الصلوات بفطرة لا تخطئ، وينادي ويكبر "حي على الصلاة" متقدماً على موعد المؤذن بثوانٍ قليلة، كان يتمم أحياناً بجمل غامضة، ويصيح أحياناً بأعلى صوته: صلوا عباد الله وجاهدوا في سبيل الله.

خطرَ لعمر أن يمازح زبوبا، سأله: لماذا تَعَقِدُ الحبل ما دُمْتَ تقوم بفكه، نظرَ زبوبا إليه باستهجان لم تدركه فطنة عمر، فليست الحياة كما يفهمها زبوبا سوى حلقة متسلسلة من العقد يقضي المرء نصف عمره

٩٧ أول النهار

٩٨ أحق أو مصاب بالجنون

في حبكها بينما يقضي نصفه الآخر في محاولة حلها، ابتسم زوبيا ساخرا من عمر، وقال: "روح من هون صلي... صلي.....جاهد.....صلي..... حليب....حليب".

- أعطني الحبل دعني أجرب فك عقده، قال عمر.
ناوله زوبيا الحبل دون كثير من الاكتراث، وحلَّ حبلًا آخر عن إزار سرواله، فهو محتاط دائماً، لأن بعض صبية الحي تعودوا مشاكسته بختف حبله والمهرب بعيداً، جدَّ عمر في محاولة فكَّ عقدة الحبل لكنه فشل، ابتسم زوبيا، أخذ الحبل من يد عمر، وضع سبابته اليسرى وإبهامه أسفل مربوط العقدة، نظر إلى السماء، كأن ذبالة ترنح نورها في بنورة من غير سراج لاحت في الأفق، ابتسم زوبيا ثم أمعن النظر بموضع إصبعيه، وضع سبابته اليمنى وإبهامه أعلى مربوط العقدة، نظر إلى السماء من جديد، ما زال نور الذبالة يترنح في بنورة من غير سراج، أعاد التركيز بموضع إصبعيه وسحب بخفة، انحلَّ مربوط العقدة، قال مبتسماً دون أن يلتفت إلى عمر الذي تنحى وواصل سيره نحو عقبة الخالدية: "هيك يا أهبل"، ثم أدار وجهه وصاح بزهو ونشوة: صلوا يا عباد الله، جاهدوا يا عباد الله

مخطوط ومرسم ودافتر صخير

تنحى عمر عن الشاب دون كثير من التفكير في شأنه، وسرعان ما عاوده همّه وحيرته، تابع السير إلى حيث عزم، مرّ بعقبة الخالدية، بجوار حمام العين ومكتبة الخالدي، خطرَ له أن يبحث في شأن أولياء القدس وساكن المقام في الشيخ ربحان في كتب الأولين، تخطى عتبة البوابة الكبيرة ذات البناء الحجري بألوانها البيضاء والحمراء بالتتالي والتي يعلو منتصف قوسها خط من الحجارة السوداء، من فوقها عدة صفوف من الحجارة البيضاء التي يطوقها إفريز من الحجارة المسننة البيضاء كأنها إزار مزركش تمثلاً بالعمارة الحلبية من العصر المملوكي، تقدم عمر إلى فسيح من الأرض ذات البلاط المتحدب بألوانه الزاهية، في غرفة واسعة توزعت داخلها المساطب الخشبية والكتب النفيسة، توسطها مجلس متولي المكتبة السيد حسين فخري الخالدي، إلى يساره صورة لمؤسس المكتبة الحاج راغب الخالدي^{٩٩}، جالَ عمر بنظره يميناً ويساراً، وخطا بين رفوف من نفائس المخطوطات والكتب باللغات العربية والأجنبية، آلاف من الكتب والمخطوطات، شَعَرَ وهو يُقَلِّبُ بعض المخطوطات والكتب كأنه يُطَلُّ على عالم آخر، ويصافح شخصيات من أزمان بعيدة بتبسم له، بدا له أن بينه وبينها ألفة ومودة، تقدم متولي المكتبة من عمر وسأل:

- ما الذي تبحث عنه في مكتبتنا يا صاحب الجوري الأبيض، علّني

أساعدك.

- أبحث عن كتاب يتحدث عن أولياء القدس، آثارهم وكراماتهم يا سيدي حسين أفندي.
من على منضدة مرفوعة وخزنة محفوظة، أخرج المتولي رقاعاً من الجلد وقال:

- اقرأ في هذا الرقاع يا عمر، البدھنا، لا تخرج به من هذا الباب، فهو من موروث تتالي، دوّنه وأضاف عليه في كل عصر أهل المدينة من خاصة وعامة وثقات من رحالة وقوامة، لن تجد له في الوري مثيلاً أو بديلاً في كتاب أو مقاله، فيه سيرة الأخيار وتضحيات الأبرار ويمكنون ما في المدينة من الأسرار.

- تناول عمر الرقاع، وجدّ في وعي ما تضمن من علم ومعرفة وأخبار، وأثاره ما احتوى من تنوع وأسرار، وقبل أن يطوي العصر ظلّ النهار، انتهى من القراءة، لكن في النفس ألف سؤال واعتبار، نهض عمر وقال:

- يا حسين أفندي قلت إن هذا الرقاع من موروث تتالي، دوّنه وأضاف عليه في كل عصر أهل المدينة من خاصة وعامة، وثقات من الرحالة والقوامة، فمن كان أول من دوّن فيه ومن كان الأخير؟ لأن بعض ما فيه التبس عليّ من حيث الزمان ومن حيث المدونين.

- كما ترى فجله من سِير الأوليين والأقدمين، ولا أظن أن عصرًا عنه غاب، بعضهم دوّن بالمزبر¹⁰⁰ أو بالقصب والريشة، وكما ترى فبعض هذا المخطوط من الجلد أو الرق أو الأديم والقضيم¹⁰¹،

١٠٠ القلم

١٠١ الأديم الجك المدبوغ، والقضيم الجك الأبيض

وقد خُطَّ بالمداد، حيناً، وبحبر السخام أو الدخان حيناً، وزُين بالمرملة والمتربة في بعضه، واستخدم الكاغد¹⁰² من الأولين والورق واليراع والقلم من الآخرين، دَوَّن البعض مما لديه، ونقل البعض عن غيره، وفضل البعض الرسم على الكتابة، فيه مما كتب المقدسي وابن حوقل البغدادي، وقاضي القضاة مجير الدين الحنبلي في الأنس الجليل، ومن ناصر خسرو، ومن قبلهم ومن بعدهم، وقد دَوَّن من شاء اسمه وصفته وأحجم غيرهم عن هذا، ربما خشيةً من ملك وسُلطان أو زهداً عن الفخر والاستكبار، وفي عصرنا هذا دَوَّن فيه من أهل العلم ومن أهل العقد والحل، رهباناً وشيوخاً، قادة وتابعين، ومن أواخر المدونين شاب وشابة ما زالوا على المناوبة، هو يخطُّ بالرسم وهي تنقل ما دَوَّنت في دفترها الصغير. كلاهما من العامة وقد أحجبا عن التذيل باسمهما زهداً أو خشية، وليس لي بعد هذا في الإفصاح عنهما حاجة.

أدار حسين أفندي ظهره لعمر الذي انتهى من مطالعة المخطوط، وقبل أن يعيده إلى المنضدة، بد أن أطرافه تهرأت، غير أن خطوط لنور ذبالة حتها الزمن أثرت إلا أن تبقى ملامحها على غلاف المخطوط.

ربما أدرك عمر أن التاريخ ليس سِرَ الملوك والسلاطين، ولا حتى قصص الحروب وحكايات البطولات والأفراد، ربما أدرك أن التاريخ هو الصراع المتواصل، محرك الأحداث، وربما أدرك أيضاً أن التاريخ لا بدَّ يسري في كل حيِّز من زمن ومكان، يحفر ذاكرة المكان وذاكرة الشعوب والأفراد على حدٍّ سواء تصنعه ويصنعها، وأن الإنسان يبقى ناقصاً وتبقى روحه ضائعة وشخصيته غير مكتملة إن لم تكن ذاكرته

وروحه جزءاً من ذاكرة وروح المكان الذي ينتمي إليه، ربما أدرك أن
لعمره على هذه الأرض بداية قبل أن يولد واستكمالاً بعد أن يموت،
ربما أدرك أن الإنسان الذي لا يعرف عن حياته إلا المقطع الذي أطلَّ
عليه من واقع عمره القصير، ليس سوى غصن ناشف مهمل أُلقي به
من على شجرة الحياة الكبيرة، ربما أدرك اليوم أنه جزء من هذا المكان،
أو عرف بوعي جديد موقعه بين من ذهبوا ومن لبدوا، وبدأ يتلمس
طريقه ودوره نحو من سوف يأتون، ربما بدأ يفهم محتوى ما قاله الشيخ
إسلام، ربما أدرك أن الحضارات لا تشيخ ولا تهرم وإنما يشيخ الفكر
عندما تشوش ذاكرة الناس، وتشوه ذاكرة المكان، وتختل صلوات
الذات بجيناتها الأولى، عندما يسود المدخل على الأصل ويتفكك نسيج
الذات، ويتداخل الوهم مع الواقع، وتحلُّ الأسطورة مكان الحقيقة،
ربما فهم عمر كل هذا، وربما لا تبدو الأمور له بكل هذا الوضوح،
لكنَّ ما هو أكيد أنه أدرك لأول مرة أنه يسير على طريق صحيح.

المنجد

متسلحاً بما شحنته به زيارة مكتبة الخالدي من همة تابع عمر سيره متوجهاً إلى سوق العطارين، حيث دكان المنجد الحاج إبراهيم، صديق الشيخ نامق والد مجد، افترش الرجل أرض دكانه الواسعة، وبدا كأن حفنات من بودرة بضاء نُعفت عليه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، كان إلى جواره كومة كبيرة من القطن، أمسك بيده مندفاً على شكل قوس من الخيزران السميك ذي وتر طويل ينتهي بكوة ضخمة، أسنده إلى ركبته ومال به إلى كومة القطن، ثم ندف الوتر بخفة، تطاير رذاذ أبيض تساقط على جبل من الثلج القطني، ألقى عمر تحية على الحاج إبراهيم، الذي قال:

- إلى أين العزم ولا أرى أنك تحمل دلة الحليب.

- كنت في جوار مكتبة الخالدي ورأيت أن أحضر لأرى إن كان لك مطلب مني أو حاجة.

رحب الحاج إبراهيم بعمر وقبل أن يلقي إليه كرسي القش طلب أن يجهز له تنكتين من الجبن، خاصة أن شهر رمضان على الأبواب، سأله عمر عن أحوال العمل والسوق مقدمة لما أتى من أجله، وتعمد أن يترحم على الشيخ نامق الذي كثيراً ما رآه يجلس إلى نفس الكرسي، يتبادل أطراف الحديث بينما صديقه منهمك بعمله، تنهد الحاج وقال:

- ذكرتني بالحبيب الغالي، الله، الله، يا شيخ نامق، قطعت بي يا أبا المنجد، رحمك الله، كان يجلس هنا على هذا الكرسي، مكانك، يتمتق ويتلمظ بما تناوله من طعام طيب لدى أبي الطاهر في سوق اللحامين،

لا يكف عن الحديث عن أجداد الأمة وأبطالها، ولا يتركني إلا في مواعيد الصلاة، أو إذا خرجت أنجد لزبون في بيته.

- بالمناسبة ما هي أخبار ابنه مجد؟

- غادر إلى ألمانيا، عتبت عليه، لم يُودعني، عاد بعد عدة سنوات، وسكن في بيت عمته زليخة، التي توفيت هي أيضاً في حي القطمون، ومنذ..... فجأة صمت الحاج إبراهيم، حدّق بوجه عمر، قال هو أنت..... ما؟ وتابع: هل قلت لي أنك قادم من مكتبة الخالدي؟ هل سألت حسينا أفندي عما سألتني؟ ثم جحظت عيناه وتوقف عن الحديث وظهرت عليه ملامح الارتباك، استدرك نفسه وغير وجهه حديثه، وقال:

- لا تنس يا عمر أن تضع محلباً ومِسكً عريباً في تنكة الجبنة.

ثم هملق بكومة القطن، نفّض الوتر بشدّة، تطاير رذاذ كثيف، حجب وجه عمر، سقط بعض الرذاذ على رأس عمر وثيابه، فنهض متأففاً، مسح يديه رأسه وضرب بكفيه على صدره وبطنه، ليزيل أثر الرذاذ المتطاير، كأنه لمح في غبش الرذاذ ذبالة ترنح نورها في بنورة من غير سراج، حاول لمسها غير أن رذاذ القطن الكثيف خمّ منسره وعينيه فخرج مسرعاً بعد أن أدرك أن مندف المنجد هو أدواته المثلى، إذ ارغب في التخلص من ضيف ثقیل.

يحلون في بلادنا يحلون في سجن
عن صديق لي مضي وعاد في كفن
يا أمه لا تذر في الدموع
خلي لنا في مآقي العين
خلي لنا يا أمه لو دمعتين
محمود درويش

ذاكرة المكان

اجتاز عمر سوق البازار إلى باب الخليل، وقد فهم أن عنوان مجد الجديد هو بيت عمته زليخة في القطمون، صعد العقبة قاصدا بيت زليخة عبر الساحة الواسعة حيث اصطفت على جانبات الطريق عربات الكارو التي تسحبها الخيول، كانت بعض الحافلات والسيارات بلونها الأسود وأضوائها المدورة، ومقدمتها المستطيلة تركز إلى جوار فندق فوست، ومكتب سفريات كوك، كان عدد من المسافرين والوافدين إلى المدينة يحملون حقائب السفر وقد جلس بعضهم على حافتها، بينما جلس رهط من الأعيان في مقهى باب الخليل، بزيهم الأنيق وياقاتهم الملونة وطرابيشهم الحمراء، يرتشفون القهوة وشراب الورد، لم يخطر ببال عمر أن يأخذ إحدى المركبات أو الحناطير إلى القطمون، فهو مقتر على نفسه كريم على أهله، لذا فضل توفير ما لديه من مال قليل ليحمل بعض الزلاية أو العوامة " لقمة القاضي " لأطفاله عند عودته إليهم، مرَّ بمصنع قسيسيه للبلاط، انتشرت على أرضه قطع بلاط زاهية الألوان والأشكال الهندسية، افترشت الطريق كأنها قطع من السجاد، اشم رائحة انبعثت من دكان السمك الذي يصل يوم جمعه بالقطار طازجاً من يافا، تحطي السور، نظر إلى أعلى الطريق من اليمين باتجاه شارع يافا، احتضنت زاوية المفترق على شارعين بناية صنصور، بطبقاتها الثلاث، وحجارتها البيضاء وأقواسها الرخامية ونوافذها الجميلة، خطرَ بباله أن يجلس لبعض الوقت في مقهى أوروبا الشهير، الذي شغل جزءاً من

الطابق الأول في البناية، حلمُ طالما راوده، أن يجلس هناك مستعرضاً المارة، ينفث الدخان من غليونه كما يفعل الباشاوات.

تحسس جيبيه، بضع ملاليم قد لا تكفي لارتشاف فئجان من القهوة في هذا المقهى الفاخر، الذي يرتاده عليّة القوم والأجانب وكبار الموظفين، عبّر الشارع وسار إلى محاذاة المحلات التجارية، شاهد جمهوراً من الناس أمام عمارة الأوقاف الفخمة أسفل شارع جوليان مقابل مقبرة مأمّن الله "ماميلا"، عند شركة المعرض العربي للبضائع الشرقية التقليدية، انضم إلى الجمع، نسي نفسه أمام هذا المشهد البديع، دخل إلى ساحة المعرض، قاعة واسعة تُزينها الأضواء، منتوجات من أقطار عربية مختلفة، شاهد منتوجات جلدية من مصر، لحفاً وحرّامات من العراق، أدوات نحاسية من بلاد المشرق فواكه مجففة وأقمشة مقصبة من دمشق، بسطاً صوفية من غزة وبئر السبع، أشغالات يدوية ومطرزات من المجلد، عطوراً من لبنان، أثاثاً من يافا، صابوناً من نابلس، تُحفّ زيتون وزجاجيات ملونه من القدس، مأكولات شعبية من مختلف المدن الفلسطينية، وفي زاوية مرتبة بعناية، عُرضت مخطوطات من المغرب والحجاز، وكتب نفيسة من العراق.

كاد ينسى نفسه وما أتى من أجله، لولا طفل من حارة السعدية كان مع والده، نادى بأعلى صوته: عمو عمر بائع الحليب. لفت انتباه الناس إليه، وأيقظه من هذا الحلم الجميل، تذكر مجد والشيخ ربحان، خرج من المعرض، سار إلى جوار ورشات تصليح السيارات والكرافات، في حي الشماعة، ماراً بمستشفى القديس جون لأمراض العيون، ثم انحرف يساراً إلى الشارع الرئيس مقابل مقام النبي داود، دخل إلى مقهى الأرمني، طلب فئجاناً من القهوة، فكر قليلاً ثم سأل صبي

المقهى عن اسم مختار القطمون، قال له الصبي: ليس لمثل هذه الأحياء الراقية مختار، سار إلى جوار جورة العناب، فاحت رائحة الطيّن على جوانب رصيف من الحصى، بينما انتشر العشب والسبل وبعض الشوك وسط الحفرة وعاندت جورية حمراء حقل أشواك وأطلّت براعمها على سنسلة من الحجارة المصفوفة بعناية، نظر عمر إلى أعلى النّفّ يمين الجورة الواسعة، خطر له أن يحصي المنازل، عدّها ستة عشر منزلاً حديث البناء، بناها موزيس منتفوري الضابط اليهودي في قصر الملكة فيكتوريا، الذي تحالف مع عائلة روتشيلد وبنى أولى التجمعات الاستيطانية في القدس للمقادمين الأوروبيين من اليهود، بالتواطؤ مع يهود الدونما في الدولة العثمانية، نظر إلى الحفرة وخيفها من جديد، تذكر والده، هنا نهاية القصة، آخر الزمان، قدر الأسطورة التائهة، بركة الدم، هزّ رأسه "خليهم يتجمعوا هون على كيفهم" قال لنفسه، واصل سيره صاعداً التلة إلى محطة سكة الحديد، كاد يستقل القطار إلى يافا، تحسس جيبه من جديد، تذكر الشيخ ريحان، لا وقت للهو ولا فائض من مال، قال لنفسه، استمر بسيره بجوار مطحنة الحنطة، انعطف إلى اليسار وتوجه غرباً، سار في شارع طويل معبد بالحصى، أخذته المناظر البديعة على جنبات الطريق إلى الطالبية ببيوتها المصطفة كأنها جنائن معلقة تتدرج حتى منتصف الوادي، صعد من هناك إلى الطريق المؤدي إلى الكولونيالية اليونانية، رأى عدداً من الرهبان، عرف منهم الأب سمعان من بطركية الروم الاورثوذكس في البلدة القديمة، مرّ بجوار النادي اليوناني "ليشي"، بقاعته الكبيرة وبيوته الأربعة وحديقته المزهرة الكبيرة، وعند طرف الشارع شاهد عدداً من الصبية يلعبون الكرة في ساحة واسعة إلى جوار أحد البيوت الجميلة، قذف أحدهم الكرة عالياً،

حطّت بين قائمين من خشب، بينما وقف إلى جوار القائمين طفل آخر
نظر بأسى إلى الكرة وهي تمر إلى جواره دون حول له في التقاطها، هتف
بعض الصغار في فرح شديد فيما عبست وجوه البعض الآخر، أحسّ
عمر بنسمة هواء نقي منعش تلامس وجهه، ابتسم لفرح الصغار، ما
أجمل الطفولة، قال لنفسه، أطلّت من بوابة أحد البيوت امرأة غيساء¹⁰³
، تقدمت بدلال من ناصية الشارع، ونظرت شزراً إلى عمر ثم نادى
بأعلى صوتها:

- رأفت عُد إلى البيت حان وقت الغداء.

أشاح عمر وجهه عنها متجنباً النظر إليها، خاصة أنها حسيرة الرأس
والوجه، الأمر الذي استهجنه، وتمتم: يا لهؤلاء الأغنياء، ولعاداتهم
الغريبة، قال لنفسه.

أكمل صعوده إلى حي الشيخ بدر، عند أعلى السفح الشمالي للجبل من
طرفه الشرقي حيث مقام الشيخ سلطان البدر ومسجده، يُطل الحي على
وادي الصرار، الذي تمر بميثائه سكة الحديد وطريق القدس يافا، يمتدُّ
الحي على مستطيل من الأرض تتوزع على أضلاعه البيوت الكبيرة التي
تشرف على المدينة من شرقها، بينما يفيض طوفان القمح والشعير وتمرُّ
براعم اللوز وأقراط الزيتون على النواهد الغربية للتلال، هناك يتمطى
البحر وتفهم الزرقة حدّ الأفق البعيد، كانت أنغام شبّابات الرعيان
وثغاء الشياه تبعث في قلب عمر شعورا بفرح عزيز، بدا المشهد بهيجا
يبعث على الهيبة والعراقة، عاد نزولاً إلى الشرق من جديد ومن الوادي
المحاذي للكونولونية اليونانية قريبا من شجرة صبار عملاقة انتصبت

وبرزت أشواكها مثل سهام في وجه الضواري والعاديات، صَعَدَ باتجاه القطمون إلى الشرق من حي الشيخ بدر، هناك حَسَرَت براعم الجبال عن شَمَارِيخِهَا¹⁰⁴ وشَمَّرَ البلوط عن أكمامه، عَرَّشَتْ وتدلَّت عناقيد الزُّعُرور والحُضْرَم فوق سطحات السناسل الحجرية التي صَفَفَتْها بعناية أيدٍ ماهرة ودرجتها على التلال المتقابلة، عند منتصف السفح انتشرت بيوت حديثة منظمة نأشت بعضها عن بعض في صفوف متقاطعة ومتقابلة، معظمها متعددة الطوابق، بُنِيَتْ من الحجارة الرمادية، والأعمدة المَدْمُكَّة¹⁰⁵، وتزينت إطارات نوافذها وشرفاتها بأحجار كلسية قرنفلية، وقضبان مجدولة من الحديد مثل سعفات النخيل، وسقوف من القرميد، وساحات وحدائق، بدا الحي هادئاً وجليلاً وفاحت منه عرائف الياسمين.

- يبدو أن الأغنياء لا يتنفسون ولا يتحركون إلا همساً قال عمر لنفسه. مرَّ بجوار بيت من طابقين، نُقِشَ على واجهته الحجرية عبارة "الملك لله، بيت عائلة السروجي" كانت حديقة البيت واسعة، فاحت منها رائحة الورود والقرنفل، والأضالية بتوجانها المدببة والمخملية خمرية اللون، قرأ على نقش آخر أعلى واجهة البيت الذي يلي اسم جورج خميس، وعلى نقش البيت التالي بيت البديري، ثم جوهريّة، ثم دمياني، وصفيّر وطليل والسلحيت، ومنصور والسكاكيني وحداد والنمري والعلمي، والحاج رياض..... ما يزيد على مائة بيت أشبه بالقصور، مرَّ بجوار مصنع الثلج ثم وصل إلى بناية القنصلية العراقية، وكنيسة القديسة تريز، ومن هناك بجوار فندق سميرا ميس، انحرف يساراً إلى

١٠٤ أغصان وعناقيد العنب

١٠٥ الحجر المستدير الأملس

جوار عدد من المحال التجارية، توقف أمام ملحمة الكالوتي، تففعع أبو علي ورحب به وأشار إلى بيضة الذبيحة المعلقة على كُلاب في واجهة المحل، وبادر بالقول:

- إنه سخل صغير كما ترى، هل أقطع لك رطلي المِثْلَة؟
غير أن عمر اعتذر وسأل اللحام عن بيت مجد، ارتبك السطّار وامتنعض وجهه، ودون أن ينسب بنت شفة أشار بيده إلى اليمين بحركة تدل على رغبة للتخلص من زائر ثقيل، ثم قبض على بلطة صغيرة هوى بها على قطعة من اللحم بعنف، تعبيراً عن انهماكه بالعمل وعدم رغبة بمواصلة الحديث، تذكر عمر الحاج إبراهيم المنجد، نفص يده بشكل لا شعوري على ثيابه وما كاد يفعل حتى سقط نظره على زجاج واجهة المحل، خيال ذبالة ترنح نورها في بثورة من غير سراج، تقدم عمر نحوها غير أن أبا علي أغلق باب ملحمة في وجهه، فواصل عمر سيره متمتماً:

- كلما سألت أحداً عن مجد، تلوى وارتبك كأني أسأل عن جني مخيف.
انطلق حيث أشار أبو علي، وعند نهاية المفرق الترابي المؤدي إلى حي الطالبية من الغرب، توقف أمام منزل من طابقين وسقف من القرميد الأحمر محاطاً بسياج من الحديد، وسط بستان كبير، وممر عريض مرصوف بالواح من الحجارة، بين صفيين طويلين من شجيرات الخزامى، يفضي إلى رواق واسع مزين بأعمدة من الدُّملوك المُرخم، وفي جانب الحديقة من الغرب انتصبت شجرة تين وأخرى خروب، وليس بعيداً عنهما تسطحت هندباءة بزهورها الصفراء والتصقت لياتها بجلد الأرض، قال لنفسه "شو هالعز"، قرأ على واجهة الباب العبارة التالية: "بيت الست زليخة"، عرفها، إنها عمّة مجد، أخت الشيخ نامق، زوجة كريم باشا، إذاً هذا هو البيت قال لنفسه، إن كان مجد يسكن هذا القصر

الجميل، فلا غرابة أنه نسي الشيخ ريجان وأزقة البلدة القديمة، أمسك كفاً نحاسية تقبض على كرة من النحاس معلقة أعلى البوابة الخارجية للبيت، وقبل أن يترك الباب، أطل جندي إنجليزي، بَعَزَ عمر بفوهة بندقية طويلة، وصاح بعربية ركيكة:

- شوبدك، مين أنت؟

ارتدَّ عمر إلى الخلف مذعوراً من هول مفاجأة غير متوقعة، لم تخطر له ببال أبداً، ماذا يفعل هذا الجندي في بيت مجد، قال لنفسه، لا بدَّ أنني أخطأت العنوان، تلفت حوله، صرخ الجندي بعربية ركيكة من جديد:

- شوبدك، روح من هون.

ردَّ عمر دون تفكير:

- أليس هذا بيت السيد مجد القدسي.

نظر الجندي إلى عمر بريبة، وقال:

- تعال ادخل، إستنا هون.

تربَّس الجندي لِإِزَارِ البوابة الخارجية ودخل إلى مبنى البيت، ثم سرعان ما عاد برفقة عدد من الجنود الذين قبضوا على عمر، وانهالوا عليه ضرباً، صرخ عمر بأعلى صوته.

- ما الأمر، لماذا تضربونني.

لكز الجنود عمر بأعقاب بنادقهم وأخذوه إلى داخل المبنى وهم يصرخون ويشتمون ويقولون له: بدك مجد، ها... استنا شوي علشان تشوف مجد.

انقضى بعض الوقت، كان عمر في حالة ذهول، حاول أن يفهم أو يفسر ما جرى، دخل ضابط انجليزي يتحدث العربية بلكنة ثقيلة وقال:

- أهلاً وسهلاً في بيت السيد مجد، مين حضرتك؟

- أنا عمر الينو، من البلدة القديمة، من حارة الشيخ ربحان.
- هذا جيد، شو بتشتغل؟
- بائع حليب، في البلدة القديمة.
- هزّ الضابط رأسه وقال:
- من وين بتعرف مجد؟
- أنا ومجد جيران، كنت أبيع الحليب له ولعائلته.
- ممتاز، شو بتريد منه اليوم، لماذا أتيت إلى بيته؟
- نظر عمر إلى الضابط بحيرة، خالجه شعور بأنه كَرَّع وتمنى لو لم يأت إلى هنا، قال لنفسه: ماذا سأقول لهذا الضابط، ما الذي أتى بي إلى هنا، هل أقول له إن الشيخ ربحان طلب مني البحث عن مجد! لاحظ الضابط؟
- أن عمر يبحث عن إجابة، وأنه لا ينوي قول الحقيقة، فقال:
- بشو بتفكر، خليك دغري، شو بدك من مجد؟
- معي أمانة له.
- شو الأمانة؟
- بدأ عمر يدرك ما يدور حوله، وقال لنفسه: قد يكون الإنجليز قتلوا مجد أو سجنوه واستولوا على بيته، فقال:
- جئت أسدد ديناً له عليّ مقدار جنيته واحد.
- ضحك الضابط بسخرية من إجابة عمر، جنيته...آه..... لا بأس، فجأة صرخ الضابط بأعلى صوته:
- أيها الكاذب اللعين لقد فتش الجند ثوبك، ليس فيه إلا ثلاثة مليّنات.
- ثم نادى على الجنود، وقال: خذوه، سحبه الجنود بقوة ووضعوه في شاحنة، عصبوا عينيه وانطلقوا به، حاول عمر أن يركز فكره على مسار الشاحنة كي يعلم إلى أين يذهبون به، لكن الشاحنة كانت تسير

وتنعطف يمينا ويسارا وتتوقف بعض الوقت ثم تسير من جديد، الأمر الذي صعب عليه معرفة وجهة الشاحنة، وبعد عدة ساعات وجد نفسه ملقى على أرض زنزانة ضيقة مظلمة ذات جدران خشنة وسقف شديد الارتفاع، ظهرت عليه نتوء وخروم يتسلل منها رذاذ غبار من النور. انبعثت أصوات صفير لشقوق نافذة حديدية مغلقة، كان يسمع وقع بساطير الحراس ذات الحدوات الحديدية، وبين فينة وأخرى كانت تُطل من فتحة صغيرة في باب الزنزانة عيون محمومة مثل فوهات لظى في سديم الظلام، قال لنفسه: ما الذي يحدث معي؟ لماذا أتوا بي إلى هنا، ولماذا يحتل الإنجليز بيت مجد، ما لي ولكل هذا؟، ساحك الله يا شيخ ريجان، يبدو أن الأمر أكثر صعوبة وتعقيداً مما تصورت، علا صوت قعقة سلسلة المفاتيح وصوت أقدام تقترب من الزنزانة، سمع دوران مفتاح في قفل الباب، رأى جنديا سرعان ما علا صوته الخشن، شدَّ الجندي عمر من تلايبه وقيد يديه، ثم وضع على رأسه كيسا من القماش، انبعثت منه رائحة نتنة، سحب من قميصه كما تُسحب دابة إلى ذبحها، ارتعد عمر خوفا وبدا العرق يتصبب منه وتسارعت دقات قلبه، رفع الجندي الكيس عنه، وجد عمر نفسه في غرفة ضيقة لا تزيد مساحتها على مترين، في زاويتها طاولة صغيرة، جلس خلفها رجل بلباس مدني، قال الرجل:

- اجلس يا عمر، لا تخف.

جلس عمر حيث أشار الرجل الذي نهض من على كرسيه وأمر أحدهم أن يحضر فنجانا من القهوة لعمر.

- أهلاً وسهلاً يا سيد عمر، من زمان وأنا حابب أشوفك، أنت رجل ذو شأن بين الناس، إنني أقدر ما تقوم به من جهد في خدمة أهل المدينة،

لعلك أفضل من يعرف أحوالهم، فأنت تزور كل البيوت يومياً، على كل حال أنت ضيفي اليوم، إن كنت لا ترغب بالقهوة فسأطلب لك شيئاً، لا تحجل "انتو" العرب أهل كرم، "وإحنا" الإنجليز مثلكم، أرجو أن لا تشعر بالخرج معي، اعتبرني صديقاً يرغب بالدرشة معك حول أوضاع المدينة، ليس سوى ذلك، وقد يكون هذا اللقاء فرصة تعود بالفائدة عليك وعلينا.

- أشكرك يا خواجه، أنا رجل بسيط، لست من أصحاب الشأن كما تظن، أخشى أن أمري قد اختلط عليك، أنا مجرد بائع حليب. قهقهه الرجل ودفع كرسيه إلى الخلف، وقال:

- لا تتواضع، أنا أعرف من أنت، وأدرك قيمة أن يكون المرء بائع حليب، لعلك تتهرب من الدرشة معي.

- يا خواجه أنت تهدر وقتك الثمين مع رجل بسيط مثلي.

- إذا دعنا ندخل بالموضوع ما دمت ترفض صداقتي، ومع ذلك سأكون طيباً معك، فكما تقولون "المعروف مع الله مش مع العبد"، أنا بدي أسألك شوية أسئلة، وإذا صدقت معي بتروح على بيتك فوراً.

خطر لعمر أن يقاوح هذا الغريب، غير أنه تما لك نفسه خاصة أنها المرة الأولى التي يجد نفسه فيها بين أيدي الإنجليز، لقد عمل طيلة حياته لتفادي موقف كهذا، ابتعد عن السياسة وعن الأحزاب وعن المظاهرات، وعن كل ما يمكن أن يأتي به إلى مثل هذا المكان، وفجأة ودون مقدمات وجد نفسه في غرفة التحقيق، والأدهى أنه لا يعرف لماذا.

قال عمر للمحقق:

- هناك سوء فهم كبير، أنا رجل بسيط.

قاطعہ المحقق:

- أنا بعرف أنت رجل محترم، بعيد عن المشاكل، بس لازم تعرف إنو "الي بقرب من الدست بتشحبر".

- مش فاهم!

- "خلينا مناح" بلاش نتصرف معك بشكل آخر، قلتلك إذا جاوبت على أسئلتي بصدق وصراحة بتروح فوراً على البيت. تفضل اسأل، قال عمر بصوت منخفض.

- شو أخبار الست فاطمة؟

ارتعش عمر، شحب وجهه، تسارعت دقات قلبه، قال لنفسه: ما دخل فاطمة بما أنا فيه؟ ثم أجاب، فاطمة أختي! - أجل.

- هي بخير، من المدرسة للبيت ومن البيت للمدرسة.

- طبعاً... طبعاً، هي معلمة شاطرة وكل الناس بحبوها، بس هذا مش كل إشي....

قال المحقق ونظر إلى عمر نظرة تنم عن مكرٍ ولؤم، وتابع:

- كيف بتسمح يا سيد عمر، وأنت رجل محترم، ومن عائلة محافظة، لأختك أن تختلط بالرجال وبالأحزاب والمظاهرات والحكي الفاضي؟ نهض عمر من على الكرسي وصاح: أختي بنت محترمة متعلمة وما بتعمل إشي يُسيء لها أو لعائلتها.

قال المحقق بغضب وحزم: اجلس، ثم غير تعابير وجهه، ابتسم، وقال:

- بلاش أزعل منك.....

حدق بعيني عمر، وقال:

- والآن أجبني وين مجد؟

على الرغم من شعور الخوف والارتباك الذي أصاب عمر فإنه شعر بقليل من الارتياح، خاصة عندما ابتعد الضابط عن موضوع فاطمة، وفهم أيضاً أن مجد لم يُقتل وأنه ليس بأيدي الإنجليز، فأجاب بصوت مرتعش:

- يا حضرة الخواجا إحنا ناس بِنَجِبَن وَبِنَلَبَن وَبِنَسَمَن، هذا كل الي بنعرفه من الحياة، صدقني لو كنت بعرف وين مجد ما جيت أبحث عنه في بيته.

- طيب عال، شو بدك منه، وإياك تقول لي إنك مديون له بجنيه، لقد فتش الحراس ثيابك، ليس فيها سوى ثلاثة مليئات.

- لكن هذه هي الحقيقة، بس أنا نسيت الجنيه في البيت.

- الظاهر أنك ما بتيجي بالمئبح.

في تلك اللحظة، تفاجأ عمر بدخول شخص آخر إلى الغرفة لا يخفي هَرِيرَةً قلبه¹⁰⁶، دار حول الكرسي حيث يجلس عمر دورة كاملة، توقف بشكل مفاجئ، حدّق بوجه عمر، ودون أن ينطق بكلمة واحدة حرك فمه، بصق في وجه عمر، الذي ما كاد يمسح أثر الإهانة مرتعشاً مستغرباً، مذهولاً، حتى بادره الرجل بصفعة شديدة على خده، شعر بحرارة لفحت وجهه وضباب كثيف حجب عنه الرؤية، أحسّ بيد غليظة تأخذ بتلابيبه حتى أطبقت على أنفاسه وأخرى تلمطه بقوة على وجهه وأنحاء جسمه، وصوت يصرخ به!

- قص القصة، شو علاقتك بمجد، إحنا بنعرف كل شي، وين مجد يا كلب.

شيء ما سقطَ على الأرض، تكسّر كما الزجاج، حطمَ أحلامه الصغيرة، غيَّب غيمات الحليب ودمرَ حياته الرتيبة، غيرها قبل أن يترك له فرصة ليتعود التغير.

نهض المحقق الأول وأمسك يد المحقق الآخر، أبعداها عن وجه عمر، وقال:

- بلاش عنف، عمر زلمه محترم، وراح يحكي كل شي، والتفت نحو عمر، وأضاف.

- مزبوط كلامي يا عمر.

نظر عمر إليهما ولم يتلأش الضباب عن محجريه المُرقين بعد، حدّق فيما حوله كما لو أنه يُختبر جدوى امتلاكه لعينين لم تساعدها على وعي الحقيقة أو فهم ما يحدث من حوله، لم يتفوه بأي كلمة.
قال المحقق الأول:

- شو يا عمر، ما بدك تتكلم، شو علاقتك بمجد، هل هي سر ذو قيمة لدرجة أن تضحي بنفسك من أجله.

بقي عمر صامتا، كَبَتْ أحدى المحققين يده وانهاه آخر عليه بالضرب واللبّ، حتى وهنت ساقاه، فما عاد يقوى على الوقوف، جره أحد الجنود من أقدامه كما تجر الجيف المتعفنة وألقوا به مكبلاً في عراء أرض باردة.

صَرَبَ الهواء بقوة أبواباً من حديد، صوت قرعة وصدى أصوات من غرف مجاورة، خَدَرَ الجسد من وجع، وهان الدمع من ذل، بدأ عمر يفقد الوعي، نسي ما يحيط به، انسابت صفحة الأيام، لم تكن تقلبات الزمن وصور الوجوه المتبدلة خلف الجدران ذات معنى مختلف، غطى السحاب فضاء الحلم وغمّ هديل الحمام، دغم الجند بحوافر القهر

ظلال الصبا وقهقهات الورد والقسيب¹⁰⁷ الناعم تحت صفصافة الروح، وعندما استيقظ الوعد تاقت النفس لحبة سمسم في لقمة زعتر، لاحت عمامة بيضاء على وجه نمشته العصافير، تقاطر اللبن على جلمود الصبر وفرد اللبلاب جدائله على قزعات الماء وألقت المدادة العجوز فرزات العمر على كتف الغمام، استيقظ فوجد نفسه ملقى على أرض الزنزانة مرة أخرى، ارتعش الجسد من برد ومن خوف ومن تعب، استولى عليه الكدر والههم والانقباض والإحساس بالعجز والهزيمة، حاول النهوض، لكن قيود الجسد المثقل بالسلبية والكسل وما جدَّ عليهما من القُرْ وألم التعذيب حطَّت من عزم الوعي المتحفز لديه، خيط وحيد من الضوء تسلل إلى عتمة الزنزانة من خُرْم صغير، تحفَّز الوعي، أسند عمر ظهره إلى الحائط، فتح عينيه، خطى بثاقل نحو باب موصد، نظر إلى الأرض، امتلأت بقع من الدماء سالت من أنحاء جسمه، وانفه الراعف، رفع رأسه، تدفق خيط الضوء إلى شرايينه المتبسة، شعور بالدفء انساب داخل جسده، ماث في بحر من الأحلام، رأى بعض نباتات خضراء تمضخت أوراقها عبر الشقوق، قرأ بعض كلمات حفرت بالأظافر والدماء على جدار الزنزانة:

وإن صلبوك في ليلة البرد الشديد فلا تحف
سيكون علماً من تعذب للصديق وما اعترف

اهتز نسيج العنكبوت، وتدحرجت أفكار عمر وذكرياته على بساط

واقع مختلف، أطلَّ وجه أبيه من نافذة جُرح عميق، صافي العينين ودودَ القسمات، أحسَّ عمر بحمل على الأكتاف ثقيل، ألقى برأسه على صدر أمه الدافئ، لاحت عينا ربي، ابتسم صابر لجنية الليل ورفع عادل قبضة يده في وجه الغول المتحفز أمام أسوار المدينة، قرَّقر الحمام، لامست هدى وجه عمر، قرمشت خدَّ الدجى وزرعت ورداً في الحوض ونسجت نهارق نام عليها الندى والصغار، وجثَّتْ على فراش الحلم ورطبَّتْ وجنات عمر المزرقَة بشفاه ناعمة، فاضَّ القلب بالوجد والحبِّ والأمل، تسللت وجوه الناس من أحياء المدينة عبر خيط ضوء وحيد، فاحت رائحة الزعر والطيون، في تلك اللحظة فاء عمر من غفوته الطويلة، تملكه شعور بالفخر الشديد، ذهبَ بهمه وكدره، أيقظ عيون الوعي، دفع نبعاً غزيراً من الحيوية في شرايينه، حطَّمْ وهم انطواء الذات على حصون خلاصها الفردي، وكشفَ سرَّ الأحلام التي تولد في ظلِّ القيود، في لحظة تحررت الروح من قيد الجسد، ومن سلبية الحياء والكسل والحياة الرتيبة، وأعادت تشكيل الذات وربما العالم والأشياء من جديد، تملكه شعور بأن كل طرق الحياة أخذته بالاتجاه المعاكس.

كنت أعيش داخل عالم متكلس، كانت كل الحقائق الثقيلة أمامي، قال لنفسه، لكنني أغمضت عيوني ونأيت بنفسي عنها، وكلما ضاق فضاء الطريق قبضتُ أضلاعي حتى لا يربو جسمي، وإذا حُبس الهواء أحصيت أنفاسي، ملأت أواني الناس بالجوري الأبيض، لكنني خشيت النظر إلى سواد تحت عيونهم المتعبة، مشيت إلى جوار الحائط، دعوت الله أن يستر رأسي، "مشيت الحيط الحيط وقلت يا رب الستر"، تساقط الشهداء من حولي وبكت العيون، تَرَحَّمْتُ على الموتى وأوصدتُ أبواب قلبي، قال الشيخ عبد "أنت فاهم ومطنش"، وقال الشيخ ريحان: ما

زلت أسير خوفك وعجزك، مجد سيد فتيان المدينة وأميرها الأحمر،
صاحب الزيت والشموع التي أضاءت ظلام العتمة، أحس عمر أنه
أحب مجداً كما لم يجب أحداً في حياته، وفجأة لمح لا يدري في الوعي
أو الحلم ذبالة ترنح نورها في بنورة من غير سراج، في تلك اللحظة
شعر أنه ومجد وفاطمة وأبوه وأمه وربى وصابر وعادل والناس والشيخ
ربحان والقدس كل واحد.

صباح الأمانى صباح الورود

صباح المحبة صباح الخلود

صباح العيون التي لا تلين

تظل تناضل رغم القيود

كان هذا صوت وحيد من الزنزانة المجاورة يغني لصديقه الشهيد،
نادى عمر على الصوت سائلاً: من هناك؟
- أنا وحيد من لفتا، وأنت؟

- أنا عمر من الشيخ ربحان، منذ متى أنت هنا يا وحيد؟
- لست أدري تماماً، في الزنزانة يسير الزمن بطيئاً، ما أحصيته ورقمته
على رزنامة الجدار منذ أول خيط للنور تعاقب عليّ من ثقب صغير
في سقف قبر الأحياء هذا، ومنذ أول وجبة طعام قرّرت عنها نفسي، ما
أحصيته يقرب من ثلاثة وثمانين يوماً، وليس خيط النور هنا سوى وهم
للزمن، فأنت لا تدري إن حلّ الظلام، هل هو ليل أم غمام غطى وجه
الشمس ما شاء من زمن..

ومنذ متى أنت هنا؟ أضاف وحيد.

- منذ أول صفعه على وجهي، أيقظت عيون الوعي وفتحت نوافذ قلبي لتطل على نور الحقيقة، لم يقدم لي طعام حتى اللحظة، من شدة الجوع وددت لو قزت نفسي من شيء... أنا هنا منذ ثلاث وثمانين ساعة، أضاف عمر.

قرقر الأسيران بصوت مرتفع، اغتاضت منه جدران الزنازين، ثم أنشدا معاً، صباح الأمان، صباح الورد.
مضى الزمن ثقيلاً وبطيئاً مثل زواحف قدر جاء يدب على جسد الحكاية من ظلمات عهود بائدة.

بعد شهور استنزف المحققون طاقة التنكيل بعمر دون جدوى تفيد من الوصول إلى مجد، وبعد أن استوفت الزنازة ما شاءت من الجسد النحيل، نُقل عمر إلى غرفة السجن الجماعية، وكان وحيد قد سبقه إلى هناك منذ أيام قليلة، ما أن ألقى عمر السلام على من الغرفة حتى نهض شاب يافع الجسم قوي البنية لم تنل منه جدران الزنازين، ابتسم ورحب بعمر:

- أنا وحيد، قال.

- أنا عمر، أجاب.

ما كان الرجلان قد تقابلا وجهاً لوجه قبل هذا، تعانقا كصديقين حميمين، سأل وحيد:

- كيف المهمة؟

- عالية، أجاب عمر.

وبعد احتفاء على طريقة السجناء الذين اكتظت بهم جنبات الغرفة الضيقة، جلس رفيقا الزنازة إلى برش من بطاطين الخيش.

- ثم بادر وحيد سائلاً:
- لم تقل لي ما هي تهمتك يا صديقي؟
- مجد، أجب عمر.
- ماذا تقصد؟
- ذهبت لزيارة صديق قديم في بيت عمته في القطمون، فجنّ جنون الإنجليز.
- ومن صديقك هذا؟
- مجد القدسي.
- هل تقصد مجد ابن الشيخ نامق.
- أجل، هو بعينه.
- ضحك وحيد بصوت أغضب الحراس خلف البوابة الحديدية، ثم قال بلهجة قدسية:
- "كويس إنك فلتت من الإعدام" يا رجل!، شو أنت مش من هالبلد! ما بتعرف أنو مجد أحد أهم المطلوبين للاحتلال البريطاني وللصهاينة، ومين المجنون الي وداك على بيته! ما بتعرف إنو بعد ما نفذ هو وسعيد راضي عملية البلدة القديمة، اختفيا عن الأنظار واستولى الإنجليز على بيت مجد في القطمون".
- على كل حال لا تقلق، يقال إن مجد تمكن من الإفلات إلى خارج البلاد، وعلمت أن المفتي الحاج أمين أرسله إلى ألمانيا.
- قال عمر لنفسه: الله، الله، يا شيخ ربحان، أي مجد هذا الذي تبحث عنه، إنه لشرف عظيم قد لا أستحقه أن أكون جزءاً من هذا المجد الكبير، ربما تعقدت المسألة، خاصة أن المفتي أيضاً قد نفاه الإنجليز إلى خارج البلاد، لكنها والله مهمة تشرف من يموت في سبيلها.

انسليموس يدرهك قدره الذهبي

ما زال ليل القدس طويلاً، ما إن يذهب حتى يعود، يغزل ملاءته خيطاً خيطاً، حتى يلف السواد قلبي، أهيمُ من جديد على غير هدى، عيناك وقناديل المساء رفيقا وحدتي الموحشة، ليس سوى أزقة المدينة وجدرانها حُضْنٌ وقد غابت أُمِّي وماري التي نامت على كف الملاك، وحلمت بالروح تقبل خدَّ الصبح، سَمَتَ بالنفس على الأحياء ورحلت، كالقدس أحببتها، أحبت هي الله، فأحبها، سَحَبَتْ يدها من بين أصابعي ذات يوم وهربت إلى القداس وما عادت، ونرجس راهبة الخمار الأبيض مثل القدس أيضاً يُحبها الله، تُراها زمت وجنتيها وابتسمت، هل ابتسمت حقاً، ها أنا من جديد أُحيي أملاً لن يتحقق، أزرع في أعماق القلب ربيعاً ممنوعاً، لماذا نفدت لَعْنُ عيناك إلى روحي المتعبة من التجوال، بطبعي اخترت العزلة التي ولدت عندي شعوراً دائماً بالغربة، لكن طيفك فَخَتْ ظلام ليلي واقتحم كهوف قلبي، ومزق وحشة روحي، أحبيت ماري وانتظرت لعلها تقطع المسافة بالاتجاه المعاكس، لكنها واصلت السير بنفس الاتجاه، أما نرجس، ملاكي الجميل، تُرى على أي ضفة تقف، كيف كان لي أن أعبر بسرعة خاطفة على جسر بين ماري وصاحبة الخمار، هل ابتسمت حقاً، من له أن يُوصل مسافة مفصولة بين روح تهيم في ملكوت الكون وقلبي؟ مع نرجس يصعب تحديد الاتجاه، يختار العصب العاشر ويُلقني إلى شَبَكِ الاستقبال أَلْف رسالة وليس من احتمال واحد قريب من حدِّ الممكن، زكا أعطى

ما يملك، وأنت تصر على انتزاع بعض مما عند الله يا انطون قالت أُمي، في أي ملكوت أنت يا نرجس. ومن منّا سيقطع المسافة الفاصلة؟ ومن أي اتجاه؟

سمع طرق يده على الباب، وقبل أن يُدرك أنه أمام بيتها، فتحت معطف الدار، أطلّ بداراً بضّ القوام رقيق المحيا، لا يعلم كيف أتت به الخطى إليها من جديد، ارتجفت، ظلت ساهمة الوجه للحظات، تلعث، انسابت بعض حبات من العرق على وجنيته، تصاعدت أنفاسه وسابقت كلماته وأربكت العصب الحائر، سحب نفساً عميقاً، كانت ماري تُطل من نافذتها على قباب المدينة.

- أنت هنا من جديد، قالت،

هل زمت غمازات وجنتيها وابتسمت؟ هل ابتسمت حقاً؟ ماذا لو قلت لها أحبك، ماذا لو قطعت المسافة؟ أين الاتجاه؟ ماذا لو ارتعش جسدها وانتفض عصفور الصدر الحبيس؟ ماذا لو رفضت وارتعد قلبها خوفاً؟ تراها ابتسمت؟ هل ابتسمت حقاً؟ تصاعدت تلك الأنفاس اللعينة، دفعها إلى الخلف إلى أعماق جوفه الغائر، وقبل أن تدهمه وتسبق كلماته من جديد، استل سيف العزم من جفنه، هتفت تلك الكائنات الصغيرة التي تتدفق داخل شرايينه، نظَرَ إلى عينيها، وقبل أن تتوارى خلف النافذة للصلاة أطلت نرجس من بوابة فرح محظور.

- جئتُ كي أراك، قال دون مقدمات.

أزهر وردُ الوجد على مُحيّاها، أزاغت رأسها، وتهدل شعرها على كتفيها، اضطربت وتهدج صوتها، ارتجفت شفتيها، سادت لحظة من الصمت الممزوج بالتوتر والغموض، ضغطت على أنفاسها اللاهفة، تجنبت النظر إليه، سوّت ملايتها السوداء على كتفها وسحبت برفق نحو

الوجه خمارها الأبيض.

- تمهلي، قال.

نظر إلى ألقى في عينيها، خاتله الوجد وعزف على أوتار اللحظة
سيمفونيته، فتدفقت "ضربات القدر"،¹⁰⁸ نفذ إلى سرائر قلبها، رأى
روضة من الزنبق، وكروماً من عنب وتفتح ونبذا وسما صافية،
أراد أن ييثها كل ما اعتمر القلب من لوعة حب دفين، أخذته سهام
اللحظ إلى نشوة عوالم من فرح أفلت من ديباس البغته، ففاضت مآقي
العين عن ماء الجوى وتضوع البخور في كنائس روحه، ودسقت
أحواض القلب عن ياسمين ونعنع، ثم تفتحت وجنات المصلوب بين
الفودين¹⁰⁹ وبرزخ الوعد، عاود النظر إلى ألقى في عينيها فتداكمت في
لبه الذكريات الطرية الرطبة مثل ندى الصباح، تغابشت صور الوجوه
فما عاد يدرك وهو يقلب صفحات الذكرى، أماري تلك التي تطل من
نافذة الموت أم نرجس تقشع سابعة الوهم عن ظلال الحياة، أم تلك
ملائكة تبخر الفرحة على هندباء النفس وليانها¹¹⁰، تمنى لو أنه جون
ميلتون في فردوسه المفقود¹¹¹، ليعيد انتصار الأمل على الخطيئة، حاول
أن يصف لها شعوره لكن كلماته اختنقت بين لهاث أنفاسه المتدفقة،
وضباب ممزوج بالخوف والحيرة والذكريات، مدّ يداً ولهى، ارتعشت

١٠٨ أسم أشهر سيمفونيات بيت هوفن

١٠٩ الشعر في جانبي الرأس

١١٠ رخاء العيش ونعمته

١١١ من أبرز شعراء الأدب الإنجليزي ١٦٠٨-١٦٧٤ قصيدته
الفردوس المفقود من أعظم الأعمال الشعرية في الأدب الإنجليزي كونها
تناولت جوانب من الكتاب المقدس وماهية الخلق وعلاقة المرأة بالرجل
والأمل والخطيئة

نرجس ومدت يداً راجفة، تلامستا، تنملت وترة يدها فهاجت ملايين الكائنات الصغيرة في اليد الأخرى.

- من في الباب يا نرجس؟ سألت أم عمر.

قَرَقَر القلب ونضا الحلم عن كل كل الغمام، شحب وجهها، سحبت يدها، انتحبت الكائنات الصغيرة في يده.

- إنه السيد أبو جريس صديق أخي عمر، أجابت بصوت متهدج.

هرولت الأم ومعها فاطمة وهدى والأطفال، بدا الخوف والارتباك على وجوه الجميع، اضطربت أسارير أبي جريس، وقبل أن تُفسح الأم مقعداً للضيف في حوش البيت، قالت:

- بالله عليك أن تطمئنني يا ولدي، هل من أخبار عن عمر.

- لا علم لي يا خالة، افتقدته، لم أَرَهُ منذ عدة أيام، جئت لأطمئن عليه، قال أبو جريس وهو يلوم نفسه على ما فاض به القلب في لحظة بدا فيها كل شيء ملتبساً.

التفت إلى نرجس، اختفى ألُّق العينين خلف ظلال وشاح أبيض.

- يبدو أنك لا تعلم أنه قد أُعتقل، قالت فاطمة.

انكسر الحلم، أحسَّ بذنب وتأنيب ضمير، فاضت مُروءة الواجب، غالبت وجد القلب ولحظاته الملتبسة، نظرَ إلى نرجس من جديد، وضعَ يده على كتف الصغيرة ربي، جلس إلى مقعد قريب، ضمَّ الصغيرة إلى صدره وسأل!

- متى كان ذلك؟

- منذ ثمانية أيام، أجابت فاطمة.

- وهل زاره أحد؟

- ليس بعد، قالت الأم وهي تَحْتِ وتَحْنُ حزناً، وأتبعته:
 - منذ اعتقل ونحن في حيرة من أمرنا، قلقون لا نعلم عنه شيئاً
 سوى أن أحدهم خرج من سجن القشلة وأخبرنا أنه هناك، لم يسمحوا
 لنا بزيارته، طلبوا فاطمة للتحقيق، أطلقوا سراحها بعد ساعات، لم
 تفهم الكثير، يبحثون عن مجد ابن الشيخ نامق، لا أدري ما علاقتنا
 بمجد.

بكت الأم، وبدا أن نرجس أجهشت والآخرين، ارتبك أبو جريس،
 فجأة تغيرت الدنيا حوله قبل أن يَجْهَرَ للتغير، ماذا الآن سأل.
 - لا ندري، ساء حالنا وتوقفت أعمالنا، كما ترى دلات الحليب
 لا تجد من يحملها إلى بيوت الزبائن فجراً، القلة يأتون لأخذها من هنا،
 فكرت أن أطوف بالحليب على البيوت بنفسي، إن لم أفعل، فسيموت
 الأطفال جوعاً، راتب فاطمة جنيه ونصف، لا يطعم الدواب علفاً
 وبرسيما، قالت أم عمر.

جال أبو جريس بنظره في جنبات الحوش، بدا الحوض راكداً وكثيباً،
 شعر كأن الدنيا دلحت همومها على أسرة بائسة، ضمَّ إليه عادل وصابر
 وربى، نظرَ إلى نرجس ثم إلى فاطمة وهدى، أمسك بيد أم عمر،
 فتح وديان قلبه، فسحَّ للهم الذي يحتاج أروقة الحوش وحوض الماء أن
 ينساب في شرايينه، لعله ينضب من هناك، قال لأم عمر: اسمحي لي،
 أنت في مقام والدتي، قَبَّلَ يدها كما يفعل الأبناء مع أمهاتهم، لا تقلقي
 يا والدتي، قال، سأطوف أنا على البيوت لتوزيع الحليب، حتى يأتي
 الله بالفرج، أعلم أنه لا يجوز لي أن أتردد عليكم في غياب سيد البيت،
 يكفي أن تضعي دلات الحليب أمام البيت، سأخذها من هناك، وأعود
 بالغلة إلى فاطمة أثناء دوامها بالمدرسة، لا يُضَيِّعُ الربُّ بيتاً بهذا الطهر

والصفاء.

غالبت شمس الصباح غيمة داكنة السواد، أسبلت شال ظلها على أفق بعيد، وضعت نرجس دلات الحليب خلف بوابة البيت، نافحت حمم بركان لا يرحم، تفجر في أنحاء جسدها، فجأة قذف أسرار ناره الكامنة من خطوم غور عميق، هبطت بجسمها النحيل إلى الأرض، جلست، مدّت ثوبها الفضفاض إلى ساقين منفرجتين، أسندت ظهرها إلى البوابة الموصدة، بعض خصلات من شعرها لامست طرفي جفونها، وتهذّلت على عينيها، أطرقت السمع جيداً لخطوات أقدامه تقترب من بابها، اصتقت دلات الحليب بعضها ببعض، ألصقت رأسها إلى الباب الموصد، مالت به يميناً ثم يساراً، تدفق الدم في شرايينها وتبيّع على شفيتها، وضحك الورد على وجنتيها، اشتعلت نيران حواسها، تأججت عواطفها وفارت، ثارت عواصف الجسد المحبوس، تدمّلك ثديها، شعرت كأن جيوشاً من النمل تجتاح جسدها، سحبت نفساً عميقاً، أحسّت أن أنفاسه تعبر مسامات الجدار المتين، اشتمت رائحته، رأت طيفاً لاطفَ بيده خصلات شعرها المنفوش، وانساب إلى ورد خدها الطري، زمت شفيتها المكتنزتين، نبذ الزغب فوق جلدها البض، سكبت نفسها في سكون عيونه الدافئة، وذابت هناك، ارتجف القلب، رهز الجسم واقشعر البدن، شعرت بألم لذيذ، تلاشت غمامة داكنة عن وجهه برتقالة الأفق، وأطل فجر يوم جديد.

فجأة نبتت في صحراء القلب زهرة صغيرة، بعيداً عن ينابيع المياه، وحيدة ترنو إلى ظلّ في وجه شمس لافحة، دقت أجراس كنيسة القيامة، أطلّ من نوافذ وحدته إلى رحاب كون جميل، شعر أن عالماً من الحياة ينهض داخله، غمره ابتهاج وفرح كبير، فرد الروح ظللاً

للقداس، جاب الأزقة والطرقات كأنه يعبرها لأول مرة، ركض مثل طفل صغير، أحسّ بدفء المدينة، أحبّ شمسَ القدس دائماً لأنها لا تسقط على المارة مباشرة، تحميمهم جدران الأزقة الضيقة بظلالها الحانية على الطرقات، بدا العالم حلماً، شجرة الجميز تفتحت، وتراقصت خيالات المشربيات وستائر النوافذ على جدران الطريق، أنفاس حياة قوية أطلقت معها لهيب الوجد والحُب والربيع، صدر ماري، مهدّ أحلامه التي استيقظت من سبات عميق، وجه نرجس المفعم ببراءة حائرة، صوتها الناعم مثل ترانيم الصلاة حلق في سماء الأمانى مثل عصفور تحرر من قفص، بدا الأمل عنيداً، حدّق انسيلموس عبّر زجاج محبسه الشفاف في عيون الشاخصين إليه من نوافذ اليراع والصحائف المصلوبة على رفوف الكتب ولوحات الإعلان منذ أزمان بعيدة، أدرك قدره الذهبي، حطّم زجاج الذات، تحرر من طقوس الظلام ومن ظله الذي تاه ومن ضياع الحلم، إلى حلم لغاية ما، عبر مجاز وحدته الإجباري، من منفى وجوده إلى وعيه الخلاق، تملكه إحساس مفاجئ بمعنى آخر للأشياء، وجه أجمل للحب وللحياة، مجرد عن رغبة التملك والحيازة والاقتناء، لن تسحبه الدنيا إلى قاعها السحيق مرة أخرى، سما بالروح إلى طبيعة فوق مدركات الجسد، برفق حمل دلالات الحليب التي لمستها يد نرجس الناعمة، حنّ عليها، قبلها أحياناً، جعل منها طريقاً لعالم جديد، طاف بالجوري الأبيض على بيوت الناس، أطلّ على همومهم وعلى أفراحهم وأتراحهم، أدرك أن للحياة مغزى " أكثر اتساعاً مما تعود عليه".

عودة الحمام

أَفْتَقَ قرن الشمس عن سرب حمام حلق عالياً، حام طويلاً، حَدَّقَتْ هدى بالمدى، لَوَّحَتْ للطير بيدٍ ترتجف، انسابت على الخدَّ عبرات من وجدٍ خجول، نثرت في الأنحاء بعضاً من حُبِّ وحبِّ وفُريزق¹¹² ودموع، حطت حمامة على سطح البيت، حَدَّقَتْ في الأنحاء، لَوَّحَتْ هدى لها بود وهدوء، تبعها سرب من الحمام، حطَّ على نثار من حنطة وانتظار، ليت هذا الطير يحمل قلبي إليه، ليته يحطُّ على نافذة ديماسه ووحدته الموحشة، يبثه أشواق روحي ونبضات قلبي، ليته يحمل لي من هناك، من تلك الزنزانة الباردة، أنفاسه الساخنة.

بهدهوء فتح الباب، نحيل الجسم والوجه، حليق الرأس، رثَّ الهندام، لكنه بدا متقد العينين بهي الطلة، باسم الثغر، أطلت أم عمر إلى الباحة تحمل كوز ماء من الفخار، فتح ذراعيه أسرع نحوها، هتف: أماه، رفعت رأسها، حدقت به بنظرات وامضة، تسمرت مكانها، تتممت، تلعثمت، سقط كوز الماء فوق نثار من حنطة ودموع، حلقت أسراب من حمام ثم حطت فوق نثار رطب، هتفت: ولدي..... ألقى برأسه على صدرها الدافئ، ضمته بقوة وحنان، خفق قلبها بعنف، كاد يعبر صدره إلى الجهة الأخرى، أجهشت بالبكاء، انهمر على خديه سيل دافئ، أقبلت هدى على نشيج أم ملوَّعة، وهديل حمام، ألقى بنفسها على جسد زوجها المضموم إلى صدر أمه الخافق، انتفض عصفور قلبها،

أصبح جسده أسير قلبين تلاقت نبضاتهما عبر أضلاعه الهشة، زغردت نرجس، قفزت فاطمة فوق سوار الحوض، وألقت بنفسها على كوم من أم وولد وزوجة ونثار من حنطة وماء، تعلق الصغار بساقي والدهم، بدوا معاً في ظل شجرة التين كالمداة العجوز التي تمد أغصانها على جدار البيت .

كان في شوق شديد لكل شيء في المدينة، بعد سنتين من الغياب قضاها سجيناً، جهزت أمه مقلوبة للغداء، لكنه ما كان يطيق انتظاراً، اغتسل وتعطر وارتدى حلة جميلة، خرج مسرعاً إلى الطرقات والأماكن التي اشتاق إليها.

في السجن تحتفظ الذاكرة بالمكان والزمان ووجوه الناس كما هي، لا تتغير وإن طال الغياب سنيماً، اشتاق لمنظر شروق الشمس وهي ترتفع ببطء من خلف جبل الزيتون حتى تلامس قمة الصخرة، اشتاق لدلات الحليب والندى الرطب على أوراق شجر الجميز في ساحات الحرم، وإلى أطفال الصباح على بوابات البيوت يمدون أيدي صغيرة بكسرولات الحليب ويفركون بالأخرى قذى النوم عن عيونهم الذابلة، أراد أن يُخلق فوق أسوار المدينة، أن يسير في الطرقات والأزقة، أن يُكحل عينيه بوجوه الناس الذين اشتاق إليهم، لأبي فؤاد اللبان، لأبي رباح الفران، لأبي ناصر بائعة الخضار من قطنة لأبي جعفر من سلوان، لأبي طلال البقال، لأبي يحيى الحمصاني، لبائع الفاكهة، لأبي جريس، للشيخ ريحان، لرجب، لزبوبا، لأبي منصور، للشيخ عبد، للشيخ إسلام، للمنجد أبي إبراهيم للأطفال بشحاطاتهم وسراويلهم البالية للأعيان بطرايشهم ومنشاتهم المزركشة لكل أبناء المدينة.

وقف أمام البوابة الخضراء، السلام على ساكن المقام، قال، قرأ فاتحة

الكتاب، تقدم خطوة إلى زمن آخر، ما تحرر من علة الزمن لكنه ألقى بنفسه على صدر الباب، طبع عليه قبلة دافئة، ملأى بالحب والشوق والوقار، أضاء شمعة، وضع رأسه عند فتحة الباب، همس، بورك من في بطن الأرض ومن على ظهرها وبورك ساكن هذا المقام، اشتقت إليك يا سيد الحلة الخضراء، قال عمر، هناك في السجن حيث الزمن بطيء مثل كائنات بائدة، تتحول كل الأشياء إلى ذكرى حزينة أحياناً، لكنها تدور كالرحى، ولا تغادر حتى تعلمك فك رموز الأشياء، كنت دائماً معي، حاضراً، تتسلل إلى الزنانة عبر ثقب صغيرة، مثل ضوء النهار الذي يتسلل رغم الجدران والأبواب الموصدة، كنت الخيط الذي أمسك به ليمنع عني عزلة الزمن، هناك تعلمت كيف تتحول الأحلام إلى أمني، ثم آمالاً عنيده، تقهر الجدران، لولاك يا سيد الحضرة المباركة، لكان السجن كابوساً يطحن العمر والسنوات، نم قرير العين، هناك أدركت الرسالة، أنا وأنت والقدس والناس ومجد الذي ترجو على ميعاد.

في الصباح نهضت أم عمر باكراً، واستنشرت من في البيت، بناتها وكتتها وحتى أطفال البيت، دعت كافة الجارات وفقراء المدينة، جاءت بحلة كبيرة من مخزن المؤن، وربع شوال من العدس، ومثله من الدقيق وزادت على ذلك من الأرز، دكت بابلور الكاز، نكشته جيداً وأشعلت لهيبه وجهزت حلة كبيرة من السباط، ومثلها من المسلوقة¹¹³، وأحضرت الشبخة أم سند إلى البيت وعملت مولداً دفعاً للبلاء عن ولدها وعائلتها.

كان مساء مختلفاً، جاء الأهل والجيران وأبناء المدينة من كل الحارات،

اكتظت ساحة البيت بالزوار، أطفال الحي احتفلوا وغنوا لعودة بائع الحليب، جاء وجهاء المدينة وشيوخها، الشيخ عبد، والباشا أبو نصرت والبيك رياض، حتى الباشا كاظم الحسيني بنفسه كان حاضراً، والشيخ قاسم ورجب، المدينة بكلها وكليلها جاءت لبائع الحليب.

أوشكت ليلة تمنى لو رقد الدهر عندها أن تنجلي، رفع رأسه، أمعن النظر إلى سماء بعيدة، أحس أنه ولد من جديد، كل شيء مختلف، إلا نجوم القدس "لا تغير مكانها" ولا يختلف بريقها، ابتسمت فاطمة، نظرت إليه، رأيت نور عينيه ونظرات تُخلق في فضاء بعيد، تقدمت، أمسكت كتفيه، هزته برفق، لا تبتعد كثيراً، أصبحت واحداً من أبطال المدينة، قالت.

نظر إليها، حدّق في عينيها، رأى فرحاً مطلاً، وعزماً واعداءً، وبشائر نهار مضيء.

- أمامنا مسار طويل، وعمل يحتاج إلى إبداع ووعي وشجاعة وصبر وعطاء، الاحتلال يطارد كل شيء، الناس والبيوت والشجر والهواء، الأمر الذي يجعل الصمود ليس كلمة فقط، وإنما وجوداً فذاً للشعب على الأرض، وحضوراً فاعلاً متواصلاً في الشارع، وفي الحوانيت، وأمام بساتين الباعة، وفي عدو الأطفال وهُوهم في الطرقات، وفي ساحات المواجهة، حتى تصبح البطولة "والشهادة امتيازاً" لا يناله إلا من امتلك قلباً قادراً على التضحية والفداء. أعلم أنك على الطريق، قال لفاطمة، قلة من الأمة رفضت أن تكون مع الخوالف، وعلينا أن نكون في طليعتها.

- تغيّرت كثيراً، قالت فاطمة.

- ربما، عندما كنتُ حراً قبل اعتقالِي، كنتُ أسبح في بحر من العتمة،

وعندما أسرت وألقي بي في زنزانة معتمة، سبح النور في قلبي وعقلي
وكانني.

- كنت أعلم دائماً أنك على خطى الطريق إلى اليقين.
- امضي الآن إلى فراشك، انثري الفرحة على مساحة العمر، لن نستسلم
للأحزان، قلبي الأحلام ما شئت، فإن لك الوعد والمجد والقدس
وإكليل الانتصار.

الخاطبة

توردت وجنتا نرجس ولألأت عيناها خجلاً وهي تقدم القهوة للمرأة التي بزخ صدرها من تحت ملايتها السمرء وتَفَحَّتْ في جلستها، بينما بَدَرَة عينها شقت عن جعبة نبالها التي ألقتها على برجاس¹¹⁴ الجسد الممشوق، عليها تحترق أبواب هذه القلعة الحصينة، باحثة عن كنوز الفتنة والجمال خلف أستار الخجل وثوب نرجس الزاهي. ما إن هَتَّت المرأة اللجوج بالأسئلة الحذقة الماكرة متسللة إلى ما جاءت من أجله، حتى ربت على ذراع نرجس ثم التفتت إلى مضيفتها وقالت بإعجاب "لحم الوز لبيت العز" ودفعت إلى نرجس حبة من الجوز متدرة بهرمها وعجزها عن كسرها، تطلعت نرجس إلى أمها بنظرة تنم عن السؤال والاستئذان، هَزَّت الأم رأسها علامة القبول لهذا الفحص الذي لا بد منه من قبل المرأة المتمرسه لنضارة وصلابة عوارض نرجس المصقولة، وضعت نرجس الجوزة بين ضرسيها وضغطت بقوة، فاخضَلَّ الوجه واغرورق الجوري على الوجنات، وتنملت الأطراف، قالت المرأة الحذقة بصوت مرتفع لا يخلو من تصنع واستعراض:

- أقبلي إلي، اقتربي مني، أجل هنا يا صغيرتي الجميلة، تماماً هنا، اجلسي إلى جواري.

وما إن أخذت نرجس مكانها إلى جوار أم حيدر، حتى مدَّت المرأة يدها إلى الجسد الذي تتوقد فيه جمرات الصبا، مُقَدِّمة متجرئة على اقتحام

معاقل القلعة الحصينة، مستكشفة أسرارها وخوابيها، سحبت نرجس نفسها بهدوء بعيداً عن اليد الفاحصة، إلى أن جاء المدد لنرجس من أمها التي قالت بهدوء لا يخلو من الحزم:

- يكفي هذا يا ابنتي، عودي إلى شأنك في المطبخ.

توارت نرجس عن سهام الضيفة، لكن إحساساً فطرياً دفعها لاستراق السمع من نافذة هناك، هي لحظة الوعد الذي لم تدركه العين ولم يألّفه القلب، جاء الطارق الذي لا يسأل الليل عن كسرولة حليب، لا تدري نرجس كيف ولماذا تراءى لها في تلك اللحظة وجه أبي جريس، حضر بنظراته العاشقة المتعبة من الترحال، بدا عليه القلق والحيرة، لَوّح بيده من البعيد، بدا كأنه يقول بحسرة وأسى: لا تفعل ذلك يا نرجس، لا تحطمي قلبي مرتين.

ارتفع صوت المرأة، وبدا كأنها تريد أن يسمع سكان الحوش قولها، استعرضت صفات العريس وميزات أهله، من حسب ونسب وغنى وأملاك ومكانة اجتماعية، الأمر الذي لقي استحسان أم عمر دون أن يذهب بحذرهما المعهود في مثل هذه المواقف.

تابعت أم حيدر الخاطبة الماهرة من حارة الشرف حديثها مع أم عمر وقالت:

- "ما في إشي بيستحي من أوانه" ابتكت صبية ناضجة يا أم عمر، وهذا أوانها، فالتردد والانتظار لمن في سنّها محظوران وأخشى أن يدركها الزمن وتبور.

قاطعتها أم عمر بحدة، وقالت:

"قال الله ولا فالك"، إننا نصدّ العرسان عنا كل يوم، "تتخير ولا نتخير" مثلنا لا تبور لهم إناث، نحن بيت عفة وحسب، وبناتنا ذوات جمال

معلوم وخلق عظيم.

- ليس هذا ما رميت إلية أجابت أم حيدر بدهاء، لكنني "جئت بك بعطية لا أبغي عنها جزية"، جئت بك بعريس لا يُرد ونسب لا يُصد، "ناس شارين" لا شك أن أم العريس معروفة لك، جاءت لزيارتك مهتة بسلامة عمر، الحاجة فيكات أم نصرت امرأة طيبة المعشر، كريمة اليد، هادئة الطبع والنفس، حسنة الخلق، يوم حضرت إلى بيتك هذا، رأيت نرجس "تقتل" بالبيت بهمة ونشاط، دخلت الفتاة إلى قلبها دون إذن مثل نسيم الصباح، أرسلتني اليوم كي أطلبها لابنها زيد، أبوه باشا معروف لكل الناس، لديه بيت وحاكورة كبيرة في درجة الطابونة بعقبة غنيم، ويملك بيتاً آخر أشبه بقصر في القطمون، لا ينقصه مال أو جاه.

- أصدقك القول يا أم حيدر، أنا لا أحب نسب البشوات، "شو جاب لجاب"، عاداتهم غير عاداتنا، مع ذلك ليس لي أن أرد طلبك من نفسي، "الشور والقول" لأخيها عمر، امنحني بعض الوقت حتى أُجيبك، قالت أم عمر.

- هذا جيد ولا جدال فيه، لأن الرأي أولاً وأخيراً لأخيها الكبير، لكن دعيني أكون معك صريحة واضحة، حتى لا يقع علي لوم أو أتهم لاحقاً بالخديعة لا سمح الله، كل ما قلته في حق العريس وعائلته معروف لكل الناس، إنه رجل وسيم ذو حسب ونسب ومال وجاه، لكن علي أن أقول إن به "خوفة" واحدة.

اضطربت حالة أم عمر وهي تسمع ملاحظة أم حيدر الأخيرة، التي سقطت عليها مثل صخرة كبيرة، فقالت متفاجئة:

- خوفة!، بس... هذا يكفي يا أم حيدر، ما "تكمليش"، الله الغني، ابنتي ليست بايره حتى تُخطب وتزوج لمن به خوفة.

- صلي على النبي يا "مستورة"، واسمعي وشاوري ورديلي جواب، الرجل كامل من "مجاميعه"، بس "خوفته" إنه فدائي، مع "هدول تعاون الجهاد المقدس".

اعتدلت أم عمر في جلستها، وهدأت سريرتها وقد اطمأنت أن الشاب لا يعاني من علة في عقله ولا في جسده أو هيئته، لكن ملاحظة أم حيدر أعادتها إلى ذكرى ألم لم يبرح نفسها وعقلها، فقالت:

- هذي مش حوفة يا أم حيدر هذا وسام، بس "قلبي من الحامض لاوي"، استشهد زوجي وترملت في عز شبابي، يا حسرتي عليك يا ابنتي، أخشى عليك مصيراً مثل مصيري، أخشى أن يتزوجها هذا الشاب شهراً أو سنة ثم يغادر دون استئذان ولا يعود، "يا حسرة علينا، همنا غاوي وعلينا ناوي"، قالت أم عمر بألم وحزن شديد.

- صلي على النبي، "فال الله ولا فالك"، الأعمار بيد الله، صدقيني يا أم عمر في الكثير من القرى المجاورة، مقياس الرجولة لقبول العريس أن يكون "جلاّب ما بهاب"، "مغطى بحطة ورزقه ببلطة"، الوطن غالٍ والدين عالٍ، والجهاد واجب يا أرملة الشهيد، شاوري عمر، وسأعود إليك عند اكتمال البدر أملاً بثواب وإجابة.

أم نصرت وسيد الأجداد

بعض خصلات من شعرها الأبيض بانت من تحت غطاء رأسها، بينما هي جالسة إلى جوار شاهد القبر في حاكورة بيتها على دوشك وثير تدلت على جوانبه ملاءة مطرزة بالورد ومزركشة بالدندش، نظرت إلى النافذة في الطابق العلوي، لن يطلّ غالب بضحكته الصباحية وبحة صوته ليلقي تحية الصباح، أقعده المرض وما زال في الثانية والعشرين من عمره، ولن يخطو سعدو ابن العشرين من غرفته إلى باحة البيت ليقبل يدها، وقد سُلت قدماء عن الحركة بعد إصابته برصاصة عشية أحداث البراق، غادر نصرت وصنعوا للعمل منذ الفجر، أدهمية ابنة التاسعة عشرة قامت على أخويها، أما زيد ابن الثامنة عشرة بعينه الخضروتين ووجهه البهي، تنقل بين حجرتي شقيقيه العاجزين، وقبل أن يغادر دنا من دوشك أمه، قبّل يديها ووجتيها، وطلب منها أن تدعوه ولرفاقه وللقائد وعد على وجه الخصوص، لأنه سيقوم اليوم بعمل مجيد، رفعت فيكات يدها ومسحت حبات الدمع التي انسابت على خدها، سألت بصوت حزين:

- هل سترافقه يا ولدي؟
- نعم يا أماه، سأكون مع مجموعة الاقتحام الأولى، أجب.
- نصرك الله أيها القائد فوزي، في حماية الله، تتبعكم دعواتي ودعوات أهل القدس أجمعين.
- وعد يا أمي القائد وعد.

- فوزي، عبد القادر، وعد، مجد، زيد، نصر كم الله جميعا. قالت وقد تذكرت زوجها موسى الذي رحل منذ ستة أعوام وتركها في منتصف عقدها الرابع، أوصاها بالأولاد وبزيد تحديداً، فهو أصغرهم سناً، وكان قد بنى لها بيتاً في القطمون، قالت له يومها:
- أنا أحب بيتي هذا، ولا أرغب بمغادرته.
- لست أقل من زليخه هانم، وأنا لست أقل شأنًا من فيضي بيك، سأسكن وإياك في قصر الحديقة في القطمون، إلى جوار قصر كامل باشا، قال، لكنه عاد إليها ذات يوم جريحاً مخضباً بدمائه بعد مظاهرة في يافا ضد الهجرة اليهودية إلى فلسطين واجهها الانجليز بعنف شديد، أصيب خلالها الكثير من المواطنين والقادة العرب، ولم يسلم حتى الباشا موسى كاظم الحسيني، يومها قال أبو نصرت لزوجته فيكات:
- لا تبكي، تلك إرادة الله.
- بينما نظر إلى زيد الذي كان في الثالثة عشرة من عمره، ناداه فجلس إلى حافة السرير قريباً من قدمي والده، قال الوالد وهو يغالب آلام جرحه:
- كنت أحسب دائماً أن البكاوية والباشاوية امتياز، نافست فيضي بيك وكامل باشا أحياناً، وكدت أصبح رئيساً للبلدية، لولا أنني رفضت المشاركة في افتتاح الجامعة العبرية بحضور سيئ الذكر بلفور، لكنني تعلمت من الناس في يافا يا ولدي أن "الشهادة امتياز"، أحرص أن لا تفوتك يا زيد.
- بكت فيكات وقررت أن تنتقل بزوجها إلى قصر الحديقة في القطمون، لكنه رفض.
- لن أغادر هذا البيت أبداً، وإذا قضى الله أمره ادفنني إلى جوار

سيد أجداد العائلة في حاكورة الدار تحت شجرة الجميز، قال لها.
فتحت فيكات المصحف وقرأت ما تيسر، أطلَّ يعقوب من خلف
سنسلة من الحجارة المحيطة بحكورة البيت، تدلت من فوديه ومن
تحت قبعته السوداء خصلتان متلويتان من الشعر الأسود، اتكأ بيمينه
على عكازه وأمسك بالأخرى طرف معطفه الداكن، الذي يمتدُّ إلى ما
تحت ركبتيه، تَعَمَّد الاحتكاك بزيد وهو يهم خارجاً، سأله عن أحوال
الشباب، فهم زيد مقصد الجار يعقوب، ابتسم وقال: في أحسن حال،
ومضى لشأنه.

نظر يعقوب إلى فيكات تجلس بدعةٍ وهدوء إلى جوار القبر، وقال:
- صباح الخير يا أم نصرت، هل لي بقليل من الدقيق، سارة
ستعدُّ لنا بعض الخبز.
أخفت أم نصرت غُصْنَتَهَا¹¹⁵ تحت غطاء رأسها الأسود، ونادت على
أدهمية كي تجلب بعض الدقيق للجار يعقوب، وقالت:
- على الرحب والسعة، أين عنا سارة اليوم، لماذا لم تزرنا كدأبها؟
- ربما تُنهي بعض أعمال البيت وتزورك، ماذا تقرئين؟
- أقرأ آيات من القرآن الكريم لروح زوجي ولسيد أجداد هذا
المقام.

- كم عمر هذا المقام؟
- ما يزيد عن ألف وأربعمائة عام.
- أليس هذا بعيداً؟
- بعض الأضرحة في هذا الحي يزيد أو يقل عمراً، لكنها
جمعا قديمة وأصيلة وجزء من تاريخ المدينة، خلّفك كما تعرف مقام

القرمي^{١١٦} ، ومقام بدر الدين أبو القاسم الهكاري، وهناك أيضا قريبا من السعدية مقام الشيخ ربحان.

- أجل أعرف قصة الأزدي أبو ربحانة، فهل لصاحبنا هنا نفس الجذر والمكانة والفضل؟

- لا ندعي فضلا إلا ما وهبنا الله، جدنا عياض بن غنم فارس من قريش، عينه الخليفة عمر قائداً عاماً للقوة الثالثة التي كانت تحت إمرة عقبة ابن الوليد وكلاهما من قادة فتح الشام، وقد لقب عياض "زاد الركب" لأنه كان يطعم الناس زاده، فإذا نفذ، نحر لهم جملة، وقد علمني زوجي أن أكون ونسله دوماً على خلقه جوداً وجهاداً، هذا البيت^{١١٧} وكل هذا الحي هو وقف الصحابي جدنا عياض، بما يشمل جبلاً ضخماً ليس بعيداً عن أسوار المدينة أوقفهما له الخليفة عمر رضي الله عنه، لما علم عن جدنا من فضل وشجاعة وجهاد، وإلى سيد أجدادنا عياض يرجع آل غنيم وهم عائلة زوجي رحمه الله، كما وينسب اسم هذا الحي له "عقبة غنيم" والجيل المذكور، لسيد أجداد العائلة .

- هل تسمحين لي أن أقرأ لمن في هذا المقام من كتابي؟

- ماذا ستقرأ؟

- بعض آيات من التوراة.

١١٦ الشيخ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد القرمي، المتوفى بالقدس عام ١٣٨٦

١١٧ بيت " موسى غنيم " جد المؤلف في عقبة غنيم حي الشرف، سيطر الاحتلال الاسرائيلي على الحي والبيت المذكور عام ١٩٦٧، وحولوا الطابق العلوي من البيت إلى مكان إقامة نسوية، والطابق السفلي مزار بإدعاء وجود آثار تعود لفترة الهيكل الثاني، علماً أن تلك الآثار ليست سوى الطابونة التي بناها جد العائلة، وسميت الحارة باسمها، درجة الطابونة، هدم الاحتلال قبر جد عائلة غنيم الذي كان في الحاكورة

- نحن ننهل من نفس المعين، كتب الله التي أنزلت على سيدنا موسى وسيدنا محمد، عليهما الصلاة والسلام، لكننا لا نفهمها بنفس الطريقة.
- إذا هل تسمحين لي أن أقرأ لسيد أجداد المقام؟
- لكنه لن يفهم ما سوف تقرأ من كتابك.
- ربما، لكن الله يفهم كلينا.
- هو ذاك، الله يفهم كلينا، ويعفو عمن يشاء، لكني أخشى أن يختلط الأمر عليك، فتحسب أنك تقرأ لأجداد لك في هذا المقام.
- هو ذاك، كلانا من نفس الطين ونفس الجد ونفس المقام.
- لا يشغل طين مع طين آخر، نفس الحيز في نفس الزمان، لكل مقام وحيز وزمان، هذا مقام زوجي وسيد أجداده من عهود تاريخ قديم، لك أن تقرأ من كتابك حيث شئت دون هذا المقام.
- أحضرت أدهمية بعض الدقيق، زانه يعقوب بيده وهمس، لا بأس ستعجن ساره عشرة أرغفة، نظر إلى المقام وهمس بعد أن أدار ظهره ومضى خلف بوابة البيت، بوركت يا أم نصرت وبورك من في المقام.
- ماذا تحمل بيدك يا يعقوب؟ سأل رجل ذو شعر ذهبي يتدلى من تحت برنيطة بيضاء، وخدين ملطعين بحمرة كامسة.
- نظر يعقوب إلى الرجل غريب الهيئة والجوار، وقد رآه أكثر من مرة يتحدث إلى بعض سكان الحي، خاصة اليهود منهم، بينما كان الرجل الغريب يحدق في ساعة ذهبية أخرجها من جيب صغير في صدره المزركشة، أجاب يعقوب.
- أحمل بعض الطحين.
- من أين أتيت به وأنا أعلم أنك فقير الحال؟

- من الجارة أم نصرت.
- ولما تشخذ من هذه المرأة العربية ونحن نستطيع أن نكفيك؟
- أنا لا أشخذ، بل أستعير هذا الطحين وأرده ساعة يسري، ثم أنا عربي مثلها، فمن أنت!
- أنت لست عربياً، بل يهودي يا يعقوب، أنا من الوكالة اليهودية، جئت كي أساعدك.
- بُوركت أيها الرجل، إن كان لديك ما أغمس به خبز أم نصرت، دعوت رب موسى أن ينعم عليك من فضله.
- لا حاجة لتدعولي رب موسى، المهم أن لا تسأل العرب حاجتك، واجعل سؤالك لي.
- سيكبر أولادي ويعيلونني وسارة.
- أنا هنا من أجلك وأجل سارة وأولادكما.
- أنت هنا طارئ، سرعان ما سترحل وتختفي، أما جارتنا أم نصرت فستبقى هنا، إلى جوار قبر زوجها وأجداده.
- ما جئنا هنا لنرحل، بل سنبقى وسترحل أم نصرت وكل أهلها، وسنهدم هذا القبر اللعين.
- صه يا رجل، لماذا تلعن هذا المقام المبارك؟
- من قال لك إنه مبارك؟
- كل شيء مبارك في هذه المدينة.
- أنت مسكين يا يعقوب، لا تدري قيمة أن تكون صهيونياً.
- أنا يهودي، عربي.
- أي لغة تتحدث عائلتك في البيت يا يعقوب.
- لغتنا.. العربية.

- لغتك هي العبرية.
- العبرية هي لغة كتابي وديني، أما لساني فهو عربي.
- سيتغير كل هذا يا يعقوب.
- ولما يتغير يا سيد.... عفواً أنا لا أعرف اسمك، على كل حال، لك شأنك ولي شأني، دعني أمضي إلى سارة، لتعجن هذا الطحين
- اسمي ميللر غولدشتين، جئت من بولونيا، أنا وأنت من نفس الطين، وشأنك هو شأني، أما أم نصرت وقومها فهم غرباء، وسير حلون من هنا قريباً، قل لي يا يعقوب إلى أين يفضي هذا الطريق، كنتُ عبرت منه عائداً، أود الوصول إلى باب الخليل، لكنه أعادني إلى هنا، تبدو لي أزقة هذه المدينة مثل متاهة كبيرة لا تؤدي إلى مكان
- هي كذلك لمن لا ينتمي إليها، قال يعقوب.
- سلاماً أيها اليهودي الفقير، ستراني كثيراً هنا، قال غولدشتين.
- نظرَ يعقوب إلى الرجل المريب، وقال في نفسه: غولدشتين ويعقوب من نفس الطين، هزَّ رأسه وابتسم ساخراً ومضى إلى سارة.

ما الحياة تحت التهديد الواضح والمستمر

بفقدانها؟

ما فائدة الحياة دون مقوماتها؟

ليست الحياة عدم الموت

إنها أكثر من ذلك بكثير

"انطونيو غاللا على لسان أبي عبد الله الصغير"

لحظة بين زمنين

انحنى ساق الأضاليا نحو الأرض وذبلت تيجانها، مأل زيد بجسمه نحوها، فرش كفيه تحت أوراقها التي ضربها الحتت والصفرة، رفعها برفق كأنه يحمل بين يديه رضيعاً عليلاً، هَنَّدَها بحنان ولاطف أوراق الجوري وحدَّق بالأزهار والشجيرات في حديقة منزله في القطمون، بدا المشهد كثيباً، جثا على الأرض، قرز حفنة من التراب، فركها بأصابع يده، وتركها تنساب حزينة جافة إلى الأرض، كان أسبوعاً مريعاً قال لنفسه، لم يتمكن من الخروج من بوابة البيت إلى بستانه، كان القصف شديداً طال كثيراً من البيوت، دار حول المنزل، تفقد الأضرار التي لحقت به، فتح صنبور الماء ومدَّ البريش، أطلَّت زوجته نرجس من النافذة:

- لا تدع هذا الهدوء يخدعك، عُدْ إلى الداخل، قالت بصوت عالٍ لكنه كئيب.

- سيدبل الورد ويموت إن تركته دون ماء.

أجاب وبعض قطرات من الدموع انسابت على وجنتيه، مرَّ بالبريش على كل ستمر من البستان، تدفق الماء غزيراً، حتى أوحلت الأرض وغاصت قدماءه، سقط فوق الطين، مرَّغ وجهه ورأسه بوحل الأرض، هرولت نرجس إلى الحديقة وقد أحزنها حال زوجها، اقتربت منه، مدَّت يدها بحنان، نظر إلى وجهها، لمعت عينيَّها، قبض على يدها برفق، شدَّته إليها، نهض، قال بصوت حزين:

- عار دير ياسين يغمر الرؤوس، ولن يمسه الزمن يا نرجس، لن ننسى، لن نغفر، أرادوا أن يرتعب الناس، قال لي عامل الصليب الأحمر في القرية إنه رأى شابة من الهاكاناه¹¹⁸ بزّيا الكاكي تضع على كتفها بندقية قصيرة، وتحمل سكيناً بيدها المملوطة بالدماء، وتقول بفخر هستيري: بيدي هذه ذبحت المرأة العربية¹¹⁹ في الغرفة المجاورة. انحنى قَبْلَ أوراق الأضاليا وسوى ساقها، ثم نظرَ إلى نرجس، وتابع قوله بانفعال:

- روح الجريمة والتربية العنصرية الحاقدة حركت شياطين القتل والاغتصاب والمذبحة، التي اتخذ قرارها عن وعي وإصرار بن غوريون وقائد الهاكاناه إسرائيل عمير، أرادوا أن يجعلوها هاجس رعب وخوف متدحرج يطرُدُ الناس من بلداتهم ويوتهم مكرهين هارين خوفا على شرف نسائهم وحياتهم، لكن ما هي الحياة وما هو الشرف في ذلّ الغربة واللجوء، لن نغادر بيتنا أبداً يا نرجس، سألتحق أنا بفرقتي فوراً على خط المواجهة، وتبقيين والأولاد هنا، طلبتُ من أمي أن تكون معك، لكنك تعرفين العجوز فيكات، هي وبيتنا وقبر أبي في حي الشرف لا يفترون أبداً، كذلك والدتك وأخوك عمر لا يتركان الشيخ ربحان، ألا ترين لا أحد يترك بيته، يجب أن تبقي هنا يا نرجس، لا تغادري بيتك مهما حصل، عديني بذلك، سواء عُدت لك شهيدا، أو بعرس

١١٨ إحدى العصابات الصهيونية التي ارتكبت المجازر بحق الشعب الفلسطيني ما قبل وأثناء حرب ١٩٤٨

١١٩ جريمة حقيقية حدثت فعلا بالوصف المذكور، وهي موثقة بشهادة رسمية لمندوب الصليب الأحمر الذي دخل قرية دير ياسين إثر المذبحة في ١٠-٤-١٩٤٨

جديد، لا تتركى البيت، بناه أبى، تفنن بتزيينه وتجميله، كل حجر هنا كان اختياراً لا تصادف فيه، عشنا هنا أحلى سنوات العمر، أجمل ذكرياتنا، هناك عند البوابة الكبيرة، وقفت أُمى وزغردت حتى أطلَّ كل من بالحى من النوافذ، كنت مثل ضمة فُلِّ بثوبك الأبيض، ألصقت قطعة العجين على جدار البوابة، ارتجفت يدك، أبقيتها فوق العجين ثم رفعتها ببطء، لحظة بدت كأنها الدهر، خَشِيتُ أن تسقط، لكنها لطأت وبقيت هناك، انسابت دمعة واحدة على خدك يومها، لكنك ابتسمت عندما كبس أبو جورج المصور زوج العمه روز على زر الكاميرا، ها هي الصورة، ستبقى في حافظتي سأحملها معي دائماً، تلك أمور لا يمكن أن تتكرر، أُلْقِ وبرقُ في العينين ودمعة واحدة اختلطت بكحل العين الذي انسب على خدك، وابتسامة ثغرك الرائعة، صورة لفرح غريب، في تلك اللحظة أطلَّت العمه روز من نافذة بيتها، ألقت علينا طبقاً من الزهور وأصرت أن تُدخل ملاك العرس إلى البيت بنفسها، ثم جاءت سميرة زوجة الحاج رياض لنا بطبق من المعجنات، ردَّت على زغرودة أُمى بزغرودة أعلى، وعند أقواس المدخل وقف أبو جريس وأبو رباح وأبو مصطفى والسدمير وفوزي، زفوني، ما زالت أهازيهم تَطْنُ في أذني:

تلوحي يا دالية، يا أم غصون العالية
 تلوحي عرضين وطول، تلوحي لا قدر أطول
 انزلنا على الميه، لقينا الميه محميه، حاميه الفدائيه
 لقينا شباب اثنين، طرايشهم محنيه
 الأول قال أقتله، والثاني قال خطية
 والي قال أقتله، أسمر وعيونه كحالية

هل تذكرين، هناك تحت شجرة الصفصاف استلقيتُ ووضعتُ رأسي على ركبتيك، أخبرتني أنك حامل بجمال، مددت يدك إلى مقص أوراق الشجر، قبضت على خصلة من ضفيرة شعرك، قمتُ بجزها، وضعتها بيدي وقلت: احتفظ بها من أجل لحظة وعدٍ قادم، تمنيتُ لو تلكأ الزمن وبقيتُ وما رفعتُ رأسي عن حجرِك، هل تذكرين هنا تحت دالية العنب احتفلنا بطهور فوزي، كنتُ أرغبُ أن نظهره في المستشفى الفرنسي، لكنك أصررت أن نظهره هنا في البيت، مثلما فعلنا مع جمال، ذهبْتُ يومها إلى خان الزيت، حيث محلقة أبو غزالة، عند مدخل السوق، مقابل حلويات أبو سير، لم يكن أبو داود جاهزاً كالعادة.

- إما أن تُحضر الصبي إلى هنا أو أن تبحث عن صاحبك أبو دان قرب سوق العطارين، قال وهو يشير بموس الحلاقة بيد وفرشاته باليد الأخرى على ذقن الزبون.

لم أبحث طويلاً طوى أبو دان كرسيه ودسكته ووضع عدته في شنطة صغيرة بنية اللون، وصاح بالجاعوني صاحب حانوت العطارة المجاور، انتبه إلى مآبي، وعند باب الخليل أصرَّ على ركوب الحنطور من هناك إلى القطمون، عندما وصلنا استقبله كثير من الجيران، كأنه كبير الأعيان، فتح شنطته وحدَّق بالحاضرين بوجهه النحيل وأذنيه الطويلتين وظهره الأحدب، وصاح بي:

- لا تقف متفرجاً، اقبض على ركبتي الرضيع.
وما أن نزلتُ على طفلي، حتى نَزَّ بين يدي ودفع رشقات ماء دافئ من حمامته إلى وجهي ورأسي، ضحكت أُمي بصوت مرتفع على غير عاداتها واحمرَّ وجهكِ خجلاً، أمسك أبو دان الكَمَرَةَ وقبض القفلة بمقبض غليظ وقصَّها بالموس، صرخ فوزي، زغردت أُمي وانسابت من عينك

دمعة حيرتني، ذكرتني بدموعك ليلة دخلتنا، لا أعلم لماذا يبكيك الفرح يا نرجس.

فجأة لمع في وسط السماء ضوء مثل الزغب، امتدّ وانساب كالسهم، مزق وجه الأفق، وتناثر مثل حبات البرد، حدّق طفل في الجوار في لمعان ضوء خادع، سقطت كرة من بين يديه، وغاب جسداً بين الرذاذ. خيال رجال تراكضوا خلف دخان كثيف، متاريس وأكياس رمل هنا وهناك، أزيز رصاص إلى جوار النافذة، زقزقة عصافير هاربة، صراخ طفولة، مِراح عيون ونحيب يسد الأفق، وجوه غطاها الغبار وجباه مرغها الطين، اصطكت أبواب ونوافذ البيت المجاور، مركبة تحمل مجموعة من عصابة "الهاغانا" مرّت من أمام بيت الحاج رياض، ألقت قبلة يدوية داخل البستان، صاح أحد الجنود، ارحلوا وإلا فسوف تموتون جميعاً، خرج الحاج رياض إلى ساحة البستان، كور شاهد يده وإبهامها ورفع يدا فارغة مهددا المركبة المدججة بالسلاح، أطلق الجنود زخة من الرصاص، سمع الحاج رياض صوت انفجار قريب، تعالت ألسنة اللهب من فندق سميره ميس، تساقطت زخات من مطر أسود، هبط الحاج رياض راکعاً على أرض بستانه، رفع وجهه إلى أعلى، غمرته قطرات مياه سوداء، انسابت صفحة الأيام، لم تكن تقلبات الزمن وصور الوجوه المتبدلة والأيدي الممتدة إلى الماء ذات مغزى مختلف، بكى أبو عبد الله الصغير¹²⁰، ألقي رأسه على صدر مريمة وناح مثل طفل رضيع، وضعت سميرة أطباق الطعام الساخن على مائدة فاخرة مستديرة في الصالة المطلّة على الشرفة الشرقية، اشتد أزيز الرصاص،

دمرت قذيفة بيتاً مجاوراً، ركضت سميرة إلى سرير طفلها ضمته إلى صدرها، جمع الحاج رياض أولاده الأربعة وغادروا البيت على عجل، أطلت نرجس من نافذة البيت، صرخت، نادى بأعلى الصوت:

- سميره عودي لا ترحلي.

كان البخار يتصاعد من أطباق الطعام الساخن، انقبض قلب نرجس، أحسّت كأن طوداً ضخماً يحثم على صدرها، ضاقت أنفاسها، تملكها رغبة شديدة بالخروج إلى شرفة البيت، حدّقت بعينين ذابلتين نحو ناصية الطريق، أطلّ طيفٌ من زحمة الدخان، اقترب، تخطى متراس الرمل عند دير الروم، عبرَ زمنًا بين لحظتين، ربما عانق طيفها، أو قال شيئاً بين حيّز في المشهدين:

- ربما تحترق رصاصة هذا الصدر وأموت، لكنني سأحبك حتى في موتى.

- لال لن تموت، إن فعلتَ فلن تنال حبي، ما فائدة الحب إن كنتَ ستموت؟

فجأة ما عادت الكلمات تحمل نفس معانيها، غابت المدينة خلف ضباب من دخان كثيف واستحالت، بدا الحلم بعيداً، سمعَ زيد صوت أبودية:

- لا تذهب بعيداً يا أبا جمال، وصلَ بعض رفاقك من فرقة التدمير، معهم خمسون رجلاً وبعض الفشك، أقصى ما لدى خالد الحسيني¹²¹ من دعم لنا، لستُ متأكداً من استطاعة القوة المصرية قرب صور باهر إسنادنا، ولا من جاهزية السرية التي أرسلها

١٢١ استلم قيادة قوات الجهاد المقدس بعد استشهاد عبد القادر الحسيني في ٨-٤-١٩٤٨

العبدالات¹²² لأن أبو حنيك¹²³ سحب معظم ما لدى السرية من عتاد لعدم ثقته بالعبدالات، قد يضطرون للانسحاب في أي لحظة، هكذا كان عند النوتردام، لولا تمرد الضابط محمد المعاينة على أوامر كلوب باشا لسقط الباب الجديد، ولو سُمح للمعاينة بذلك مواقع اليهود لوصل بسريته إلى محنيه يودا، انسابت صفحة الأيام دون ماء هذه المرة، ولم تكن الوجوه التي غطاها العار ذات مغزى مختلف، عبر سفراء أبي عبد الله الصغير بن كماشة والمالح وإبراهيم القيسي¹²⁴ خط النار في الحمراء، عقدوا اتفاق مع فرناندو، وقضى أمر الخاتم أن لا يتخطى جنود أبو عبد الله خط البيازين وحدود خطة التقسيم، لم يكتفي فرناندو بخط التقسيم، امتد الهجوم إلى الحمراء نفسها وإلى يافا وحيفا وطبريا والقدس، لعنهم الله جميعا، الفواقجي يفعل المشاكل أكثر مما يقاتل اليهود، رأيت كيف تُرك عبد القادر وحيدا في القسطل، وسوف نترك نحن وحيدين هنا، بينما سلّم الإنجليز مئات المركبات العسكرية والمصفحات وكثيرا من الذخيرة والسلاح وأربعة وعشرين طائرة حربية لليهود، مع ذلك علينا أن نفك الحصار عن الدير في القطمون،

-
- ١٢٢ اللواء قاسم محمد محمود الناصر العبدالات، من قرية ايدون قرب إربد، من مجموعة الضباط الأحرار الوطنيين الأردنيين الذين كانوا ضد سيطرة الأنجليز على الجيش الأردني، هرب إلى سوريا بعد سنوات من حرب ١٩٤٨، لآتهامه مع مجموعة من الضباط بالتحضير لإنتقال
- ١٢٣ جون باغوت غلوب، الجنرال الأنجليزي الملقب كلوب باشا أو أبو حنيك، كان قائدا الجيش الأردني قبل تعريب قيادته
- ١٢٤ المفاوضون الذين أرسلهم أبو عبد الله الصغير لمفاوضة فرناندو، لكنهم تأمروا عليه، وكان لهم تأثير في إضعاف أبي عبد الله، وتسريع سقوط غرناطة

ونقطع الطريق إلى الموتفوري، طلب وعد مني أن تعود يا زيد إلى البلدة القديمة، لخرتك الواسعة هناك، أصدر أمره لفرقة التدمير كي تحاصر اليهود في حي الشرف، وقال لي أن بهجت وصبحي¹²⁵ مع قوة في الثوري سوف تذود عن أسوار المدينة، قبل أن تغادر ازرع ورفاقل من فرقة التدمير المتفجرات وفق الخطة لمتفق عليها حول الأسوار، ربما عوضنا ذلك عن النقص الهائل بالسلاح.

نظرت إلى نافذة البيت المجاور من جديد، لم تعد سميرة تطل من هناك، ما زال الطعام ساخناً، ينبعث بخاره من قدر يتوسط مائدة كبيرة، تساقطت القذائف في كل مكان، ثم ساد صمت رهيب.

- لماذا لا نسمع صوت العصافير؟ سأل فوزي.

نظرت نرجس إليه بحنان، احتضنته وأخاه ونزلت بهما إلى الطابق الأرضي بعيداً عن صوت القذائف، تذكرت شجرة التين في حوش الدار في الشيخ ربحان، وتغريد الطيور والمداة العجوز ووجه فاطمة الملائكي، طن صوت أمها في أذنيها مع دعاء الشدة والكرب: يا لطيف الألفاف نجنا مما نخاف. وجاء خيال عمر بين دلة الحليب وبنادق الثوار، كأنها سمعت نداء ربي وصابر، حركت أزرار المذياع بعصية، علها تسمع شيئاً عن أوضاع البلدة القديمة، كان صوت المذياع ينخفض ويعلو ويقطعه التشويش أحياناً، سمعت أن الفيلق

١٢٥ بهجت عليان عبد العزيز أبو غربية، شيخ المناضلين، أحد قادة الجهاد المقدس شارك في معظم المعارك بما فيها القسطل، جرح عدة مرات وتوفي في عمان ٢٠١٢، وصبحي أبو غربية من قادة الجهاد المقدس أصيب برأسه في معركة البلدة القديمة عام ١٩٤٨، وفقد الذاكرة لمدة عامين، استشهد في معركة باب الساهرة عام ١٩٦٧

العربي دخل إلى البلدة القديمة، وأن مجاهدي فرقة التدمير يحاصرون اليهود في حي الشرف، عرفت أنه هناك، فهو أكثر الرجال خبرة بهذا الحي، ولد وتربى هناك، يعرف الحي حجراً حجراً، وزقاقاً زقاقاً، إنه هناك يحاصر بيوتهم كما يحاصرون بيته هنا، نهضت، رقصت، زغردت، تعالت أصوات المدافع، اختبأ جمال تحت ثوب أمه بينما وقف فوزي ينظر إليها ضاحكاً، أرادت أن تذهب الخوف عن أطفالها، تربعت على أرض الغرفة، ضمتها إلى حجرها، روت لها قصة الشاطر حسن بصوت هادئ، كأنها تناجي نفسها، قالت: "إذا غابت شمس النهار يا أطفالي الأحباء، واشتدت ظلمة الليل فلا تجعلا الخوف يخطف روح الفرح، واعلما أن فجرًا آخر في الطريق، وأنا سنلتقي ذات صباح"، غفا الأطفال ولفَّ البيت سكون عميق، وفجأة مزق الصمت صوت قذيفة قريباً من بيت مجاور، ركضت إلى النافذة، هرعَ الأطفال مذعورين، ارتفع عمود من الدخان، وتصاعدت ألسنة من اللهب ليس بعيداً عن نافذة البيت، بدا أن الرجال قاتلوا حتى آخر طلقة، وآخر كسرة خبز وآخر لحظة أمل.

توقف صوت المدافع، مرَّ من أمام شرفة البيت رتلٌ من الدبابات تقدمته مركبة عسكرية مكشوفة، نادى أحد جنود الهاغانا بلغة عربية ركيكة، دعا الناس للرحيل "ارحلوا فوراً وإلا قتلناكم جميعاً مثلما فعلنا بدير ياسين، الطريق إلى عمان مفتوحة" تملكها شعور برغبة للصعود إلى شرفة البيت، صعدت الدرج الداخلي للبيت، تقدمت من الشرفة، فتحت بابها على مصراعيه، فاحت رائحة غريبة، دفعت نفسها إلى الخارج دون تفكير، تكشف لها ملامح المكان، تناثرت بقايا الفشلك الفارغة وأكياس الرمل المبعثرة، وتكدَّست الجثث التي لفحتها الشمس

على طول الطريق، فجأة انطلقت رصاصة مدوية أصابت قوار الأضاليا على جدار الشرفة، إنشطر القوار إلى نصفين، انحنت، رفعت يدها، اشتدّ أزيز الرصاص، سقط القوار من يدها وتهشم على أرض من رخام، أقفلت باب الشرفة، بحثت عن الطفلين ضمتها إليها، بكت، نظرت من بعيد إلى البيت المجاور، ما زال البخار ينبعث من القدر الساخن في وسط الغرفة، لم تعد سميرة تتفتل هناك، لكن عددا من جنود الهاغانا جلسوا إلى مقاعد الطعام حول المائدة التي أعدتها لعائلتها، تناولوا الغزاة طعام العائلة واستلقوا على كنباتهم، تنفسوا بقايا أنفاسهم، ثم اقتحم جنود مدججون بالسلاح بيوت الحي الفارغة من أهلها، حمل الجنود على شاحناتهم ما تمكنوا من الأثاث الفاخر، سرقوا حلي النساء، وما تركوا من مال، حتى الملابس وأثاث العرائس البيضاء، سلبوا كل شيء، بلاط الأرض والكراميك ومواسير المياه وقواوير الورد، وإطارات النوافذ.

سمعت نرجس قرعا شديداً على باب البيت الداخلي، هرعت إلى الباب، ارتعد الطفلان خوفاً وقبل أن تفتح الباب اقتحمته مجموعة كبيرة من الهاغانا، تقدم أحدهم منها، صفعها على وجهها: أنت زوجة المخرب زيد. سحبها من شعرها على الأرض، صرخ فوزي وتعلق بثوب أمه، بينما ضرب جمال بيده الصغيرة ساق الجندي، الذي ركله بعيداً، شدّ جندي آخر فوزي من قدمه، وألقاه بعنف على الأرض وسط صالة البيت، بكى الطفلان، صرخ الجنود بهما، شتموهما ثم زجوا بنرجس في إحدى شاحناتهم، صرخت بأعلى صوته: جمال... جمال خذ أخاك واذهب لبيت العمّة روز، انتحب الطفلان وصرخا أمي. حدّفاً بعيون جزعة، لم يتمكن عقلاهما الصغيران من فهم ما يحدث، من هم هؤلاء

الغرباء، أصحاب العيون المخيفة، والأيدي المملوطة بالدماء، نظرت نرجس إلى أطفالها بعيون دامعة، عبرت إلى لحظة فصلت بين زمنين ثم غابت، انطلقت مركبات الجند وتوارت خلف الدخان، هرعت العمّة روز إلى بيت جاريتها، ضمت الطفلين إلى صدرها، بكّت، انتحبت، كادت تصرخ بأعلى صوتها، لكنها خشيت على الطفلين، قبّلت خدّ فوزي، قالت: حبّبي يا فوزي، حبّبي يا جمال، حبّبي يا جورج أين أنت الآن، أترأك حيا يا ولدي؟ وقبل أن تهّم بأخذ الطفلين معها، دهمت مجموعة أخرى من عصابات البلماخ البيت، سألوا: أين الرجال؟ لماذا لم ترحلي مثل الآخرين؟ قال أحدهم، ثم طلبوا منها أن تلزم البيت ولا تغادره أبداً، حاولت أن تفهمهم أنها جاءت لأخذ الطفلين إلى بيتها القريب، زجرها أحد الجنود وشتّمها شتيمة رذيلة لم تسمعها من أحد في حياتها، وهدّدها إن تحرّكت من مكانها فسوف يطلق النار عليها وعلى الطفلين.

أطلّت العمّة روز من نافذة البيت، نظرت في الأفق بعيداً، أسرابٌ من الطيور غربت وحلقت فوق كنيسة الروم، حامت، أطرقت العمّة روز السمع، لكنها لم تسمع صوت الطيور، أفاقت من حلم يقظتها المتعبة، أقبلَ عصفور وحيد عانٍ، غالب جراحه النازفة، حامَ حولَ الديار، أطلَّ على الخراب وعلى الشوارع والبيوت الخاوية من أهلها، حلّق ما استطاع، ثم حطَّ حائراً على جرس الكنيسة فوق الصليب. نفّس جناحية، لطمَ بالمنقار جُؤجُؤه¹²⁶، حدّق بعينين ثاقبتين بعيداً حيث

أشجار الصبار قرب الجامع القديم، ما زال إبراهيم أبو دية¹²⁷ يقارع الوحش، يَمْرُهُ عين المهاة، يَتَمَرُّ بِالْجَلْنار وَيَمِشُّ بِالْدماء.

وما زال جنود من الهاغانا والبلماخ وليحي وبعض نساء ورجال من اليهود ينهبون البيوت، كانت دفات النوافذ تَمَكُّو وتضرب أفاريزها من الريح التي عصفت بها، ذبلت الأزهار في حدائقها وغطاها الموار وساد الصمت، إلا من أزيز رصاصة أو قذيفة بين فينة وأخرى، أطبق الظلام على المكان وبدا الحي أشبه بخرائب الأشباح، وحده الصبار، عصفت به الريح، لكنه بقي هناك.

أمعنت العمة روز النظر من شرفة بيت نرجس، ظهرت عند ناصية الشارع مركبة عسكرية وقفت أمام بيتها، نزل من المركبة جندي من "الهاغاناه"، يحمل بيده بندقية وبالأخرى حقيبة كبيرة، بينما سارت إلى جانبه امرأة تضع على رأسها قبعة زاهية أنيقة، تسحب خلفها طفلاً صغيراً، دخلوا إلى بيت العمة روز، هرولت إليهم، أخذت تبكي وتصرخ بألم وغضب شديدين، نظرت المرأة ذات القبعة الزاهية بانبهار ونزق إلى النقوش والزخارف على جدار البوابة، حدقت بذهول إلى خضرة الأشجار العالية، سارت بخطوات مترددة، كأنها تعبر إلى حلم في خيلة أخرى، مالت بخدّها على ستائر النوافذ المقصبة زاهية الألوان، أحسّت بنشوة سرت في أنحاء جسدها، مرّرت يدها وأظافرها الطويلة المدببة المطلية باللون الأحمر على قماش كراسي الأرييسك، مشت بدلال

١٢٧ واحد من أهم قادة الجهاد المقدس أول من دخل القسطل وأصيب بجراح في المعركة، وقاد معركة القطمون، كان له دور كبير في معركة كفر عتصيون أصيب في معركة رمات رحيل، أددت إلى إصابته بشلل، نقل إلى بيروت وتوفي هناك

وخيلاء على أرضية البلاط الرخامي الملون، صرخت من غيظها، أيّ قصور وجنان رائعة بناها هؤلاء العرب المقرفون هنا؟

إنه بيتي، صرخت العمة روز، بعد أن اقتحمت البوابة الكبيرة، كادت تُحطم نشوة النصر والابتهاج في وجه المرأة الغربية ذات القبعة الزاهية، ماذا تفعلون هنا؟ أخرجوا من بيتي. صدّها الجندي بقوة.

- من أنت؟ قال: لماذا لم تهربي مثل الآخرين، ليس لك بيت هنا أخرجي من هنا وإلا أطلقت عليك النار.

بينما نظرت المرأة ذات القبعة الزاهية إلى العمة روز بازدراء، وقالت:

- كان هذا بيتك حتى الأمس، أما اليوم فهو بيتي أنا.

أمسك الجندي العمة روز من ثوبها، شدّها إليه، صفعها على وجهها، ألقي بها خارج البيت، وقال:

- إن رأيتك هنا مرة أخرى فسأقتلك، ارحلي من هنا.

أرادت العمة روز وقد أسقط بيدها أن تأخذ ألبوم الصور، صور ولدها وزوجها، إلا أن الجندي ركلها بقدمه وصاح، ارحلي من هنا، دفعها بعنف شديد، وقال: اصنعي لك ذاكرة أخرى في مكان آخر، أو أدفئك هنا مع ذكرياتك البائدة.

انزوت العمة روز وأطفال نرجس وحيدين في بطن ليل بهيم، بكوا، صرخوا، استنجدوا، لم يسمعهم أحد، تركوا في لحظة من زمن بلا ضمير، بينما اصطف الجنود من الجهة الأخرى بعتادهم الحربي خلف المتراس، يحصون جثث القتلى ويبرقون بتقاريرهم عن اختراقات القوات الصهيونية لمواقع خارج حدود قرار التقسيم، كان الجنرال الأشقر ذو القبعة الغربية في غرفته الفارهة بمقر قيادة الجيش العربي، يُدخن سيجاره الفاخر ويكتب لسيد في قصر بعيد أن الأمور تسير على

ما يرام.

العمة روز التي خلّف لها زوجها المصور المحترف إلباس قبل وفاته،
أرشفها هائلاً من الصور الفوتغرافية، لشروق الشمس ذات صباح من
على تلال جبل الزيتون، لغروبها على وسادة العصر فوق حي الشرف،
لأشجار القدس، لأزهارها، للأطفال بأقدامهم الحافية ووجوههم
البريئة الصافية، لشوارع المدينة، لبيوتها، لعمارتها البيضاء الفخمة،
لوحيدة جورج، لروز في ثوب زفافها الأبيض، لهما معاً أمام القداس في
كنيسة القيامة، سرق الغاصب كل شيء، بيتها، ثيابها، تاريخها، حتى
أحلامها وذكرياتهما، نكفت روز دموعها وغفت من نوء الحمل وتعب
اللحظة وهي تهدد الصغير على حجرها تناجي جورج الذي حمل
بنديته، وقال:

- بطن الأرض خير من ظهرها يا أمه، إن سقطت القدس
بأيدي الغزاة فلا معنى للحياة.

سحب فوزي جسمه من حجرها وتسلسل إلى غرفة أمه، ما زال ثوبها
على السرير، دار حول نفسه، وحيداً في فضاء غرفة باردة، نأناً وبكى،
نادى أمي.... قفزت روز من مقعدها، ونادت: جورج أنا هنا يا ولدي.
هكذا بكل بساطة جيء بعائلات يهودية دمنت قلوبها ونغّست¹²⁸،
فوراً وعلى عجل، اسكنوا بالبيوت العربية، بعضهم استولى على البيوت
بنفسه، جاءوا من شتات الدنيا وسكنوا في بيوت تركها أهلها تحت
التهديد والخوف، في قلّة من الزمن وفي لحظة قاهرة مجنونة، غابت عنها
العدالة والإنسانية، نام هؤلاء الغرباء بعيون قريرة على أسرة الآخرين،

دون أي شعور بذنب ولا تأنيب ضمير، لبسوا ثيابهم، أكلوا طعامهم المتروك على الموائد وفي النمليات، وتنشقوا أنفاسهم الساخنة في حجرات بيوتهم المتروكة على عجل، واستلقوا على كنباتهم، فردوا أجسادهم، وفي الصباح فتحوا عيونهم وتمطوا، وجلسوا على الشرفات يضعون على رؤوسهم قبعاتهم الأنيقة، يرتشفون القهوة الأمريكية السوداء، ويتبادلون أطراف الحديث عن الفن والأدب والجمال.

بحا الحلم مستحيا

وقف على سور المدينة قريبا من قلعة النبي داود، بقيت القلعة وفيّة لدورها، تُحصن المدينة وتحميها من هجمات الغرباء منذ عهود طويلة، أحاطت به بيوت عائلة الدجاني وحارة الشرف وحارة السريان وحارة الأرمن، بدت المدينة متعبة أرهقها الحزن والألم وخذلان ذوي القربى، وقفت بعض النساء على أسطح المنازل وعيونهن إلى الأحياء في غرب المدينة، توقفت صافرة القطار القادم من يافا، تدفقت دموع من حدقات عيون حائرة، ثم أناخت كأنها هَمَّار من الغمام، لم يعبر الليل بعد، لكن شمس النهار شارفت على المغيب، كان قرصها المتعب من شدة الاحتراق يذوي شيئا فشيئا ويأفل ويهبط إلى أعداغ سديمه الطويل، أحسَّ زيد بهفيف هواء قادم من غرب المدينة، سرعان ما تحول إلى ريح عاصفة، تلبدت السماء بغيوم سوداء، اختلطت مع سحببات دخان كثيف، وضع بندقيته على حافة فتحة مظلة على فضاء بلا نهايات، شعر كأنه عُقاب كفَّ عن الحُتات¹²⁹، أرعدت جنبات الأفق، واختلط صوت الرعد مع هدير المدافع العنيف، وما عاد زيد يميّز بين بارقة تعبر مثل السهم وبين لمعان القذائف أو هَرِير العين الذي تساقط غزيرا، بللَّ المطر رأسه وربما بلل الدمع الغدق وجهه وقميصه الكاكي، وضع كفه على يسار الصدر فوق خافق لا يكف عن الحنين، أخرج حافظته، حُضن صورتها، نظر إلى بعض من ضفيرة ودمعة تنساب على الخد وقد اختلطت بكحل العين،

وابتسامة ثغر رائعة، صورة للحظة فرح غريب، لعلها في تلك اللحظة عندما كبس أبو جورج على زر الكاميرا، قَسَمَتْ وجهها وقلبها وفرحها وحزنها على أجزاء المدينة، قطعة هناك حيث تركت أمها وأختها وبيتها وذكراتها في البلدة القديمة، وقطعة هنا حيث الزوج والحضن والوعد الجميل، انساب الماء من المزاريب على زوايا جدران البيوت، حدَّق في الأنحاء، رأى طيفاً يمرُّ إلى جوار متراس عند أعلى التلة قرب جورة العناب، عبرَ مسافة بين لحظتين، ربما عانق طيفها، لا يبدو البيت بعيداً من هنا، يكاد يراه، هناك فوق التلة المقابلة، بدا الحلم مستحيلاً، إلا من أشجار الصَّبَّار تحت الأسوار وهي تروي حكاية مدينة تدمرت كلياً مرتين، وحوصرت ثلاثاً وعشرين مرة، وهُوجمت اثنتان وخمسين مرة، وتم غزوها واحتلالها أربعاً وأربعين مره، لكن أشجار الصبار بقيت في مكانها دائماً، حادة عنيدة، فجأة لمعت بارقة في سواد الليل وتوهجت ثم خبت وأطبق على المدينة ظلام رهيب.

عادل وخبول العرب

ما فتى الظلام يلف المكان، خبا ضوء القنديل في الحوش، وليس سوى خيط نور باهت لهلال متردد يُطل ويختفي من خلف غيوم كثيفة، لم تُثر خطوات الحاج خليل على درجات البيت المجاور مخاوفي مثلما فعلت في سنوات خلت، لكن ظلال خيوط العنكبوت قريباً من الزاوية المقابلة لنافذة الغرفة أثارت خيالي، فجأة اهتز نسيج العنكبوت، وتحفرت حواسه، تقدم مسرعاً على خيط رفيع نحو مصدر التهديد، أطبق على فريسته وعاد إلى عرينه وسط النسيج أثقلت ظلال العتمة جفوني المتعبة من جفوة النوم، للطفولة هموم تؤرق ليلها أيضاً، هكذا سمعت أمي تهمس لنفسها وهي ترقبني أقلب أرقى على فراش النوم وأغالب العتمة مع اهتزازات نسيج العنكبوت ومهايات أمي كي تنام الصغيرة ربي . لم أدرك كيف غلبني النوم ولم أصح إلا على صوت الطحان بائع التمرية، قفزت من فراشي مسرعاً حتى لا أخسر يوماً آخر بلا تمرية كما في الأمس، دكمتُ بقدمي أخي صابر الذي صرخ وعاد إلى النوم بينما إحدى عينيه مفتوحة تُحدق بأصابع أمي وهي تحصي نقوداً في صرة أخرجتها من عبها، نقدتني أرطة، وقالت بحزم:

- إشتري بقرش واحد فقط، وأحضر القرش الآخر.

بدا الطحان مكفهر الوجه متوتراً على غير عادته، أنزل عن رأسه سدر التمرية وعن كتفه الفرش الخشبي المثلث طويل القائمين، وضع السدر فوق الفرش الخشبي، ونادى بصوت مرتفع دون أن يمد ويرنم النداء

كما تعودنا عليه، التف حوله بعض الأطفال، نظرت حولي باستغراب، أين أبناء الحي، عادة ما يُنفق كل ما في السدر من تمرية خلال دقائق، أما اليوم تبدو الأمور مختلفة، رفع الرجل السدر على رأسه والفرش الخشبي على كتفه من جديد، ومضى إلى حيٍّ آخر علّه يبيع ما تبقى لديه من التمرية، عدت إلى البيت، كانت أُمِّي قد انتهت من رفع اللحف إلى الركسة، وجاء أخي صابر بشوربة التكية، بينما كانت عمتي فاطمة تساعد جدتي برفع فرش البيت ودسّها في فتحات شبابيك البيت وإغلاقها تماماً، حتى أنهم لم يتركوا فسحة لضوء أو هواء، بدا المشهد عجباً، لماذا يسدون نوافذ البيت بهذه الطريقة الغريبة، تغيب والدي عن البيت في الليالي الثلاث الأخيرة، كانت جدتي تفرد حبات التين على مساطيح في باحة البيت وتشك الناشف منها بواسطة مسلة غليظة في خيوط وتعلقها على جدران البيت الذي أصبح كمعرض للمنتوجات، كان هناك بعض أطواق من أوراق الدوالي، وربطتان من الثوم وعدة أطواق من القطين، وكيس لبنة كبير من القماش ينز قطرات لزجة بيضاء، كأنها دموع ملاك صغير، نشرت جدتي مفارش من القش مليئة بالفريك والجريش والفاصولياء والعدس، وأوراق الملوخية الناشفة على مساحة أرض الديار، وسمعتها تقول لعمتي فاطمة، ضعي جزءاً من التموين الناشف في خورنة^{١٣٠} غرفة النوم الكبيرة، وادخلي زير الماء الكبير إلى هناك، قد لا يتسنى لنا وصول المطبخ في الأيام المقبلة، نادى جدتي على أُمِّي، وطلبت منها أن تسأل جاراتنا أم رباح وصفية وأم مصطفى الناجي

١٣٠ كلمة بالعامية المقدسية من جذر تركي تعني خزانة داخل جدران البيت

إن كان ينقصهن شيء من التموين، ولاحظت أنها لم تذكر عائلة أبي خليل.

لعن الله الحرب قالت جدتي، وذرفت دموعها وهي تتحدث عن عمتي نرجس وأولادها، قالت "يا كبدي يما، كل الضرب عليكم وما حدا قادر يوصلكم"، حضر في الصباح الباكر زيد زوج عمتي نرجس، كان يحمل على كتفه بندقية ويضع على صدره حزاماً من الرصاص، أعطى جدتي صرة صغيرة، وهمس في أذنها وخرج مسرعاً، ومن لحظتها قام البيت ولم يقعد، أنزلوا كل الفرش واللحف، وأخرجوا كل التموين، عمتي فاطمة وضعت منديلها على رأسها وخرجت مسرعة، ثم عادت ويدها شنطة قالت إنها مليئة بالأدوية والإسعافات والشموع، حملتني بعضها لبيوت الجيران، فرحت جداً لأنها أرسلتني مع بعض الأدوية إلى بيت أبي خليل، كانت أول مرة في حياتي أدخل عتبة هذا البيت العجيب الذي لا يتزاور أهله مع باقي سكان الحي كعادة الجميع، كانوا منزوين منطوين على أنفسهم، في هندامهم ومشيتهم وحديثهم مع البقال أبي طلال شيء من الكبر والتعالي، معظم أهل الحي ينظرون إليهم باحترام مبالغ به، باعتبارهم من العائلات المقدسية التاريخية، طرقت الباب، فتحت لي سيدة كبيرة بشعرها الأبيض المنفوش، ربما كانت أكبر سنّاً من جدتي، خطوتُ برجل واحدة إلى عتبة البيت، أطرقتُ السمع لخرخرة الماء المتقاطر إلى بحرة كبيرة من نواعير ثلاثة، ولمحتُ بلاط الأرض الملون، كانت ابنة العم أبي خليل نعمات تسقي أزهار الحوض التي فاح عطرها حتى كاد ينفذ من الجدران، لم تتخفّر نعمات كما تفعل أختي ربي عندما يطرق باب بيتنا غريب، ربما لكونها عانساً قلّ ما تختلط ببنات الحي أو نساءه، سمعت جدتي تقول إنها لن تتزوج إن لم يأت نصيبها من نفس

المستوى الاجتماعي، ظل المستوى الاجتماعي مفهوماً غامضاً في ذهني لفترة طويلة، كنت أظنه شخصاً وسيماً طويلاً القامة يشبه زوج عمتي نرجس، تقدمت خطوة داخل عتبة البيت المهيب، رأيت طاولة بقوائم طويلة إلى جوارها بضع كراسي خشبية منقوشة، لا شيء يشبه بيتنا سوى بئر الماء غير أن خاصتنا بميزبان وبلا نواعير، بيتنا يرحب بكل طارق، ويوت الجيران الأخرى مثل حوش أبي فرحة الفران وأبي رباح، تبقى مفتوحة لكل عابر سبيل، لا أسرار ولا خصوصيات، حتى الجدران بين البيوت داخل الحوش تبدو هشة وهمية، رغم سماكة كليتها، لا تمنع الناس بعضهم عن بعض، لأن أبوابها ونوافذها الداخلية خَوْخَة^{١٣١} تُطل على ساحة الحوش المشترك وأحياناً يطل بعضها على بعض، ربما هذا ما جعل الناس هنا أكثر التصاقاً وقرباً بعضهم من بعض، بل وجعل من نفسياتهم وسلوكهم أكثر تشابهاً، قلت للمرأة العجوز: هذه أدوية وإسعافات من عمتي فاطمة، ابتسمت المرأة وطبعت قبلة من شفيتها المبتلتي على خدي، فرحت جداً رغم أني مسحت بقايا ريقها بكم ثوبي، أعطتني تعريفة (خمسة ملاليم)، ثم أمسكت يدي وسارت بي نحو بيتنا، رغم أن بيتها لا يبعد سوى عدة أمتار عن بيتنا إلا أنها لم تدخل بيتنا في حياتها، فَتَحْتُ الباب وناديتُ بفخرٍ وصوتٍ مرتفع:

- عمتي... عمتي، أم خليل في بيتنا.

لاقتها عمتي وجدتي فرحتين مبتسمتين مرحبتين وتبعتهما أُمي كذلك، أعادت أم خليل الأدوية لعمتي فاطمة بعد أن شكرتها، وطلبت إعطاءها لأسرة أخرى، لأن لديها ما يكفي، وقالت لعمتي إنها ترغب بالتطوع

معها في لجنة التموين والإسعاف، خاصة أنها عملت ممرضة لسنوات في شبابها، لم أفهم ماذا يحدث ولما كل هذه الجلبة، لكن شعورا بالسعادة تملكني، لا أدري لماذا، ربما لأنني شهدت حدثاً عظيماً هو زيارة أم خليل القصيرة لبيتنا، أو بسبب الخمسة ملينات التي تعمر جيبي.

معظم سكان حينا بسطاء فقراء طيبون وغير متكلفين في حياتهم، لأول مرة بدت لي العجوز ذات الشعر المنفوش مثل الجميع، ولكن مع اختلاف مهم، أنها أعطتني خمسة ملينات، هي ثروة كبيرة بالنسبة لي، بالأمس بكيت حتى احمرت عيني عندما حضر بائع القرقوشة، كي تعطيني أمي مليناً واحداً. وعندما يئست من الأمر، رق قلبها لي وأعطتني إياه على أن أقتسم القرقوشة مع أخي صابر وأختي ربي، اليوم سأشتري قرقوشة وتمرية وندردما ولبيلة وشعر البنات لأختي الصغيرة، وربما أوزع على بعض أبناء الحي بعض القرقوشة.

قالت العجوز:

- الحرب أكثر أعمال الإنسان سوءاً وأقساها، تُدمدم على الناس دون ذنب، ومع ذلك إذا فرضت عليك، يجب أن تخوضها بشجاعة. سمعت هذه الكلمات من أبي أكثر من مرة، ورددها بعض صغار الحي، كل شيء غريب هذا اليوم، حتى الشيخة أم سند، أفضلت الكتاب وطلبت منا العودة إلى بيوتنا مسرعين، بعد أن تأكدت من أننا أفرغنا ما في جراباتنا الجلدية الصغيرة من ماء في زير الكتاب، وما في جعبتنا من خبز في سلة إلى جوار الباب، احتجزتني جدي وأخي صابر داخل الحوش، ومنعتنا من الخروج، قالت: العبوا هنا، عندما شارفت أشعة الشمس على الاقتراب من حوض الماء، كانت أمي قد ضاقت ذرعاً من صراخنا وتراكننا وضحكنا وهونا داخل البيت، فزجرتنا مرة وأخرى،

علناً نخفف من ضجيجنا، لكن دون جدوى، أطلت أُمِّي برأسها من باحة البيت نحو الحارة، كان عدد من درادق الحي يلعبون الغميضة، اختلست أُمِّي النظر يميناً ويساراً، اطمأنت أن أوضاع الحارة لا تدعو للقلق، خاصة أن دكان العم أبي طلال مفتوحة، وتعج بالزبائن.

- العبوا، أمام البيت، لا تذهبوا بعيداً، قالت بنبرة حازمة.

حملت طقتي، وأحضر صابر معه عربة الأسلاك التي صنعها بيديه، وكان يعدو مع "الدُّحال" ذي السلك الطويل، بينما كان أطفال الحي يتراكضون ويلهون كعادتهم، كان الأكبر سنّاً منا متحفزين مترددين على غير عادتهم، نظفت وبعض الصبية زاوية الدرج الذي سنلعب عنده من بعض النفايات التي أُلقيت في ساحة الحارة، النفايات في البلدة القديمة خطيرة وكاشفة للأسرار، إذ يمكن التعرف من خلالها على مستوى الحي الثقافي والاجتماعي ووضع سكانه الاقتصادي، وليس هذا هو الأخطر، بل قد تجعلك تُطل على ما لا يجذب الإطلاع عليه من خصوصيات أفراد الحي، لذا كان العبث بها مثاراً للتندر أحياناً وللشعور بالذنب أحياناً أخرى، لعبت مع أبناء جيراننا مصطفى الناجي، ودمتري ورباح وحسن، والياس، طقة وإجري، وضعتُ العصا المدورة الصغيرة على ترس نابذ من الأرض، فنحن نعرف الحي بلاطة بلاطة، مستوى بروزها وملاستها، نقرت العصا المدورة بخفة بسطح العصا المنبسطة الطويلة، وعندما ارتفعت قليلاً عن الأرض ضربتها بقوة، طارت بعيداً، لاحقها الأطفال بنظرهم هاتفين، جرى رباح ابن الفران، مسرعاً ورأسه إلى أعلى، بينما عيونه تحملى بالعصا الطائرة، في مصادفة غير سارة، مرّ بالجوار في تلك اللحظة أبو خضر السمان، بلحيته البيضاء وثيابه البالية، كان يحمل على كتفيه عصا غليظة يتدلى من طرفيها حبلان وتنكتا ماء،

كان يصيح لاهثاً وثوبه ووجهه يتصببان عرقاً.

- افتح الطريق... افتح الطريق.

ولخطّه العاثر سقطت العصا المدورة الصغيرة على رأسه، حاول رباح تناولها، إلا أنه اصطدم بكامل جسده بأبي خضر، فسقط الرجل أرضاً، صرخَ وشتّمنا بأفدع الشتائم، كاذبكي حزناً على الماء الذي انسكب، وقد جدّ بإحضاره من سبيل الملك سليمان قرب باب السلسلة، وهو أحد خمسة أسبلّة تُجمع بها المياه المسحوبة من برك سليمان لتزويد المدينة، إضافة لأبيار الحرم، كان التعب والإرهاق باديين على وجه أبي خضر وقد صعد بالماء عدة عقبات ومئات الدرجات حتى وصلَ إلى الحارة، وعلى الرغم من أن أدراج العقبات في القدس عريضة واسعة مريحة للصعود، فإن هرم الجد أبي خضر وشيخوخته لم تخفيا تعب ومشقة تلك المهمة عليه، ومع ذلك واطب عليها وكنا نراه يحضر الماء بنفس الطريقة لأسرته كل يوم، هرب الأطفال باتجاه زقاق دير العدس، خوفاً من غضب الجد أبي خضر، بينما تملكني شعور بالأسى لحاله، فتقدمت منه بحذر، أمسكت بإحدى تنكتي الماء، حاولت رفع الماء عن الأرض، نظر أبو خضر بأسى شديد إلى هندامه المبلل وإلى يديه المرتجفتين المتعبتين، ثم حدق بي لبرهة حتى ظننت أنه سينقض عليّ، لكنه ابتسم فجأة، وقال:

- دعك من هذا، ما تأخذه الأرض لا يذهب هدرأ، ثم حدّق بيديه المرتجفتين، وأضاف. لكنّ ما يأخذه الزمن لا يعود أبداً يا بني.

ثم نهض، حملَ عصاه وتنكّتيه وقفلَ عائداً لإحضار الماء من جديد، خنّس الأطفال من شدة خوفهم تحت القنطرة المعتمة حتى ذهب الرجل، عدنا إلى لهونا، وعلى مقربة منّا تجمع عدد آخر من الأطفال،

التحقوا بنا متأخرين، يبدو أن أمهاتهم قد ضجرن منهم أيضاً، وعندما لم يجدوا متسعاً لهم في لعبتنا ولا في مجموعة الغميضة، انقسموا إلى فرقتين إحداهما فرقة الخيول والأخرى فرقة الفوارس، لعبوا "الديب والديببون"، تملكنتني رغبة في الانتقال من مجموعة الطقة وإجري إلى مجموعة الديب والديببون، فأنا أحب هذه اللعبة أكثر من أي شيء آخر، ارتفع صوت قائد مجموعة الفوارس، الديب والديببون، والنيم والنمنمون، غموا خيولكم يا عرب، خطرَ على بالي وأنا أراقب اللعب أن أدق في معنى كلمات اللعبة، ربما أن الديب هو الذئب، والديببون هم الذئاب التي تدب على الأرض وتهاجم القطيع ليلاً، والنيم من النوم والنمنمون من نائمين، أي أن الذئاب لا تهاجم القطيع إلا والناس نيام، لأن فكرة اللعبة تدور حول فارس يغافل ويهاجم ساحة بينما فرسانها نائمون، واستوقفتني عبارة "غموا خيولكم يا عرب"، وما تحويه من صيغة أمرة، وكأن العرب مرغمون على خوض معاركهم وهم في حالة من العمى.

بينما أنا سارح في أفكاري حول دلالة اللعبة ومعاني مفرداتها، تربع أفراد فرقة الخيول على الأرض، ووقف خلفهم أفراد فرقة الفوارس وقد غطوا عيون خيولهم بأيديهم، ثم صرخ قائد الفرسان: لا يتزل ولا يتزلزل إلا بخالد بن الوليد. عندها ترك فارس من القائمين موقعه وتقدم، قرع على تنكة وضعت في وسط حلقة الفرسان وعاد بهدوء إلى مكانه وغمى عيني خيله. تابع قائد الفرسان: قد زال الخوف وذهب، فاكشفوا عيون خيولكم يا عرب، عندها خطر لي أن الأمر قد لا يخلو من شجاعة، وأن عصَبَ عيون الخيل لا يعني بالضرورة عدم يقظة الفارس، وإنما حجامة للخيل حتى تقدم ولا تجفل من أهوال المعارك

الضارية. وما إن ارتاح خاطري للمعنى الجديد، حتى نهض الفرسُ الذي أغمضت عيناه من قبل قائد الفرسان، نظر في عيون الخيول وفرسانها ثم خمن وأشار على أحد الفرسان قائلاً:

- أنت من هاجم الساحة وضرب التنكة وحق عليك العقاب. عندما انتصف قرص الشمس وسط سماء غائمة حائرة، سمعنا بائع الدندرما يشدو بصوته العذب الجميل، غير عابئ بشحوب وجوه المارة، وعبوس أصحاب الحوانيت في هذا اليوم العجيب، حضر بائع الدندرما بعربته الخضراء ذات العجلات الثلاثة، وطربوشه الأحمر، وخرجاته البيضاء الطويلة التي تصل إلى ما تحت ركبتيه، تلطخها بقع بألوان البوظة، نادى بصوته المنداح الجميل:

دندرما بوظه بحليب تعال لعندي يا حبيب

أنا بيع الدندرما

جاء دور ملاليم أم خليل، نفشت ريشي وزهوت بنفسي وأخرجت التعريفة، وضعتها بكفي ونظرت إليها، حتى يراها باقي الأطفال، وقلت بثقة:

- أعطني ثلاث حبات.

بينما ابتاع عدد من الأطفال حبة مشتركة متبادلين ملينهم على يومين، ونظر إلينا الآخرين بحسد وهم ييلعون ريقهم الناشف، حارتنا رغم فقر الناس وضيق أحوالهم لا تتوقف عن استقبال البائعين الجوالين، الذين تضج منهم الأمهات، كذلك العم أبو طلال صاحب الدكان لأنهم يستنفدون ما بيد الأطفال من ملاليم، كانت بائعة اللبن مخيض البدوية القادمة سيراً على الأقدام من منطقة الخان الأحمر على طريق

أريحا تحمل على ظهرها كيس اللبن المصنوع من جلد الغنم مُسندة ثقله إلى ربطة قوية على مقدمة جبهتها تنادي بصوتها الناعم المتعب: مخيض بالزبدة، في تلك اللحظة، تدافع الناس مهرولين إلى بيوتهم، وأقفل العم أبو طلال بوابة دكانه الخشبية على عجل، سمعت أصوات القذائف غير بعيد تدك الباب الحديد وباب العمود، هرعت وأخي إلى البيت خلفا ورائي عصاتي الطقة وأجري، أول خسائر الحرب، كانت والدتي قد هرولت إلى باب البيت، شدتني من يدي وأخي صابر وحملتنا كلاً بيد تحت إبطيها مثل هرة تحمل صغارها، كنتُ أسمع دقات قلبها وأشعر بارتعاش جسدها، جرت بنا إلى داخل الغرفة الكبيرة، ودسّت بنا داخل ركسة الفرش في زاوية الغرفة الداخلية، حيث وضعت أختي رُبي ثم سرعان ما قدمت جدتي وبعض الجارات وأطفالهن وبعض رجال الحي الذين اقترحوا أن نختئ جميعاً في يخور البقر باعتباره مركوباً ومطوقاً من كافة الجهات، الأمر الذي يجعل منه ملجأً آمناً للجميع، حملت عمتي فاطمة شنطة الأدوية التي أعدتها منذ الصباح وقبّلت يد جدتي على عجل وضممتني وأخي إلى صدرها وهَمَّت بالخروج، حاول بعض كبار السن من الجيران ثنيها عن ذلك لكنها أبت، انسابت دمعة على وجنة جدتي وقالت بصوت حزين:

- إن سمعت شيئاً عن نرجس أو أخيك عمر طمئنيني عليهما، حافظي على نفسك ولا تغامري يا ابنتي.

اشتد القصف وكان أزيز الرصاص عنيفاً استمر طوال الليل دون انقطاع، تهامس بعض الفتية والشباب متذمرين من الاختباء بينما يقاتل الرجال، وكان خروج عمتي فاطمة إلى ميدان المعركة قد شكّل إحراجاً شديداً لعدد من الرجال والشباب وبعض الفتيان الذين هموا بالخروج

لولا سقوط قذيفة دمرت دار السكسك في الحي المجاور، وأخرى قرب الحرم الشريف، علمنا من أم مصطفى التي التحقت وأبناءها بيتنا أن تلك القذيفة قتلت 22 مواطناً وأسقطت عدداً كبيراً من المصابين، انتظر الفتية حتى صباح اليوم التالي يوم الاثنين 17 أيار 1948 حيث خرج معظم الشباب والرجال من بيتنا والتحقوا بجموع المدافعين عن المدينة، عند منتصف النهار جاءت عمتي فاطمة، كانت ثيابها ملطخة بالدماء، حتى أن جدي هرعت إليها باكية لاعتقادها أنها قد أصيبت بجراح من إحدى القذائف، كانت تلك دماء الجرحى والمصابين الذين أسعفتهم أو ساهمت بنقلهم إلى المستشفيات، كما قالت، أخبرتنا أن أبي بخير وأنه يدافع مع مجموعة من فرقة التدمير عن باب النبي داود ببسالة فائقة، حيث يحاول اليهود اقتحام البلدة القديمة من هناك والوصول إلى حي الشرف ودرجة الطابونة. قالت إن السكان اليهود الذين أحضرهم الوكالة اليهودية على مدى سنوات إلى البلدة القديمة معظمهم من قوات الهاغانا، ويشكلون اليوم رأس حربة خطيرة في خاصرة البلدة القديمة، وإنهم استغلوا وجودهم داخل القدس لمهاجمة البيوت والأحياء المجاورة، لكن فرق المجاهدين تمكنت من محاصرتهم تماماً، بدا أنهم قد يستسلمون خلال أيام، قالت عمتي فاطمة إن أخبار القطمون غير سارة، مع ذلك فإن المجاهد إبراهيم أبو دية ونفراً من رفاقه يخوضون معركة بأسلة هناك، لكن لا توجد أي أخبار عن عمتي نرجس، بينما زوجها زيد مع مجموعة من فرقة التدمير وأخرى بقيادة بهجت أبو غربية تمكنتا من التسلل إلى خارج الأسوار وزرعتا المتفجرات على مداخل البلدة القديمة منعاً لليهود من اقتحامها. أخذت فاطمة مزيداً من الأدوية والضادات وخرجت من جديد، انضم إليها معظم

أبناء الحي من الرجال والشباب الذين حملوا الخبز والطعام للمقاتلين، عند المساء سمعنا قرعاً شديداً على بوابة البيت، خرجت جدتي بحذر لتفتح الباب، فإذا بأقارب لها من عين كارم جاءوا هارين من بطش العصابات الصهيونية التي هددت كل من يبقى هناك بالقتل، كما هددوا النساء بالاغتصاب، هذا ما قالت أم نعيم التي هربت بابتها الصبية في الثامنة عشرة من عمرها وصغارها الخمسة. إن كثيراً من الناس قد لجأوا إلى البلدة القديمة منذ أسابيع، وإن المساجد والمدارس والكنائس والأديرة قد اكتظت باللاجئين، كانت صباح ابنة أم نعيم الصغرى قد كسرت ساقها وهي تعدو خلف والدتها في الوديان الوعرة، بدت فتاة جميلة في مثل سني ذات شعر قصير بني وبشرة حنطية، ظلت تبكي وتصيح من أوجاعها حتى توتر كل من في البيت.

- لا بدّ من أخذها للمجبر أبي غازي في حي الواد قالت جدتي.
- ربما الأسهل إحضار أبي غازي إلى هنا، قالت أُمي.

لم يكن في البيت سوى النسوة والأطفال، وضعت جدتي ملايتها السوداء على رأسها ورافقتها أم صباح تحمل صغيرتها، طلبت جدتي مني أن أرافقهما إلى بيت أبي غازي، تملكني شعور بالرهبة سرعان ما زال وأنا أشاهد بعض الشباب اليافعين الذين أعرف العديد منهم، بعضهم كانوا لشهور ليست بعيدة يلعبون معنا كرة القدم في ساحة قرب بيتنا، بينما الآن يمتشقون السلاح ويجوبون أحياء المدينة، هذا محمد الكرد، ذاك عادل شرف، وهناك قرب المطحنة يعقوب أبو حليلة ومناويل اغزريان، وخلف المتراس حلمي البرق، وأمام بوابة جاويش بيرم وقف عبودة غيث، وغيرهم.

كان الظلام دامساً، عندما اختبأنا داخل إحدى القناطر، كانت أصوات

المدافع تُسمع من بعيد، عند مفترق طريق عقبة خضير كان عدد من الجنود والرجال المسلحين يتمرسون خلف متاريس من الحجارة والرمال، وأمام بوابة الهوسبيس كان المسعفون بزيهم الأبيض وبعض المواطنين يحملون الجرحى، منهم من حُمِلَ على ظهور الناس ومنهم على الدواب ومنهم على حمالات خشبية، شاهدت أحدهم محمولاً على ظهر أحد المواطنين، وكانت قدمه تتدلى وتشر منها دماء غزيرة، كان المنظر رهيباً، لن أنساه ما حييت، كان بعض الشهداء ما زالوا على الأرض، شدتني جدتي من يدي، بينما تعلقت عيناى بمشهد الجرحى والشهداء أمام المستشفى، كانت صباح تنن وتبكي أحياناً وهي على صدر أمها التي تتصبب عرقاً من الهرولة وهي تحمل صغيرتها على صدرها، كان عدد من الرجال والنساء الذين لجأوا من غرب المدينة قد تجمعوا أمام كنيسة الفرنسيسكان التي رفضت إستقبالهم، بينما وقف رجل دين قالت جدتي إنه الأب سمعان من دير اللاتين أحد معارف والدي، طلب من كل المتجمعين أمام كنيسة الفرنسيسكان أن يرافقه إلى دير اللاتين، الذي آوى وحى وأطعم المئات من اللاجئين، بل وقدم الشهداء من الرهبان والقسيسين، كان منهم الأب سمعان نفسه الذي استشهد جراء سقوط قذيفة على الطابق العلوي من الدير، كما تبين بعد انتهاء المواجهات، وصلنا إلى بيت أبي غازي المجبر، الذي يسكن في حوش الزربا، طلبت مني جدتي أن أقرع الباب، عندها عرفت لماذا رافقتها إلى هناك، حيث من غير المُحَبَّب أن تقرع امرأة باب بيت غريب، على الجهة الأخرى من الباب الخشبي المتهرئ الذي يُظهر جزءاً من حوش البيت، وقف أبو غازي بجسمه السمين، ووجهه وطلته الهادئة، وعلى الفور ودون كثير من الأسئلة، قال بصوته الأَجَش، بسم الله الشافي المعافي، أخذَ

الصغيرة عن صدر أمها، ولم أعرف كيف عرف عِلَّتْهَا قَبْلَ أَنْ تَسْرَدَ أم نعيم قصتها منذ غادرت عين كارم حتى حطت بيتنا. تناول أبو غازي وعاءً فيه بعض من زيت الزيتون، وضعه على موقد صغير تحته شمعة صغيرة، استلقت صباح أمامه على حصير من القش غطت جزءاً من أرض الغرفة، رفع أبو غازي ساق الصغيرة بيد وتحسَّس مكان الكسر باليد الأخرى، قال:

- لا تقلقوا عظام الأطفال لينه، كسورهم نُجبر سريعاً.

ثم ضمَّ الساق بيديه بعد أن ساوى عظامها، وأتى بقطعتين صغيرتين من الخشب وضعهما بمهارة فائقة على عظمة الساق بعد أن دهنها بزيت الزيتون، ولفها بقطعة من القماش، وقال:

- أحضروها لي بعد أسبوع.

أخرجت أم نعيم صرة صغيرة من عُيْها، أشاحت بوجهها قليلاً إلى الجهة الأخرى وكأنها تريد أن تخفي ما بالصرة من كنوز، تناولت بضعة قروش قدمتها إلى أبي غازي، لكنه أبى أن يأخذها، قال:

- نحن في حرب احتفظي بذلك يا أختاه.

عدنا إلى البيت، كان القصف قد اشتد، ما اضطرنا إلى الاختباء في حمام العين، الذي اكتظ بالناس، اختبأنا بعدة أماكن قبل أن نصل إلى بيتنا الذي لا يبعد عن بيت أبي غازي أكثر من خمس دقائق في الأيام العادية، بينما أخذتنا الطريق ما يزيد عن ثلاث ساعات بسبب القصف، عندما وصلنا كانت أمي قد طبخت حلة كبيرة من الرز وحب الحمص لما يزيد على ثلاثين فرداً اكتظ بهم بيتنا، كنا كلما اشتد القصف نهول مسرعين إلى يخور البقر، كانت الحرارة ورائحة العرق تميزان برائحة روث البقر وكان صراخ الصبية وبكاء الأطفال يختلطان بخوار البقر،

وعندما يخف القصف كنا نخرج إلى الحوش، نفترش الأرض أحياناً ويتشاجر الصغار أحياناً أخرى.

في اليوم الثاني ارتفعت حرارة الصغيرة صباح، أسقتها جدتي قليلاً من بول الابنة البكر لجارتنا أم ذياب، لأن ذلك سيساعد على انخفاض درجة حرارتها، كما قالت جدتي، بعد أسبوع من الحصار بدأ التموين ينفذ، كذلك الماء والوقود، خاصة أن بيتنا كان ملاذاً للكثيرين من أبناء الحي، وبدأ بعض الجيران، خاصة الموسرين، جمع أمتعتهم على الدواب والرحيل إلى مناطق أكثر أمناً، في بيت لحم ورام الله وأريحا وعمان، بينما سعى أهل القرى والبلدات المجاورة سلوان والطور والعيزرية وأبو ديس إلى تزويد المدينة بالمؤن والأدوية والمياه بشتى الطرق، وتهريبها رغم الحصار الشديد عبر حارة السعدية المتصلة بسور القدس من باب الزاهرة حتى باب العامود، قدموا تضحيات جلية في سبيل ذلك.

في 19 أيار دخلت قوات الجيش العربي إلى البلدة القديمة، الأمر الذي أدى إلى تغيير ميزان القوى، كما قالت العجوز ذات الشعر المنفوش، اشتد القصف اليهودي اليائس على أحياء البلدة القديمة حتى أنه طال معظم الأماكن المقدسة، سقطت قذيفة على كنيسة القيامة وأحدثت ثقباً واسعاً في قبتها، وطالت قذيفة جوار المسجد الأقصى، واستهدفت أخرى دير اللاتين ودير المار متري مقر اللجنة العربية وأصاب القائد فؤاد الخالدي وابنه فسقطا شهيدين، ورغم شدة القصف اليهودي وشراسته فإن الحاخام اليهودي في حي الشرف أعلن استسلام 350 جندياً من الهاكاناه إلى الجيش العربي بقيادة عبد الله التل، وأخرج باقي اليهود من البلدة القديمة، شيء ما تغير في أتون المعركة. همد صوت المدافع، عاد أبي بعد شهر من القتال مصاباً في كتفه ورقبته،

وكان قد أمضى عدة أيام في مستشفى الهوسبيس الذي لا يبعد عن بيتنا سوى عدة أمتار، بل وتُطلُّ نوافذه الكبيرة الخلفية على حوش البيت، لكننا لم نكن ندري أن أبي يرقد هناك جريحاً منذ شهر، عندما وصل إلى البيت، أصرَّ على أن يُحمل إلى مقام الشيخ ريجان، رافقته إلى هناك، استند إلى كتف جارنا أبي جريس من دير العدس، الذي كان يحمل بندقية طويلة على كتفه ويتزنى بسلاحك من الفشك، أسند أبي رأسه إلى بوابة المقام، همس بصوت خافت:

- إنه هناك يا سيد الحضرة المباركة، فلتطمئن إنه هناك.

لم نفهم ماذا يقصد والدي وعمن يتحدث، ربت أبو جريس على كتفه، وعاد به إلى البيت، سأل أبو جريس جدتي عن عمتي فاطمة، ثم عن عمتي نرجس، أحزنه انقطاع أخبار عمتي نرجس، مسح دمعاً سألت على وجهه وأشاح به إلى الناحية الأخرى وودع والدي وخرج مسرعاً، لم أعرف ما هي علاقة القرابة التي تربط العم أبا جريس مع عمتي نرجس، ولماذا تأثر هكذا لأخبارها.

قاتل أبناء المدينة قتالاً باسلاً، بدا أن أمراً ما اختلف في تقييحات المواجهة لدى الأطراف، كما قالت العجوز ذات الشعر المنفوش، فبعد أن وقف الجند على الحياد لفترة طويلة، الأمر الذي مكّن اليهود من السيطرة على كافة الأجزاء المعلنة غرباً في خطة التقسيم للدولة اليهودية، بل تجاوزوها في معظم المناطق، بدا أن أطراف المعادلة كانوا متفاهمين على كل شيء عدا القدس، لذا شدّد الفيلق العربي ضرباته ما أفقد الصهاينة أي أمل في تحقيق أي إنجاز في البلدة القديمة، ومع محاصرة فرقة التدمير ورجال الجهاد المقدس حي الشرف "حارة اليهود" ودرجة الطابونة والقرمي والنبى داود، اضطر حاخام اليهود في البلدة القديمة إلى إعلان الاستسلام، تقدمت قوات الجهاد المقدس ومعها

قوة من الفيلق العربي إلى البيوت التي استولى عليها اليهود لإخراجهم من المدينة، وكانت الوكالة اليهودية قد جمعت الكثير منهم داخل البلدة القديمة خلال عدة سنوات، حتى بلغوا نحو ألفي صهيوني، بينهم قليل من اليهود العرب.

تقدمت مجموعة من الجهاد المقدس إلى بيت يعقوب، قال زيد: دعوا هذه العائلة، إنهم عرب مثلنا، وقال آخرون سيخرجون جميعاً لنُبقي يهودياً واحداً في المدينة، نهض يعقوب من متكأ له إلى جوار سرير من الحديد، قال: عسى الأمر انتهى يا زيد. أشاح زيد بوجهه بعيداً وغادر المكان، تابع أحد الرجال:

- هيا يا يعقوب، خذ مالك وأهلك وعيالك وسترحلون من هنا.

- إلى أين سأل يعقوب باستغراب؟!

- إلى أي مكان، قالوا، هذا ليس من شأننا.

- اسمع أيها الرجل، أنا عربي وهذا بيتي ولا بيت آخر لي، لن أرحل مع هؤلاء الصهاينة، لست منهم ولا هم مني، لن أرحل معهم، سأبقى هنا، قال يعقوب.

ونادى بأعلى صوته:

- يا أم نصرت، يا زيد، أيها الجيران الطيبون أنا منكم، لا تلقوا بي إلى غولدشتين.

لا عدالة في الحرب، ولا منطق، ولا عقل لرغبة الانتقام، عندما تُصبح الثورة جزءاً من الدهماء، تعمى بصيرتها وتُقاد من أضعف حلقاتها. دُفع يعقوب قسراً إلى ميللر غولدشتين الذي قال له يوماً. ستتغير يا يعقوب، أنت لا تعرف قيمة أن تكون صهيونياً.

انهارت الأجلام

ذبلت أوراق المدادة العجوز، وتهدلت أغصان شجرة التين، نفذ حبرُ القلب، وتاهت حروف الكلمات، ما عادت سيدة الحكاية تقوى على الصبر والكتابة، عَجَزَ يمينها عن اليراع، وخرَبَشَتها النائبات، لم يتبقَّ في اللغة كلمات تتسع لكل هذا الألم، جابت حيزَ القلب، وقلَّبت حيزَ المكان، عبثًا تحاول، أغدفت أنياب الهمِّ على صدرها وفتكت بها الخطوب، ليس من نافذة للنور، ولا بوابة للأمل، ضَمَّت رقاعها إلى الصدر، وأوصدت صندرة الذات، ذرفت دموعها وخبات أسرار زمن توارى من خجل الهزيمة، تناثرت صفحات الحكاية بعد أن مرَّقت القدائف أرضها وسماها وعصفت الريح بزمانها، وبعثرت الهيجاء شخوصها وأبطالها، وخيَّم الإحباط على المدينة حتى غطى الأفق.

انزوت فاطمة في ركن من البيت وحيدة حريدة، بعد أن تحطمت أحلامها وتشظَّت مثل بلور على رخام الروح، غاب الفرح عن عيونها، وتبددت الابتسامة عن شفاهها الحائرة، لَطَخ الليل بفحمته السوداء صفحة السماء، فسقط القلب في ظلام يأسه الحالك، جثمَ همُّ الهزيمة كصخرة على صدرها الصغير، وبثَّ أنينه بلا حدٍّ لحزن ولا نهاية لألم، ثم زحفَ ببطء داخل جسدها، نخر عظامها وامتنص إرادتها، دَمَّر حيويتها وأطاح بعنفوانها، شعرت ببرودة تسري بجسدها، ارتجف القلب، وانقبضت أسارير الوجه، غمرها شعور بالوحشة والوحدة حتى تداخل ليلها بنهارها، وكأن الدنيا قد تخلت عنها وتركتها نهباً للحظات الزمن البطيئة، تجتاح حصونها وتُدمر قلاعها وترتكها في أتون مخاوف لا

تُصد، بكتُ، ضاقَ صدرها، هَرَدَتْ ثوبها بعنف، انتحبت، علا النشيج حتى طال فضاء المدى، صرخت حتى عجزت جدران البيت البائسة عن إرجاع الصدى. ثم همدت وانزوت في خباء حلمها الطويل.

لم تحمل تلك القذائف التي دمرت البيوت والمساجد والكنائس باروداً قاتلاً مدمراً وحسب، وإنما حملت في ثناياها وتحت أجنحتها رياح اليأس وهواجس الإحساس بالعجز والغدر والخيانة والهوان، كيف انهار الحلم وانهمزت حكاية المدينة بتاريخها العظيم، كيف تفكك نسيج المكان، وتهتك جسد الزمن، وتعرّت السماء من ثوبها الموحد، كيف حمل الفضاء ناس المدينة الطيبين إلى مجاهل المجرة، كيف خَشَتْ الأسطورة إلى محراب الوعد وتمَطَّت على بساط الحجر المقدسة، كيف اقتحمت القصة الملفقة وعي اللحظة بعصاباتها المُجمعة من شتات الأرض وزمنها المفبرك وأبنيتها المركبة ومسحت ذاكرة المكان.

- شيء ما لم يكن سوياً في تلك الحرب، لا علاقة له بالعدل أو القوة أو الاستعداد، شيء ما شاب المكونات الداخلية للأمة، أصاب إرادتها، ووحدتها وثقتها بنفسها، شيء ما شاب وفاء قياداتها وملوكها وأمرائها، رائحة تننة أزمكت الأنوف.

هذا ما همس به زيد في أذن فاطمة قبل أن يدخل في غيبوبة تامة من جرح عميق أصاب رأسه وهو يدافع عن المدينة عند باب النبي داود، وقبل أن تدخل فاطمة إلى وَخَواح وحدثها الأسرة، يومها سهرت فاطمة إلى جوار سرير زيد في مستشفى الهوسبيس، كاد قلبها ينفطر حين أمسك يدها وهمس بألم شديد:

- نرجس، نرجس...

همس حتى تلاشى صوته وذهب في نوم عميق، بينما يده الأخرى على

صدره تماماً فوق خافق لا يكف عن الحنين، قريباً من حافظةٍ وخصلةٍ من شعر وصورٍ لدمعةٍ وحيدةٍ على الخد اختلطت بكحل العين وابتسامة فرح حائر.

هزّت فاطمة رأسها، نظرت إلى فراش نرجس، لم ترفعه من مكانه منذ زواجها، اليوم فقط شعرت بالوحدة ولوعة الفراق، جال قلبها أنحاء الغرفة الباردة، بحثاً عن طيف نرجس، ما تبقى سوى خمارها الأبيض، معلقاً على جدار باهت، فجأة سقط عالمها وتلاشى، أشاحت وجهها نحو نافذة الغرفة، أرخت جفونها وأطرقت النظر إلى نجوم خفّ بريقها، لكنها لم تغادر أماكنها رغم أن غماماً كثيفاً غالبها، ألقت فاطمة بنفسها على مرقد همها، بكت، كزّت شفيتها، حمشت صرة الهواء، شدّت جديلتها أجهشت بصوت مرتفع، وفجأة ابتسمت، ثم ضحكت بأعلى صوتها، ثم عبست وعقدت حاجبيها، زمّت شفيتها، مالت برأسها على كتف مثقل بالهموم، انهارت كل الأشياء التي آمنت بها، وسقطت أمامها، ذهب الأمل وغاب الوعد الذي انتظرت، لعلها لم تشعر بالعجز يسطو على روحها فقط، وإنما شعرت أن كل ما حولها عاجز، لم يكن أمامها سوى البكاء، رفعت رأسها إلى السماء، تضرعت إلى الله بكل ما حملت في قلبها من إيمان وخشوع، أطالت النظر في المدى، ثم حوّلت نظرها فجأة إلى شق في جدار غرفتها، شخّصت كأنها صورة لتمثال جثم في المكان من زمن بعيد، تهاوت أحلامها، استدارت بحركة عصبية صوب قنديل تخافت نوره وعبث به الهواء، أمالت رأسها يميناً ويساراً، لاحقت حركة الضوء الذي لا يتوقف.

العمة روز غائبة في حضورها

ذبلت أوراق الأضاليا وماتت تيجانها، اقتحمت قوة مدججة بالسلاح بيت نرجس، ساقوا العمة روز إلى السجن بتهمة الاستيلاء على أملاك الغير، حاولت أن تفهمهم أنها تقيم مع أطفال صاحبة البيت التي خطفها جنود الهاغاناه، وأن بيتها هو البيت المجاور تماماً، وأنها بنته مع زوجها قبل إعلان دولة إسرائيل بخمسين عاماً، وقد استولى عليه ضابط من الهاغاناه مع زوجته، وطردوها منه، قال لها رجل يرتدي قميصاً رمادياً، ويضع على رأسه قبعة عسكرية: هذه تفاصيل غير مهمة، هنا لا وقت للتفاصيل التافهة، ولا مكان للحواشي، المهم لدينا أنك ضُبطت متلبسة في الاستيلاء على أملاك الآخرين، ناهيك عن أنه بيت مُخرب أيضاً، أما بخصوص ما تدعين أنه بيتك، فأنت غائبة عنه بحكم القانون، وفيما يتعلق بأموالك في بنك باركليز، الدولة وضعت أيديها على كافة الأرصدة في البنوك، وأي تصرف بها سيكون وفق اتفاق دولي، ليس هذا أوان البحث في أمره، باختصار، أنت لم تعودي تملكين بيتاً أو مالا هنا، وكوننا دولة أعلنت حديثاً، وأكدت التزامها بالمواثيق الدولية وحقوق الإنسان، فإننا تحقيقاً للعدالة، سنطلق سراحك، لكنك سوف تبقيين تحت رقابة شديدة، وبدافع من عواطفنا النبيلة وقيم العدالة التي نؤمن بها فإن الدولة توافق على تأجيرك غرفة المخزن في ذلك البيت المذكور الذي تدعين أنه بيتك، على أن تتعهدي أن لا ترعجي صاحباً البيت السيد الجنرال مردخاي وزوجته ليئا، وأن تستخدمي الزقاق الخلفي في دخولك وخروجك، وأن لا تستضيفي أحداً، لأن زوجة

الجنرال حديثة القدوم لهذه البلاد ولم تألف وجوه العرب بعد، ثم إن الجنرال رجل طيب، ربما مع الوقت سيسمح لك بالعمل خادمة لزوجته وابنه، وبذلك تكسبين بعض المال لإعاشة نفسك والصغيرين أيضا.



الجزء الثاني

نهر بلا ماء

الهءاء الءءء الثاني

إلى والءى ووالءى مرة أخرى، وءء حفرا فى أعماقى ذاكرة المكان الذى خُطف من بين أيءنا، وإلئها وءء كءبا على صفءاء عمرى ءكاىاء الناس ءتى لا ءلَّ مكانها رواءة الغرباء وأسطورءهم الباءءة.

إلى أرواح ءراس الءلم العنئء والأمل المءءءء، أبطال فرقة التءمئر، وفى طلئعءهم مءءُ الأبطال وأمئر الفءائئىن فوزى القطب، ورفاقه: أبو مءمء السءمئر، وأبو منصور، ومءمء الكرد، وعاءل شرف، وئعقوب أبو ءلئمة، وئاسر شرف، وءللل اءكئءك، وزئء غنئم، وءواء الءاعونئ، ومءمء الشرفا، وئوسف الءاىك، ومءمود عئسى، وعبوءه غئء، ومءمود الءنئنى "أبو هءام"، وءلمئ البرق، ومءمء العكاوى، وعطا عثمان، وناءى مصطفى "أبو مصطفى"، وكاظم صالح، وءاءوء البئءونئ، وعبء الله الكرد، وأءئب الشامئ، وعبء القاءر ءونئئ، وعبء الرحمن السئلاوى.

إلى أرواح سئوف المءئنة وساءة مئاءئن المواءة، إبراهئم أبو ءة، وبهءء أبو غربئة، وصبءى أبو غربئة، وانءون ءاءوء، وصبءى غوشة، وأبو أءمء برءاء.

إلى الءنوء المءهولئن من شءءاء الءئش العربئ من الأردئئن والعراقئن والمصرئن والسورئن واللبنائئن، وإلى شءءاء الءهءاء المءءس من فلسطين والمغرب العربئ والءللئ.

لروح القاءء الشهئء عبء القاءر الءسئنى قاءء ءوار والمءاهءئن، وإلى

روح ولده سيد المدينة فيصل الحسيني، إلى بن يحيى وعبد الله ومختار العلي وفرحات، المنسيين على ضفة نهر بلا ماء. إلى أرواح الشهداء: القائد والرمز الكبير ياسر عرفات، والمجاهد الكبير محمد الهندي، وعز الدين القسام.

إلى روح الشهيدة حياة البليسي، والشهيدة فاطمة غزال، والشهيد سامي الأنصاري، والشهيد عبد كاشور، والشهيد محمود الكرد، والشهيد عبد الله الحواس، والشهيد مازن أصلان، وإلى شهيد حي الشيخ ربحان موسى أبو عيدة، وإلى أرواح شهداء مجزرة دير ياسين ومجازر الأقصى وفلسطين، وشهداء الثورة والمقاومة الفلسطينية، ولأرواح الجنود والمجاهدين العرب والمسلمين الذين ارتفعوا في سماء القدس دون شواهد من حجارة على الأرض، إلى جنود القدس المجهولين.

إلى روح جدي حارسة البيت القديم، وإلى روح جدي المتوفى مرة والمقتول مرة أخرى بعد اقتلعه بأسنان الجرافات من مقبرة مأمّن الله "ماميلا"، إلى سعده التي سترت عُري الأرض بثوبها البالي، إلى العمة روز الغائبة في حضورها والحاضرة في غيابها، إلى الحاج رياض وكل الذين فقدوا أكثر مما يملكون، إلى أدهمية وعادل اللذين عاد الثوار دونها، إلى نرجس التي خُطفت ولم نسترجعها بعد، إلى فاطمة التي تاهت في زحمة الأحداث، إلى شهداء القدس وأسراها، إلى أهلها الصامدين أمام ريح الاقتلاع، إلى السائرين في طرقاتها والحافظين لعهدا والمناضلين من أجل تحريرها، وإلى بائع الحليب وبائعة النعنع والميرمية، إلى أصحاب الحوانيت، إلى رافع الأذان وقارع الأجراس وضارب مدفع الإفطار، إلى القدس مدينتي وبيتي وروحي الباقية فيها إلى الأبد.

تنويه لا بء منه

عندما انتهيت من كتابة الجزء الأول من هذا السرد المقدسي، تكوّن لدي رغبة في نشره قبل استكمال الجزئين الثاني والثالث، خاصة أن كل جزء منه يتعامل مع مرحلة معينة من عمر مدينة القدس، لذا حررت الجزء الأول من سجنه في ذاكرة جهاز الكمبيوتر الذي كتبته عليه، وأطلقته حراً إلى صفحات ورقية طالما عشقت سكنها الكلمات، فأنقذت هذا الجزء دون أن أدري، لكنني عدلت عن إصدار الجزء الأول منفرداً، لقناعتي أن المراحل التي مرّت بها مدينة القدس لا يمكن أن تفصل بعضها عن بعض، لشدة التداخل والأثر الذي عكستهما كل مرحلة على الأخرى، ناهيك عن أهمية التواصل في قراءة هذا السرد التي تتواصل به الأحداث وتتطور فيه الشخصيات أو تتكس، الأمر الذي يجعل القراءة المتقطعة تضعف القدرة على ربط الأحداث والإمام بالبناء الدرامي المختلف عن كثير من أنواع الدراما، كما أسلفت في غير مكان، ناهيك أن النشر المنفصل لأجزاء هذا العمل يضعف إدراك رسالة هذا العمل بشكل متكامل، لذا قررت التريث وإصدار الحكاية إن جاز التعبير بأجزائها الثلاثة مرة واحدة، لكنني ما أن انتهيت من كتابة الجزء الثاني من هذا العمل، الذي أخذ مني مجهوداً كبيراً وتفكيراً عميقاً بأثره وجدواه، وصعوبة بل وخطورة الربط بين الواقع الحقيقي للأحداث على الأرض وبين الخيال، الأمر الذي استغرق ما يزيد على عامين من الكتابة والتفكير والتدقيق من جديد بالنص والرسالة والهدف، وما

يمكن فضحه وما يجب ستره، بما لا يخل بالعهد والأمانة، ولا يضع أمثالي تحت أنياب العهود وأصحاب النفوذ في أزمان توات وأحوال تقاربت وتنافرت وتصارعت وتصالحت دون حول منا أو طول.

وفي ظل الرهبة من المآل واضطراب الأحوال، ركزت على مهمتي وأعملت في هذا السرد معرفتي، فسعيت إلى تطوير أساليبي، وأخذت بعين الاعتبار الصيغ والتراكيب والصور الجميلة، والتعبير السلس والنظريات الشكلانية والموضوعية، العربية والروسية والألمانية، وكُنت أحياناً أكتب للنقد قبل أن أكتب للقراء، وحرصت أن يستجيب نصي لكل الشروط والخطوط، ومع ذلك يبدو انني تجاهلت وصايا كانط وأرنست بلوك، وكونديرا، وحمزوف، وجعلت من نفسي كاتباً ما دمت ملكت شروط الصنعة، دون أن أقف عند حقيقة أن فن الكتابة إبداع يتطلب موهبة غير قابلة للتعلم، قرأت آلاف الصفحات عن النقد الأدبي والنقد الخشبي والنقد الأخضر، وصندوق النقد الدولي، واصلت الليل بالنهار والصيف بالشتاء دون كلل أو ملل، توترت مع أبطال الرواية حين توتروا، وبكيت حين بكوا، شاركتهم أفراحهم وأتراحهم، و"نَقَطُهم" في طهور أبنائهم، اندمجت وإياهم في عمل روائي مثير، حتى دخل إلى جهاز الكومبيوتر الذي كتبت سردتي هذه عليه فيروس لعين.

شئت نص ذلك الجزء من الرواية إذا جازت التسمية، وفكَّك السرد وضيَّع الحبكة، ودمَّر السبكة، ولخبطَ الشكل وأخلَّ بالميزان، خاصة مدخل هذا الجزء الذي تعلق بشخصية أبي منصور، أحد أعمدة الجنون الروائي الجوال في مدينة القدس، الذي تعود على التجوال في شوارع المدينة وأحيائها، حافياً هائماً على وجهه يسرد القصص والأخبار

بطريقته الخاصة، حيث تعود الكثيرون من أهل المدينة الاستماع إلى جمل عابرة أثناء مروره إلى جوارهم أو مرورهم إلى جواره في أزقة وأسواق البلدة القديمة، ولشدة تعود أهل المدينة على أبي منصور، نادراً ما ألقى أحدهم اهتماماً لما يقول، إلا أنني حاولت أن أتبعه لعدة أشهر استمعت لما يسرد أبو منصور بإمعان، وكنت أهرع أحياناً لأكتب ما قال، وبعد فترة اكتشفت أن الجمل غير المترابطة لأبي منصور تأخذ خطأ سردياً روائياً ودرامياً مذهلاً، إذا أُمعن النظر بها، لذا اجتهدت بإعادة ترتيب تلك الجمل والأفكار التي نظمت معظم أجزاء هذا العمل، واكتشفت أن لدى الرجل قدرة على التنبؤ بأحداث لم تكن قد حدثت بعد، وأثبتت الأيام بعد ذلك، شهراً أو سنوات، أن لدى الرجل قدرة فذة على قراءة الأحداث وتحليلها. على كل حال، سواء أكانت قدرات فذة أم نبوءات، فهذه هي القدس، التي ليست أرضها وسواؤها وحجارتها حُبلى بالأسرار المقدسة والمباركة فقط، وإنما أهلها أيضاً أصحاب كرامات وعجيبات.

لقد حاولت كلَّ جهدي أن أعيد النص إلى قوامه بعد أن دمَّره ذلك الفيروس اللعين، لكنني لم أفلح، أتيت بالخبراء والبصراء وأصحاب المهنة، عجزوا مثل عجزني، فاحترت في أمري، وما ضيّعت من عمري، هل أعيد الكتابة من جديد، ليس بي طاقة، وقد أعاني التعب والفاقة، حتى ضعف بصري وضاق بي الحال وطال بي المأل، لذا قررت أن أنشر الحكاية كما هي مع الفيروس اللعين، وأنصح عند قراءتها أن تأخذوا ما يسمى السي دي، أدخلوه إلى أدمغتهم، قبل أجهزتهم، فإن نجح أحدكم حيث فشلت وأصحاب الخبرة والرأي، وأعاد نظم الصياغة وما اختل من القوامه، فلا مانع لديّ أن ينشر ذلك الجزء من الرواية

مستقلاً باسمه، إن طاب له ما به من أفكار، وعبر عن مكنون ما لديه
من أسرار، وتحمل فيه مشقة ما سيلقي وما سيقال.

أبو منصور

أسندَ ظهره إلى بابٍ موصد، غالبتُ شمسُ الصباحِ غمامة داكنة السواد، شدَّ أبو منصور على سيجارة الهيشة بإصبعين مرتعشتين، رفع باليد الأخرى سرواله المشدود إلى خصره بحبل من الكتان، بزَمَ على عَقَب السيجارة بغمٍ أدرد، جالَ أحياء المدينة على مدى زمن بلا نهايات، أتى بصور الناس وحكايات الماضي البعيد، قرأ من صفحات لم تكتب بعد، تعودَ أهل المدينة أن يَمروا إلى جواره وهو يسيرُ في الأسواق والطرقَات دون اهتمام، باعتباره ركنًا من أركان المكان، صوته الهادئ داعب أسماعهم، لكن شدةُ القرب حجاب، ربما نظروا إلى وجهه الذي خطَّ الزمن عليه أسرارهِ الموحشة، ربما حزنوا أو تألموا أو لفتت انتباههم كلمة قاسية أو شتيمة لاذعة لا يُعرف هل كانت موجهة لأحد المارة على الطريق أم لأخر عبر فجأة دروب ذاكرته المتشعبة، لكنهم غالباً ما ابتسموا وتهامسوا أو تمتموا وتابعوا سيرهم دون اكتراث، إنه بعض من المدينة كما المدينة بعض منه، جالَ حتى أرهقت الطرقات من خطاه، يعرفه كل أبناء القدس، لكن أحداً لا يعطي بالاً لما يُهتَمُّ به أبو منصور. سقطَ الإناءُ مرتين، وقد يعاود السقوط من جديد، سيغادر عزت بيك، متصرف القدس، المدينة خلال نصف ساعة، صوت مدافع آتية من منطقة الجنوب الشرقي، مكأكأة دجاج من الكُن المجاور لحامية الجيش العسلي في الخان الأحمر، أخفى التفويض في جيب بدلتة الجديدة التي خاطها له خصيصاً للمناسبة الخواجا سلمون اليهودي، استيقظ

حسين بيك الحسيني¹³² في الرابعة صباحاً قبل فجر تشرشل، صَحَبْتُهُ أنا شخصياً وثلة من أعيان المدينة، كنتُ أحمل بيدي علماً أبيض، معاذ الله لم يكن رمزاً للاستسلام، بل رمزاً للسلام، قابلنا عند رأس التلة في الشيخ بدر ممثلي التاج البريطاني، كانوا فردين لا ثالث لهما، سلمناهما الراية ومفتاح القدس، قَبَلَهُما حسين أفندي بحرارة، خلصانا من الجندرية الصواري، هربنا من تحت الدلف لتحت المزاريب، قال أبو عبد الدلال: "ولك يا حمار لمن أعطيت المفتاح"، لضابطين من الجيش الانجليزي، أجاب البيك، ضحك أبو عبد الدلال، ورمى على طاولة البيك مذكرات ونستون تشرشل، سألني شنار بائع مواد التموين في باب خان الزيت: غريب، ليش بتضحك يا أبا منصور، ما بدني أجابوك يا عبد الجواد، ما بعرف هالكديش والي معاه إنهم سلموا مفتاح القدس لعابر سبيل كان يبحث عن بائع بيض في روميا.

نافحت همم بركان تفجر في أنحاء جسدها، كان ظهرها إلى الباب الموصد، قد يكون الكر مفيدا وإن فرَّ الجنود، سهيل خيول وغبار كثيف أخفى باب الدار وغطى عار الانسحاب، الاجتماع في بيت المتصرف في الشيخ جراح ليس بعيداً عن كتية من أبطال أردنيين وفلسطينيين رفضوا ذل التواري في زي النساء، لا يعرف الناس ما يُحْتَرَفُ به رأس مرعوب وربما جهلوا ما يؤلده رأس مسكون بالشجاعة أجاب عبد الله

١٣٢ رئيس بلدية القدس من ١٩٠٩ - ١٩١٧ تولى البلدية بعده عارف الدجاني

البرغوثي،¹³³ أقسم راغب بك الشاشيبي¹³⁴ أن علاقته بجبرائيل حداد¹³⁵ باشا هي علاقة بريئة، وأن تردده على مكتبته في عمارة شميدت كان سعيًا في عمل الخير، ومن أجل إصلاح ذات البين مع المستر رونالد ستورس¹³⁶، وقال دون حاجة لقسم إنه عُين رئيساً للبلدية ليس بسبب علاقته بالإنجليز وإنما لأنه مهندس كفؤ خريج الجامعة العثمانية، وإن لم يكن وحيد أمه فإنه فريد عصره.

قبل اتكاء الشمس على خد الأفق فوق القطمون، ابتاع السلطان مفتاح رفّ بريح من تل بيوت وافتتح من على بُعد السفارة البريطانية في القدس، وعند نداء الغروب أعلن القنصل بسط حمايته على يهود حملتهم سُفن من شتات شاسع، تملل المتصرف العثماني، وبسط حمايته على بلاط القنصلية، فرّ شبتاي تاسفي¹³⁷ من أيدي هيرودس وأعلن إسلامه، واصل سيره حتى حطّ أتباع له في الباب العالي، استنفر أمير الحجاز ألف جمل في صحراء النفس، فارتعش الوجد وجاء بالثورة حلما

١٣٣ أحد أبرز مناضلي الانتفاضة الثانية اعتقل من قبل قوات الاحتلال وحكم ٦٧ مؤبد

١٣٤ عين من قبل الاحتلال الإنجليزي رئيس لبلدية القدس سنة ١٩٢٠، عُرف كشخصية متعاونة مع حكومة الإنتداب، شغل مناصب عدة من ضمنها عضو مجلس النواب العثماني

١٣٥ عُين ضابط بالجيش الإنجليزي برتبة لواء، وعهد إليه قيادة شرطة الانتداب جبرائيل بن مخائيل الحداد من طرابلس،

١٣٦ عُين محافظ للقدس من قبل حكومة الإنتداب

١٣٧ من يهود تركيا، ممن عرفوا بيهود الدونمة، حاول التقرب من الخلافة العثمانية للحصول على موافقة بئولة لليهود في فلسطين، ادعى الأسلام ودفع بعض من أتباعه إدعاء الأسلام، بهدف التأثير على الأوضاع الداخلية بالدولة العثمانية وإضعافها

زاهي البشرة بعيون زرقاء، حثَّ عسير أن تنتفض في وجه جبال الثلج وشمعدان الدونما في اسطنبول، خابت آمال دليلة من وعد لورانس، صهلت فرس المهلهل وطأطأت الرأس وشربت من نهر التايمز نبذاً حتى ارتوت جنبات الصحراء، زهجت تغلب، لا نعرف كيف سرق القمر بعضاً من نور نهار في مكة وأضاء ظلمات الليل في قصر بيرنغهام، قرأ مكهمون وصية العرش، وأتبع في الأسباب صنماً من تمر، هرب من بردى في الشام إلى ضفاف دجلة في العراق، ثم توج من الأبناء ملكين على كرسي من قش شرق باب الواد وغربه.

راغب بيك لا يعرف الكلل، أسس حزب الدفاع بعد أن كنسه المختار حسين الخالدي من البلدية، مش مشكلة، أعاده كلوب باشا مرة أخرى وزير زراعة وحارساً عاماً للحرم الشريف، أحضر المختار الخالدي حزب الإصلاح، وقلاه بزيت الزيتون مع بيض وأمانة سر الهيئة العربية العليا، وطار وصار وزير خارجية، لكن حسين فخري أفندي محشور مع الأسياد في بطن التاريخ، لقبني راوي المخطوط وفطرنى لبنية وكتبَ عني في الكراس ما أرويه عن الناس وعن وجع الراس، كل يوم لبنية ومخطوط وجدل بريطاني وعثماني، الحياة كربيئة ودوشكا وإذا لزم أربي جيه يا فهم مش الحياة مفاوضات، لا جدل في ثابت قانون علمي، قال نيوتن وأكد حراس المقاطعة وأينشتاين، الفقراء للموت والسجون، أما الأغنياء فهم للوزارة والسفارة والأمانة وبيت المال، بس موسى كاظم كان مناضلاً كبيراً، وأبو عمر بياع الحليب وفرحات وبن يحيى وفوزي القطب شو بتسميهم "شبيحة" لعنة الله على النظام، وعلى المعارضة أضاف أبو عبد الدلال، ولك يا عرض هات البرنيطة العسكرية من الشنطة، أبو دان، قص حمامة أم فريال، سيسي يا سيسي مرسي عريسي

تأليف والحن أبو حسين أوباما.

غادر الشعراء كل متردم، وكان أن وُزِعَ إرث الشيخ ذي الهبة واللمحة
البيضاء على عشرين من الأبناء، فما عُدنا عرفنا الدار بعد توهم، اصفر
وجه الفجر من خوفٍ وزحفت أفاعي رقطاء على بطن الأرض وانساب
زيت أسود في عروقها، كشفت غانية في بار لندني عن ساقٍ فتنتها، فاحمر
خذ الأفق قبل أوانه عند مغيب الشمس، نام الأمير على فرشٍ من صبا
ولهب، صبّت نورية رأس العين ربيعا من عرق الجسد المعتي في كأس،
وهمست في أذن الليل، أثات ملاك خرج على الناس بسيف الجوع،
تمايل الخليل بن أحمد من طرب على جميل وافره، وترنح من خمر الذل
عرار¹³⁸، أطلت نجمة لم تغادر مكانها في سماء المدينة، انتفض السلطان
في وجه رسول المال، وكانت أنثى من فضة تصك نقوداً نُقش عليها
بعض من قامة هرتزل، احتال أشر غزنبرغ¹³⁹ على ضيف السلطان،
وسكن إلى جوار بركة النارينج في حي الواد، غير أسماء القصائد،
والشوارع، وأطفال الطرقات، مدّ جسراً من أوديسا على البحر الأسود
إلى نهر الأردن، وكتب على بطاقة صدره أنا البلدوزر أو ربما أحاد هعام
ولا احد مثلي سواي.

كان جمال باشا مجبراً حين استل سيف النار، هكذا زعم خطيب
الجمعة، وصادق على خطبته بوتين ولافروف والمأسوف على انتصاره

١٣٨ الشاعر الاردني مصطفى وهبة التل

١٣٩ الملقب أحاد هعام يهودي روسي ، أحد أهم مفكري الحركة
الصهيونية، ينسب إليه البعض كتاب بروتوكولات حكماء صهيون، أقام في
أودسا على البحر الأسود، اختلف فكراً مع زعماء الحركة الصهيونية من
أمثال هرتزل، ودعى إلى الصهيونية العضوية بدل الصهيونية السياسية.

العظيم حسن النصر من الله وليس حزب الله وعبد الله والعرب العاربة ومن خلفهم أمم غاضبة، أعلن الحجاج عن رؤوس أينعت وغاص في لحم الإبل حتى ارتوى من دمها بردي، انتفضت شام المعز بن عبد السلام وثارَت وشائج درعا، فأتاها الفاروق على صهوة فرس وحلقَ باشقُ في وهج الشمس، اشتعل الجسد من قدح الصخر على ظهر الفقر، وهاج لهيب القهر وانساب القرمز في شرايين السهل فتفتح ربيع ياسمين في سيدي بوسعيد، ابتسم الشيخ محمد رضا¹⁴⁰ لوعد الصبح ومدَّ يداً بيضاء صافح حمدين صباحي¹⁴¹ وهتف ضد حكم الجندرمة والملحق الدستوري المتمم، وما كان له سوى أن يبايع مرسي شيخاً للأزهر على أن لا يُكفر طه في أدبه الجاهلي، وينحى عن هامش السيرة، ويلزم إعفاء المرشد له من بيعة الحسين بن علي، وعلى مقربة من بئر في عين سيناء، أجاب البيعة مفتى البيت الحاج أمين، فرك كفيه وكبر، فامتد مرج بن عامر وصهلت خيول النار في نخيم جنين، لكن المنحوس من فرط المال، مدَّ الصحراء بساطاً لرعاة الغرب، صعد طفل حافي الأقدام درجات بلاط ملكي، بينما كان الشيخ ريجان وأهل المدينة يشيعون شهداء الانتفاضة العاشرة وفي مقدمتهم أبو عمر بائع الحليب، وفارس عودة وحمزة بن عبد المطلب.

١٤٠ محمد رشيد بن علي رضا من لبنان، من رواد الإصلاح، دعى

لعدم الوثوق بعودة بريطانيا للعرب

١٤١ زعيم التيار الناصري القومي في مصر

استقبل إسماعيل بيك الحسيني¹⁴² السيد جبرائيل باشا في بيته الندح، واحتفل سلمون الخياط برحيل العسلي، ودعا وجهاء المدينة إلى حفل راقص في بيته في المتفويوري، غنى صابر الصفح¹⁴³ راح أسافر ولم يرجع من حينه، غرَّبَ سربُ حمام فزع من صفير قاطرة راحلة قُرب دير الروم في البقعة، غادر صابر وسافر عادل وما عاد، قال لضيوف مجلسه الوثير: الشعراء يتبعهم الغاؤون. تنحنح عرار، وسامر شبحة الجالس على الرمل قريباً من شاطئ بحر البسيط، وعند عرش الشطر الثاني من عجز البيت في خمر يقتتان، قال ليس سوى أن "الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها"، رد المتلفح بالنقد الأخضر "والشعراء يتبعهم الغاؤون". شهقت من لسعة ريق الخمر في حنجرة الصبر المعتق، ورفعت بعض قميص بالٍ عن عري نهدها، نادى في وادي العار نديم الجبل بجبته الشتوية وكوفيته البيضاء، سال كُحل الطرف على خدّ الجوى، تناول كأساً من يدها السمراء، وبكى عاشقة خُذلت من أهل ذلوا وجعلوا جمال الجسد المقلب سلعة، "وباع بنو أبي أوطاني"، أجبر أبو مصطفى في الطريق إلى باير على شرب بوله، تلك حادثة حقيقية ليست من خيال راوٍ.

١٤٢ إسماعيل موسى طاهر الحسيني، شغل عدة مناصب بما فيها مفتي القدس، كان ثرياً جداً، استقبل القيصر الألماني في قصره في القدس، كانت سيرته مختلفة عما عهد الناس من آل الحسيني، وافق على استقبال البعثة الصهيونية برئاسة وايز من سنة ١٩١٨
١٤٣ مغني سوري المولد لبناني الجنسية، أشهر أغانيه راح أسافر، غنى في احتفال بالقدس في بيت سلمون خياط احتفالاً برحيل العثمانين

ما سكنت مغتصبة تل الربيع وتشلشل نارينج قلبها على وجه الزيتون في دير ياسين، أتعبه السير وما شاب، أخفى موشيه هس¹⁴⁴ أسفار موسى تحت بساط الأسطورة، وخطَّ على يراعٍ طريقاً من روما إلى هيكل النار، ثم أعلن في الناس ميلاد أمة من نثار القوميات، قمة تزهو بالنياشين وأعلام الانتصار، فاس تمتطي اليوم ظهر الخرطوم، تنبجها كلاب الحوآب، تُرخي لجام الفتنة في صفين، وتكشف عورة عمرو بن العاص، وأمير البند السادس يحلم بمملكة تليق بجواري بيرنغهام والناصرية، تمتد من عسير القلب إلى سهل الروح بوسلانية بني صعب، يُغادر غير المأسوف على شبابه قصر الأليزيه، وكان آخر فراعنة وادي النيل يحفر أنفه ليفتح للصدر المتعفن مجرى هواء ضاق، لا مندوحة من شطب "اللاءات" المتعبة من طول الترحال، وزرب الأحلام تحت رمال الناصرية أو الحُرج، واستنساخ عمر بن العاص والمبادرة العربية ونسخ الخرطوم على جوبا العصر المتشكل من عولة خواي المال، وصراع الحضارات، فاس سيدة المشهد تمسح عن وجه بيروت عار الصمود حتى لا يُشوّه نصرُ الفقراء صور العروش ونياشين القادة والجيش وصالات الشرف ويلطخ جبهات الأمراء.

تدوّح راعي أغنام من جوبا على نمارق في أفياء نجوم الولايات الزقاء وعزف على مزمار القسمة نشيد الدول القوم فندقية، طرب لقشاع حصاد اليوم، ثم كشر وتنف شعرة من عثنون منخره ودس من تحته ملايين الدولارات، غطى وجهه بلثام من عار مرقط، لوّح راع بعصا

١٤٤ أحد أهم مبشري الحركة الصهيونية، وأول من دعا لتحويل اليهودية من دين إلى قومية في كتابه، روما وأورشليم سنة ١٨٦٢

مرشال في هجليج، وضع على الرأس توتمه وقبعة غربية سوداء، لَوَح مشير الخرطوم بعضا الخرفيش وتبازى وهو يهز عجيزته، تمخض جمع المدعوين إلى حفل الدوحة على عجل عن ميلاد لقيط آخر في خاصرة الخارطة الخضراء من شدة سمرتها، سقطت نظرية وحدة وصراع الأحفاد، ترنح المهلهل من صخب حول الموقد، عبّ من خمر الفتنة وما عاد يدرك هل تلك داحس تصب دماء في نهر الثأر، أم تراها دماء تلوب وهي تذود وحيدة عن حياض البيت، وما عدنا في اللاحق نعلم هل تلك دموع دليلة على خدّ الجوى أم هي أسول ينساب على وجنة الزهراء في ليل غرناطة الطويل.

وحدي أنا الأغضب في ميدان الوغى أشعل ناري وكلما أخذتها الريح أو سهوت عنها أعود وأصحو وأشعلها من جديد، دهمني الشيب مبكراً فلا وقت للتفكير ولكتابات كثيرة، تأخرت عن موسم أفكارى التي هجرتها لصالح غشاء وزبد، لذا سوف أكشف على عجل بعض حكايات اختبأت تحت عباءة زمن هرب من الوعد وأخذني إلى وهم السلطة وإلى مهمة أخرى كسرت وهجي، لعلني أنجح فيما تبقى من زمن فاض على ضفاف الموت، وأسكب روحي على مائدة الناس شراباً من وردٍ وحكايات، قبل أن يدوس رب الكراسي وقد أخذته العزة بالإثم على كبرياء الشهادة والانتصار، هذا ما أريد، ثلاث روايات في رواية واحدة، الفصل الأول سرد تقليدي ينساب من ثدي العراب إلى وعد غاب عن شرفة متروكة في القطمون، الفصل الثاني سرد تداخلي تتماوج في صحراء سراهه أمواج من الألم والأمل، تتداخل حتى لا يعود يفصمها شيء، ثم يقطعها السرد ثانية على رقاع قلب تمزق وبعثرته الريح على ضفاف كثيرة، والفصل الثالث ينساب على إيقاع الصدمة

واللقاء المر حتى يتفكك الرمز وتشدخ الحقيقة حدّ الوهم، وبعد، هل من مزيد، ليس سوى أنتم.

أراك تُكثر من عبارة حدّق، وترشّ النور على الجُمْل المصفوفة في عُرمات الذات والأس المنزلق على مستطيلات العمر، ترفّق، لم يعد الحيزُ يتسع لكثير من تعقيد، لا شك أن الأزمة هي أزمة رؤيا مهما اعتقد البعض أنها أزمة عجز، قالت نرجس: العجز حالة وهم ليس إلا.

زجر الخديوي إبراهيم¹⁴⁵ نيابة عن أبيه وحاصر عين أم الدرج وصبايا حي الواد، فانفجر الطوفان في شوارع القدس، هربت عساكر الباشا، استل السيف وما كاد، أطلت فاس من عباءة الأمير مرة أخرى، وفحّت سُمها، فاس كالأفعى، لها من اسمها ما يجبس الأنفاس، فاس القصر والدياس، ليس الأرض وليس العرض ولا الحضارة والناس، وجه الأثيوبي شاحب لكنه أطلق الرصاص على الحمام، الفلاشا توراة الجوع المنتصر على ربيع القوميات، وابل من الحجارة حَلَقَ مثل طيور الأبايل، ثارت عواصف الجسد المحبوس في قمقم التابو.

فجأة قذف أسرار ناره الكامنة من بواطن غور عميق، مأل بالخد على الكتف وثبت الكمان إلى الرقبة، شدّ الأوتار وهزّ الرأس طرباً، تمايل أحاد هعام، أنشد ماسونية نار، بكى موزارت وأطفال الدير، ضغط مايكل روهان¹⁴⁶ بالإصبع على الوتر الخامس، اشتعل المحراب، هتف التلمود فرحاً، غنى نيرون للنار المشتعلة، وعزفت الفرقة الماسية النشيد الوطني، رفرفت الأعلام على سارية قرب نخيل النكسة في العريش،

١٤٥ ابن محمد علي، قمع بعنف ثورة أهل القدس سنة ١٨٣٤
١٤٦ المجرم مايكل دينس روهان، استرالي يهودي متطرف أحرق المسجد الأقصى سنة ١٩٦٩

امتدَّ الحُلم حتى بوابة رفح ومحور صلاح الدين، أطلَّ الفارس بيزته الخضرء من خرم إبرة في أوصلو، سار بخطوات ثابتة على بساط من لحم محروق، اصطف الناس على جانبي الطريق، داس بالقدم اليمنى عميقاً، غاصت في حمراء الورد، وقبل أن يصحو من لسع السُم في الحشا، عَضَّ أصابعه ندماً وبكى كطفل ضيع ألعاب العيد، أغلقت غرناطة أبوابها، وغفا أبو عبد الله الصغير من تعب السمر على صدر جارية خُرْعوبة راودت فرناندو عن نفسه، بكى الزغل من فرح اللذة وجلى مهنده عن جفن العار وضرب عنقي القيسي وابن كماشة، صَوَّبَ اليمني فوهة الدينصور، فسقطت وزرة مأرب عن عار الإمام، أطلق حمم بركان الصحراء عاصفة، ودسَّ أمنية من ورق في ثقب الجدار، قال الولد هذا رصاص الألماني، لا إنه رصاص الأشكنازي، البولوني، اليمني، الروسي المغربي، النوري، الغجري، لا أدري من أين أتوا، افتحوا الطريق، ليذهبوا إلى الجحيم.

رحل الأتراك بعد أن أخذوا آخر قبضة من محصول القمح على أرض الحكايات، لكن من جاء بعدهم بدَّل الحكاية وأخذ من التراب آخر قطعة أرض، أحرقنا المخفر بباب الأسباط، إنهم في الداخل يخبثون، أخرجوهم لا يُدفن الناس أحياء، لكنهم قنصوا الحمام، لا تضربوهم إنهم عُزل من السلاح إلا اليورانيوم والفانتوم وقبة الحديد، بلاطس لن يوقع وثيقة الصلب، غير أنه شريك بالجريمة، الثورة طاهرة كالروح، ليست روحاً للانتقام، عبرَ من مجاز وحدته الإجباري إلى وعيه الخلاق، من ميلاد لحظة بين زمنين إلى زمن تبعر بين لحظتين، عيلبون فريدة الزمن وحيدة الميلاد، استيقظت ذات صباح على أنغام ناي لراع من جبل النار، شمَّر حي بن يقظان عن ساعد وحدته تناول

حبة فياغرا وأوقد شعلة في نفق من ظلام.
 بعض مني لم يُعجبه ما قَدَّمَت في صلاة اليافعات ، بدت رسالتك
 مشوشة أحياناً، لماذا الانتظار، قال الغازي، انهض يا صلاح الدين،
 إنه يعرفك تماماً، أنت مثل الباقيين، العامة منهم والمثقفين، طابور من
 المنتظرين على مدى التاريخ، أمة بانتظار فرد، صلاح الدين نتاج وعي
 تراكم وفاض في لحظة تاريخية ناهضة، وأنت تُصرُّ على البقاء في محطة
 الانتظار، كي يعبر الناصر لدين الله صلاح، مجدك وبطل روايتك،
 الحاضر الغائب ليس صدفة وإنما تجسيد لهذا المفهوم، قال هذا، تقدم
 في وعيه عليك، عُد للصلاة على يافعات القدس من جديد، أعد صياغة
 النص وإن لم يكفي فأعد صياغة التاريخ.

حاصر أبرهة الأشرم طلاب المدرسة التنكزية، وعاین بالناطور إبل
 عبد المطلب، وبعصا مارشال من حرب البلقان أشار إلى جثث القتلى،
 لا مكان لبطولة فردية، أين الناس، الشعب يريد، كانوا دائماً في ميدان
 التحرير، واليوم أصبحوا في رابعة العدوية، لكن صوتهم بدا مختلفاً
 هذه المرة، إنهم كالمجدلية غابوا عن مجلس الأمة والناردين وعن صلاة
 اليافعات، سوف يعودون، أخاف على الثورة من نفسها، ومن آخرين
 انقلبوا على أنفسهم، سرقوا الفكرة وتحالفوا مع المجلس العسكري
 ونقلوا الثورة للبرلمان، لكن الربيع عاد إلى الميدان وأزهر دون إذن من
 المحكمة الدستورية، نفدت حجارة الأطفال، اضربوهم بالأف42،
 يا سيدة "اللعن" القمي ما لديك هنا، فقد أدرك أنسليموس قدره
 الذهبي، غير أنه ظلَّ أسير الزجاجاة فوق رفِّ الكتب في غربة وجوده
 ودياس العصب العاشر وخلف أبواب الحرس الجمهوري، إهتز نسيج
 العنكبوت، فصاح الشيخ إسلام للبيت رب يحميه، ومضى إلى بيته في

حي الواد، خرج فوزي البكري¹⁴⁷ في جلاب أبه دون عمامة، وانطلق صعلوكاً ثائراً في طرقات المدينة، يكتب الشعر أحياناً، ويشتم الزعماء والمارة المتقاعسين وكتبة السلطان والحرمية والأنجاس، يحتسي قدحاً من القهوة في مقهى الغاوي قرب البريد ويغني لأبي مجاهد وشّد الساعد وعالي الراس.

وصل المتصرف الجديد، جاء يصحبة¹⁴⁸ رئيس البلدية نير بركات الخطيب، إفتحوا الطريق، إنفض يا صلاح الدين، ها قد عدنا، هل عرفت الدار بعد توهم، من سيلقي خطاب الترحيب، أبعدوا هذا الفتى¹⁴⁹ من هنا، سيفسد الاحتفال، زينوا باب الخليل بالياسمين، سيعبر الفاتح الجديد، نصب هيرودس¹⁵⁰ خيمته عند الكيلو 101، وجاء طلحة الأنصاري مع خمسين فارساً من الأنصار، إلزموا الخيمة حتى تُجمّعوا على خليفة، ما من خليفة، علّق النظام الأساسي، وغاب الشعب، وأقفلت أبواب البرلمان، المادة 143 تقول، حفر الباطن كانت البداية، وليس سوى حكومة تسيير الأعمال، وتكسير الآمال ورامي الحمد الله بدل من رب المال ومستشار عن اليمين وآخر عن الشمال والي مش عاجبه يشرب من بحر البلطيق، ألقى خطاب الافتتاح وسلّم المنصة للرئيس الجديد للقمة، تحرر الرئيس من طقوس الكوفيات وجلس إلى طاولة بيضاوية مثل شكل الأرض وربما مثل

-
- ١٤٧ أبرز شعراء مدينة القدس، ابن الشيخ ياسين البكري إمام المسجد الأقصى، تميز بالنزاهة والجرأة، صاحب ديوان صعلوك من القدس القديمة
- ١٤٨ رئيس بلدية الاحتلال الغاصب
- ١٤٩ المقصود مفتي القدس الحاج أمين الحسيني، كان فتى يافع عندما رفع صورة الملك فيصل في مظاهرة عشية دخول الجنرال النبي للقدس
- ١٥٠ حاكم فلسطين زمن سيدنا عيسى عليه السلام

محطة الفضاء، توسطها كثير من زهر صنع في باريس، حرَّك هديران قاعدة كرسيه الوثير، وضع النظارة على عينيه، لا أرى المبدع جوبيتير قال، لا حقيقة في الظلام، ولربما سكنت الخديعة تحت الأضواء الكاشفة، إذا أين تكون... الحقيقة؟ لا، الأضواء الكاشفة، لا يمكن رؤيتها من هنا، هنا يحتاج النهار إلى برهان، الحاكم لا يُحب المتخاذلين، كما أنه يكره الثوار والصحفيين، أين مريم المجدية، سكبت نفسها في سكون عيونه الدافئة، مطلوب وقف إطلاق النار، أوقفوا الصواريخ، هل عبرنا القناة؟ عبرناها وأوكلنا أمرها إلى أحمد عز، ومن دوره أعادها سالمة لدسلييس، شركه عالميه أوسع من حدود التأميم، علمت الجزيرة في خبر عاجل أنه بدلها بكومة من حديد الخردا.

أرجو من الصحافة أن تغادر، كذلك الضيوف، ومن أراد من المواطنين، لا يتسع الوطن لمزيد من الفقراء، افتحوا الباب للشركات، واخلو الوعي من الشهداء ومن هديل الحمام، أنا أعرفك أنت شرين أبو عاقلة، أنا لا أحب الحياء ولا الرأي الآخر، اخرجي من الأثير الرسمي وأحصي شهداء المذبحة بعيداً عنا، لنا أسرار الماضي وخوابل العتمة ولك النهار والحاضر والخبر العاجل، عند ربهم يرزقون، أين نقل الحاج عمر؟ مستشفى المقاصد عند طور سيناء، نزل راكب الأتان، بيده سعفات نخيل، وقنابل من دخان، لماذا قام اليعازر من الموت؟ منع من عبور حاجز الزعيم لأنه لا يحمل بطاقة دفن ممغنطة، أوصدوا أبواب الجنة وطلبوا منه عبور وادي النار وحاجز الكونتيتير، يهوذا ما زال هناك، وشى بالمعلم، التاريخ لسان الحكام، أبعثوا هذا الفتى، وأفسحوا الطريق للحاكم الجديد، هل غادر عزت بيك، غادر إلا أن

أردوغان¹⁵¹ أبى وحمل السلطان على قافلة من سفن وجمال وعاد، لكن المتصرف الجديد سدّ الطرق، ونشر الجند على الحواجز، من الجملة حتى دار صبري غريب في بيت إجزاء، كل الطرق تؤدي إلى الجدار، رحل صبري غريب¹⁵² بعد أن كلّ منه الحصار.

أمر المتصرف بالقبض على الأطفال من عمر سنة إلى سبعين، لن يسمح للمستقبل بالمرور، أبو النمى رسم صحن لبنية لحسين أفندي الخالدي وأكلته بنت أبو عمر مع زهر قرنييط وورق مسطر، ما اسم المتصرف الجديد، الجنرال اللبني باشا، بل حاييم بيك، إرفعوا الأعلام، زينوا المدينة وانصبوا الأضواء على باب الخليل، ارفعوا الأعلام، دون العربية منها، مرتا بكت دموعاً من نشيد حزين، لا تغضبوا المتصرف الجديد، امتلاً المدفن لا مكان للشهداء، أبعدوا الفتى الذي يحمل صورة فيصل، الجنرال لا يحب الملوك، ونحن أيضاً، من كتب التاريخ، أين المجدليلة¹⁵³، لماذا لم تحضر القداس؟ شطبوها، شطبوا القداس؟ لا، شطبوا المجدليلة، قدرون جغرافيا، الجغرافيا صماء، لكنها ليست بكماء، الجغرافيا لا تُشطب تتغير فيها الأسماء، تملؤها المستوطنات، ربحا، لكنها هناك شجرة صبار تمتد جذورها عميقاً في ذاكرة المكان، ستمنح الإدارة

١٥١ رئيس وزراء تركيا زعيم حزب العدالة من التيار الاسلامي
١٥٢ مواطن فلسطيني من بيت إجزاء، صادر الاحتلال كامل أرضه، مئات الدونمات، وأقاموا سور من الأسلاك الشائكة حول بيته فاصبح يدخل إلى البيت ويخرج من بوابة تغلق وتفتح من قبل جنود الاحتلال، لكنه صمد حتى وفاته ٢٠١٢، ما زال أولاده يعيشون في البيت المحاصر دون عون سوى من الله

١٥٣ ذكرها الإنجيل بالمرأة الخاطئة، وهي مثال للتوبة، ومن تلاميذ المسيح، هناك جدل حولها في الثقافة المسيحية، أنصفت واعتبرت قديسة

ضمانات لتجميد الاستيطان لمدة شهرين، وإن أصيب المستوطنون بالبرد؟ نشعل مدفأة كبيرة، حرب جديدة، لا تسمحوا لصاحب الكرش الضفدع بالدخول¹⁵⁴، من يقرأ تحت مصابيح القصور، تخر عليه ضُراط، أضاءت أعمارهم ودفنت الآخرين، أنا الآخرون قال إميل حبيبي¹⁵⁵. هل أتم الجنرال في بيت إيل فرز الأصوات، كانت القاعة فسيحة مثل قلب الوالي الجديد، اتسعت لكل الناس والدول إلا أعضاء المؤتمر¹⁵⁶، أكبر الخطايا أن نجعل من مهد المسيح قبرا للثورة. ميتياس سيد التلاميذ، عضو المجلس الجديد، وزيرا للمالية والعلوم والتكنولوجيا والدفاع، بل أميراً للوزراء وربما أميراً للرؤساء في مستقبل قريب، درس على شيخ التقديين أبي الحسين أوباما ابن داود، يُحظر على جميع أبناء الأمة استخدام الناردين، رائحته جميلة، لكنه أوقعنا بالفتنة، يهوذا لا زال هناك، ترأس المؤتمر، وعاد إلى جثائية البستان على عجل، تخفى بألف رداء، القائد والناسك والعابد، لا تغضبوا الجنرال، أم المعارك سيارة أمريكية فاخرة، قرأ آيات من القرآن لكنهم علقوه على المشنقة صبيحة العيد، كانت القراءة متأخرة جداً، الدية عادة عربية أصيلة ذكرت في غير مكان، لا تنسوا النظرية الخضراء، وزنقة زنقة، وبيت بيت، في بنغازي يتعلم الأطفال القراءة من جزء عمّ في كتاب تحت مظلات ذات ألوان غريبة، مليارا دولار فدية للدم الفادي، على

١٥٤ إسرائيل شارون رئيس وزراء إسرائيل الأسبق، مسؤول عن

مذابح ضد الشعب الفلسطيني بما في ذلك منبحة الأقصى

١٥٥ من روايته الشهيرة المتشائل

١٥٦ مؤتمر حركة فتح في بيت لحم سنة ٢٠٠٩

عبد الجليل أن يبعد النيتو عن عش العصفير في مصراته، وإلا اختلط الحابل بالقنابل والبعيد بالمقابل، أم المهالك صناعة عربية متقنة، تجوب الشوارع تقتصد باستهلاك الوقود، دايتون¹⁵⁷ يبذل جهداً كبيراً لبناء الجيش، أخذ علم الحديث والجرح والتعديل والعقيدة العسكرية عن كلوب باشا، الدهماء قوة عمياء، تتعب بعد كل مواجهة ويسهل وضع القيد في أقدامها.

إنهض يا صلاح الدين، هل عرفت الدار؟ نزل من على سلم الطائرة، كان في استقباله أبو موسى الأشعري وعمر بن العاص، وخالد بن سلطان، والجنرال بريمر، أنا أحمل هوية زرقاء زوجتي تحمل هوية خضراء أُمي تحمل وثيقة سفر، أختي لديها جواز أردني، عمي أمريكي والذي ينتظر على الحدود دون جواز إفتحوا لهم الطريق، لن أسلم المدينة إلا للخليفة، أنا العالم الدمشقي العز بن عبد السلام¹⁵⁸، من أنت؟ أنا أحمد العبويني¹⁵⁹، أين صفرونيوس¹⁶⁰؟

١٥٧ الجنرال الأمريكي المكلف بتدريب قوات الأمن الفلسطيني ما بعد انتفاضة الأقصى، وبعد تدمير أجهزة السلطة الفلسطينية من قبل الاحتلال
١٥٨ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام عالم وفقه، صاحب الفتوى الشهيرة بعدم صحة توقيع عقود البيع والشراء وغير ذلك من قبل المماليك بصفتهم عبدة، دعى لمحاربة التتر ثم الصليبيين، وعندما تحالف الملك الصالح عماد الدين أيوب مع الصليبيين ضد أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب، سلم الصليبيين قلعة دمشق، فدعا العز بن عبد السلام في خطبة الجمعة إلى خلع

١٥٩ أحد قادة حركة الشبيبة، قام بقيادة المظاهرة أمام المجلس التشريعي ضد رئيس الوزراء الفلسطيني في حينه محمود عباس في ٢٠٠٣
١٦٠ بطريك القدس في عهد الفتح الإسلامي، اشترط تسليم المدينة سلماً للخليفة عمر بن الخطاب بعد حصارها ستة أشهر في ٦٣٧م ١٦ هجري

عاد إلى دمشق مع السيد ميتشل سوف يقدم الوفد الفلسطيني ورقة تؤكد أن للرئيس طبيعة واحدة، الرئيس يكره الهرطقة وأليستر كروك، أريوس سيد الموحدين ربما لكنه بحث أسرار التهدة مع مارك بيرى وعمر بن سليمان بن العاص، وربما تناول الكبسة في خيمة الحسين بن علي، أكد له أن العرب سوف يبقون أوفياء لتعاقداتهم، نحن أمة مبادئ قال أبو شهاب شكلين ما عنا، خطب بالناس وخلع بيعة الملك الصالح إسماعيل، هو ليس صالحاً تماماً، بل هو ملعون، الجنرال النبي غير أسماء الطرقات، حضر اللقاء الجنرال زيني، أنت تعيش في منطقته حدودها وقياداتها قابله للتغيير أو للتسميم.

هذا يوم مميز لا بأس من رفع راية بيضاء، قال رئيس البلدية، بعدها سترفع أعلاماً عربية بكل الألوان، يوم السبت حضر الرئيس كليتون بصحبة أبنته تشلسي إلى جناح الشريف حسين في كامب ديفيد، حلّ السبت على كافة الطواقم والمفاوضين رجالي ورجالك ورجاهم، لم يبق في الكامب إلا ثلاثتنا، نصحه الرئيس ذو الضحكة الدائمة، قبل أن يهرب إلى مصحة في شرم الشيخ، بالتوقيع على خارطة الميلاد، قال: لا داعي للتدقيق، فالأساس سلامة المولود، أما سلامة الأم والمهد والمذود فتلكم تفاصيل لا أهمية لها، نصحه أيضاً أن يستمع لنشرة السي إن إن، وأن يسكت مروان البرغوثي¹⁶¹ وأن يدرس الأطفال مبكراً علوم الشبيحة، نحتفل اليوم بعيد ميلاد آمون، هل غادر الشعراء، لعلهم بالأسر أو في القبر ينشدون الشعر لرائد الكرمي وأبو الحلاوة،

١٦١ أبرز قادة حركة فتح، اعتقل أكثر من مرة وأبعد، وهو قائد الانتفاضة الثانية، عضو مجلس تشريعي اعتقلته قوات الاحتلال في ٢٠٠٣ وحكم أربع مؤبدات وأربعون عاماً

أنقذوا شاليط يا عرب، هذا يوم ميمز كلهم كانوا هناك، سيفوريوس¹⁶²، باركوخبا، بلاطس، الحسين بن علي، لا تقلقوا إنهم حلفاؤنا، انهض يا صلاح الدين ها قد عدنا نحاصر المقاطعة وباب الواد، بكت أسراب الحمام التي جاءت من سماء القدس على عجل وهي ترافق الطائرة الهليوكبتر، دُفن الزعيم ومعه سر الأسرار، تكسر الحلم وجناح مروان، وأغرق في الهم وندم الغم أبو الضمير، وغاب في بطن الليل وكتاب الذكريات أبو العلاء منصور، تفككت الخلية الأولى وثلة من الأولين وثلة الآخرين، كان راكب الطوافة الوحيد ببيجامته الزرقاء ينثر على جموع الوداع الكئيب قُبْلَ لَوامة، وعلى الشفاه ابتسامة اتهام حزين، وساد في الأنحاء نحيب نساء وتراتيل قرآن كريم.

من كان يعلم أن تلميذاً من قدرون سيثي بالمعلم ويأكل الأفخارستيا؟ حمل دلات الحليب ومَرَّ بها على بيوت الفقراء، وقَّع هنا ولا تُدقق بالخرائط، العرض مقابل الأرض، والشرف بين هلالين مقابل الكرامة، والخبز مقابل الحرية، والدفع سلفاً، أما السلام فهو بالتقسيط المُمَل، قال آمون، عيد آمون عيد عظيم، من هنا تُمسك ناصية التاريخ ورأس المال، نفس الطاولة، كانت هنا دائماً جاهزة لكل الاحتفالات، لا تُقلب الأوراق كثيراً، لقد راجعها مسيلمة والوزير عمرو بن سليمان بن العاص عشر مرات، إنها نقيّة، لا خوف من أية فيروسات، على هذه الطاولة يُولد القادة العظام، "مَشْفِين" لا جلد ولا لحم.

١٦٢ الجنرال الروماني الذي قمع عصيان جماعة بركوخبا اليهودية

١٣٥ - ١٣٢

زيوس بكى من مشهد العار حتى صار دمه طوفان، أغرق من غضب ما على البسيطة من حياة، فرحه وديكليون¹⁶³ اعتصما بالفلك وجبل البرنا، إلا عجوز في الغابرين، ليس سوى أطفال أبايل ترميهم بحجارة من سجل، عادت أسراب الحمام، رقص زيوس فرحاً، أريحا بوابة التاريخ هي منذ اليوم بوابة الجغرافيا وميناء غزة على بحر الملح، زكا سيد النساء، أخفى القرنفل في جيب سرواله وهرب من إعادة الانتشار، الماء عذب، والتراب مالح، قلت لكم إن هذا الفتى سيفسد الاحتفال، آني هومر راودت فرانس نيوتن¹⁶⁴ عن طيفي لوط، لكنها خسرت العطاء، وجاءت بالقرويين من حيفا والبريطاني فيكتور ماوسدن¹⁶⁵ من روسيا، كشفا عورة آش غزنبرغ، بنى جسراً من حقد ونار من أودسا على البحر الأسود إلى أريحا على بحر العرب، ثم غير اسمه وأصبح أحاد هعام، الميناء عند البحر الميت إن أحياء الله على

١٦٣ من الاسطورة اليونانية لقصة الطوفان، يبقى على الأرض فقط ديكلون وزوجته فرحة، المقصود أن الصراع ليس فقط على الأرض وانما على الرواية والتاريخ والفكرة

١٦٤ سيدتان ساهمتا بكشف بروتوكولات حكماء صهيون فرنس نيوتن، من جمعية تبشيرية بريطانية وهي صديقة للعرب، كتبت في مذكراتها كيف تم التآمر على صديقتها آني همر من قبل الحركة الصهيونية، بعدم منحها عطاء العمل في البحر الميت، وكيف ساهمت هذه الحادثة في كشف أمر البروتوكولات

١٦٥ الكاتب والصحفي البريطاني الذي تحقق من صحة كتاب بروتوكولات حكماء صهيون، بعد أن حاولت الحركة الصهيونية انكارها بعد اكتشافها كأخطر مخطط عنصري للسيطرة على العالم، وليس فلسطين فقط، وقدم شهادات لكتاب يهود تثبت صحة ما توصل إليه، ومن هؤلاء الكتاب اليهود، النمساوي آرثر تريبيتش في كتابه " الروح اليهودية والألمانية " سنة ١٩٢١

وعد العجبية السابعة ومال الدونارز^{١٦٦} والسياحة المشتركة ومشروع كيري ومنيب.

على طرف من حفرة الانهدام وحفر الباطن يتقاطع التاريخ والقارات، شارع رقم تسعين كان دائما مقدسا مثل هيكل سليمان ولوح المزنونا، سيبقى تحت السيطرة الإسرائيلية، هذا جيد، الحمد لله قال المفاوض الفلسطيني، تبقى تسعة وثمانون شارعا آخر خالصة لنا بحكم "البي أوتي"، الجنرال بيران^{١٦٧} لا يجب الاجتماعات، سيدعوك للرقص في ملهى الدلفيناريو، جدائل شمشون تسد الطريق، كان على صدرها عقد ماسي جميل، تحدثت بلغة انجليزية صافية، درّست معها الأدب المقارن، عروسة الاحتفال، يوحيا وكويسه، يوحيا وعريسّه، ضو القمر، ولا بدر، اجترت أغنام البدوي الممعن بالهجرات صفحات التاريخ ومخطوطات البحر الميت، زينت عجوز من الغابرين صدرها بعقد من ماس ورطنت بالإنجليزية والعبرية وقليل من العربية، لم تقرأ كتاباً في حياتها، لكنها قلبت على دلال عواصم الثقافة العربية، لا بأس، تتعلم البيطرة بحمير النور، انسحبت الحامية التركية، دخلت قوات الحاج إسماعيل مدينة أريحا دون مقاومة تُذكر.

انعقد مجلس نير بركات على عجل من زمن هارب، وقرّر أن يفتح باباً جديداً في سور المدينة، تحت عقاب النبي داود، كل الأبواب المفتوحة منذ خمسة آلاف عام، لم تؤد إلى زقاق الأسطورة، كل هذا الغيم لي، أخرجوا من لحمنا، لا بأس من باب آخر، ونفق جديد، من أنت، ملكي صادق، ماذا تفعل هنا؟ كنت دائماً هنا، أسألو إبراهيم، اعترف، قص

١٦٦ الممولين باللغة الانجليزية

١٦٧ قائد الضفة الغربية اثناء توقيع اتفاق أوسلو

القصة، نحن نعرف كل شيء، عليك أن تُقر بيهودية الجغرافيا، هذه الأرض لعينة مثلكم تنكر معرفتنا، حُلم مارتن لوثر تحطم على ضفاف البوتماك، ما إن حطَّ شبيهه هناك حتى تحرَّر من لونه وارتدى ياقة بيضاء، وسكن في بيت أبيض، وتناول إفطاره الأول من الخبز الأبيض، غير آبه من خطر إصابة الاقتصاد بمرض السكري. الحرية والعدالة والمساواة مفاهيم مضللة، الطبيعة نفسها ضد المساواة قال مارتن ابن حسين¹⁶⁸ الحديد عشية توقيع مرسومه الأول لتحرير الأبيض من عقدة غوانتنامو.

اخرس يا ابن الشر... من شرارة، فزع الرجل ذو البرنيطة البيضاء من فجأة الصوت وجلل الشتية، جلَّ الله عن السرقة، من أعطاكم حقَّ التفسير وتزييف الآيات، أنشد أيمن أبو الشعر قبل أن يفيض اليرموك على مسكاف عام، سحب أبو منصور نفساً عميقاً من سيجارة الهيشة، صادر رجال الضابطة الجمركية تتن يعبد وغناء العصافير وقصائد أبي جاسر الحفيري باعتبارها من الممنوعات وفقاً لاتفاق باريس.

واصل أبو منصور التجوال في الشوارع، روى الحكاية لحجارة الطرقات ونوافذ البيوت، للهمزة في الأزقة المعتمة وفي الأسواق والشوارع، تنقل بين أحياء المدينة على مدى زمن دائري بلا نهايات، أسندَ ظهره لحظة إلى باب موصد، ما كلَّ لكنه ربما ملَّ قبل أن يسترد غيابه المثير من خاطرٍ وعيٍ أطلَّ من بين ركام وجثثٍ ملطخةٍ بالدماء في دير ياسين، سمعَ صوتها المُرتعش من الحجرة الأخرى، أبي...، نداءً لمرةٍ واحدة، نداءً آخر، نادى ببراءة طفلة أفرعتها وحشية كونتيسة

١٦٨ المقصود الرئيس اوباما الذي كان من المفروض أن يتمثل أخلاق ومواقف مارتن لوثر

الترانسيلفانية إليزابيث باثوري^{١٦٩} التي أشخت أرواح الهضاب جراحاً وما ردمت شهوة القتل وحفر الموت ثم جاءت مع وحش الحكايات المرعبة فلادتين^{١٧٠}، الذي أيقظ الظلام في قلوب العابرين من أساطير بوخارست إلى ماسونية بازل.

غاصت أيدي مجنونة من الهاغانا في حنايا الصدر، اقتلعت القلب الصغير، وهتفت فرحاً، بيدي هاتين ذبحت فتاة عربية، مسح أبو منصور بيمينه من على الجبين حبات عرق لزج ولحظة وعي نادرة، وقبض بإصبعين مرتعشتين في يسراه على سيجارة الهيشة، وعاد إلى اغترابه من جديد، واصل تجواله، يروي أحداث المدينة، قصصها وأخبارها على طريقته، بعيداً عن التسلسل الممل والرتابة القاتلة، مضى بسرّوالة الداكن المشدود إلى خصره النحيف بحبل من الكتان، وبقميصه البالي الذي لم يبدله منذ المذبحة، فأصبح جزءاً من جلده الخشن، غير عابئ بقول الآخرين، جُنَّ أبو منصور يوم شاهد ابنته وزوجته تذبحان أمام ناظريه وهو مقيد إلى صخرة وحدته في دير ياسين.

١٦٩ حكمت المجر وسلوفاكيا وبولندا واشتهرت بتاريخها الدموي، لم تكفي بشرب دماء ضحاياها، بل بحثت عن دم ملكي أزرق يقيها الشيخوخة، فقتلت ٢٥ أميرة لشرب دماهن

١٧٠ أشهر مصاص دماء في التاريخ داراكولا، إسمه الحقيقي فلاد تيس، حكم ولاية ولاتشي القسم الجنوبي من رومانيا ١٩٤٤

بائع الكاز

قضت الست سميرة معظم ليلتها في المطبخ، للعكوب طقوس تُتبع، اشتراه أبو رياض طازجاً طرياً من باب خان الزيت، صبَّ أبو وليد البيتوني بائع الخضار والفاكهة الشاي من البكرج، وقال:

- شاي بتخميرة مرتبة للبيك.

برم رياض بيك على طرف شاربه الطويل، ثم أخرج ساعة ذهبية من صدرية بدلته ذات القماش الهلْد الإنجليزي كما يطيب له أن يقول لمحدثيه بفخار يدل على البجوحة والرغد، حدّق بالساعة ثم رفع رأسه، نظر إلى أبي الوليد بابتسامة تنم عن استعلاء، تناول استكانة الشاي، وقال:

- لا وقت لدي.

وأُتبع بنبرة أمرة.

- زنْ لي رطلين من العكوب، وضعها في سلّة الحمال.

ثم جالَ بنظره على أسفاط الفاكهة، تناول دون إذن حبة من التين الشحامي، فدَغَّها بإصبعيه، نظر في جوفها ودفعها إلى فمه، ثم دغم بقدمه صفتاً خلف ستار من القماش.

- ماذا تخفي عني من طيبات؟ سأل بنبرة لؤامة، بينما سحب صندوق البتيري المُخفى عن عيون السوق.

- مُوصى عليه وحياتك يا بيك، بس ما في إشي بغلا عليك، قال أبو الوليد.

تعود رياض برك الذهاب إلى سوق خان الزيت كل صباح، صاحباً خلفه حمّاله الخاص الملقب "تكسي وُرْ" الذي يضع على ظهره بردعة وسلة كبيرة من القصب، يربطها إلى كتفيه بحبل سميك، كان التزود بحاجيات البيت، الطازجة منها خاصة، متعة لا يتنازل رياض برك عنها مهما كانت الظروف، وكان يُفضل نقلها إلى بيته في القطمون راكباً حنطوره الخاص، الذي يسوسه العربنجي الخبير أبو العردات، الذي ساس عربة متصرف القدس العثماني عزت برك لسنوات، وطُرد من الخدمة الميري لأنه رفض أن يسوس حنطور راغب باشا النشاشيبي برفقة اللورد بلفور إلى احتفال افتتاح الجامعة العبرية على تلال جبل المشارف، ألقى رياض برك التحية على عبد اللطيف أبي سري في ملحمة العائلات مقابل محل صندوق للأدوات المنزلية، تقدم من الذبيحة المعلقة بكُلاب من ساقبها المربوطتين بعناية، تأكد من وجود بيضة الخروف ومن حجمها دلالة على عمر الذبيحة، وقال دون أن ينظر إلى أبي سري:

- قُص من الرقبة إلى اليد وشف اللحم من الدهن.

يَعرفُ أبو سري أن رياض برك صاحب نفس لا تضاهى في اختيار اللحوم، وكثيراً ما انزعج من طلباته التي قد تصل إلى حدّ تخريب ذبيحة من أجل رطل من اللحم، لكنه لا يستطيع خسارة زبون يومي مثل البرك رياض، ذي الفناء وأكبر ملاكي الأراضي والعقارات في البقعة والقطمون والشيخ بدر، لذا كان يستجيب له مهما كانت طلباته غريبة، نهر البرك على الحمال، وأمره أن يضع البابور الأخرس البريموس لدى أبي علي عويضة بالمحل المقابل للملحمة، وصاح من بعيد:

- ضع له رأساً جديداً، انجليزي أصلي.

- حاضر يا بيك، أجاب أبو علي من بعيد، وتتم ساخراً بما يُتيح السمع لبعض زبائن من حوله: "البيك رياض زي العادة مبهور بالشكل، يعتقد أن الرأس الإنجليزي أصلي، إنه لا يعلم أن البابور سويدي الأصل مش إنجليزي، والرأس المصري أو السوري البلدي أفضل من الإنجليزي ألف مرة".

تابع الحاج رياض مع أبي سري، وطلب رطلاً من لحم فيليه العجل الصغير، وآخر من الخروف، شرط أن يكون ذكراً لا أنثى كما أوصت العمّة روز، على أن يفرم على السيخ لدى الحاج العموري بجوار بقالة معتوق، أرادت العمّة روز أن تردّ لجارتها سميرة عزومة بعزومة على مائدة مشاوي في حديقة منزلها في اليوم التالي، تناول الحاج رياض البهارات والأرز من محل اللداوي مقابل البسة أبي أحمد صب لبن، واشترى البن الطازج بالهيل من محل إزحمان، وبعض المشهيات كالشمن والشطة والشكليس من أبي جمال شاور قرب مفترق حارة النصارى، ومضى إلى سوق البازار، هناك يطيب له أن يشتري من الفلاحات التين الشحامي من أم جابر القادمة من العيزرية، والعنب من أم ياسين القادمة من بيت دقو، كان كلما سار بعض خطوات زاد الحمل على "ظهر تكسي وز"، الذي لا يرفض طلباً للبيك رياض، سواء تعلق الأمر بنقل الحاجيات اليومية أو أي خدمات أخرى تتعلق بمساعدة الست سميرة بري البستان ونقل الأثاث وغيرها، المهم أن يلقي من البيك ابتسامة رضى وبعض القروش، ويتعد بعض الوقت عن السوق وحارات البلدة القديمة حيث تعود الصبية على مطاردته وهم يصيحون "تكسي وز بمشي وبهز"، وصل رياض بيك إلى باب الخليل، أمر الحمال أن يضع الحاجيات بالحنطور، فجأة دون أسباب واضحة تملكه هاجس ثقيل،

- قرر الاكتفاء بما حمل من السوق والعودة إلى بيته في القطمون.
- تبدو الأمور مقلقة، بالأمس تعرضت مجموعة من عصابات الهاغانا على طريق البقعة لعائلة جوهريّة، قال أبو العردات سائق الحنطور.
 - "هدول شوية زعران، بكرا، راح يتربوا على إيد الجيوش العربية"، أجاب رياض بيك.
 - يطيب لرياض بيك أن يصدق الأشياء التي يتوق لرؤيتها واقعاً، بينما هي محض أوهام، قال أبو العردات في سره.
 - حدّث نرجس نحو البعيد، كانت غمامة من دخان تحجب المدينة خلفها، وفي ضوء شمس مترددة أطلت العمة روز من نافذة البيت المقابل.
 - يسعد صباح العيون الي بتاخذ العقل، قالت العمة روز.
 - وصباحك يا سيدة الحي، أجابت نرجس.
 - دعنتي سميرة على طبخة عكوب بالكشك البلدي، شو رأيك تشاركينا.
 - الي بشارك الهني بهنا، ياريت بقدر، ربما يعود زيد ظهراً.
- قالت ذلك وهي تتمم محدثة نفسها، هل سيعود فعلاً لتناول طعام الغداء معي والأطفال، طالما الحرب دائرة، لا يستطيع أحد أن يقرر مصيره أو يضبط وقته، للزمن معنى آخر أثناء الحرب، قد تتغير الأحوال من لحظة إلى أخرى، هل سنكون أحياء؟ سأل أبو طلال، تصاعد البخار من أطباق الطعام، للعكوب طقوس قالت سميرة لزوجها رياض بيك، تبدأ بجلال إزالة تاج الشوك عن جبهة الزهرة، ولا تنتهي وهو يزهو بخضرته في قدر اللبن الكشك الساخن مع منشور

النعناع الناشف والسمن البلدي، لا بد من مائدة مزينة في ذكرى زواجنا الثاني عشر، يلتف حولها كل أبناء العائلة، لا يجب أن يغيب أحد، لذا سيمتنع الأولاد عن النادي اليوناني ظهيرة هذا اليوم، ستجتمع العائلة إلى جلال قدر ينبعث البخار منه، وتنطلق منه رائحة القدحة بالشوم والكزبرة.

ألقى بنفسه إلى جوار زوجته على أرض غرفة صغيرة في واجهة مدخل حوش أبو فرحة في عقبة شداد، تمايل ضوء سراج الكاز ذي البنورة الطويلة مع لفحة هواء عبرت من النافذة الوحيدة أعلى جدار الغرفة، استحال النوم وأرقت الأفكار مضجع الحاج رياض، نظر إلى أبنائه الأربعة مستقلين على فرشاة من الخيش في صف واحد، إلى جوار أمهم من الناحية الأخرى، قالت المرأة ذات القبعة المزركشة هذه الغرفة بسريرها المزخرف ستكون لداني، ونظرت بابتسامة عريضة إلى الطفل الذي جرى فرحاً نحو دراجة صغيرة حمراء تركها فوزي إلى جوار الدولاب قبل أن يكمل دورته المعتادة من الغرفة إلى الشرفة، وهذا السرير المقابل لصديقة داني عندما يكبر، وتلك الغرفة هناك ستكون لابنتنا شولا عندما ننجبها بعد عدة سنوات، ولا بأس أحياناً أن نستضيف صديقك شمعون وعشيقتة في إحدى الغرفتين، أما تلك الحجرة الواسعة ذات الأثاث الفاخر والسرير المزدوج فستكون لي ولك يا حبيبي مردخاي. صففت العمة روز شعرها وربطته على شكل كعكة خلف الرأس وهمت بالنزول إلى بيت جاريتها سميرة، مرت نرجس بيدها على تيجان زهرة الأضاليا، كادت تميل إلى الأسفل، بدت قلقلة وهي تنظر إلى ناصية الطريق، أيقن الحاج رياض أن الأرق يغالب جفون أفراد العائلة، تأفف، أخذ نفساً عميقاً، استغفر ربه، لا حول

ولا قوة إلا بالله، قال.

لف وجهه بكوفية بيضاء، تزر بحرجاة جلدية بنية ذات جيب واسع، انتعل جزمة سوداء تصل إلى منتصف الساق، شد وثاق الكارو إلى سرج حماره مربوط بحلقة حديدية في يخور الحي، تحت بيت أبو يوسف العنابي، فك اللجام وسحب حماره، سار إلى الأمام بعض خطوات، نكس رأسه، حمل المحقان بيد وهز بالأخرى الجرس بحدة لافتة، واصل السير، نادى بصوت كسير، كاز.. كاز... نهض عمر من غفوة مؤقتة تحت التينة وهرع مسرعاً إلى بوابة البيت.

- في مثل هذه الأيام عليك أن تحتاط لكل شيء، خاصة الوقود الذي أصبح نادر الوفرة، بعد أن قُصفت الخزانات وتوقف وصوله من حيفا، قد تنهار الهدنة، وتشتع الحرب من جديد من يدري، قال لنفسه.
أمر بائع الكاز أن يملأ البرميل إلى جوار يخور البقر في حوش البيت، متمم الرجل وهو يعبر بوابة البيت حاملاً بيده برميل من الحديد بلون كاكي غامق، حفر في منتصفه حرفين باللغة الإنجليزية "اس، اتش".
- سأزودك بنصف تنكة، وهذا كثير على عائلة واحدة في مثل هذه الظروف.

تقدم من حوش البيت بهدوء شديد.

- دستور، يا ساتر، قال، طأطأ رأسه وأشاح بوجهه بعيداً عن عمر.
- هل أنت جديد في هذا العمل؟ أين أبو عباس؟ سأل عمر.
- اشتريت منه الحمار وكارة الكاز، قبل أن يهاجر إلى عمان، أجاب الرجل.
- ما اسم الكريم؟

أحسن بتعب شديد، حمل قازان الماء الساخن، ألقى به على رأسه، انساب

الماء، أزال عن الجسد المنهك آثار ليلة فاشلة، نظرت نرجس إلى عينيه الذابلتين، لا بأس تلك أمور تحدث أحياناً، لعل يومك كان قاسياً، انتظرتك بلهفة وشوق، وكنت أخشى أن لا تأتي، توارى زيد إلى جوار النافذة، تجنب النظر إليها، عندما تجتاحك الرغبة وتخونك القدرة، تصبح الإرادة بلا معنى، ولا يبقى سوى الشعور بالفشل والخذلان والعجز.

- إننا أمام مفترق خطر، أشعر بالعجز والحيرة والارتباك، قال.
- لا تحزن أنت فارسي الذي لا تقهره الأحوال، ماهي إلا ليلة وتمضي، خذ الأمر ببساطة، قالت.

ألا تعزُّ عليك حياتك؟ لماذا تُضحي بها من أجل أشياء ذهنية مجردة؟ العدالة والمساواة والحرية مفاهيم مضللة، الطبيعة نفسها ضد ذلك، قال المحقق ذو البشرة الباهتة والعيون الجاحضة، زغردت أدهمية، وتفتح الورد في حدود فاطمة، صعد وعد إلى جانب السدمير في مؤخرة الشاحنة، بينما جلس أبو منصور وزيد في المقعد الخلفي، قبض أبو جريس بعزم على المقود وتقدم بثقة نحو الحاجز الأول.

- هؤلاء هم العمال الذين طلبهم سعادة السفير لترميم الحائط الغربي للسفارة، قال أبو جريس للجندي عند البوابة الأمامية.

رفع الجندي عارض الحاجز، تقدم أبو جريس بهدوء، تجاوز الحاجز الثاني، نزل الرجال بسرعة من المركبة، تقدم وعد، ربط أسلاك التوصيل بمهارة، بينما مدَّ السدمير السلك إلى مسافة محددة، قصَّ زيد بعض أسلاك شائكة وتقدم إلى سور المبنى، تسلل أبو منصور إلى الداخل وكان أبو جريس قد شاغل الحراس بحديث عن الأحوال الجوية ونكهة السجائر التي أحضرها لهم من ميناء حيفا، أعطى وعد

إشارة الانطلاق، قفز زيد خارج السور، تأخر أبو منصور حتى وضع آخر عبوة إلى جوار المدخل، ابتعد عدة خطوات إلى الخلف، انفجرت العبوة، توقف إصدار الصحيفة، سقط أبو منصور جريماً خلف الأسلاك، قفز زيد إليه من جديد وتقدم نحو أبو منصور، غطى تقدمه وعد وأبو جريس والسدمير بزخات كثيفة من الرصاص، حمل زيد أبا منصور على ظهره وانطلق نحو المركبة، كانت الدماء تنزف من أنحاء جسم أبي منصور، قفز معه خلف الأسلاك، صعدوا إلى المركبة، التي انطلقت تسابق الريح والزمن المخاتل، تالت الانفجارات في بن يهودا وشارع هسوليل وماكور حايم والمتفيوري وقافلة كفار عصيون وعملية طريق القسطل ومقر الوكالة اليهودية ونسف سكة الحديد الجديدة وقطع الإمداد عن عصابات الهاغانا، تصاعدت الانفجارات، لآح وجه ماري، ابتسم أبو جريس، أشار لها بيده، نامت على كتف ملاك بين النجوم، سقطت إحدى القذائف إلى جوار أبي جريس، هَوَتْ معها نجمة من سماء حائرة، كان صوت القذيفة رهيباً، أفقدت أبا جريس السمع بإحدى أذنيه، سقطت أخرى إلى جوار زيد، تناثرت شظاياها في أنحاء جسده، شعر بالنشوة والابتهاج، تقدم زيد من سرير نرجس، طوقها بذراعه العارية، حمل قازان الماء الساخن، ألقى به على رأسه، انساب الماء أنعش جسداً مفعماً بالحياة، وغمر القلب بذكرى ليلة ناجحة، أن تناضل يعني أن هناك أملاً، تنهدت نرجس بدلال وفرح، وحدّقت بعينيها المتقدتين، ابتسمت، وقالت: العجز حالة وهم، بعيداً عن أي مفهوم مضلل آخر.

رفع الرجل رأسه، نظرَ إلى عمر، ما زالت كوفيته البيضاء تستر وجهه دون عينيهِ، حدّق بوجه عمر دون أن يجيب، وهَمَّ خارجاً وقد أفرغ

تنكة الكاز في البرميل إلى جوار اليخور، أمسك عمر بكتف الرجل، أخرج من جيبه بريزة واحدة .

شكّت سميرة وردة حمراء على خُصلة من شعرها الكستنائي، فوق أذنها اليسرى، سوت ثوبها المطرز بيد فلسطينية ماهرة، فرشت الطاولة الكبيرة بشرشف أبيض ملون بالورود. للعكوب طقوس، قالت لنفسها من جديد، وضعت أطباق الطعام عليها، كان البخار ينبعث من القدر الكبير، بينما كانت العمة روز تجهز وليمة في البيت الآخر ليوم مقبل.

تنحى صاحب اللثام والكوفية البيضاء، همّ خارجاً، دون أن يقبض ثمن الكاز، تبعه عمر إلى مدخل البيت، مدّ يده إلى كتفه، قال:

- ما بك يا رجل، لم تأخذ ثمن الكاز، لماذا تشيح بوجهك عني؟ هل تخشى شيئاً؟

- نظرَ الرجلُ ناحية عمر .

حدّقت نرجس من جديد إلى نافذة البيت المجاور، ما زال البخار يتصاعد من قدور الطعام على الطاولة، تقدم جندي من الهاغانا مدّ يده، فتح قدر الطعام، فاحت رائحة القدحة بالثوم والسمن البلدي، حجبت رائحة دخان تسللت من شرفة البيت، أخذَ الجنود مقاعد ما كانت لهم حول المائدة، سحبَ أحدهم نفساً عميقاً لذة واستحساناً، هزّ آخر رأسه تمتعاً، ضحكوا ساخرين من سيدة عربية غادرت بيتها على عجل وتركت لهم على مائدتها وجبة ساخنة شهية، فغروا أفواههم، نفخوا في الأطباق من لسعة الشورية الساخنة، مسحَ جندي يده بأهداب الشرشف الأبيض، لوث طقوس العكوب الطاهرة ومائدة العشاء الأخير، فيما داس جندي آخر ببساطاره الثقيل وردة حمراء سقطت إلى

جانب كرسي بجوار المائدة.

سحب عمر يده عن كتف بائع الكاز، سقط اللثام عن وجه الرجل الغريب.

صرخ عمر مستغرباً من هول المفاجأة:

- مَنْ؟ أيعقل هذا؟ رياض بيك، رياض بيك، ماذا تفعل بهذه الملابس؟!

مسح الرجل دمة انسابت على وجهه، وبدا عليه الهم والحزن، هز رأسه، قال بأسى:

- تحملتُ مأساتي بصمت، ربما ما كان عليّ أن أترك بيتي في القطمون، لا أدري هل كانت الحرب قدراً لا مفر منه، استهدفني وعائلتي، أم كانت تتالياً مرعباً لأحداث طالتنا جميعاً، لم أتصور في أسوأ كوابيسي أننا يمكن أن نؤول إلى هذا المصير، انهار كل شيء فجأة، تركتُ خلفي كل ما أملك، على أمل العودة بعد بضعة أيام، بيتي وحقولي حتى أموال النقدية لم أسحبها من البنك، ظننت واهماً أنها أكثر أمناً هناك، ذهب كل شيء، إني اليوم أقيم بغرفة واحدة صغيرة، ليس بعيداً من هنا مع زوجتي وأولادي، بعد أن عشنا في بيت واسع كبير ذي حديقة جميلة، وفراش وثير.

سكتت المدافع، وأطبقت الصمت على أنفاس المدينة وشل كل إرادة، أطلت فاطمة برأسها من تحت ركام الهزيمة، تناثر كونها على فضاء بلا نهاية، حلق الأيام فوق المآذن، ثم غاب خلف أسوار بعيدة.

- بدا لي أن الأمور لن تعود بسرعة إلى ما كانت عليه، لذلك كان لا بد من إعالة أسرتي وإلا متنا جوعاً، أو تحوّل أولادي إلى متسولين في الطرقات مثل الكثيرين، آليت على نفسي هواناً لا أريده لأبنائي.

سادت لحظة صمت، نظر الحاج رياض إلى عمر بأسى، وسأل:

- هل من أخبار عن نرجس وأطفالها؟

- لا، أجب عمر بألم.

أخرج الحاج رياض شلناً من جيب حرجاته البنية، باقي البريزة من ثمن الكاز، ضم عمر كفه على كف الحاج رياض، محاولاً ترك الباقي بيده، لكنه تعفف بكبرياء عزيز قوم....

انهمرت دموع عمر، وقال في نفسه: أي شيء يمكنه أن يعوض رياض بيك ومن هاجروا تحت التهديد والخوف من بيوتهم؟ هؤلاء لم يخسروا أملاكهم وأموالهم وبساتينهم فقط، وإنما خسروا نمط حياتهم وكبرياءهم أيضاً.



في قلب العاصفة

سُحب صغيرة متباعدة اقتربت رويداً رويداً من اتجاهات كثيرة نحو سماء المدينة، وفجأة ودون أن تنذر، تكثفت حتى أصبحت غيوم كبيرة، انتفخت وحبست أنفاس السماء، ثم تسارعت وقد حملتها ريح دُرُوج^{١٧١} ناسفة، ثم هفتت شيئاً فشيئاً نحو الأرض، غمرت الأسوار بكتلة من الضباب الكثيف، الذي حجب الرؤية وعمى الأبصار، وفي لحظات تَبَوَّجَ البرق وازتَعَجَّت السماء، وتعالَت وهَوَّهَات الرياح الدَّرُوج وزمجرت وصفعت بذيلها وجوه المارة، وأخذت ما بطريقها من أشياء، فتطايرت مظلات الحوانيت وأصفاط الخضار وعربات الباعة، وأصابَت مظلات "الزينكو" في الأسواق، وعَرَّت الأشجار من أوراقها، بل وأقْتُلِعَ بعضها وكسرت أغصان بعضها الآخر، خَلَعَت حجارة الكراميد التي تطايرت من على طَيَّات المنازل وسقطت على رؤوس المارة، الذين تدافعوا هارين من الريح العاتية والعواصف المجنونة التي تلطم الوجوه والأجساد بكل ما تحمل، ضربت الرياح بسَوطها الحاد أسوار المدينة وجدران البيوت التي صدعتها الحرب، وزلزلت أَسْسَهَا فانهار الكثير منها، وتشرَّد سكانها الذين أُجِّلُوا أو برحوا من وجه الريح العاتية، بادحين بعد أن تركوا كل شيء، وهاموا على وجوههم على غير هدى، كُلٌّ يبحث عن خلاصه الفردي.

غداً العاصفة اصفر وجه السماء ثم ابيضت، وبهتت صفحة الأفق،

وجهت الأسوار ووجوه من تبقى من الناس تحت أسقف البيوت
الخواوية المنهارة.

وجدَ عمر نفسه وعائلته مع المئات من المواطنين، يفترشون سجادة
المدى البيضاء في لواوين الحرم الشريف، وبعض أزقة ومدارس المدينة
وأديرتها، أُلِّوا هناك دون زاد أو شراب أو فراش، بعد أن نفذ ما لديهم
خلال الحرب، كان الزائر الأبيض اللِّياح ثقيل الوطأة هذه المرة، غطى
وجه المدينة وذهب بما تبقى فيها من عزيمة، فاستسلمت لقدرها
الجديد، لجأ بعض أهلها إلى مدرسة الروضة قرب باب الغوانمة، حيث
قيادة لواء الجيش العربي ومقر حاكم القدس العسكري عبد الله التل،
طلبوا المؤن والطعام، لجأ آخرون إلى تكية خاصكي في عقبة السرايا،
فجأة كشفت العاصفة هشاشة ما تبقى من دفاعات المدينة، التي فقدت
كل مراكز خدماتها، الحكومية والشعبية، الاجتماعية والاقتصادية
والتعليمية، التي خلفتها الحرب وراءها في الجهة الأخرى من المدينة،
حيث مقر البلدية، ومركز الدفاع المدني والمستشفيات، والمدارس
والكليات ومقرات البنوك والشركات ومركز البريد والمطبعة الحكومية
ومقر الإذاعة ومعظم مرافق الحياة.

نظرَ عمر إلى فاطمة المنطوية على نفسها إلى جوار أمه، تحسر لحالها،
أين ذهبت كل تلك الطاقة والحيوية ونضارة الوجه والبسمة الدائمة،
حلَّ مكانها البؤس والحزن والكآبة والآنزواء بعيداً عن الناس، بل بعيداً
عن الحياة، وبدت كأنها تسكن داخل حلم تُحرك أحداثه بأمل متأنٍ،
تقوده إلى وجهة معاكسة، ربما تعود به إلى اللحظة التي سهت بها العين
فجأة ونامت، عندها ستدفع النوم عنها وتقفل قابض الحلم قبل أن
تدور أحداثه، تأمل وجهها المصفر، وعيونها الذابلة، بسهوتها التي لا

يعزوها العزم وإن ضاقت حدقاتها، تذكر يوم رافقها إلى المدرسة، تذكر وجه الجندي الذي امتعض من فصاحة إجابتها، فجأة اهتز نسيج العنكبوت، تحفّزت حواسه، تقدم على خيط رفيع، طنّت كلمات فاطمة في أذنيه كأنها أجراس توقظ النائمين، إنها اللحظة المهمة لفهم الفرق بين الرضى أو الغضب السلبي الذي يؤدي إلى الاستسلام أو الرتبة، وربما العزلة والاستكانة، وبين الرضى أو الغضب الإيجابي الذي يفتح بوابة العمل والطموح، فيوظف المتاح فيما لدينا، مهما كان ضئيلاً ليفتح بوابة الأمل، وبين الأمل والطموح تتفجر الطاقات، ويولد الإبداع.

نهض عمر من مرقدته على بلاط أرض نخرها برد قارس إلى جوار باب الحديد في الحرم الشريف قريباً من حوش الشهابي، عازماً على مواجهة الشدة بسواعده العارية، غاص بالثلج حتى ركبتيه، حمل بعضاً من الشموع، وصار إلى مقام الشيخ ريجان، السلام على سيد المقام قال، أشعل شمعة أضاءت عتمة الزقاق، تقدّم من البوابة، جحف الثلج بيديه العاريتين، انضم إليه عدد من أبناء الحي، سلموا على ساكن المقام، كبروا وهللوا، حتى أزالوا كل عائق عن بوابة المقام المبارك، تفقد عمر الحضرة وضريح الشيخ ذي الحلة الخضراء، توسّعت حدقاته وفتحات منسره¹⁷²، نفث من تعب ومن لوعة أنفاسه الدافئة في الأرجاء، خالجه شعور أن الدفء الذي سرى في جسده سرى إلى أوصال الشيخ، إنسابت بعض دموع على وجنتيه، خيل إليه أنه رأى مجد يمتشق بندقية قرب باب النبي داود، حاول الوصول إليه إلا أن شدة القصف منعتة من ذلك، سأل أحد المقاتلين إلى جواره: أليس ذاك الشاب المتقدم ناحية حارة السريان، مجد ابن الشيخ نامق؟ نظر المقاتل حيث أشار عمر، لكنه

قال: لا أرى سوى سحابة من دخان كثيف، ربما كان هناك، أو ربما سقط شهيداً، أو أنه يرقد جريحاً في غيبوبة في أحد المستشفيات مثل زيد زوج نرجس، أو لعل حظه العاثر أوقعه في أسر الأعداء، من يدري، بدا المقام والضريح بهيته لم تنل منه الحرب ولا عاصفة الثلوج الباردة، وضع يده على شاهد الضريح، قرأ فاتحة الكتاب، بكى مثلما لم يك في حياته، كانت دموعه تنهمر غزيرة تنساب حتى شفّته، أحس بطعمها المر، تتم: خذلناك يا سيد المقام، ليس الأحفاد على قدر المسؤولية التي كنت ترجو، لولا أن من الله علينا بالصبر والصمود بالبلدة القديمة، لكان مقامك المبارك أسير الصهاينة الغزاة.

عادَ عمر إلى بيته، أزال عن رُبع العائلة وحوش الدار بعضاً من آثار عاصفة هوجاء، جَبَلَ بأيديه الطين على مدى أيام من العمل الشاق، حتى تشققت يداه وقدماه وملأتهما الدماطل ونزفت منها الدماء، لكنه ما كَلَّ عن العمل حتى أعاد الحياة إلى البيت، وعاد بالعائلة إليه من جديد، هرعت فاطمة إلى غرفتها فتحت صندرتها الثمينة، كان الماء قد تسلل إلى بعض أوراقها ودفتر صغير، رفعته إلى صدرها حاولت أن تجففه، ذرفت دموعاً صامتة، ثم نظرت إلى الجدار، لعلها تذكرت أن اليراع جف منذ زمن بعيد، وأن الذاكرة تحتاج إلى شيء من المداد والترطيب، ابتسمت .

مرضت ربي ابنة عمر، وأصيب بالتهاب رئوي نتيجة الإقامة في العراء، لم يتمكن أطباء الهوسبيس من مساعدتها أكثر من أسبوع لعدم توفر الدواء وتعطل الأجهزة الطبية، نقلوها إلى مستشفى المطلع، على قمة جبل الزيتون، أقامت زوجته هدى معها لعدة أيام، كان المستشفى

يعج بالجرحي والمرضى من كل أنحاء البلاد، حتى أن الكثيرين منهم كانوا مستلقين على فرش خفيفة في ممرات المستشفى وساحته، لم تُشف رُبي تماماً عندما غادرت المستشفى، كان الزحام شديداً هناك، وظهر جلياً نقص في الطواقم الطبية والمعدات، وكانت إدارة المستشفى تتخلص من كل من تظهر عليه علامات التحسن، حتى لو كان ذلك التحسن طفيفاً أو ظاهرياً مثل حالة رُبي، التي لولا لطف الله، وبعض الأعشاب التي حضرتها الجدّة لما برأت ولكانت من شهداء العاصفة، بعد شهداء الحرب.

مساء أمس نفقت البقرة العراب وما كانت بفارص¹⁷³ وتبعها فرّقها الذي أَعَزَّتْ¹⁷⁴ به عشية العاصفة، بينما مرضت البقرة الدّراب وعزها اللبأ ففقدت برّغزتها من شدة البرد والصادي والحجن، كذلك نفق معظم الدجاج والطيور، ومن ثم ضهل دُرّ الموشية وما حلب منها إلا فطرة، وصباح اليوم نفق الخوار القرهب وفقدت السنم عزوتها، خيم على البيت جو من الحزن الشديد، كأن العائلة فقدت بعضاً من أفرادها، وعانى عمر وزوجته هدى وأمه الأمرين في حماية ما تبقى من الأبقار، خاصة في غياب نرجس وانطواء فاطمة على نفسها، هزلت أجساد باقي السنم وضعف درها للحليب، نفدت البضائع من معظم الحوانيت، جلس أبو طلال أمام دكانه على كرسي من القش الممزق، صق وجهه، وكان يضرب كفاً بكف، عندما يطلب منه أحدهم بعضاً من الدقيق، وذلك دلالة على نفاذ ما لديه، شحّ الكاز أيضاً بعد أن توقف مدّ القدس بالبترول عبر ميناء حيفا، حتى أن أبا رياض أقسم لعمر أنه لا يمتلك أكثر من تنكتين إثنتين اشتراهما من السوق السوداء، باع لعمر كيلة

١٧٣ كبيرة السن

١٧٤ عَسَرَ حملها

واحدة بخمسة قروش، كان كل شيء قد انهار، الوضع الاقتصادي والصحي، وخدمات البلدية، لم يتبق للمدينة إلى شرق المتراس أي مراكز رسمية، سوى المتحف في باب الساهرة، ومغفر القشلة داخل باب الخليل، نُقل مستشفى العيون من الطالبة إلى سوق الحصر، حتى أنفاس المدينة خنقت من الجهة الغربية بحصار محكم.

عندما فتحت أم مهران الشباك الجنوبي المطل على سور المدينة كانت الشمس قد قَبَسَتْ وأقفل باب النبي داود، كذلك حدث مع باب الخليل، والباب الجديد، تقطعت أوصال البيوت والعائلات في حي الثوري وحي المصرة اللذين قسمت الحرب كلاهما إلى قسمين، وانشطرت بلدة بيت صفافا إلى نصفين، وما إن حَطَّت العاصفة أوزارها وغادر الضيف الأبيض الثقيل، حتى انجلى الغيم عن صفحة الأزرق العالي، غير أن الشمس لم تَقْضُ¹⁷⁵ بل أطلت مثل ترس صلب بلا شعاع وأصبحت المدينة خاوية على عروشها، كاد الفقر والعوز والفاقة تلتهم أحشائها وتنخر أسوارها وتمضي بساكنيها، حتى كادت أزقتها تخلو من أي كَرَّاب، غادرها كثير من الأعيان والموظفين إلى عاصمة الدولة التي غسلها النهر من خطايا الحرب، وعمَّدها وجهاء هربوا من عار الهزيمة إلى ظلال الموز في أريحا، وأعلنوا زفاف البرتقال على ما تبقى من حجارة فيلدلفيا، كان لا بد من كاندل استجابة لوصية غلوب باشا، كي يُعاد تنظيم المدينة من جديد، بعيدا عن تهديد الحرب ومنعاً لإزعاج الجيران الجدد، حرص كاندل على حماية خطوط الهدنة، فوجد رئيس البلدية أنور الخطيب نفسه والمدينة محشورين في مساحة لا تتعدى ثلاث الكيلومترات هي أفق المدينة الممنوع من الوصول إلى أعلى جبل

١٧٥ لم يمتد شعاع الشمس

المشارف، حتى لا يزعج جدّ الطلبة الدارسين علوم الحرب في الجامعة العبرية، أو يورق غفو النائمين ذات صباح هانئ في مئا شعاريم، مقابل الشيخ جراح، ثم سرعان ما أُقيل الرجل من منصبه لأنه تجرأ على البوح بألم أهالي البيوت التي أُخليت في الشيخ جراح، انتقلت البلدية برئيسها الجديد عارف العارف إلى دير الأرثوذكس قرب باب الخليل، وقد جدّ الناس من فقراء المدينة ومجاهديها في استعادة توازنها، شَمَرُوا عن سواعد الأمل، ونهضوا على أقدام العزيمة، نادى خطيب الجمعة الشيخ الأنصاري في الناس من القرى المجاورة، في ورشة تعمیر وترميم حتى استعادت المدينة بعضاً من إشراقة وجهها، ومسحت عن محياها تعب الحرب وحزن الخذلان وآلام الوحدة، وسرعان ما فتحت المدينة قلبها من جديد لأبنائها من الوجهاء والأغنياء والموظفين، دون ملامة أو عتب، مثل أم حنون احتضنتهم بشوق بعد أن عادوا إلى بيوتهم التي أخلوها حين الشدّة.

فتحت المحال التجارية أبوابها، وبدأت عربات الكارو والكريّات والحمير والبغال تنقل الخضروات الطازجة من الحسبة الجديدة قرب وقف الخليلي باب الزاهرة، إلى سوق خان الزيت وسوق البازار، سجّل عمر ابنه عادل للصف الأول في مدرسة دار الأولاد، بعد جدال كبير مع جدّته وأمه بسبب بُعد تلك المدرسة عن البيت خارج الأسوار قريبا من واد الجوز، بينما عاد صابر إلى كُتاب أم سند في حارة السعدية. أعدت أم عمر "مطبقيات" الطعام من أجل حملها لأم نصرت، التي لازمت فراش ابنها زيد في مستشفى الهوسبيس، منذ ما يزيد على شهرين، كانت فاطمة تقبع في ركن غرفتها أسيرة حلمها الطويل، جلس عمر إلى جوارها، نظرت إليه بحسرة وخوف شديد.

- اهدهئى؁ لا تخافى؁ ساقوم وامى بزيارة زىء وام نصرت فى الماسشفى؁ هم ما بقى من رائحة نرجس؁ هل ارغبىن بالانضمام إلينا؁ قال عمر:

لاسم نرجس وقع خاص على أذن فاطمة؁ نظرت إلى الجءار؁ ما عاءت ملاية نرجس البىضاء فى مكانها؁ سقطت مع جانب من جءار الغرفة يوم العاصفة؁ نظرت إلى وجه أخىها من جءىء؁ وءون أن تنفوه بشىء؁ مءء له يءها؁ أمسك بها برفق؁ ومضىا وأمهما لعىاءة زىء.

اشترى عمر بعض الفاكهة من بسطة أبى إبراىم القواسمى إلى جانب الماسشفى؁ وصعد برفقة أمه وفاطمة درجات البوابة الكبىرة اللى تُفضى من مءءلىن مءقابلىن إلى بستان تملأه الزهور والأشجار؁ وقفت فاطمة ءون حراك قرب جورىة تَفْتَح ورءها ونشرت عطرها فى الأنحاء؁ مءء يءها بءذر؁ لامست غصن الجورىة برفق؁ غير أن شوكه نءزت بنانها؁ سءبت يءها بقوة؁ كانت بعض نقاط من الدم تنز من البنان؁ تقدم عمر قطف ورءة ابسسم؁ وقءمها لفاطمة.

- بعض الجمال يءمى القلب والبنان؁ قال.

ومن حبب البسان النضر؁ صعدوا إلى عنابر المرضى؁ كانت أم نصرت تقف إلى جوار ولءها وعىونها مسمرة على وجهه؁ وقء بءا عليها التعب والإرهاق؁ لكن نظراتها كانت تنم عن عزىمة قوية وصبر عظمى؁ اقءربت فاطمة وضعت ورءتها وبنانها الءامى قربا من نارق الجرح إلى جوار زىء الذى ما زال ىرقء فى غىوبة عميقة؁ بىنما اءمءم أمه اللى بقىء على نفس جلسءها لم تغاءر جوار أبناها الجرىح بأىاء من القرآن الكرىم.

- جبئك ببعض الطعام؁ علىك أن تأكلى لكى اءمكنى من الصموء؁ قالء أم عمر.

نظرت أم نصرت إليها بأسى، وقالت:

- لا بأس، أنا بخير، ضعي الطعام جانباً، علني أتناوله لاحقاً.
دون أن تعقب أم عمر فكّت مطبقة الطعام، انبعثت رائحة الملوخية في أرجاء غرفة المستشفى، قالت أم عمر للموجودين تفضلوا على ما قُسم، وأخذت تُطعم أم نصرت بيدها، لكن العجوز عزيزة النفس، نظرت إلى أم عمر بود وعرفان، ابتسمت، وأمسكت باليد الممدودة إليها، طبعت عليها قبلة خفيفة، وتناولت بعضاً من الطعام بفتور رغم أن الزاد ما دخل فاما منذ أيام.

- هل من جديد في قول الأطباء؟ سأل عمر.

- الأمر بيد الله يا بني، قدّم الأطباء كل ما بوسعهم، وقالوا ما تبقى سوى أن نطلب له الرحمة، لاعتقادهم أن حالته ميؤوس منها، أنا لن أفقد الأمل، الأعمار بيد الله، وهو اللطيف الخبير.

مالت أم نصرت بوجهها ناحية فاطمة التي تسمرت إلى جوار سرير زيد، وضعت يداً على كتفها وأخرى على كتف زيد، ثم زرعت قبلة ساخنة على جبين ولدها وأخرى على وجنة فاطمة، وهمست في أذنها دون أن يسمع أحد ما تقول.

- في هداة الليل عندما يصمت الجميع، ينادي زيد بصوت خافت: نرجس... إفتحي الباب..... إن وعد وفاطمة وطفلهما عهد قادمون إلى القطمون.

لمعت عينا فاطمة، ارتجفت شفتاها، حدّقت في وجه أم نصرت وفي وجه زيد، ثم في بنائها النازف، مدّت يدها إلى يد زيد المسبلة إلى السرير، قبضت عليها بشدة، إنسابت دموعها، قرّبت الوردة الجورية الحمراء إلى رأسه، نرّ بنائها بضع قطرات من الدماء، اختلطت بنارينج جراحه النازفة ثم عادت إلى حُلْمها الطويل.



باير

انتباه، سرت الصيحة في الأجساد الهزيلة للمصطفين في الطابور، مثل تيار مرّ من أخامص الأقدام إلى أعلى الرؤوس، فارتفعت في بؤس وانكسار شديد، مُحفّية ثورة مكتومة وغضباً دفيناً، سوى أمر المعتقل ملازم أول دُحام عقاله، مسدّ بيده غطاء مُسدسه الجلديّ على حزام خصره النحيف، فردّ قامته، تقدّم لاستعراض الطابور، فيما اصطف عدد من الحراس إلى يمينه متهيئين وقد صوبوا بنادقهم نحو أجساد هزيلة، انتشرت أبراج الحراسة بالاتجاهات الأربعة لميدان واسع على مسطح من الرمل في عمق الصحراء نأى عن نضرة الحياة واقترب من حدّ الموت، توزعت تسع خيام بشكل دائري، أُعدت مناماتٍ ومرافقٍ للجنود والحراس، التفت حول ثلاث خيام كبيرة جُهزت بفرشات من الخيش مقاماً ومناماً للمعتقلين، باضّ الحرّ وامتدت رمال الصحراء الملتهبة على مدى الأفق وأينما وليت وجهك، لا تُبْع في الأنحاء ولا قِبَلَة، لا خُضرة ولا ماء ولا نبتة شوْك ناشفة، ولولا ضب هنا وأفعى صفراء هناك، لبدا المكان قفراً بلا حياة.

سِرْبٌ من الأشباح تجوّل ليلاً في أزقة الطرقات، بأي أزياء تنكر أفرادها، لا فرق، يعرفهم الناس وتشم رائحتهم جدران المنازل، كالهبون يُعَشِّشُ في الزوايا وتحت النوافذ، يتحفز وينثر شبّاكه ويُبحر مئات العيون كي تحصي الأنفاس، يجعل اقتراب السامر من متن الحكاية مغامرة غير محمودة، ينكمش الليل خوفاً ويطوي القمر صفحة الضوء المسروقة

من شمس النهار، يقتلُ الرعب المثور في فضاء الأزقة شهوات الجسد
ويُعطل بواعث الوجد والأشواق، يحبس المطر ويخنق نبض الحياة في
عروق اللحظة فتجذب الأرواح، تفوح في الأنحاء رائحة تشبه عفونة
الموت، تمدُّ الظلمة أظافرها تنهش وجوه الصغار، تقتلع عيون الأمل،
تصمُّ قعقعة البساطير خلف الأبواب آذان النوم، وتجتاح عوارض
بملاح ضباع الصحراء هتاف القلب وأغنيات المساء.

قد تخطف قلبي كرهاً لا شغفاً ولا حباً، أحيا عندها على نبضات الأمل،
وربما تسرق خبزي قهراً سأقتات من زاد الذكريات، وقد تسرق مالي
جبراً فأبتاع بدفقات روحي لحظة الفرح، إلا حريتي ليس لك أن تنال
منها لو مزقني الرصاص على المدى أشلاء.

تسللت ببطء نحو سرير والديها، كان نور المصباح زاوياً كثيباً والسماء
كامدة، شعرت كأن خافيات الليل تمدُّ ريشاتها الأربع وقوادمها ومناكبها
وأباهرها وتدنو منها، رفعت غطاء النوم بخفة ودست جسمها النحيل
إلى جوار والديها، أحست بدفع امتدَّ إلى شرايينها الرقيقة، هربت
خوابل الليل، تقلب عمر في فراشه، يميناً ثم يساراً، فتح عينيه، نظر إلى
عيني ربى الناعسة، قبلها بهدوء، شدَّ الغطاء إليها ثم تهوَّ من جديد،
تحفز الحلم، كانت ربى تبتسم للجوريّ تتدركُ ضفيريها وتتلوى من على
كتف البرجيس وكعب الزهرة، تنظ ربى بين النجمين، تُراقص بلورة
الدجى وتغني شبرا قمرا شمس نجوم.

يد الشيخ ريحان تفخت صرة سحابة قاتمة، ثماعي الساجسية من
لوعة البعد عن الضنى ويعبُّ القهْدُ لباء الموشية في ليلة قيط، وعند
الفجر يتحفز عباد الشمس، ينضو عن وجه العمر المأسور خمار العتمة،
فيزحف النور عباب وجد فوق تلال شردتها الخضوب خلف أسوار

المدينة، تلوح صورة نرجس، تدق مساراً في صدر الريح وتعلق ملايتها على صفحة الهواء، تطبع أم ناصر بائعة الخضار في باب خان الزيت قُبلة على وجه ملاك الفجر وتفلق هزيم الرعد فينتعف القمح وينمش وجوه الصغار، تأتي غُرْغَرَةُ زيد من جوف بئر عميقة، تُعَسِّقُ عين الرخ وتُطَوِّحُ العُكَّاب، تهيم فاطمة بوجه شاحب، تتبازى¹⁷⁶ في حضرة الغبش وتعبر في التيه، تُطَهِّلُ¹⁷⁷ جبهات ملوك مهزومين، وقريباً من حدِّ الروح تفرد هدى شعرها وتفتح صدرها تحضن عمر ودسته من الصغار، وتحيد بزوجها عن فحيح أفعى قاتلة، ثم تغفو قريرة العين لقليلة ما قبل الوعد.

يطربق الهبون وضباع الصحراء بوابة الفجر وصير البيوت، يفز من وجل سكان الحي، يسترقون السمع دون أن يتجرأ أحد على الاقتراب من النوافذ المطلة على الطريق، يصرخ عمر من فرع، ويمسح عن عينيه بكف خشنة ظلَّ هوم طال، يهرع أفراد الأسرة نحو بوابة الحوش، يسترجع عمر رباطة جأشه، يصرخ غاضباً:

- من الطارق؟ على مهلك، قد أفزعت الخوابي ومن في القبور.
- بينما تُتمم أم عمر المرعوبة شاحبة الوجه من وجع الليل:
- يا لطيف الألفاف نجنا مما نخاف، اللهم اجعله طارق خير.
- ما إن فتح عمر بوابة البيت حتى دهمته مجموعة من العساكر ببنادقهم الإنجليزية ذات السبطانة الطويلة، أمسك عمر بأحدهم من دون وجل وصرخ:

- قف، إلى أين؟ ماذا تفعلون؟ للبيوت حرمة، توقفوا، في البيت

١٧٦ تتضرع - تخرج صدرها

١٧٧ تُلْحِق العار

أطفال وحریم.

تجاهله الجنود وجالوا كل الغرف حتى يخور البقر، طلبوا من الجميع حتى الأطفال الوقوف ووجوههم إلى الحائط قرب البوابة الكبيرة، فتشوا كل شيء، نفلوا الفرش والوسائد وأكياس المؤن والطعام وجاسوا جراجب البئر، وعندما خابوا اقتادوا عمر معهم بملايس نومه، فصرخت أمه باكية:

- إلى أين تذهبون بولدي؟

ارتجف عادل بينما أدار صابر ظهره، حدّق بوجه الجند كأنه يطبعها في ذاكرته الغاضبة، زجره أحد الجنود ودفعه بقوة نحو الحائط بكعب بندقيته، جرت ربي نحو أبيها وتشبث بطرف ثوبه، واجمة من دون دمع أو كلام، أبعداها أحد الجنود بهدوء، نظرت إلى وجهه بخوف شديد، وضع يده على رأسها مَلَسَ على شعرها، نظر إلى عينيها البريئتين، برقت عيناها، ربما تذكر ابنته التي في مثل عمرها.

- لا تخافي، قال، سيكون والدك بخير، وأرجو أن يعود إليك قريباً.

بينما أمر قائد المجموعة كافة جنوده بمغادرة البيت مصطحبين عمراً معصوب العينين.

تقدم أمر المعتقل ملازم أول دُحام خطوة نحو الطابور، حدّق بوجه رجل حليق الرأس أول صف الطابور، وسأله:

- ما اسمك؟

بيداء تسعر في المدى والأرواح، مرّت¹⁷⁸ نَطَحُ¹⁷⁹ خواءها الكَرَّاب¹⁸⁰ فلا

١٧٨ قفر لا نبات فيه

١٧٩ تدفعه بشدة

١٨٠ الحزين

تَبَعَ يفرد بساط الفياء ولا قليل ولا كثير، ليس سوى الرمل والسراب،
تُوهوهُ ذرات الهواء وتتلوى ثم يلمع الوهم فوق جرّ الطَّسَل¹⁸¹ كأنه
حوض ماء جادت به الصحراء في لحظة قيظ شديد، جال الرجل ناظره
بعيداً، فانحسر سطح الملح عن وجه ملاك صغير دامع العين حزين،
لا تبكي يا بنيتي الجميلة، تتمم بشفتين ذابلتين تشققتا من الصادي
والظمأ، نخزه الأمر بعصا من خيرزان غليظ :

- ما اسمك؟ ألا تسمع.....؟

نفض الرجل جسده، نصب قامته، ورفع رأسه، ومن دون أن ينظر إلى
وجه السائل أجاب بصوت جهوري:

- عمر، يا سيدي.

- من أين أنت؟

- من القدس، سيدي.

- تقدم الأمر دُحام خطوة نحو اليمين، وسأل من جديد:
وأنت؟

- أنطون من القدس، ويكنيني الناس أبا جريس إن شئت
سيدي، أجاب التالي بالصف.

- وأنت؟ سأل الأمر.

- بن يحيى بائع مواشٍ وأشهر لحام بالقدس سيدي.

- بن يحيى، هذا أنت؟! ما هي أخبار صاحبك الجنرال؟ لماذا لم
تهرب معه أم أن العربة لا تحمل إلا ضابطا ساميا وابن عائلة مقدسية
عريقة؟ سأل الأمر دُحام:

- لا أفهم ماذا تقصد سيدي، أجب بن يحيى.
- إخرس، ضع يدك على رأسك وتحسس وجوده فوق جسدك، إن وجدته اليوم هناك، تأكد أنه لن يكون في مكانه قريباً. من منكم فرحات؟ أضاف الأمر دُحام بصوت حاد.
- هنا أيها الأمر.

قال فتى وسيم الطلة، رقيق النظرات، رفع رأسه بشموخ فعانقت نظراته صدر المدى المفتوح:

- تحسس أنت أيضاً رأسك أيها الفأر، قريباً ستلحق بصاحبك.
- طوّق من الخوف أحاط بالمدينة وجعل من أسوارها سجنًا كبيراً، حُبست أنفاس الناس كما حُبس الماء في صناير مثة إلى الجدار قريباً من بقاله أبي طلال في عقبة درويش وبقالة السمان في حارة السعدية، كان الهواء يُفلت بقدرٍ ليتنفس الناس كما يُفلت الماء بيد خفية فينسب ضعيفاً من الصناير مرة واحدة من كل شهر.

طوى الزغل جناحه الكسير مثل هدهد عانٍ، ومدَّ يده إلى ميزابان ترقرق بالدم والجلنار، غسل روحه من بشك الولاة ومن عجز ابن أخيه أبي عبد الله الصغير ومن فتنة قيان القصر، ومن هرج ملوك الطوائف، وهَمَّت عيناه على الزهراء، خَلَعَ جلباب الوهم، نضا السيف عن جاسياء الحقيقة، حدَّق إلى نوافذ الحمراء التي تُطلُّ على الجنائن، ترنحت أزهارها وغطاها التراب والعفن، من تحلى عن البيازين لن تبكيه غرناطة، قال لنفسه.

كادت الخيبة تُوقف تدفق روح الأمل في الطرقات، تسلل اليأس إلى عروق الزمن، وأصبحت اللحظات تجر خطاها بطيئة كأنها تحمل على أكتافها أثقالاً من هموم المتقنين على فراش الانتظار، تغيرت بعض

تفاصيل المشهد في أحياء المدينة، حُبس الضوء خلف قضبان سوداء غليظة تدلت منها فوانيس مكعبة ذات إطارات من الحديد كاكية اللون أشبه بالجة العسكرية، تفيض بضوء مصفر باهت غريب، يعكس على جدران الطرقات قضبان النوافذ، اتسعت المدينة شيئاً فشيئاً إلى مدى محسوب في دفاتر الجنرالات، ونهضت من تحت عباءات الناس ومن بين الخيام والأكواخ الصغيرة المتناثرة هنا وهناك بعض مباني وعمارات في شارع صلاح الدين وشارع الزهرة والسلطان سليمان، حاولت المدينة أن ترفع سقف المدى قليلاً، لتطل العيون على شاهد تركته الحرب وحيداً خلف البوابة في مأمن الله.

تقدمت الشاحنة العسكرية المتهالكة ببطء على طرقات مُحفرة، تتلوى صاعدة تلال الهجرة باتجاه مدينة الأنصار، وعلى ظهرها تكدس ثلاثة وخمسون سجيناً، تم اختطافهم ليلاً من فراشهم ومن أحضان أسرهم، عُصبت عيونهم وكُبلت أيديهم إلى ظهورهم، تلاصقت أجسادهم، بعد أن ضموا أقدامهم إلى صدورهم، توقفت الشاحنة عند بوابة السجن ليلاً، وبعيداً عن أعين السجناء الآخرين تم إدخالهم إلى عنبر جانبي، أفرغ خصيصة هؤلاء القتلة المجرمين الذين أطلقوا نار حقدهم على شيخ القبيلة، كما قال أمر السجن لمساعدته قبل أن يحشرهم في تلك الغرفة الصغيرة، استقبل الأسرى بحفاوة من الحراس الذين انهالوا عليهم بالعصي، ثم تركوا وقد امتزجت دماؤهم وعرق أجسادهم وغبار السفر، ربما أخذهم التعب والألم فناموا، وربما غابوا عن وعي اللحظة فالتصقوا بعضهم إلى بعض على أرض خشنة مغبرة.

تسللت خيوط من شمس النهار عبر فتحة صغيرة ذات قضبان حديدية غليظة وأسلاك شائكة سميكة، أسند ظهره إلى باب موصل، نافح لهيب

نار سرى في عروق جسده، نظر إلى الجدار المقابل، "نموت، نموت،
ويحيا الزعيم"، عبارة توسطت سطح الجدار.

- لاحظت أنك قلبت جسدك كما قلبت ليلك الطويل، كأنك لم تنم،
لعلك تنتظر فجرًا تأخر، لم أعهدك من الذين يؤرق السجن نومهم، قال
فرحات.

- لست بحاجة للنوم، فأنا أعلم أن بانتظاري نومًا طويلًا، ولست على
عجل من أمري حتى أنام، أنا أمارس الحياة في ليلي ونهاري وفي أي
مكان ما دمت أشعر أنني حرّ، أجاب بن يحيى.

- ألا تشعر بحرقة الفراق والبعد عن الأهل والأحبة؟
- بل، لكنني أمنيهم أقصى مشاعر المحبة، وأنا أناضل من أجل
غد أفضل لهم وللآخرين.

- ألا تشاق لزوجتك وأبنائك وأهل الحي والأصدقاء؟
- أشتاق، وتتفجر جوارحي شوقاً لهم، لكن ما يشغلني دائماً
كيف أترجم هذا الشوق إلى إيمان وكفاح يمنح أبنائي مستقبلاً طبيعياً
تحت الشمس، لم تمنحنا إياه الحياة، أنا هنا حتى أوفر عليهم غداً أن
يكونوا هم في هذا المكان.

- ألا تخشى الموت؟
- إن قلت لا أخشى الموت فقد تبدو شخصيتي غريبة، المسألة
ليست جُبناً أو شجاعة، بل هي الإيمان، "واعبد ربك حتى يأتيك
اليقين"، إن كنت على يقين فإنك تعبر بالموت إلى عالم آخر أبدي، فلا
غربة أن تؤمن أن الموت لحظي لا يدوم، لأنه من ظواهر الدنيا، وهو
علة زمن الأرض الفاني، أما زمن السماء فليس سوى الخلود، هناك إلى
جوار الله.

- أليس لزمنا الأرض غاية؟
- بلى، لكن تلك الغاية في خدمة زمن السماء، إنها استخلاف واع وراضٍ وعظيم، لذا لا تدع الموت يطاردك، فيقتل كل لحظات حياتك الجميلة، بل طارده أنت، إن كنت في ضيق أو بحبوة من العيش، في فسيح من الحيز أو ضيق من سجن، اعلم أن هناك حفرة توجه نداءها إليك، إن خشيتها قضيت فيها حياً وميتاً، وإن ألفتها وسعيت نحوها على هدى ومن أجل هدف سام جعلتها مندوحة وروضاً في الدنيا وفي الآخرة.

حرك يده ببطء، نهضت إليه، فتح زيد عينيه بثقل، نظر إلى عينيها الخضراوين، ابتسم، اشتقت إليك يا سيدة الترك والعرب، اشتقت إليك يا أُمي، قال بصوت منخفض، نظرت إليه بفرح شديد، ألقت بنفسها فوق صدره، ضمته إلى صدرها، اشتقت لصوتك، قالت بصوت مرتعش، لم أفقد الأمل لحظة واحدة، كُنْتُ على يقين أنك ستنجو، هاتف من الله غمر قلبي وعقلي، مدني بالعزم واليقين، في أتون أجواء الهزيمة التي نالت من كل شيء، استسلم الجميع حتى الأطباء، إلا أنت وأنا، قطعنا معاً أيام الظلام الموحشة، لم يُحْيِ الله رجاء الصابرين.

- أين نرجس؟ سأل.
- توقف القتال، قالت.
- هل انتهت الحرب؟
- توقف القتال، لعلَّ بعضهم أراد أن يعني بهذا أن الحرب توقفت، على كل حال ستكون بخير، استرح الآن، عندما تغادر المستشفى، ستعلم أن أمامك مشواراً طويلاً.
- وضع يده على صدره، تماماً فوق خافق لا يكف عن الحنين، بحث

عن حافظته، عن بعض من ضفيرة وصورة لدمعة وحيدة اختلطت بكحل العين، وابتسامة رائعة غريبة، أدركت أمه أن المغزى أكثر اتساعاً مما بدا، أخرجت الحافظة من عبها، تماماً من فوق خافق لا يكف عن أنين صامت، مدّت يدها بفرح عزيز، لأول مرة تسمح لدمعة واحدة أن تسقط على خدها، مسحتها بيد ومدّت بالأخرى الحافظة إلى زيد.

- احتفظت بها إلى جوار قلبي وكنْتُ على يقين أنك ستعود.

واصلت الشاحنة سيرها شرقاً، تمايلت على جنباتها، طوت الأرض خلفها عبر طريق وعرة، بينما رافقتها شاحنة كبيرة ملأى بجنود الصحراء، إهتزت أجساد المعتقلين المكდسين بعضهم إلى بعض على ظهر شاحنة مكشوفة تحت لهيب شمس حارقة، بدأت أسوار السجن تغيب عن سطح الأفق، بينما امتدت الصحراء بلا أفق من الناحية الأخرى، واصلت الشاحنة المتهالكة سيرها باتجاه معتقل باير في عمق المدى المبطوح على رمال ساخنة، كانت أعين الأسرى معصبة بقطع من القماش، وأيديهم مكبلة خلف ظهورهم والرحلة شاقة وطويلة، كان سيف الحرّ يصفعُ الوجوه، تصبب النتح اللزج على أجساد الرجال شبه العارية، وكان أنين البعض يعلو أحياناً على صوت ماتور الشاحنة الذي لا يخفت، صفع الهواء المحمل برمال ساخنة وجوهمهم، فجأة صرخ أبو مصطفى من عمق أحشائه:

- توقفوا... توقفوا... أكاد أموت.

ظَلَّ على صراخه حتى توقفت الشاحنة، ترجل أحد الجنود الذي جلس إلى جوار السائق، وقال بصوت غاضب:

- من الذي ينهق؟

- أكاد أنفجر، لا أستطيع الصبر، أريد أن أبول، أجاب أبو

مصطفى.

- بُل في ثيابك، صرخ الجندي بغضب.
- وعاد من جديد إلى مقعده جوار السائق، عاودت الشاحنة سيرها تطوي الأرض خلفها، بينما تعالى أنين الرجال، صرخ أبو مصطفى من جديد:
- توقفوا لعنكم الله، توقفوا أيها المرتزقة السفلة.
- توقفت الشاحنة أمام مدى صحراوي بلا أفق، ترجل الجندي، شدَّ أبا مصطفى من ياقة قميصه البالية، فكَّ قيده، أتي بكيلة ماء فارغة من على جوار برميل الوقود:
- تبوّل هنا .

قال الجندي لأبي مصطفى، الذي استغرب لماذا هنا في هذه الكيلة وليس على الرمال، لكنه لم يكن بوارد المجادلة، بال ملء الكيلة، رفع الجندي بندقيته، وقال اشرب ما في الكيلة وإلا أطلقت النار عليك.

همَّ زيد، يللم نفسه وقلبه المشطور إلى نصفين، ليس فقط من صدمة فقدان للزوجة والأبناء، بل لما آلت إليه نتائج الحرب، خاصة أنه كان قد فقد وعيه قبل سقوط الأحياء الغربية من المدينة، وقبل إعلان دولة إسرائيل على معظم أجزاء فلسطين، كانت لحظة اليقظة أقسى من زمن الغيبوبة والغياب، تبعثر الأهل والأصحاب على شتات من الدنيا وشاسع من الألم والخيام، ما إن استعاد وعيه وحطَّ على تراب رخو، قاوم إحساساً غريزياً بعدم الاعتراف بالهزيمة والفشل، وبعيداً عن أي رغبة في الانتظار أو التفكير بضرورات الجاهزية والاستعداد، شحَنَ الروحَ بما تبقى من عزيمة أنهكتها الجراح، وجد نفسه في الميدان من جديد، مشى في الشوارع المقفرة بين ركام البيوت التي دمرتها الحرب، بدت وجوه المارة مصفرة كأنها أصنام منحوتة بالصخر، لأول مرة

يشعر أن وجوه الناس تبدو غريبة هاربة إلى اللاشيء، بات الناس بلا أشكال واضحة ولا أسماء، فَتَشَّ في الأنحاء عن بواقي أجزائه الضائعة وبندقيته الصدئة، كانوا هناك عند بوابة الوعد المخبأ بالصدور، بعض من شباب المدينة أقسموا أن لا يهدأ بال لدولة العدوان، تحدثوا عن إعادة تنظيم الصفوف، واستطلاع توجهات الحكم الجديد، إلا أن عودة عبد الله التل حاكماً للقدس، بعثت في نفوس البعض شيئاً من الاطمئنان، وقد كان للرجل أيادٍ بيضاء إلى جوار المقاومة والمجاهدين أثناء الحرب، مع ذلك بدت الأمور مختلفة، وسرعان ما ظهر أن أيدي الرجل مكبلة بمن فوقه من ضباط إنجليز في الجيش العربي، خاصة سيئ الذكر كلوب باشا، لذلك عاد الرجال إلى التنظيم السري والعمل بعيداً عن الأنظار، أعاد زيد الاتصال بوعد الذي قاد عمليات التفجير خلف خطوط الأعداء، لكنه بقي حذر متوارياً عن الأنظار، لم يتغير في واقع الثورة شيئاً، كأن عهداً ولى، لكنه سلم مهامه لعهد آخر. تمكن أبو جريس من تجهيز المخابئ المناسبة لبعض المطلوبين، كان مهران جاهزاً دائماً، عمل أبو جريس مدرساً للغة الإنجليزية في مدرسة الرشيدية باب الساهرة قرب المتحف، ثم سرعان ما فصل بسبب أفكاره الخطرة وتأثيره الوطني على التلاميذ كما كَتَبَ مدير التربية في كتاب الفصل، ثم ليس سوى العمل الحر، قال أبو جريس لنفسه، فتح له دكاناً للبقالة في باب الزاهرة إلى جانب زاوية الهنود، نبذ الخمر وأقسم أن لا يعود إليها مهما حصل، طلب من عمر أن يُقنع زيدا بالذهاب إلى منظمة الصليب الأحمر لطلب البحث عن نرجس، راقَ هذا الاقتراح لعمر، أخبرهم مندوب الصليب أن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت، لكنه وعدَ بعمل كل ما يلزم لمعرفة أخبار نرجس والأطفال، حتى لو تتطلب الأمر الكتابة

إلى جنيف، سرَّ زيد وبدا السرور على وجه عمر وأبي جريس.
 فحَّ الرمل في أوصال اللحظة أنفاسه الملتهبة، تجانب المنسيون على
 حواف السراة من القبط فيء الخيام، هرش بطة ساقه وعاد إلى غفوة
 لا تغني من ثقلها عما يحتاجه السدمير من راحة، بعد ساعات طويلة
 قضائها في ملء شربات الحراس وزير الأمر دُحام دون أن يسمح له في
 جغب ماء يطفئ به ظمأه، وكان قد أعدَّ الطعام للعساكر دون أن يُعطى
 كسرة خبز، نفر من وخزٍ وشدَّ طرف ثوبه البالي إلى الأعلى وهرش بقوة،
 لكنه هذه المرة قفز من فزع وقد سمع كشيش الأفعى وفشيشها، ثم رآها
 تتلوى على بطن الرمل، رقطاء همَّرت ثم همَّرت الأرض وأفلتت من
 عيدان مطارديها بعد أن فحَّت سُمها ولدغت السدمير في جانب ساقه،
 غضب الأمر دُحام لأن الرقطاء تسربت قبل أن يأذن لها بالانصراف،
 فهو، كما يطيب له أن يقول، سيد الصحراء الذي يطيعه جندها من
 قبط وبرد ورميل وضب وعقارب وأفَاع، ولطالما هدَّد بهم أسرى خيامه
 البالية.

حضرت شاحنة المياه باكراً، تسعى فوق الرمال الساخنة، بعد غياب دام
 أسبوعين، لآبَ فيها الرمل والضب وسكان الخيام، سمح الجنود لأبي
 رباح وأبي هشام وأبي طلال بالخروج لتفريغ الماء بالبراميل الحديدية
 الكبيرة.

كَبُرَ عادل بأسرع مما توقع، حمل دلات الحليب وجال على بيوت الناس
 فجراً، وحمل على كتفه عصا الزان الطويلة المشدودة إلى طرفيها بجبلين،
 وأحضر الماء من الماسورة الجديدة في حارة السعدية قرب بقالة السمان،
 تجمع الكثير من الرجال والنساء والأولاد حول ثلاثة صنابير تدر الماء
 في أوعية من التنك، يوم الخميس من كل شهر، هناك كانت أدهمية أيضاً

تنقل الماء لبيتها البعيد.

تساءل أبو طلال:

- لماذا نفرغ الماء من الخزانات الناقلة إلى البراميل في الصباح، بينما لا يسمح لنا أن نشرب منه إلا عند المساء بعد أن يغلي من حرارة الشمس؟

- أحياناً لا تحتاج الأسئلة إلى أجوبة، أجاب أبو هشام.

نظر أبو طلال يميناً ويساراً، وعندما تأكد أن الحارس منشغل بأمر ما، أخذ غرفة من الماء بشكل خاطف، عبها بينما خترم الآخرون وهشوا، وتلفتوا حولهم بفزع شديد خشية أن تدرك أبا طلال أبصار الحراس من على الأبراج العالية.

ارتفعت زغرودة عالية من حنجرة أدهمية فرحاً بشفاء زيد، نهرتها أمها عن الاستمرار قائلة:

- "خبي فرحك" لأن كثيراً من الناس في كربٍ شديد.

أقامت أم نصرت مولداً بهذه المناسبة ضمّ العائلتين، عائلة عمر وعائلة أم نصرت، كان عادل هناك وأدهمية أيضاً، وبعض الجيران الذين ساءتهم جدا أحوال فاطمة، طلبوا من والدتها أن تفعل المستحيل لعلاجها، لأن الحي من دون الست فاطمة ليس هو نفس الحي كما قالوا، قالت أم رباح، فاطمة أصابتها عين حسود، وقرأت لها المعوذات، قالت أم مصطفى لا بدّ أن إحداهن قد عملت لها عملاً، عليك أن تذهبي لأم سند لفك العمل يا أم عمر، نظرت العجوز ذات الشعر الأبيض المنفوش أم خليل وقالت:

- هذا كلام فارغ، علينا أن نأخذها إلى طبيب حتى لا تتدهور حالتها أكثر، إن الفتاة تعاني من صدمة الهزيمة، إنها تلوذ إلى الوهم لأن

الواقع مفعج والحقيقة تلتهم الوعد.
 زمت أم مصطفى شفتيها، ورمقت أم خليل بنظرة استهجان، وتمتت:
 - "صدمة إيش ووعد إيش يا مستوره، البنت معموللها عمل".
 أم عمر وحدها تدرك أين هي فاطمة الآن، تعلم أنها تسكن داخل
 حُلُمها الطويل، تحرك أحداثه، تعود به بالاتجاه المعاكس نحو تلك
 اللحظة قبل أن تسهو عيناها وتنام.

تلوبُّ الروح حول سراب النهار، ليس سوى الغبش ولهب يحتاج الجسد
 وعرق لزوج يُمرغ الزغب والأحلام، فيجف الريق وتتملح الذكريات،
 يتلوى السدمير على ظهر الزمن المتوهج ويحزُّ الحرّ ترقوة الصبر، يرفع
 أبو وهيب يمين الوعيد يُلوِّح بخيزرائته بينما يَنْتَرُ بيساره لجام البسوس،
 تنضو دليلة عن جفن المهلهل كديد القذى وتسكب صهباء عشق معتق
 في فيافي الروح، يصب فرحات الشاي والوعد بالفرح والأعراس لرواد
 المقهى في حي الواد، وتهبط أحمال الليل على كواهل الرجال، فيجثو أبو
 هشام على ركبة النار يمتص السُّم من الساق المصفرة ويصق في وجه
 الرمل وحراس الأبراج وسيد الرمل والصحراء، يخمش السدمير من ألم
 صرة الهواء، ويعض بالنواجذ على شفة الصمت.

لم تُغادر أدهمية الجوار، ظلت تحدد من خلف نافذة غرفتها حيث
 يجلس بين الفتيان، يافع الجسم أجعد الشعر في نظراته تحفز لا يخلو
 من جسارة وإقدام، تمت لو تعلم أي نار تلك التي تطلق من عينيه كل
 هذه السهام الحادة الغاضبة، لا يبدو كغيره من الفتيان، يميل عادل إلى
 الإنزواء وتشغله هموم الكبار، أخذ عن عمته فاطمة الاهتمام بالعلم
 وحبَّ الناس، وعن نرجس فنَّ التواري عن الأنظار وإخفاء مكنون
 الرغبة والإحساس، إرتدت مشربية النافذة العليا برفق، أطلت بأهدابها

السمراء، أوقدت في قلبه نار الشوق والانتظار، رفع رأسه إلى أعلى، وعندما تلاقت عيناها، انتحرت لغات وولدت لغات أخرى.

عند المساء غادر الجيران، تقدم زيد من فاطمة ببطء شديد، نظر إليها بحنان شديد، ابتسم، مدَّ يده إليها، أمسكت بها، نظرت إليه.

- عليك أن تعودى بسرعة يا فاطمة، يجب أن نناضل معاً، أنت، أنا، عمر، أبو جريس، وعد، وباقي الرفاق، حتى نستعيد نرجس والأولاد، ليس سوى أن تعودى يا فاطمة، وعد ما زال على عهد الذي قطعه لك يوماً، لن يحميد عنه، سيزول الاحتلال، ويأتي بفرسه الأبيض ليحملك نحو الحرية والمجد وعش الزوجية، "وتعيشوا في تبات ونبات وتحلفوا صبيان ونبات"، قال لي وعد ونحن نتقدم خلف خطوط الأعداء بينما القذائف تتساقط من حولنا، والموت أقرب للنفس من حدِّ الكلام، إذا عدت دوني فقل لفاطمة "إن معرفتي لها كانت أجمل شيء حصل في حياتي".

نظرت إليه، لمعت عيناها من جديد، نظرت من نافذة الغرفة، كانت أم نصرت قد عادت إلى دوشكها في حاكورة البيت إلى جوار مقام زوجها، سحبت فاطمة زيد من يده، سارت به إلى النافذة، حدَّقا إلى الغرب بعيداً، سمعا صوت صافرة القطار في الجانب الآخر من المدينة، قبضت على يده بشدة، نظر إليها، قال:

نرجس خلف هذا السور وخلف هذا الباب، كم تبدو المسافة قريبة، سوف تشرق الشمس يوماً وسيعود صوتك من جديد، عندها سفتح هذه البوابة لا محالة.

- لماذا لم يحققوا معنا ما داموا يعتقدون أن لبعضنا صلة بحادثة القتل تلك، وجَّه أبو طلال سؤاله لزيد، باعتباره أعلى رتبة بين الرجال

- الموجودين داخل معسكر الاعتقال.
- لأنهم يعرفون أن لا علاقة لأحد منا بالأمر، أجاب زيد.
 - لماذا يعتقلوننا إذاً، أضاف أبو طلال.
 - ربما لأن مُطلق النار كان صديقاً لبعضنا، قال أبو رياح.
 - لماذا قتلوه على الفور ولم يعتقلوه للتحقيق! سأل أبو طلال.
- انتباه، صرخ حارس الساحة، "اجمع"، هرع الجميع إلى الساحة، اصطفوا بالطابور أمام براميل الماء، سوى أمر المعتقل ملازم أول دُحام عقاله، ومسّد بيده غطاء مسدس على حزام خصره، فردّ قامته، تقدم لاستعراض الطابور.
- دقق رجل ذو شعر أصفر وبشرة باهتة برزمة من الأوراق بين يديه، ثم رفع رأسه، حدّق بوجه فاطمة وسأل بلغة إنجليزية لا تخلو من لكنة ألمانية:
- هل أنت أختها؟ تقدم أبو جريس، أجاب باتزان ولغة إنجليزية صافية: أجل، لكنها بحالة صدمة منذ الحرب، وقد لا تستطيع أن تجيبك. هزّ الرجل رأسه، وسأل:
- من منكما زوجها؟ أجاب أبو جريس:
- أخي وصديقي أبو فوزي وأشار إلى زيد، مدّ الموظف مغلفاً مفتوحاً، يتضمن تقرير الصليب الأحمر في جنيف حول الإجابة التي أفادت بها جهة الاختصاص بإسرائيل بخصوص نرجس وأبنائها، شحب وجه أبي جريس وتسارعت أنفاسه وهو يُطالع التقرير وينظر إلى زيد وفاطمة، ثم قال بصوت حزين:
- إنهم يدّعون أنّ لا وجود للأسماء المستفسر عنها من قبل الصليب الأحمر في سجلات الحكم العسكري، ماذا يعني هذا سأل

عمر، برقت عينا زيد، نظر إلى عمر وقال: ربها قُتلوا. فجأة نهضت فاطمة، ضربت زيد بقبضة يدها، صرخت:

- لا... لا... نرجس... لم... لم تمت.

انتحبت تقدم عمر منها، ضمَّها إلى صدره، اهدئي، قال، إن اليهود يعبثون بأعصاب زيد، فلهم معه ثارات كثيرة.

أصرَّ أبو جريس على زيد أن يتقدم بطلب إلى مكتب الأمم المتحدة، بناء على طلب لجنة الصليب، قال: عليك يا أخي أبا فوزي، كما يطيب له أن يكنيه، أن تطرق كل الأبواب، أن تكتب لكل صاحب علاقة، هنا، وهناك، حتى لو استنفرت أمم الأرض كلها، عليك أن تسعى لاستعادتهم بكل وسيلة.

انتابه إحساس غامض، دفعه إلى مسافات من زمن غادر من دون استئذان، أطرَقَ السمع إلى هاتف يهمس في جنبات الصدر فيشعل نار الذكريات، أطلَّ من على طاية الدار في حي الشرف، إلى مسافة على بعد خطوات قليلة، طوى الربيع سجاده الخضر على مدى أفق فوق تلال قريبة، لكنها باتت مستحيلة لا تطاها الأقدام، رنت عيناه إلى شجرة خلف البوابة من الناحية الأخرى، مدَّت أغصانها حتى لامست جدران السور عند باب النبي داود، متجاوزة خط الحدود ومختربة بأغصانها خط الهدنة ودفاتر الجنرالات، تعالت أصوات قاطرة مغادرة من التلة القريبة إلى حيفا، ناحَ في الجنبات سربُ حمام، حلَّقَ عالياً ثم حامَّ على بعض من بقايا أُمْنِيات، وحيدا سار في فقر أيامه المتعبة، فتش في زوايا العمر عن بقايا ذاته المبعثرة بين مستحيل وأبواب موصدة، حَنَّ إلى دفء البيت في القطمون، لأحضان نرجس عصر يوم ماطر، لضحكة جمال لخربشات فوزي على جدران البيت، قد تمنعك الحرب

من البقاء إلى جوار من تحب، ويهبط قلبك حزناً، غير أن الأهم كيف تبقىهم أحياء في قلبك أنت وتزرع الفرح في الجوار، كم أحب أسوار القدس، عشقها مثلما عشق عيني نرجس الحارستين، لكنهم اليوم قد جعلوا من الأسوار سداً بينه وبينها، غرقت كل لحظات عمره الجميلة في بحر بعيد، مدّ يده إلى جيب سترته، قبض على لحظة الوعد، كان لا بد من الحنين وإشراقة الصبح وبسمة وجهها، وخصلة من ضفيرة شعرها وصورة لدمعة وحيدة تختلط بكحل العين، ذكرى وسداً منيعاً بينه وبين النسيان.

كان النوم مستحيلاً، قلب ليله بين يقظة وأفكار وذكريات مؤلمة، تعود أبو طلال على ألم واحد في حياته، ألم المرض المزمن الذي عاناه منذ صباه، أما الآن فإنه مجبر على تحمل ألم جديد، أحب رفقة زيد وأبي رباح وأبي مصطفى، لكنه طالما خشي نتائج هذه الرفقة، حاول دائماً أن يتجنب الانخراط مع المجموعة في شأنهم السري، اكتفى بأضعف الإيمان، كره الاحتلال في قلبه وتمنى له الهزيمة والزوال، وكره الظلم، وتمنى بقلبه العليل أيضاً أن يأخذ الله على يد الظالمين، لم يتصور أن رفقة البريئة، المكتفية بلعب طاولة الزهر مع أبي مصطفى أمام فرن أبي رباح ستحملة إلى هذه الصحراء اللعينة.

- هل أنت نائم؟ سأله بهمس ساكن الفراش إلى جواره.
- ليس بعد أجاب زيد.
- بماذا تفكر؟
- بأشياء كثيرة.
- هل سيُخلى سبيلنا؟
- لم يطلب منك الأمر دُحام أن تتحسّس رأسك، آجلاً أم عاجلاً

- سيطلق سراحنا.
- لماذا ليس عاجلاً.
- ربما يحتاج أصحاب الأمر استخدام بعض مظاهر القوة لفرض سيطرتهم على البلاد.
- سامح الله أبا منصور، ظلّ "يقول" على الحرب حتى وقعت في حضننا مباشرة، ترى متى تنتهي هذه الحرب اللعينة، ونعود إلى حياتنا الهادئة بعيداً عن الخوف والسجن والتهديد.
- عليك أن تتمسك بالأمل دائماً، ومع الإيمان والعزيمة والنضال، يصبح الأمل ممكناً
- لا أفهم، كيف سيصبح الوضع بعد كل هذا، هل ستعود القدس كما كانت؟ هل سنكون يومها أحياء؟
- ستبقى القدس هناك دائماً، حتى لو لفها الظلام طويلاً، لكن، قد لا نكون جميعاً أحياء، تلك طبيعة الحياة وبدييات النضال، المهم أن التضحية التي تُقدمها أنت، ستجعل حياة أبنائك أفضل.
- هل هذا أكيد؟
- علينا أن نؤمن بذلك، ونأمل به، بعض الناس يخشى أن يأمل بما هو أفضل، لا تكن منهم يا أبا طلال، وإلا أصبحت حياتك لا تطاق.
- لا شيء أجمل من صوت البابور في ليلة شتوية ماطرة، وأنت تضع غطاء تنكة تالفة مخرمة بثقوب كثيرة، سرعان ما يتوهج سطحها وتبعث الدفء في العروق، لولا أنّات زوجته هدى من ألم المخاض لغفا عمر على أنغام بابور الكاز وطقطقات حبات المطر على زجاج نافذته المطلة على حوش البيت.
- يبدو أن الموعد قد حان، قالت بصوت خافت مُرتعش.

ساد الصمت إلا من صوت البابور وطرطشات الودق على زجاج النافذة، أغمض عمر عينيه بهدوء مستمتعاً بسمفونية الرّشّ والكاز، فجأة صرخت هدى فقفز عمر مذعوراً، بينما استيقظت أمه وقد أدركت من دون كلام مغزى الصرخة المفاجئة، سحبت أنفاسها بثقل ونهضت، وكانت قد أصابتها باقة من الأمراض في السنوات الأخيرة حسرةً وألماً على فراق نرجس وحال فاطمة والقدس، عبرت حوش الدار تحت المطر إلى غرفة ابنها عمر، تقدمت من هدى، وضعت يدها على رأسها الذي بدأ يتصبب عرقاً، أطرقت السمع إلى صوت أنينها وتنهدات أنفاسها، تمتمت بالمعوّذات، نظرت إلى عمر، وقالت:

- اذهب بسرعة إلى الداية أم جاسر في عقبة الشيخ حسن، وارجع بها حالاً.

كانت الريح تعصف بشدة، لكن جدران المدينة في الأزقة الضيقة قاومت الريح بعناد، تساقط المطر غزيراً، هرول عمر غير آبه ببلل أو برد، كان يقفز من فوق عدة درجات معاً وهو يعبر عقبة الشيخ ريحان، لم ينسَ أن يطلب بركات شيخ المقام المبارك، عندما مرَّ إلى جواره على عجل هذه المرة، وتمتم في سره: اللهم ارزقني بمن يساعدني على تحقيق مبتغى الشيخ الجليل، تبللت ثيابه حتى سأل المطر من ناصيته ومن ثوبه حتى أخخص قدميه، قرع الباب بشدة، أطلّت عجوز تُحقّق وتضع على رأسها ملاية بيضاء.

- اللهم اجعل طارق الليل خير، قالت العجوز.
- أنا عمر بائع الحليب.
- مثلك لا يخفى على الناس يا ولدي.
- زوجتي في حالة ولادة.

- سبحان الله في هذه الليلة العاصفة، انتظر لحظة.
- وسرعان ما عادت تهول وتضع على نفسها ملايتها السوداء وتتمتم كأنها تُحدث جمعاً من المرافقين، ثم قالت بصوت مرتفع:
- لماذا لم تحضر لي دابة تساعد على الوصول بسرعة، ما دمت على عجل من أمرك.
- لا تقلقي فإن بيتي قريب من هنا.
- وهل أجهل أين تسكن، ألم تلد زوجتك ثلاث على يدي هاتين.
- أجل، أجل، هلا أسرعتي إذاً.
- أسير بأقصى قدرتي يا ولدي، أنا عجوز هرمة ولست في مثل شبابك.
- قالت ويدها ترتجفان من البرد، بينما تتفادى زخات المطر برفع ملايتها إلى أعلى.
- هل أحملك على ظهري؟ قال.
- لا تفقد صوابك يا ولدي، ستكون زوجتك ووليدك بخير.
- إذاً أسرعي أرجوك، قال وهندامه يقطر ماءً.
- عليك بالقناطر والجدار، سر إلى جوار الجدار حتى لا تبتل، جدران المدينة وأزقتها الضيقة حنونة مثل الأمهات يا ولدي تظلل المارة بالصيف وتحجب الريح وتقي قليلاً من المطر في الشتاء، قالت الداية.
- خطى إلى جانب الجدار خطوة واحدة، وأتبعها بأخرى، لكنه لم يُطق الاستمرار، عاد وأخذ وسط الطريق، وقال:
- السير إلى جوار الجدار آمن من البلل لكنه لا يطاق.
- جال أرض الحوش جيئةً وذهاباً، لا يدري لماذا يشعر بتوتر هذه المرة، هل هي العاصفة الماطرة، أم مرض أمه، أم غياب نرجس، أو ربما

غيبوبة زيد، أو لعله المولود الجديد، الذي ستحملة إلى الحياة أيدي أم جاسر الهرمة هذه المرة؟ تعالت أصوات هدى، تمتمت أمه بالمعوذات، تسارعت نبضات قلبه.

- انفخي بشدة.

قالت أم جاسر، ثم تابعت بصوت حاسم، وأشارت إلى عمر الذي أطلّ من خلف زجاج النافذة المجاورة:

- ابقى خارجا، ابتعد هناك.

وصرخت بوجه هدى:

- انفخي بشدة، تابعي.

وما إن سال الفظاً¹⁸² من هدى حتى أتبعته صرخة الألم بشهقة الراحة، وقد أطلّ رأس الوليد، تقدم عمر من النافذة، أمسكت أم جاسر الوليد من كتفيه، سحبتة برفق، وقالت:

- تابعي، انفخي، لا تتوقفي، ليس بعد، التفت جانبا نظرت شزراً إلى أم عمر وقالت:

- ناوليني المناشف يا أم عمر، تحركي أيتها العجوز البائسة.

سادت لحظة صمت، تلوى رذاذ من غبار حرّكه خيط من النور الذي تسلل عبر النافذة من قنديل معلق على الجدار، بدا كأنه يعبر مسافة بين لحظتين، يتحرر من علة الزمن، رفعت أم جاسر الوليد من أقدامه، ضربت على قفاه بشدة، صرخ، نفذت روحه إلى عالمها الجديد، بكى من صدمة الألم الأول، أجهش في وعي ذات غائبة، سكنت الريح، توقف الغدق، تعالت أصوات الوليد، هرعت فاطمة، أنثى هتفت أم جاسر، بكى عمر فرحاً، تنهدت هدى، حدّقت فاطمة في وجه عمر،

١٨٢ السائل الذي ينزل من المرأة قبل الولادة

برقت عيناها، نظرت ناحية هدى تقدمت منها، قبلت وجنتيها، نظرت إلى ناحية أمها.

- نرجس، نُسَمِها نرجس إن قبلت بذلك هدى.

ابتسم عمر، تحفز الحلم، وجه فاطمة المطل مثل برتقالة الصباح، لا يبعث فيه الفرح ولا يوقظ اللغة والكلمات على شفيتها الباردتين إلا أسم نرجس.

للصحراء أسرارها وأحوالها المتبدلة العجيبة، ما كادت الشمس تشرف على المغيب، حتى هرات الرياح ولطمت الخيام والوجوه، حجبت الرؤية تماماً، توتر الحراس فهائوا وجائوا ثم اقتحموا خيام المعتقلين، كبلوا الأسرى بعضهم إلى بعض بحبال غليظة، ربطوها إلى أوتاد حديدية كبيرة مغروزة بعمق في بطن الأرض، تكوم السجناء بعضهم إلى بعض وهم يهرأون، بينما أشعل الحراس النار في براميل كبيرة أمام خيام الحراسة. شدّ الحبل إليه ونادى في أديم الظلام:

- لم أشهد برداً قارساً مثل هذا في حياتي، حتى في أقسى ليالي القدس الباردة، أي صحراء لعينة هذه، حرّها قاتل وبردّها قاتل، بردٌ ينفذ إلى العظام مباشرة، أكاد أموت، لماذا لم يُبقونا في سجن المدينة، أي عقل ماكر ذاك الذي جعل هذا المدى المفتوح سجننا؟ لو بقينا في سجن المدينة لتمكن الأهل من زيارتنا، حتى ولو تكبدوا بعض مشقة في سبيل ذلك، لماذا أخذتم على أنفسكم تحمل عذاب الحرب، ثم تابعتهم بإصرار نحو هذا المصير من المشقة والألم، حتى جئتم بنا إلى هذا المعتقل البائس، أينما وليت وجهك لا تُبْع فيه ولا قبلة، بمناخه الملعون صيفاً وشتاء، بعيداً عن أهلنا وأحبتنا، ألم يكن من الأجدى أن تتركوا الأمور تسير على حالها، وتركنا إلى الراحة في بيوتكم ومع أهلكم، دعوا الله يدبر

- كونه، قال أبو طلال.
- قد يكون في اليأس والاستسلام والقنوط والاستكانة راحة، لكنها راحة مؤلمة، أما في النضال والشجاعة والإقدام والتضحية، يا أبا طلال، هناك ألم مريح، قال زيد.
- إننا نتألم هنا دون أن نغير شيئاً، سيذهب عذابنا سدى، كما ذهب عذاب الآلاف قبلنا دون جدوى، ألا ترى: ذهب الرجل الذي أنتم هنا بسببه دون أن يتغير شيء، بل الأدهى أنكم أتيتم بي معكم إلى هذا المكان الرهيب.
- هل كان مجلسنا أمام فرن أبي رباح يضايقك إلى هذا الحد يا أبا طلال؟ سأل زيد.
- بلى، كان يصعب علي فهم كثير مما تقولون، وكنت أشعر أنكم تدبرون أمراً خطيراً، لكن ليس لي أصحاب سواكم، مجلسكم كان أمراً مكرهاً لا أقوى على اعتزاله، "قد تأكل العصافير وحدها، لكنها لا تغني إلا معاً".
- أما زلت تعاني من البرد؟
- أجل، أكاد أشعر أن أطرافي ليست مكانها.
- لا بأس، القِ عليك قطعة الخيش التي تحت قدمك، وستشعر بالدفء فوراً قال أبو رباح.
- فعلت ولم يُجِدْ ذلك نفعاً.
- عليك أن تتغلب على مخاوفك أيها الصديق، إذا دهمك البرد من داخل جسمك، فلن تشعر بالدفء لو جلست قريباً من موقد النار عند خيمة الملازم أول دُحام.
- أما آن لهم أن يكفوا، كيف لهؤلاء الحراس أن يشعلوا النار

هناك قريبا من خيامهم، بينما يتركوننا نهبا لهذا البرد القارس، يا رب متى نرتاح من هذا العذاب.

- إن الراحة الحققة هي النضال من أجل ما تحب، أما التعب والمشقة في سبيل ذلك فهي مسألة ثانوية، فما بالك عندما يكون هذا النضال من أجل وطنك وبيتك وعائلتك، إن شئت يا صديقي أعطيتك خيشتي هذه، قال بن يحيى.

- إخرس يا ساكن الحظيرة، نم وإلا جعلتك طعاماً لذئاب الصحراء، صاح الحارس من أمام الخيمة.

رفع غطاء التل الأبيض عن وجهها، برقت عيناها السوداء وان، أخفضت رأسها خجلاً، لامس زيد بيده جانب وجنتها، رفع رأسها بحنان شديد، نظرت إلى عينيه:

- ما كنت أعلم أن التركية فيكات سكبت كل هذا الجمال في حقول عينيك الخضراوين، همست بود.

ابتسم، لامس أطراف شعرها المنساب على كتفها وعلى ثوبها الأبيض. ما سمعت هذا الغزل الرقيق بحق عيني من أحد قبل الآن، أجاب زيد.

- عندما أخبرتني أمي أن فداثياً من فرقة التدمير طلب يدي، أخفيت فرحي خلف ابتسامة خفيفة، بينما قلبي خفق بعنف رهيب، خَشِيتُ أمي كثيراً من عودة تلك التجربة التي عاشتها مع والدي، أن تتزوجني من ناثر يعني أن يخفق قلبك خوفاً على الدوام، هم أصحاب فضل وشهامة، لكن الحياة في ظل مجاهد ليست سهلة يا ابنتي، قالت أمي. ومع خجلي الشديد على غير عادة الإناث، قلت أريده يا أمي، تزوجتك حتى أحياء مع قلب يخفق لهفة على بطل يحمل الوطن وصورتي

- عهداً في حنايا قلبه الثائر.
- أن تكون وطنياً مخلصاً مجاهداً في سبيل الله والوطن ليس إلا التزاماً لا فضل في ذلك يا زوجتي الحبيبة .
 - ما أعظم حظي السعيد، مجاهد، متواضع، وفوق ذاك صاحب عيون ساحرة جميلة، أجابت نرجس.
 - جاءت الأخبار مربةكة من الصليب الأحمر، قال رجل ذو لحية شقراء ولغة إنجليزية ولكنه سويسرية هذه المرة:
 - يبدو أن الأطفال بخير، لكننا لم نتمكن من مشاهدتهم، ذهبنا إلى العنوان الذي أعطي لنا، حيث تسكن عائلة يهودية رفض أفرادها الإجابة عن أسئلتنا، بينما تمكنا من الحصول على إفادة شفوية من الموظف المسؤول في الحكم العسكري، الذي أفادنا بعد إجرائه الاستطلاع اللازم أن الطفلين بخير، وسوف يوافقونا بمكان وجودهما لاحقاً، بينما لا توجد أي أخبار عن السيدة نرجس.
 - أخفى أبو جريس هيئته¹⁸³ مما سمع، وترجم بأسى لا يخلو من ابتسامة مفتعلة لزيد وعمر أقوال الموظف السويسري، نظر أبو جريس بآلم إلى فاطمة، التي رافقتهم إلى مكتب الصليب الأحمر كالعادة، هزت رأسها بحزن، شعر الجميع أن فاطمة تغيب وعياً عن كل شيء في الحياة، إلا عندما تسمع اسم نرجس، تفتح عينيها تستعيد وعيها، تطرق السمع بأذنيها، لذا صحبوها معهم في كل زيارة لمقر الصليب الأحمر، علّ خبراً ساراً يعود بنرجس وفاطمة معاً.
 - عاش المليك، عاش المليك، سأميا مقامه، أنشد طلاب مدرسة دار

الأولاد في طابور الصباح بينما وقف عادل إلى جوار والده أمام غرفة المدير.

- طلبت منك الحضور إلى المدرسة يا سيد عمر، كي أوجه تحذيراً شديداً لولدك عادل، وحتى تكون على بينة من أن تكرار ما فعله سيؤدي إلى فصله من المدرسة، وربما يعرضه لعقوبة أشد، تؤثر على حياته ومستقبله إذا وصل الأمر إلى أي جهة أمنية، إن ابنك يُعرض الطلاب على التظاهر من أجل استعادة الأرض المحتلة، نحن لن نسمح بزج الطلاب بهذه الأمور التي لا تعيننا، هزّ عمر رأسه، بطريقة لا توحى بقبول ما يقول المدير ولا تنم عن رفض، نظر إلى عادل وابتسم، ودّ لو عانقه، وقد أነع زهرُ الوعي في ذهنه الصغير، أحسّ بفخر أن الذات تنمو مبكراً لدى ولده وتتخطى اهتمامات الصغار إلى هموم القلة من الكبار، لم يفهم المدير مغزى تلك الابتسامة على شفاه عمر، لكنه أعاد التشديد على تحذيره لعادل في حضرة والده الذي غاب في نشوة اللحظة الناهضة.

شبرا، قمرة، شمس، نجوم، انطلقت ربي إلى ساحة الحارة مع اثنتين من بنات الحي، وبید إحداهن جبل غسيل طويل اختطفته من على سطح المنزل، وقفت إحداهن مقابل بيت أبو رباح، أمسكت بيدها طرف الجبل، وأمسكت الأخرى طرفه الآخر، بينما كانت تقف قريباً من بيت أبو خليل، كانت ربي قد أخذت مكانها في الوسط بينهما، تففز وزميلتيها تلويان الجبل وينشدن معاً: شبرا قمرا شمس نجوم. كانت ربي كلما قفزت أرخت يديها على طول جسدها حتى لا يتطاير فستانها الفضفاض، بينما قَيَّأت شعرها وأشارت بطرف عينها لصبي يقف على ناصية الطريق وابتسمت، أطلت أم رباح من نافذة بيتها، زمت شفيتها،

شهقت شهقة عالية، ونادت بأعلى صوتها:

- يا هدى يا أم عمر، يا عيب الشوم، اللي استحو ماتوا، يا مقصوفات الرقبة، مش عيب عليكم تلعبوا بالحارة مثل "حسن صبي".

تركت أم عمر ما بيدها وتوجهت وهدى نحو الباب على صوت أم رباح، ضربت هدى على صدرها بشدة، عندما رأت ابتتها ربي تنط الحبل في الحارة، دون حياء من المارة، سحبتها من أذنها كأنها تسحب قطعة مشاكسة، خرج عمر من غرفته، اتركها قال بهدوء، ليست سوى طفلة بريئة، لم ترتكب ما يوجب الردع أو العقاب، نظرت أمه إليه، ابتسمت.

- إلى أين تنظر، قال أبو طلال، ليس خلف هذه الرمال سوى رمال.

- ليس بوسع هذا الرمل المكس في الأنحاء أن يحجب العقل عن ذكرياته ولا أن يمنع القلب عن الخفقان كلما حَنَّ لأحبائه.

قال عمر وهو يواصل التحديق في الأفق البعيد، حيث ما زالت ابتسامة أمه أمام عينيه، ووجه ربي الممتعض خوفاً من أمها، وشفة مدير المدرسة تتحركان بينما عادل يرنو بنظره إلى البعيد، لعله في تلك اللحظة كان يشق طريقاً في وعي الحاضر لجيل يتحفز لعبور مسار جديد.

غادر المحافظ مكتبه عند طرف شارع صلاح الدين المؤدي إلى شارع بن بطوطة، متجهاً إلى افتتاح مقر شركة الكهرباء في الشارع نفسه، وكانت الشركة دشنت مشرعها الأول وأوصلت الكهرباء إلى بعض من المنازل في المدينة وإلى المسجد الأقصى، كانت لحظة فرح لم يشعر بها الناس منذ زمن بعيد، وهم يستمعون إلى أذان العصر من المسجد الأقصى عبر مكبرات الصوت، انساب صوت الشيخ الأنصاري عذباً جميلاً في جنبات المدينة وأحيائها في لحظة واحدة، هرع الجموع من كل الأبواب

أفواجاً إجابة للنداء.

كَبَلُ الجند عشرة من الرجال من الأيدي والأرجل، تقدم الأمر دُحام من الجمع، استعرض طابور المُكبلين لآخر مرة، مَسَد على حزام مسدسه وعدل كوفيته بعناية، حدَّق بالوجوه الشاحبة وصاح بصوت آمر:

- اشحنوا جمع الفئران هذا إلى العاصمة، والله لو كان الرأي لي لأمرت بقطع رؤوسهم فوراً، وألقيت بأجسادهم لذئاب الصحراء، لكنهم هناك في العاصمة يُحضرون للتحقيق معهم ثم لمحاكمتهم. عادت الشاحنة المتهالكة تدبُّ على رمال الصحراء، تطوي الطريق الطويل وأيام العمر، تخطو نحو نهاية محتومة، نظر بن يحيى من تحت غطاء أحكم على عينيه، كانت يديه مكبلة إلى ظهره، وأقدامه مشدودة إلى سلسلة من الجنازير الحديدية التي تربطه بباقي زملائه المتكدسين على أرض الشاحنة كأنهم أكياس من الرمل، نظر إلى وجه فرحات، ابتسم، فظهرت أسنانه الصفراء التي دبغتها سجاير الهيشة، بدا الرجل مبتسماً، ما الذي يبهجك؟ قال بن يحيى.

- ألم تسمع أنهم يريدون محاكمتنا! بينما طلب الأمر دُحام منك ومني أن نتحسس رأسينا، اضحك لأن يدي مكبلة وأخشى أن يسقط رأسي دون أن أتمكن من تحسّسه.

ضحك باقي من في الشاحنة، صرخ أبو مصطفى: التزموا الصمت، إني أحذركم فأنا صاحب خبرة في مثل هذه الرحلات، لقد غيببت لثراً من البول في المرة السابقة لأنني صرخت من الألم، لقد امتنعت عن شرب الماء منذ علمت نبأ نقلنا من باير، أنا رجل ذو تجربة إني أحذركم: إن لم توقفوا ضحكاتكم هذه فقد نجبر على تجرع تنك الوقود المثبت خلف

الشاحنة.

مرَّ الزمن بطيئاً كأنه يجرُّ أثقالاً من الهموم، تسلل أبو مصطفى وأبو رباح من خيمتهما إلى خيمة زيد.

- علينا أن نفعل شيئاً لإنقاذ أبي طلال، أي عقل قدر وقلب ميّت ذاك الذي يسمح لنفسه أن ينهال ضرباً على أسير أعزل، لأنه أخذ جغب من ماء قُعاع لفحته جذوة الشمس الحارقة، أي قهر هذا أن يكون شرب الماء بموعد، والاستحمام بموعد، والطعام بموعد، والنوم بموعد، واليقظة بموعد، نكاد ننفق من العطش وقد نهش القمل جلودنا وأجسادنا التي أنتنت، لعنة الله على بـج بن، وعلى الملازم دُحام، وعلى الحراس وعلى المسؤولين وعلى الناس أجمعين، لقد أوسعوا الرجل ضرباً بعصي غليظة حتى سال الدم من كل أنحاء جسمه، إن بقي أبو طلال في عراء الشمس الحارقة لساعة أخرى فسيموت، إنه رجل مريض لم يشفع له مرضه، ولا هزال جسده، قال أبو رباح.

- ترى هل هذه سياسة مدركة أن يلقي بنا في هذه الصحراء ونعامل بهذه الوحشية، أم هو سلوك هؤلاء الحراس المتوحشين، سأل السدمير.

- إنها آلة قمع عمياء، ليس لها خطة ولا سياسة محددة، تتصرف بشكل غريزي. تجاه الخطر الذي تعتقد أنه يهددها، تبعده عن رأسها قدر الإمكان، لا شأن لها بما يحدث بعد ذلك، قال زيد.

- لا نـجاة لآلة كهذه، لا أشك أن ساعة آلة كهذه قد دنت، فقد ضاقت على فضاء الحرية، قال أبو هشام.

- لا وقت لتحليل سلوك هذه الجماعة المجنونة، الرجل يموت على هذه الرمال الساخنة سأخرج إليه حتى لو قُتلت دون ذلك، قال

أبو ربحاؤ.

- دعوني أحاول سحب أبي طلال إلى هنا وحيداً، لا داعي للمخاطرة بعدد أكبر من الرجال، قد أنجح، وإلا كما يقول أطفالي عندما أهم لمعاقبتهم، قتلة وبتفوت وما حدا بيموت، قال أبو مصطفى.

- لن تنجح قال السدمير، إنهم يبيتون أمراً لنا جميعاً، أنظر إلى الأبراج ألا ترى كيف يتحفز الحراس لإطلاق النار على من يقترب من أبي طلال.

- لا بد من تدبير مُحكم لوقف هذا التنكيل، قال أبو هشام.

زرع أبو جريس أرض الخيمة جيئة وذهاباً، بدا عليه توتر شديد، نظر إلى عيني أبي ربحاؤ، ثم أبي مصطفى، أتمنى لو بقيت طفلاً ألهو أمام الفرن في عقبة شداد وأنتم تحذقون بي يا عم أبو جريس قال عادل، أمسك بالطقة وأضرب بقوة، سأعود بالعصا الصغيرة، لا داعي للجري يا عم أبا جريس قال مصطفى، بينما كشف ربحاؤ عيون خيله الغافلة.

عاد أبو جريس يهمر أرض الخيمة، تقدم نحو الأمام ثم عاد إلى الخلف، بدا عليه توتر شديد، تقدم من جديد، حدّق بنظره نحو الأبراج، ضوَّعه مرأى الجند على الأبراج وهم يُصبون فوهات الموت ناحية الخيام، بينما يحوم البُلْتُ فوق رِبَضِ المعسكر، نظر أبو جريس إلى زيد، ثم إلى عمر وأبي مصطفى، لَجَّ أبو ربحاؤ القول بصوت أكثر حدة، لا بد من عمل شيء لأبي طلال، تقدم أبو جريس من مدخل الخيمة، تصاعدت أنفاسه وتسارعت، سبقت كلماته، سحب نفساً عميقاً عَمَتَ مساءً، على العودة للصلاة قالت ماري، طنَّ أنين أبو طلال بأذني أبي جريس، ثم بدا له أنه توقف فجأة عن الأنين، ساد صمت رهيب، تقدم أبو جريس من مدخل الخيمة مرة أخرى، حدّق بالمدى المفتوح على رمل بلا نهاية،

كانه بوابة الموت في هوته السحيقة، أطلت ماري من النافذة المجاورة، انطلق كالسهم خارج الخيمة في خط مستقيم، صوّب ساكن البرج نحو الهدف، تماماً إلى حيث يرقص عصفور الصدر، نظرَ إلى عينيها، تمهلي قال، دوى أزيز رصاصة منفردة، تبعثها أخرى، مدّت ماري يدها من الطرف الآخر للهوة السحيقة، شعرَ أن لحظة اللقاء قد اقتربت، واصل الجري، وتواصل الرصاص، سقط الإناء مرتين، اندفع الرجال إلى مداخل الخيام، تلوى الرذاذ فوق رمال ساخنة، تراءت من البعيد كأنها حوض ماء، انطلق الرصاص كثيفاً فوق جباه الرجال، تواروا إلى داخل خيامهم، انبطحوا أرضاً، جاء صوت أمر السجن دُحام فظاً قاهراً.

- إن تجرأ أحد على برج خيمته فسيفترش الرمل إلى جوار أبي جريس وأبي طلال وإلى الأبد.

واقفون في وجه الرمل والموت ودياس القهر وظلمات الليل، جرحى وقتلى، أسرى ومنفيين، محطمة عظامهم ومتعبة أجسادهم، غير أنهم صاعدون. ما هي الشجاعة، ما هي المروءة، ما هو الجبن أو التخاذل، أعاد أبو طلال صياغة المفاهيم، وعبر ليس من النقيض إلى النقيض، بل من غبش العادي إلى إبداع الوعي ونهوض الذات، تخطى أبو جريس جدار التردد وانتصر على عصبه الحائر، وعلى نظريات الإقدام والإحجام والعصب العاشر. في المواجهة أنت لا تعود أنت، لا مساحة للخوف ولا حيزَ في الذات للتردد، المواجهة تنقل الذات إلى عوالم أخرى لا يعرفها حتى الفرد عن نفسه.

تدفق الدم فوق الرمال، خطين من بركان قاني أحمر، فارا وامتدا حتى تعانقا، انسابت صفحة الأيام، لم تكن الينابيع التي تفجرت من تحت أرض غاضبة، صباح يوم مشمس ذات مغزى مختلف، حفرت فرحة

بأظافرها الرمل وزرعت فسيلة من عنبر روتها من مياه الوجد، وقبلت
 ثغر ديكليون، انتغش¹⁸⁴ حُضن هدى وحوش البيت بالصغار، أحسَّ
 بوخز دافئ في خاصرته، تدفقت كل الكائنات الصغيرة المكتظة في
 شرايينه، وانسابت، تحررت من علة الإحجام والعصب العاشر،
 وركبت صهوة الإقدام، شعرَ أن نسمة هواء ساخنة لفحت وجهه، فتح
 عينيه، أطلَّت ماري من نافذة غيمة بيضاء، بدا له أنها زمت غمازات
 وجنتيها وابتسمت، أيقن بلا شك لأول مرة أنها ابتسمت، ارتعشت
 أطرافه وضاحت حدقات عينيه، أرخى جفنيه، فرد شفتيه، شعر أنه
 قطع المسافة إليها بالاتجاه الصحيح، لعله ابتسم أو غاب في حضرة وعيه
 الجديد.

نافحت نرجس غمامة دخان كثيف، أطلت بخمارها الأسود وعينها
 الحوراوين، نظرت من بُهرة نافذة في غيمة تائهة، مدَّت يدها إلى بواسق
 أقحوان وغصون سروٍ عند باب النبي داود، سقط الإناء وهو قابل
 للسقوط مرة أخرى، أطلَّ من نافذة البيت إلى حلم الطفولة في دير
 العدس، تراءت قباب المدينة تشدُّ كفاً بكف، صوت نرجس يسافر
 عبر الزمن، ينساب في أذنيه مثل تراتيل الصلاة، يقطع انسيابه جزر
 النهر حيناً وعوارض وأسوار حيناً آخر، ثم ينهمر النهر ودموع ماري
 قديسة الدير راهبة القباب العالية وهي تحلق بجناحين من بياض عبر
 سماء صافية، نرجس راهبة الخمار الأسود، أيقونة العمر المقدسة الثمينة،
 اختطفقتها جوارح الليل القاتلة، والقدس راهبته الثالثة البعيدة، تراءت
 أبوابها أسوارها قبابها، أجراس كنيسة المهدي وأذان الفجر من المسجد
 الأقصى، ماري نرجس والقدس راهباته المقدسات الطاهرات، أمنيات

ثلاث في حيز ذاتٍ واحدة وحلم واحد ونشيد الملايين في آن معاً.
 أحسّ بوخز دافئ في خاصرته من جديد، فتح عينيه، غمامات كثيفة
 اقتربت شيئاً فشيئاً حتى أطبق بياض رطب على بؤبؤ العين، حلق البُلتُ
 في سماء شامس يلسع بسوطه أجنحة الهواء، وقعت ريشة من جلد
 العاتق اصطلت بلظى المسنون عند فوهة الموت، تطايرت وحطت على
 صير حفرة فتحت بابها وجئت بالنداء، كانت بوابة الموت أقرب الأشياء
 في جوار من القيح والصدید، طنّ أنين أبي طلال في أذني أبي جريس من
 جديد، تشبث بالحلم، فاطمة تمارس النوم في يقظتها وتعشق الحلم لأنه
 وحده القادر على العودة من حيث بدأ، قبل أن يسطو الواقع على فضاء
 الأمنيات، تؤمن فاطمة أن الوعد ينتظر هناك، حيث الطرف الأول من
 بوابة الحلم، عند اللحظة الأولى قبل أن تنام، عندها ستقبض على مفتاح
 البداية توقف دوران الحلم، تستيقظ ولا تنام من جديد، هناك لن يكون
 الحضور مستحيلاً.

- لن تخرج وحدك، علينا استنفار كل من في المعتقل، إذا خرجنا
 إلى أبي طلال سنقتل جميعاً ولن ننقذ الرجل، بعد قليل سوف يحلّ موعد
 توزيع الطعام، عندما تتلقى إشارتي يا أبا رباح تفتعل مشادة مع الحرس
 لإشغال الجنود على الأبراج، لا ترفع يدك على الجندي وإن أوسعك
 ضرباً، حتى لا يطلق حراس البرج النار عليك، عند ذلك أتسلل أنا
 وأبو مصطفى إلى خيمة الأمر نواف بَعْتَة، نقبض عليه، ولكل حادث
 بعد ذاك حديث.

أطرقت فاطمة السمع إلى زيد، قال الرجل في مكتب الأمم المتحدة،
 إنه أعلم بمكان وجود الصبيين شفوياً، لكنهم لم يسمحوا بعد لمندوب
 الصليب بزيارتها، بينما أنكرت متحدثة باسم الحاكم العسكري

الإسرائيلى وجود نرجس، فجأة نهضت فاطمة من مجلسها إلى جوار البئر، انتصبت قامتها حدقت بمن حولها، تقدمت من زيد، أمسكت يده، نظرت إلى وجهه، حركت شفيتها بصعوبة شديدة، ابتسم زيد، حثها على الكلام .

- استمرى إننى أسمعك، كلنا نسمعك، عودي يا فاطمة، عودي إلينا، قال بحماس .

كافحت ما استطاعت، غالبت خوفها وعجزها وصدمتها المرعبة، حركت شفيتها من جديد .

- لن تعيد الأمم المتحدة ولا الصليب الأحمر نرجس وأبناءها يا زيد، إن كنت تريدها حقاً عليك استعادتها بنفسك .

قالت فاطمة وهي تحديق بعيني زيد في لحظة وعي نادرة منذ الكارثة، ثم غابت من جديد .

- هل حقاً هرب عبد الله؟ سأل بن يحيى .

- نعم ويقال أن رجلاً يدعى موسى كان برفقته، ومع ذلك قد يُحكمان بالإعدام، قال زيد، ثم صمت برهة كأنه يستحضر صورة عزيز غاب، وتابع: هل تعلمون ماذا قال لي عبد الله قبل خروجه من فلسطين، قال إن النصر كان في متناول يدنا، وإن وضعنا العسكري كان أفضل بكثير من أعدائنا، نحن أصحاب الحق، ناهيك عن خبرتنا بأرض المعركة، والتفاف الناس حولنا وحسن انتشارنا على الأرض، وشجاعة واستعداد قوات الجيش العربي ورجال الجهاد للتضحية، وانبهار الصهاينة من العمليات المتتالية التي نفذتها فرقة التدمير، وقوى الجهاد المقدس، ومن كان تحت الأمر الوطني من الجيش العربي بعيداً عن تعليمات وأوامر الضباط الإنجليز وسيئ الذكر "أبو حنيك" كلوب، كل هذا أضعف

معنويات المستوطنين والقادمين الجدد إلى فلسطين، ووضعنا على بوابة إنجاز النصر، وكبح المحاولة الصهيونية لإعلان دولة على أرض فلسطين، كان النصر قاب قوسين أو أدنى، لولا موافقة الجامعة العربية على الهدنة الأولى، وقبول استقبال الوفد البريطاني، المكلف بالتسوية برئاسة برنادوت، لقد أعطت الهدنة الفرصة لبريطانيا لإنقاذ ربيها الصهيوني، قال لي عبد الله أن موشيه روزنك ممثل الصهاينة، الذي وقع على اتفاق استسلام كافة اليهود بالبلدة القديمة بإشراف الصليب الأحمر، وقف أمامه مُصفر الوجه وبدا مكتئباً ويائساً، لأننا تمكنا من محاصرة مئة ألف صهيوني يومها ليس في البلدة القديمة فقط، وإنما على مساحة انتشارهم على أرض الوطن، جنود الجيش العربي ومجاهدو فلسطين كانوا أوفياء مثابرين، غير أن الهزيمة أطلت من تحت قبعات رؤوس صغيرة ذات حسابات ضيقة.

- هذا البطل عبد الله لم يأخذ حقه من التكريم، قال بن يحيى، فوق هذا قد يحكم بالإعدام.

- هل تعلم أن كلوب باشا أراد أن ينفيه إلى فرنسا، بحجة إخراجهِ لإجازة مؤقتة أثناء الهدنة، كان ذلك للتخلص منه، لأنه أوقف قوافل تهريب السلاح إلى العصابات الصهيونية في باب الواد، وهدّد بإنهاء الهدنة التي اعتبرها من البداية جريمة وخيانة تامة.

- ابتسم فرحات وقال: لماذا لم يدعوك الأمر نواف لتتحسس رأسك يا زيد؟

- ربما أجلني إلى الجولة المقبلة.

- أقسم لكم أننا سنشرب تنك البنزين إن لم تتوقفوا عن الضحك، قال أبو مصطفى.

نئيشاً يَمَرُّ الزمن، يجر معه أثقالاً من الهموم، ينهش وجه الحلم، انساب صوت المؤذن حزيناً من مئذنة قرب وادي الحدادة، نظر إلى رفيقه المكبل بالأصفاد، تسارعت نبضات القلب، للحظة بدا أن رعدة من خوف مرت بسرعة خاطفة، ابتسم، رفع رأسه عالياً، قدما من منصة تدلت من عليها حبال غليظة.

- هل تطلب شيئاً أخيراً، قال أمر السجن
- أرغب بصلاة فجر أخير مع رفيقي بن يحيى، قال فرحات.
فُكَّت أصفاد السجنين، تقدم بن يحيى، يمم الوجه شطر القبلة، كبر وهلل، رتل فاتحة الكتاب بصوت عذب جميل، ثم قصر القراءة كأنه يحث الخطى إلى حيث يخشى الكثيرون، كان قد قال لرفاقه دائماً إن الموت الذي يخشاه الناس كثيراً مؤقت ولا يدوم، وما هو إلا انتقال من مسكن إلى مسكن آخر. قال أيضاً إذا كانت دار الدنيا هي دار أجرة فإن دار الآخرة هي دار تملك أبدي، ولا يجعل الموت مؤلماً إلا فراق الأهل والأصدقاء.

سَلَمًا يميناً، فتلاقت عيناهما بعيني السجنان، بدا واجم الوجه بلا تعبير محدد، سَلَمًا يساراً، تلاقت عيناهما بعيني شيخ ذي عمامة حمراء، كان شاحب الوجه مطأطئ الرأس، بينما نهض السجنان وإستدارا نحو الغرب، نظراً إلى حيث ليس للجدران معنى، حملتهما سابعة الذكرى وحلقت بهما فوق سماء القدس، تراكض أطفال في ساحة الأقصى وعيونهم ترنو إلى السماء، تُلاحق سرباً من حمام، أُعيدت الأصفاد إلى الأيدي النحيلة، وتم شدُّها إلى ظهر كل منهما، نظر بن يحيى إلى صاحبه: قلت لك يا صديقي، لا مفرّ للموت مني، سأظل أطارده حتى أقبض عليه.

هل سيعدموننا؟ سأل أبو طلال، بينما كانت العربية تتخطى ضفة النهر، لا تدع الموت يطاردك يا أخي، فيقتل كل لحظات حياتك، بل طارده أنت لتجعل من لحظة لقائه لحظة واحدة لا تتكرر إلا مرة واحدة شجاعة في العمر، عندها سيلقاك الموت بوجه جميل. طوق الحبل عنقي قامتين منتصبتين، نظر فرحات إلى الجانب الآخر من المنصة، ابتسم:

- كيف ستتحسس رأسك بينما يداك مكبلتان إلى الخلف يا بن يحيى؟

ضحكا بصوت لا يخلو من سخرية، تقدم شيخ ذو عمامة حمراء:

- أذكروا الله والشهادتين قال وعيناه إلى الأرض لا تقوى على النظر نحو فارسين قررا في وجه الموت وارتفعت قامتهما "أعلى من أعواد المشاقق".

مدّت شجرة السرو أغصانها قرب باب النبي داود، تعالت فوق الأسوار، فردت ظلاً واحداً على جانبيين منفصلين لباب واحد موصل، كان صوت العصافير التي ترقزق يفيض في أجواء المكان، وكان الحمام يعبر من فوق السور غير مبال بحراس الفصل على الجانبين، ليس بمقدور من قَسَم الأرض أن يُقَسَم سماء المدينة وفيء السروة ولا أن يوصل أبواب الأحلام، قال أبو منصور وقبض على سيجارة الهيثة، ثم سحب نفساً، واصل السير في أحياء المدينة، واسترسل بالسرد من دون انقطاع.

أطبق زيد والسدمير على عنق آمر السجن دُحام، ثار الوجد في صدر أبي جريس، استيقظ الوعد، نفذ قبس من نور عبر فتحة ضيقة أضاء جنبات الذات.

- لا تذبحوني، قال بصوت مرتعش.

- قل لحراسك أن يحمولوا أبا طلال وأبا جريس من فوق الرمال الساخنة إلى هنا.
- سأفعل، لا تذبحوني إن لي سبعة من الأطفال، دعوني أسوي هذا الأمر بهدوء، إن قتلتموني فلن تستفيدوا شيئاً، سرعان ما يُكتشف الأمر وربما تقتلون جميعاً، إن لنا مصلحة مشتركة أن نسوي هذا الأمر بهدوء، اطمئنوا لن أفعل معكم أيّ سوءٍ إن خرجت حياً من بين أيديكم، لن يكون بمقدوري أن أشي بكم، لأن ذلك سيضعني تحت طائلة مساءلة لا قبل لي بها، وربما أتهمُ بالتآمر معكم ومع عبد الله، لن يصدقوا أنكم اقتحمت عليّ هذه الخيمة المحروسة، ثم إنكم لن تستطيعوا الهرب عبر هذه الصحراء الواسعة، لن تصلوا أحياء إلى أي مكان، إن لنا مصلحة مشتركة لإنهاء هذا الأمر بهدوء، لكم صاحبكما ولي حياتي.
- وحيدة واجهت هدى مخاضها هذه المرة، تحركت بصمت إلى حيث حقيبة صغيرة أعدتها بيدها منذ أيام قليلة، نادت بصوت خافت: امرأة عمي، "مرة عمي". أضاءت أم عمر نور حجرتها، نهضت تجر نفسها بصعوبة، استيقظت فاطمة التي كانت ترقد على سرير مقابل والدتها، نظرت بصمت إلى هدى .
- لا بد أن موعد الميلاد قد حان، قالت هدى.
- أيقظي صابر ليرافقنا إلى المستشفى يا ابنتي، قالت أم عمر.
- دعيه نائماً، فقد حضر متأخراً هذه الليلة.
- إذا انتظرتني حتى أحضر ملايتي.
- لا داعي لحضورك، أنا أستأذنك فقط، فالمستشفى على بعد خطوات من البيت.

حتى لو كان على بعد خطوة واحدة، لا يجوز أن تذهبي وحدك يا ابنتي، سأرافقك حتى لو حبواً، نهضت فاطمة من دون أن تقول شيئاً، أخذت الحقيبة من يد هدى ثم أمسكت بيدها، وبانت على محياها آثار بسمه حزينة، يبعد مستشفى الهلال الأحمر بضع خطوات من البيت في الشيخ ريجان، كانت ليلة حالكة الظلمة وقد جفاها القمر، وغمرها السواد.

- ما أصعب أن يأتي المخاض وينساب الفُظاً من امرأة زوجها قد غاب، قالت نعمة زوجة فرحات بينما كانت مستلقية على سرير مقابل في الغرفة التي أنزلت بها هدى.

- الأكثر صعوبة أن تجهل إن كان سيعود لها حياً أم ميتاً، قالت هدى.

- فال الله ولا فالكما، قالت أم عمر.

حنَّت فاطمة على جبين نعمة، مسحت حبات عرق انساب على وجنتها وطبعت على خدها قبلة دافئة، نظرت إلى هدى زوجة أخيها عمر بود وحنان، هزت رأسها ابتسمت غائبة فاطمة لكنها تحضر فجأة تشارك الآخرين آلامهم بصمت، إنسابت على خدها دموع حزينة، ليس سوى الصبر والدعاء قالت أم عمر، زغردت أدهمية أخت زيد، نهرتها أم نصرت، إبتسم عادل، أطلت العمة روز من شرفة بيتها، سميت فوزي قال عمر. تعالت أصوات نعمة وهدى، أوشكت صرة الأفق على ولادة ياقوتة الفجر، صوت وليد يشكو باكياً لحظة استقباله أول شهقة من هواء الدنيا، أجابه وليدٌ من الغرفة الأخرى بعد أن استنشق الهواء نفسه، حدَّق فرحات بوجه زميل في خيمة على تل الموت القريب، عند تقاطع فضاء من رمل بلا لافتات أو علامات إرشاد، ولا تَبَع ولا قبلة ولا نهايات، تسلل خيط من النور من شق ضيق في نسيج الخيمة، تبعه

خط في شق آخر، وفي خيمة أخرى تدلت جبال من على منصة في وادي الحدادة، أضاءت أم عمر شبر الكاز، علقتة فوق سارية من الخشب عند بئر نضيضة، انبعث الضوء في الحوش، التهم جنبات الظلام، مدّت فاطمة يدها إلى الماء، غسلت قُروح الروح، انسابت صفحة الأيام، لم تكن الوجوه ولا الأيدي الممتدة إلى الماء ذات مغزى مختلف، نظرت مرتنا إلى السماء، برقت صفحة الأفق، نهض العازار من القبر، سارت بضع خطوات، أمسكت إناءً كبيراً، وضعت تحت بقرة مهاة وحشيّة، مسحت بيدها وقطعة قماش طاهرة بعض روث وأذى عن ضرع ممتلى، إنسابت قطرات الحليب إلى إناء من صلصال، تنهدت نعمة وفردت ثغرها فرحاً وقد أبرت بالوعد، زغردت أم عمر بصوت متهدج:

مبروك يا نعمة، مبروك يا ابتي، إنه ولد، لقد أنجبت ولداً.

ترأى وجه فرحات مبتسماً، تمايلت أجساد فوق أعواد المشانق قريباً من واد الحدادة، هل من طلب أخير، قال شيخ ذو عمامة حمراء، ابتسم فرحات، إلقت ناحية صديقه على حبل مجاور، فرد شفتيه إلى أقصى ما استطاع، هوى الحبل إلى أسفل. ماذا نسعي المولود؟ سألت إحدى الممرضات، سجلي في وثيقة الميلاد: بن يحيى فرحات، أجابت نعمة، تلك رغبة والده.

بيداء تفغر فاه الهوف¹⁸⁵، والرمل مبتدأ مرفوع على اللظى وليس من خير سوى الهَرَّارِين¹⁸⁶ يهوي أحدهما على سراب الروح، يناجي طالع الأكليل فتهيج سيول الذكريات ويأتي الآخر على وَهَم المدى، ليغمر في

١٨٥ صيف شديد الحرارة

١٨٦ اقتران حاد بين كوكبين، تعارف العرب أن طلوع الأكليل تحديدا رأس العقرب يتبعه شتاء غزير

طالع القلب بوادي العمر الذي ابتلغته الصحراء.

سَوَى الأمر دُحام عقاله، صاح بساكني الخيام:

- توقفوا عن قحف ذاكرتكم اللئيمة، ليس سوى الرمل وأنا سيد الصحراء أُملي لها فتجيب، أشدُّ الحرَّ على القرِّ وأفتح فوهة الموت، ربما يغادر بعضكم وربما ينقل بعض آخر إلى قبر من الإسمنت، غير أنني سأبقى هنا أنتظر عودة الآخرين، وأفتح فوهة الموت من جديد.

مسد الأمر دُحام بيده غطاء مسدس على حزام خصره، فرد قامته، تقدم لاستعرض الطابور مرة أخيرة، سارت الشاحنة المتهالكة فوق الرمال الساخنة، قطعت المسافة بالاتجاه المعاكس، لكنها تركت خلفها راية تحفّق، وشاهدين دون لافتة أو أسماء، هناك عند نهاية التقاطع صعود نحو القلعة العالية، وقريباً من وادي الشهداء.

عاد الرجال إلى القدس متعين لكن أرواحهم ناهضة، قرزلت أدهمية شعرها وزغردت، نهرتها أم نصرت "خبي فرحك" قالت، ما زال الناس في حداد وحزن شديد، غنّت نسوة في الحي، وبكت أخريات، إلتف عادل وجمع من الشباب في حلقة الدبكة، زغردت أم عمر بصوت أجش زغرودة خالجتها الدموع، ثم رشت قبضة من أرز على رؤوس الجمع في ساحة الحي، كبر عمر وبسمل وحزّ بسكين حادة نحر شاة، أوقد في الأنحاء حطب ونُصبت فوق النار حلل من نحاس، قرأت أم نصرت فاتحة الكتاب على روح زوجها في حاكورة البيت، ذرفت بضع دمعات، ضمت شاهد القبر إلى صدرها وهمست، أوفيت لك عهداً آخر وليس أخير، اليوم تزف أدهمية إلى فرخ عوام، أرجو أن يخط طريقه على مسار أبيه وجدّه، أحسنت هدى زيتنها، وأقبلت فاطمة مع مسحة من جمال هارب، راقصت نعمة طفلها بن يحيى في

وسط الحوش لأول فرح منذ غاب فرحات ، غنت نسوة الحي لبهجة
في العيون الصغيرة، ترجل العريس عن سرج فرس كهرواني، تخطى
لحظات الشوق وهو يسترق نظرة من لخط عينين خضراوين اطلتا من
خلف ستار نافذة في الطابق العلوي لبيت العمة أم نصرت، تقدم عادل
خطوة أخرى رفع برنس السرير، أطرقت أدهمية عينها خجلا، رفع
عادل رأسها بحنان، حدّق لأول مرة في عينها بعيداً عن ستار النافذة
في سماء البيت، رأى مرجاً من الخضرة يحلم بفارس يعدو ولا يتوقف،
تقلبت صفحات الأيام، جاءت هدى بمولود آخر، كذلك فعلت
أدهمية، غاب عمر أحياناً عن موعد الميلاد مرة في سجن القشلة وأخرى
في العاصمة أو لدى الأمر دُحام، كان عادل سيد البيت في غياب أبيه،
غنى الأطفال للمولود الجديد:

مجد لينا يوحيا وكويسة يوحيا

وعريسه يوحيا

ضو القمر يوحيا ولا بدر يوحيا

ملأت هدى وأدهمية حوش البيت أطفالاً، وفي ليلة صيف من سنة
الجراف التاسعة عشرة من الهجرة انكسر القمر.
سقطت قذيفة قرب بيت جمعة بائع الفلافل، وأخرى إلى جوار المدرسة
القادسية، تدافع الرجال بأسلحتهم الخفيفة إلى الأسوار في باب حطة
وباب الساهرة، نادى عمر على فتى امتشق بندقيته وتقدم الرجال، لا
تتعجل يا بن يحيى، تكاد تذكرني بشجاعة والدك فرحات.
تُوشك صرة الأفق على ولادة قيصرية من جديد، تعالت صرخات

هدى من غرفة في مستشفى المطلع في جبل الزيتون، صوت وليد يشكو باكياً لحظة استقباله أول شهقة من هواء الدنيا، لم يجاوبه صوت من الغرف الأخرى. إنه ذكر، قالت الممرضة، وهي تحمل الوليد بيدها، ضربته على قفاه، ثم وضعت على صدر أمه هدى، مدت فاطمة يدها إليه حركت شفتيها بصعوبة شديدة، هلا سميته وعد، فرحت هدى وكذلك أم عمر لسماع صوت فاطمة القادم من غور عميق، لم تسمعاه منذ ولدت نرجس الصغيرة، لقد طلب مني عمر إن وهبني الله طفلاً، أن أسميه مجد، إن شئت تحملت ملامة عمر وسميته وعد، لا بأس قالت فاطمة، مجد هو الوعد الذي ننتظر، ثم انفرجت أساريرها، ابتسمت بفرح شديد، وقالت سَمَّه مجد.

دلفَ عمر إلى حوش الدار، بعد أن أطلق سراحه من سجن القشلة في باب الخليل، دار حول حوض الماء، طهرَّ الروح وجراحاً تُركت على رمل الصحراء من دون علاج حتى دَمِنَتْ وتقرحت، انسابت صفحة الأيام، حولاً بعد حول، رقصت هدى على خجلٍ أمام بعض من الجارات في حفل سباط لدفع الحسد عن حملها السابع والثالث لأدھمية، بينما وضعت الجنكية الجبناء أم فريال قدحاً من شراب الودر فوق رأسها، غنت ورقصت دون أن يسقط القدح أو تنساب منه قطرة واحدة.

عالنني النني، عالنني النني	راح يجنني، راح يجنني
في الشهر الثالث، الشهر الثالث	والحبل ثابت، راح يجنني
في الشهر الرابع، الشهر الرابع	طلعوا الأصابع، صار يكركرني

قرأ صابر بصوت عالٍ عناوين صحيفة الدفاع: خمسة وأربعون شهيداً

في قرية السموع، عصابات من جيش العدو تهاجم القرية، عصابات صهيونية تخرب مزارع الفلاحين قريباً من القنيطرة، عصابات العدو تطلق النار على مزارعين من رنتيس، أخذت فاطمة الصحيفة من يد صابر وحدقت بها ساعات طويلة.

فاطمة ونرجس رثان لجسد واحد، ضفتا القلب الذي شطرته الحرب إلى نصفين، ملاكان استلقيا ذات صباح على فرش الصبا تحت شجرة تين باسقة في ظل مدادة عجوز، طفلتان نامتا على كتف الوعد وخذ الغمام، حلمتا بفارس يعبر أسفار الزمن على حصانه المجنح المظهم، وينثر عبق الورد على وجه الحكايات، ضاعتا في زحمة زمن من رصاص وغبار، أخذتهما من براءة الحلم وحوش الغابات وغيلان العتمة، فثار الوجد في عروق اللحظة، لكن دروبه ضاقت مثل طرقات المدينة، واصفر وجه الأفق، وتاهت على الدرب خطوات الأيام.

من أمر الروح إلى أمر الوعد

أكتبُ من عالم الأمر، قبل أن تحلَّ الروح في حيَّزها الفاني، وقبل انسياب الوجود إلى وعاء الكون، وقبل أن يبرأ الله الحياة، حينها لم يكن للمادة شكل، ولم تكن الفكرة قد سكنت حدَّ الوعي، والروح في تلك اللحظة كلُّ متحرِّرٍ من علة الحيَّز والزمن وصفة الشيء، أجبتُ بلى، على جَلَلٍ من سؤال الباري، ثم شغلَّ هَبَائِي في العدم استفهامية أين، المبنية لمفعول فيه تعلَّقَ بخبرٍ لمبتدأ لم يأت بعد، ولم يكن هَبَاءُ العدم قد اتسع لسؤال متى، فتلك استفهام الساكن على محلِّ الفرض من الخبر الآتي في كن فيكون.

وأين، سؤال همَّ اللاشيء المنشور على أسرار جينات اللامحسوس من الخلق ومن أمر ربي، أكتبُ من قبل الوعي ومن حلمي، أني أحلمُ بأين الممتدة من حدَّ الأمر إلى حدَّ الخلد، تلك هي حيَّز وجودي وقديسي مدينتي وبيتي وروحي الباقية فيها إلى أبد الدهر.

بعض مني أقلُّ بمقدار النصف من أسرار الأمر، ينسرب إلى قنوات الوعد يسبح تائهاً مع ملايين المحكومين إلى وهم الوصول وإلى فنائهم المحتوم في هيلول¹⁸⁷ السراب، ومن وحي المكنون من الأسرار بذاك البعض، أمضي نحو نصف آخر من بعضي الساكن في حوصلة الوعد، نلتحم معاً في سر الأمر وكُنْ، فتكون روحي، تنسرب إلى كهف مكور في ظلمات ثلاث، وتنسحب إلى تدفق النهر حُزماً تلزق على جدار

١٨٧ الهباء المنبث وهو ما تراه في البيت من ضوء الشمس من الكوة

رخو، يتسع حجم الحيز ويلين، تمتد حبال من علق تحمل ربحاناً مُرنقاً،
 فينمو في التجويف غشاء مملوء بالسائل، أطفو فيه عمودا من عظم
 ومجسات ومخيخ، وأوردة يتدفق فيها نهر القرمز، وتنبت على جنبات
 الصلب ندباتي، تكبر وتشكل أجزائي فيكسوها لباس من لحم، أميلُ إلى
 الجدار الرخو، أسمع ترانيم تتدفق عبر أوردة من علك، تنشي أوتاري
 المشدودة إلى تكور جسدي، أسترخي على نغمات صلاة من لين تتخافت
 حتى أغفو، وحين يكتظ غشائي الحامل بالضجيج، وتُستبدل نغمات
 صلاة اللين بطبول من صخب، أحرك وجهي ألامس جدار اللين، يبدو
 ساخنًا، أشيح بوجهي، أحرك أطرافي وتهيج مجساتي حتى يهدأ ضرب
 الطبل وتعود إلى أسماعي نغمات اللين، تتدفق ناعمة رقيقة إلى رفراف
 صدري، وفي لحظة ينقبض جدار اللين من اللحم الرطب ثم ينفرج
 فيتسع الحيز وتتسارع دقات النغمات، يتغير إيقاع صلاة اللين، ينساب
 اللفظ، أَسَحَبُ من غشاء السائل إلى رِبْضٍ من برودة ناعمة، تتلقاني
 قابلة الوعد، وتصفعُ إليّ صمتي، فيشهق المحبوس إلى الحزن، ويحيي
 المطر لأول مرة ناعماً ذا عطر فواح دون غيم أو رعد .

كانت عيناى تتحركان في نمش الهبولة يَعْبُو ثم تصطدم بحُدْرَج¹⁸⁸
 مائل، ما أن ينضو الشاحب عن ظل غبش فيه ويحلجُ عنه ناظري، حتى
 تَبَاَزَحَ من سَمَاوَةِ الوهم سبيكة ضوء شفيف، تراقص داخلها عن عَنَنِ
 وأوب¹⁸⁹ خوابل من رذاذ، تمتدُّ إلى رمادي بَرّاق من الأقواس المتضالعة
 من أسفل جنبات الحيز عند حدّ الحس بالكتلة، بعيداً عن طيات المُدْرِك
 من دلالات الرِبْضِ وحدّ البصر، حيث ليس للرؤية إلا ضيقٌ من مجال،

١٨٨ مالس

١٨٩ ظهور ورجوع متسارع

عند تقاطع الأقواس مع الواصل بين نثار الروح الفضي ووهج الحياة، ما زالت ملكات الوعي طرية لكنها تخر في شرايين الذات، تخط طريقاً للمدرك في الأشياء، أو اصل الحُلج بنظري وأمتدُّ في الانحاء، أجول على المُحدَرَج من محيط الحَيِّز من كل متعدد الوجهاً ومتباعد، فجأة يلمع برق من نقطة ما، في منتصف حَيِّز من لحظة أو مكان، تتسع تُوتر حدقاتي، أبهلق في أضواء الباهر، أسند رأسي إلى أمر الساكن فليس يطبق المَجبول على التناقض صبراً، أحرك إصبع الكشف وكتلة جرمي، ويديا المَثبتان إلى طرفي عُمري الملفوف بقطعتين من فرقب أبيض¹⁹⁰، يتسع الحَيِّز لنتار من كينونات مُهَفَّهَةً تعبر من نافذة تميل بكليتها المصقول إلى حد العارض، الذي يمتد مثل سبيكة تراقص فضاءات اللامدرك، أحرك رأسي عن أمر الساكن، يُطيعني حيناً ويعانديني حيناً، أكرر في الفينة محاولتي، تشملني تأسرنى تلك القطعة من قماش الطرف الأول للعمر، بيضاء كنوايا الأنبياء، تسرب إليّ ذرات الأبيض للطرف الممتد إلى آخر لحظات العمر، أجاهد، أغدو على صير¹⁹¹ من حاجاتي، ليس سوى رأسي خارج أسوار القماط حراً، وحسبي! أهزه بعنف، وأرُجُّ على قابض أجفاني، فيسيل الرطب من الأنف، أدرك أن رأسي المسند إلى أمر الساكن يملك أكثر من شبك أو نافذة للوعي، أسحب عبر المنفذ رطب المالس، يعبر إلى أكياس الصدر، أطلقه، أعيد الكرة، أنشم من عقب الجوار وما ليس مدركاً لكنه عليل، لا بالوعي لكن بفعل الأمر وواجب موجود الفعل وتكويني، أتعلم أن ألف منفذ للروح تُطَلُّ على فرح من حولي، وألف حَيِّز لحواس بلا نهاية تجتاح أنحائي،

١٩٠ القماط والكفن

١٩١ إدراك ومعرفة

أحركُ رأسي، أَشْتَمُ وَأَسْمَعُ وَأَمَعُنُ النظرُ في الأنحاء، فُبْضَحِي الحُدْرُجُ والنقطة عند تقاطع أضلاع الأقواس وحيز اللحظة أو المكان تحت سيطرة الأمر المدرك للوعي عند مسند رأسي وإرادة روعي الحية التي تُخلق بعيداً عما يَقْمِطُ كتلة جرمي.

اتخرج بحواسي مع محيط الحُدْرُج المَدْمَلَك، أَشْنَفُ أَسْمَاعِي إن ضاق الأفق أمام بصري، تستنفر أذناي وتستشعران الحيز حتى أقصى مدى، فأسمع رذاذ أنفاس تقترب، تُهاهي، تُرطب وجناتي، يتزاحم الخواش من حولي، يصخب ويخفت، ويتصادى أحياناً، مثل موسيقى برية غامضة، ثم لا يخلو الأمر من ضوضاء وقرقعات، أرمي برأسي يساراً، بعيداً عن صلب من سطح قوس مُحْدَرْج مالمس، محايداً لا يوحى بشيء، ألاحق الجلبة واللهات العالي، أحرك عينيَّ وربما شفتيَّ، شيء ما يجعلني غير قادرٍ على الفكاك من مربوط يلف كامل كتلي، وليس سوى رأسي الحر يواسي عجزي، أي عقل عجيب تفتق عن هذه الحيلة التي تأسرني، أكاد أجزم أن داخل هذه اللفة أعضاء أحسها، هي مني وإن عجزت عن تحريكها، تتحفز بكل ما ملكت من طاقة للانعتاق، أجهش من قنوطي وضيقى باكياً، وفجأة تُطل من الأعلى فتحتان من ضوء ودود، أتوقف عن نحبي، أمعن النظر، يتجلى حِزَان من حمرة داكنة، ينفردان ثم يتسعان على بياض تتدلى حوله على الجانبين أسدال من خيوط سوداء، تقترب من وجهي تجناً¹⁹² على كللك لحظاتي الطرية، تُهاهي، تهددني وتداعيني، تلامس وجتتي، حِزَان من قطنٍ ناعم، تعبق أنفاسي بريح حنون. أهز رأسي جذلاً، وتنسبط شفّتي وتفتّران، وتغيب فتحتا

الضوء، أهوم وينضو الهوم عني، فتُطل النقطة عند الأقواس التي تتعانق مع حيز من مكان أو لحظة ما، أعود وأرصد أنفاس وأصوات من حولي، أشعر بانسياب لزج تحت كتلة جسمي، تنبعث في الجور رائحة معهودة، تُطل فتحتا الضوء من جديد، أحرك رأسي، أهش وأبش، لمأى الحزين ذواتا الحمرة الداكنة، أشعر أن كتلة جسمي تطيش، أتجارب مع لهفة اللبء الدافق، يغمرني رضا عظيم، شيء ما يقلبني وجها على قفا، ثم يقلبني على ما كنت عليه من جديد، أشعر أن كتلة جسمي تحررت من قيدها العجيب، أنفض أعضائي من أسفل وأعلى كتلة جسدي، أهتدي إليّ، وأعرف لأول مرة أن لدي يدين قادرتين على التلويح، وأن لي قدمين قادرتين على الدفش بحرية، أحرك يديّ وقدميّ بلهو مائع، تتسع شفتاي على كركرة للمرة الأولى، أُحدق مليا، أرى فتحتي الضوء وحزين من برتقال، وشيئا فشيئا يتوارى الضباب عن محيط الرؤية، فيطل وجه الملاك الجميل أمني.

ذاكرة تمتدُّ إلى البعيد، إلى غبشٍ داهم يمور فيه سكون عميق، كأن في أعماقه ديب مكتوم، وثمة نابضان يتحدان على فراغ يفصل القلب الرؤوم عن قلب صغير يتجرع روحه مع دفق دافق، فتتصاعد بشائر نور محمول على هالات الدمع الهائئ والزغاريد، تبرعم الذاكرة وتهجس بغابة قادمة، من لثغ وتأتأت وقبض وانبساط وخيالات رضيع، من أول غفوة لي على كلِّ العطف وأول صبيك من ثدي الحب والرحمة، إلى عبوري فضاء الزمكان القدسي دنيا وأحياء، مكاناً ولحظات، وامتزاج روحي ومكوناتي بما حولي، غمرني الوجد، وجبلتني الأحداث مع طين المدينة وذاكرتها مع اسفارها وأسرارها، فكنت ما كنت، كنت أنا .

فما أنا إلا ما أتذكر، وما أنا إلا ما رأيت وسمعت ولمست، وشممت،

وما لفتح من تجليات ربحي، اليوم وقد شاب دهرى على الخطى
أدرى أننى أنا ذاكرة أقرب الأرض وإلى سدرة المنتهى، وأننى أنا تربة
طوبى التى تظلل الجنة، وأننى أنا بساط الحب والزيت الذى تقدس
بمشاوير الأنبياء حينما ذرعوا دروبى بكلماتهم وآلامهم وأحلامهم، أنا
حزن الأولياء الذين الذين تلفحوا بالنارينج والليمون، ثم بعثوا فى
الأرحام أغنيات وقنطرات تفيض بالريحان والقرنفل .

أنا أرجوان الشهداء الذين لن يتخثر دمهم حتى تنبت ياسمينه بيضاء
على ضفة بستان العناب. أنا الفتى المقدسى الذى لى غير ذاكرة ، كلها
تنبع من بحيرات الحلم لتصل إلى بحر الحقيقة والمعنى، وإلى ما لمع فى
ذهنى وخفق فى قلبى، فما أنا إلا ما حلمت وما رغبْتُ وما قبلتُ وما
رفضتُ، وما قاله الآخرون عني، وما اختزن فى جوارحى وتفاعل فى
عقلي من متسعَات الحيزِ بشراً ومكاناً وزماناً، وما أنا إلا ما جبلني الله
عليه، وما أودعه فيَّ من أسرار وأفكار، ومن قوة ومن ضعف، ما أنا إلا
ذاكرتي إحدى مراياي المصقولة بعشب المكان .

بدأت حياتي يوم استيقظت ذات صباح، منذ بأبأْتُ ومأمأْتُ، وعرفت
أن هذا أنا، أنا الذى يرى، وأنا الذى يسمع ويُحس، يُفكر ويُحب ويكره،
ينام ويصحو يَغضبُ ويفرح، يَجوعُ ويعطش، ذات صباح زحفت بعيداً
عن حجر أُمي، لعقت وجه الأرض، وضربت بفرح حبوي بركبتي
وكفني لأول مرة فوق صدرها العاري، وضحكت لصوت خرمشاتي
على مَحياها، امتزجت ربحي بروحها، ومنذ خطوت أولى خطاي على
ظهرها، ونمت فى حضنها، عرفت أن هذا أنا، وأننى مميز لأننى ولدت
هنا منذ زمن بعيد، فى أحضان مدينتي العظيمة، أرض السماء الأبهى
والأجل، هنا فى القدس هنا.

كنتُ أتأمل ذاتي، حركاتي، سكناتي، نظرات الآخرين، كلماتهم، أفعالهم، صداها وتأثيرها على ذاتي وتكويني، كنتُ أتأمل البيت بكل ما فيه، شجرة النين بأغصانها المتهدلة الهرمة، وأوراقها التي تحبى أعشاش العصافير، كنتُ أتمنى لو بنيت لنفسي عشاً إلى جوارها، وكنتُ ألاحظُ خطى السنين على جسد المدادة العجوز التي أصفرت أوراقها ونشفت عروقها وذبلت أواخيها وأطنائها، وكثيراً ما تخيلت بعضاً من فروع أغصانها المتدلية وقد تحولت إلى ثعابين تزحف نحو نافذة غرفتي، كان يهيا لي أن الجنيات والخفايا الحبيسة في بئر البيت توشوش الليل، وإذا لامست الريح غطاء البئر وانبعث صفيره المخيف في جنبات الحوش قرب حوضنا الجاف، هربت إلى طيّات فراشي، كنتُ أتأمل قباب البيوت المجاورة ونوافذها المتلاصقة، وأسمع همس الجارات، وكثيراً ما صادفت فتياناً من الحي على أسطح المنازل يلوحون بأيديهم الصغيرة لفتيات من الحي على أسطح مجاورة، كنتُ أتأمل أزقة الحي، وأتخيل كيف انطبقت جدرانها على أضلاع غيلان العتمة ووحوش الليل حتى ضاقت جنباتها عليهم، أو كيف حنَّت جدرانها لبعضها لبعض فتقاربت حتى باتت لا تقوى على الابتعاد، كنتُ أتأمل ذاتي وأتأمل مدينتي، وأشعرُ أنها بعض مني وأنا نبي بعض منها، كنتُ كلما نظرت إلى حجارة البيوت التي اسودت والأبواب الخشبية التي تهالكت، والجدران التي تتساقط بعض أتربتها القشرية كأنها تُبدل جلدها، وكلما تشقت أنفاسي رائحة الغبار والرطوبة والعفن في بعض الأحياء والبيوت، أدرك أن التاريخ والجغرافيا يتداخلان هنا ويمتزجان، كأنهما بعد واحد في حيّز التميّز لمدينة فريدة.

كلما خطت قدماي على جحارة المدينة وطرقاتها المرصوفة، أو مررت

بموقف ما، تهبأ لي أني كنت هنا منذ زمن بعيد، وشعرت كأني أسافر في أزمان متعددة من دون توقف، أعيش مع القدس في لحظات انطوائها على ذاتها حزناً من خذلان أو تقوقع أو تهديد، أحس بحسرتها وحيرتها في لحظات الوحدة في ظل طرقاتها التي تكاد تخلو من المارة، وفي أسواقها الكثيبة بضوء قناديلها الخافت وحوانيتها الفارغة من أشياءها وبضاعتها، أعيش لحظات فرحها عندما تعج أسواقها بالمارة وبائعي البسطات والحوانيت، التي تزيئها شنابر الإضاءة والناس بملابسهم الزاهية وأرواحهم الناهضة وعيونهم التي تنفتح على المدى، أعبر إلى روح المدينة ولقلبها الذي أسرف في وجده فأثك جسدها، أنظر إلى شبابيك البيوت وأفاريز نوافذها وأرى إطلالة الجميلات من فتياتها من خلف المشربيات الخشبية، فيشتعل الفرح في روحي، ويتقد الوجد في قلبي، وأحسد نفسي لأنني ولدت هنا وعشت هنا وسأموت هنا، في القدس هنا.

لدى أمي قلب يتسع لأطفال العالم، وعاطفة يُمكّن نشرها على ضفاف الكون فلا يُنتقص منها شيء، ومع ذلك كان عليها أن توزع طاقة جهدها في نهار وليل مكدين بالعمل على تسعة صبيان وأربعة بنات، مثل حمامة ضائى^{١٩٣} شَنَقَاءَ رَنَقَاءَ^{١٩٤} تقوم على فراخها وترقد على بيضها، وفي زحمة هذا الاكتظاظ. كنت وإخوتي وأخواتي نشعر بالضيق ونَحْسِرُ صدورنا الغيرة أحياناً إذا التفتت أمي إلى أحدنا للحظة بدت أطول مما ناله الآخر، وأذكر في ليالي الشتاء ونحن نتكوم حول كانون الدق كيف كنا نتناوب حضن أمي الدافئ واحداً تلو الآخر، وكيف كانت تهاهي

١٩٣ تعاني وتقاسي

١٩٤ كالطير الذي يرقد على بيضه ويطعم صغاره بالزرق

وَتُمَامِي وَتُغْرَغِرْ هَدُوءَ وَنَعُومَةٍ حَتَّى نَغْفُوَ فِي حَجَرِهَا قَلِيلًا ثُمَّ تَمْدِدُنَا إِلَى
جَوَارِهَا، بَعْضُنَا إِلَى جَانِبِ بَعْضٍ، تُقْبَلُ وَجَنَةُ الْوَاحِدِ مِنَّا بِحَنَانٍ وَتَضَعُ
فِي حَضْنِهَا آخَرًا. كَانَ حَضْنُهَا أَوْسَعَ مِنْ فِضَاءِ الدُّنْيَا، تَمَنَيْتُ دَائِمًا أَنْ
أَبْقَى هُنَا لَيْسَ يَسْرِقُنِي الزَّمَنُ إِلَى أَمَاكِنَ أُخْرَى، هُنَا فَقَطْ، فِي حَضْنِ
أُمِّي، هُنَا، فِي الْقُدُسِ هُنَا.

فِي غِيَابِ شَمْسِ حَزِيرَا

كان صوت المذيع يعلو ويخفت ويشوبه التشويش أحياناً، وكان زيد وأبو مصطفى ينصتان بقلق واهتمام صبيحة يوم الاثنين الخامس من حزيران بينما تزاحم عدد من المواطنين أمام دكان أبي جريس، اختلطت أصواتهم ونداءاتهم مع نداء أحمد سعيد لأسماك البحر، كان صوت المذيع يعلل ثم يمتطي ثم يعلل من جديد مع صياح ونداء العشرات من الرجال والفتية وبعض المسنين والنسوة، كان التزاحم أمام بقالة أبي جريس وحانوت أبي حامد قريباً من باب الساهرة وزاوية الهنود لا يطاق، ترك الناس بيوتهم وأعمالهم وانطلقوا إلى حوانيت المدينة على عجل لشراء ما توفر من مؤن وطعام، فقد ولّت أيام السّعة التي مكنت الناس من تخزين الطعام في بيوتهم لفترات طويلة، وأصبح السواد الأعظم منهم من جماعة "يوم بيوم"، تدافعوا وهرولوا بين أزقة المنازل والأسواق بشكل مفاجئ، كأن الشياطين بخت أنفاسها في أرجاء المكان فهاج الناس وماجوا وانتشروا، كل إلى نفسه لا يرجو سواها، دفع أبو جريس جسمه قليلاً باتجاه جمع المتزاحمين، بالكاد تمكن من التقدم خطوة واحدة، قال لصبي البقالة:

- أعطهم ما لديك، لا تمنع عن الناس شيئاً، حتى من لا يملك مالاً، هات ناولني، خُذ يا حاج أبا مُسَلَّم، ناولوا هذا لأبي موسى، أعطِ هذا الطحين للمرأة هناك، ساعدني يا عمر، ضع الأرز في الأكياس هؤلاء يا زيد، همدوء يا إخوان، لا تتزاحموا، دعونا نسمع ما يقول المذيع،

لا تطلبوا من البائع سمكاً لأن السمك لبي نداء الوجب وهو بانتظار الأعداء في عرض البحر مقابل يافا وعكا.

ما زال صوت المذيع يخفت ويغيب، ثم يعود داعياً سمك البحر للتجوع، صوت مدافع متقطعة غرب المدينة، عدد من الجنود بملابسهم الكاكية وبنادقهم الخفيفة تراكضوا نحو الأسوار، هكذا فجأة وَجَدَ الناس أنفسهم في أتون المواجهة من دون استعداد ولا تحضير، لم يخبرهم أحد أن الحرب ستدهمهم مرة أخرى على حين غرة، سرعان ما بدأت الخوانيت تقفل أبوابها، هروا الناس إلى بيوتهم بما حملوا بأيديهم وعلى ظهور دوابهم من طعام ومؤن ووقود.

- كم أشفقُ على هؤلاء الناس، صعبة هي الحياة عندما لا يمكنك أن تعرف ما سيأتي به غدك، ربما يُخطف منك فجأة أحد ممن تحب، أو تُخطف أنت نفسك ممن تُحب، إننا أمام عدو فتح بوابة العبور إلى العالم الآخر على مصراعيها من جديد، أخشى على شعبنا من نكبة جديدة، قال عمر.

- ليس لك أن تقلق، لم يتبق سوى أيام وربما ساعات قليلة ونعود إلى القطمون، ألم تسمع الراديو، أم غالبك التشويش، لقد قال أحمد سعيد إن طائرات العدو تتساقط من شدة نيران عساكرنا في سيناء مثل الذباب، أجاب أبو مصطفى.

- أنا لا أحب هذا النوع من الحروب، حروب الهتافات والأناشيد الحماسية والخطب الرنانة، من يملك عوامل النصر لا يحتاج إلى كل هذا الصراخ، ولا لكل هذا الرصاص الذي نطلقه على صدر الهواء، القوي ترتفع قعقعات سيوفه بالمعركة، بينما الضعيف يلجأ إلى حرب الكلمات الرنانة، هذه الأجواء مثل يوم ينشق بالهزيمة ولا يبشر بالنصر، قال زيد.

- شعبنا لن يهزم، ولو هزم الجنود، فلن نفقد هويتنا ولا روحها، قد تحبب الشعلة بعض الوقت، لكنها سرعان ما تتوهج من جديد، أجب أبو رباح.

- إنني أحس بعطف كبير على هذه الأسوار التي تحمي المدينة، وهذه الأزقة التي احتضنت أفراحنا وأتراحنا، وكانت شاهداً على ضحكائنا وبكائنا، وهذه الطرقات التي حملت أقدامنا وهي تطارد الغزاة على مرّ العصور، إنني أشفق على هذه المدينة التي لم يتوقف قلبها عن الخفقان آلاف السنين، وهي تجري تسابق الرياح ولا تهدأ أبداً، قال أبو جريس. ما زال المذيع يقدم وصلاته النارية وأخباره الحماسية، تدمير كتيبة مؤلفة للعدو جنوب سيناء، تهاوي طائرات العدو في عرض البحر!

ضمت أذهمية رضيعها إلى الصدر وعهدت بأبنائها الثلاثة إلى حماها هدى، وسارت إلى مستشفى المَطْلَع على جبل الزيتون من أجل إجراء فحوص للرضيع الذي ولد مع علة في وظيفة القلب، عاد عمر إلى البيت مبكراً على غير عادته، لم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحاً، اختلى بزوجه هدى لدقائق في حوش الدار، همس في أذنها حتى لا يخيف الصغار.

- ستنشب الحرب في أي لحظة، عليّ أن أكون هناك. دخلا معاً إلى غرفتهما، دسّ يده في الخورنه خلف السرير، أخرج صرة صغيرة، دسّتها هدى في عبها سريعاً، قال لها: - هذا كل ما لديّ من مال، تصرّفي به وفق حكمتك، قد تطول الحرب، وقد أغيب طويلاً

- إن كنت عزمّت على الذهاب فتوكل على الله، ربنا كان معك دائماً، وسيكون معك اليوم أيضاً، لك ما تريد، لكن دع الأولاد، فما زالوا

صغاراً على الحرب، أجابت بصوت حزين كادت تظهر فيه حشرة بكاء صامت.

- انتظرنا هذا اليوم طويلاً، أم تراكِ نسيت، منذ حضر زيد وصحبي لأول مرة لعمل عظيم، بعد عاصفة الثلوج والهزيمة، قلت لي لم تنته الحرب، ولم ينته الصراع ما زال ساعدك قوياً، وما زال عليهم أن يحاربوا جيل عادل وصابر، بدوت دائماً على رغم نزوعك للصمت أكثر وعياً من زوجة في الخباء، كلماتك بعثت فيّ العزيمة من جديد، نهضت يومها من عجزتي لأنك قبّلتِ وجتتي وقلت:

- إنه لشرف عظيم أن أكون زوجة بائع حليب، وقد زاد فخري وجلّ شرفي أنني اليوم زوجة مجاهد من فرقة التدمير.
قلت لي أيضاً:

- تغيرت بسرعة، كنت طيباً دائماً، لكنك كنت سريع الانفعال، تزجر وتنهى بغضب.

قلت لك يومها:

- الثورة تُغيرنا من الداخل، لا تعود الأشياء كما كانت قبل ذلك، إنها تهذب النفس، وتؤجج العاطفة، وتحفز الروح.

قلت لي يوم عُدْتُ من إحدى العمليات الفدائية الناجحة:

- تبدو جميلاً اليوم، سكبت الثورة في عينيك جمال روح ثائرة.

تغزلت بي، لم أكن معتاداً على هذا، لم يفعل أحد ذلك معي من قبل، سحرتني كلماتك، لكن بريق عينيك غيبيني في غيومه الدافئة، أحببتك دائماً لكنني لم أعود التعبير عن مشاعري تجاهك، أجهل كيف يكون ذلك، كيف تتكون الكلمات من قسمات النساء، كنت دائم الخجل حتى وأنا أدس نفسي تحت الغطاء إلى جوارك، هل تذكرين؟ لا أظنك

نسيت، ذات مساء قلت لي:

- أريدك أن تهمني كثيراً من الأطفال، كثيراً جداً، أريدهم أن يملأوا أزقة الطرقات، أن أسمع أصواتهم وضجيجهم في كل مكان، في هذا الحوش وفي الأزقة والحارات، أريد أن ألد لك مئة فدائي صغير، جيشاً من الفدائيين.

لقد جاء اليوم الذي أنجبت الفدائيين من أجله، جاء هكذا فجأة من دون إنذار، كدت أفقد الأمل بأن هذه الأمة ستحارب من جديد، إلا أن أبا خالد لم يخيب أمني، هل سمعت الأخبار؟

- أخشى عليكم من الخيانة مرة أخرى، لا ترفع من توقعاتك يا زوجي الحبيب، مدياعك القديم قد يُعيد مَشْهَدَ المأساة من جديد.

- لا تقلقي الوضع تغير كثيراً، أبو خالد سيُضيقُ الخناق على الخونة والمدعين، وسوف نتصر بالقاهر والظافر وإرادة الناس.

- أخشى أنكم لا تملكون سوى إرادة الناس.

- سنتصر هذه المرة، ألم تسمعي أحمد سعيد، الأمور اختلفت وحتى لو كان الأمر غير ذلك، علينا أن نحارب، عندما تصبح الحرب قدراً لا مفر منه، علينا أن نحارب.

- أخبار أحمد سعيد تدعو للقلق أكثر من من أي شيء آخر، على أي حال.

- من ستأخذ معك؟ سألت بحسرة.

- الفدائيون الثلاثة: عادل وصابر ومجد.

- خذ عادلاً وصابر، أترك مجداً، ما زال صغيراً.

- الحرب لعينة، تأتي هكذا فجأة، قبل أن يكبر الجنود، لا وقت لديهم كي يكبروا على مهلهم، ربما بعد النصر يفعلون، لقد دربتهم على فنون

القتال، لا تقلقي، إنهم فدائيون ماهرون.
سقطت حبة من دمع على خدها، مسحها، وضعت يديها على كتفيه،
ضمته إلى صدرها بقوة، رفعت رأسها، نظرت في عينيهِ البارقتين،
متوقدة مثل عيون أطفالها قالت، خُذ الفدائيين الكبارين عادل وصابر،
ودع الصغير مجد ليحمي أمه وأخواته، أريدك أن تعدني كما وعدتني
عشية ماكور حاييم^{١٩٥}، عدني أنك ستعود ... وفرحة النصر تزغرد في
عينيك.

مسحتُ حبة دمع أخرى وحبست نשיجهما، ضمها إلى صدره، قَبَّلَ
عينها الدامعة، نادى على الفدائي الصغير، قَبَّلَ وجنته.
- ستهتم بأمك وإخوتك وأخواتك، أنت سيد البيت وحارس الدار
حتى نعود، قال عمر.

- أمسك مجد بمشدّ بنطاله الممتد من الظهر إلى أسفل البطن، نظر إلى
عيني أمه مسح دمعة ساخنة انسابت على خدها، وقال بحزم بريء:
- لا تبكي أنا سيد البيت منذ اللحظة، إنني أمرك أن لا تبكي.
ابتسمت، ضمته إلى صدرها، نظرت إلى عادل وصابر.
- "الديدان وحدها تموت في الجحور يا أمه"، قال عادل.
- هل أنتم خائفان؟ سأل عمر فدائييه

كان قد علمهما فنون حرب العصابات منذ اشتدَّ عودهما، حين صحبهما
معه ليشاهدتا تدريبات الخدمة الوطنية في ساحة المسجد الأقصى خلف
المدرسة البكرية، تمكن من إقناع الضابط المسؤول أن يضمهما إلى فرقة
تتدرب على مهام الإنقاذ والإسعاف، كانا أصغر المتدربين بالفرقة،

١٩٥ عملية قامت بها فرقة التدمير بقيادة فوزي القطب في مستوطنة
ماكور حاييم ١٣ - ٣-١٩٤٨

استغل علاقتة المميزة مع أبي هشام صديقه القديم في فرقة التدمير، وأحد المسؤولين عن فرق الدفاع المدني، الذي أتاح لهما المجال للتدرب على استخدام السلاح وفنون حرب العصابات بعد مغادرة المتدربين، قال لهما إن السلاح ضمان، لكنه لا يكفي وحده لتحقيق النصر، قال يومها لهما إن الهدف الواضح والعقيدة القتالية والأعداد الجيد سر انتصار الأمم، بدت الكلمات صعبة أحياناً وغير مفهومة، لكنهما فهما أن عليهما أن يقاتلا من أجل شيء ذي قيمة، لقد فهما الفرق بين أن يموت المرء مختبئاً خائفاً هارباً من الحرب، وأن يُقتل في غمار المعركة واقفاً تضمه الأرض إليها كصدر أمه الحنون.

قال الفدائي الأول عادل:

- لست خائفاً، لكنها ستكون المرة الأولى التي أشارك فيها بحرب حقيقية، إنني أشعر ببعض الرهبة يا أبي.
- لا بأس، قال الأب، هذا أمر طبيعي، لكن هذا الشعور سرعان ما سيزول عندما تبدأ المعركة، إن البطولة يا بني أن تواجه خوفك وأن لا تقف أمامه دون حيلة.

وصلوا إلى باب الأسباط، حيث مكان توزيع السلاح على المتطوعين، وقفوا في طابور طويل، كان البعض يخرج فرحاً ممتشقاً بندقية حصل عليها لتوه، والبعض الآخر يخرج ممتعضاً أعزل خاوي الوفاض يشتم ويتمتم ويسير على غير هدى، كان هناك جندي يلبس زياً بلون الحجارة والأشجار، ما إن رأى عمر حتى نهض من على مقعده، وتقدم نحوه فardاً ذراعيه .

- ماذا تفعل هنا يا صديقي، الم تكتف بعد، قال أبو هشام.
- جئت وابني كي نستلم السلاح يا أبا هشام، لقد انتظرنا طويلاً، سوف تعود إلى عين كارم، سنجلس وإياك وأبني عادل وصابر غداً

تحت دالية العنب الأسمر، أتذكر طعم عنبها، يومها قال وعد: لم أرَ عنباً بهذا الحجم في حياتي، أتذكر إجابتك، قلت له هذا عنب كارمي قُح، كم أتمنى لو كان وعد معنا اليوم، سنعود لقُحاح الدوالي والطيبات يا صديقي.

طأطأ الجندي رأسه، هزّه بحيرة وألم، ثم رفعه فجأة بغضب، وضع يده على كتف عمر، أخذه جانباً، وقال هامساً:

- هنا ليس مقر فرقة التدمير، وهؤلاء ليسوا رجال وعد، ولا رجال الجهاد المقدس، هذا الجيش سوف ينسحب تدريجياً إلى الضفة الشرقية، لن تمضي إلا ساعات، ولن يكون الجنود هنا، خُذ ولديك وعد إلى بيتك، اللي راح يموت في هذه الحرب راحت عليه، لن تكون حرباً بالمعنى الحقيقي.

كانت الصدمة أكبر من أن تتحملها أقدام عمر، هبط مذهولاً إلى كرسي الجوار، تمت لظلمة دهمنا المستقبل من دون أن نمتلك تصوراً لمواجهته، كلما اقترب الأمل حيد به عن نهجه أو قتله الحكام، إذاً هي حرب أخرى وخيانة أخرى.

ربت أبو هشام على كتفه.

- لا تحزن، قال له، خذ فتيتك وعد إلى عائلتك.

- وماذا عنك؟ سأل عمر

- لن أكون مع المنسحبين، سأبقى هنا على أرض وطني، هناك سرية في الشيخ جراح ستغطي الانسحاب، وتعيق تقدم اليهود من المنطقة الشمالية الغربية، ضماناً لأي قلب بالموافق، سألتحق بها.

- إذاً مكاني إلى جانبك، لن نكتفي بتغطية الانسحاب، سنشن همم الجنود والرجال، "نفس الرجال بيحيي الرجال".

سبح الأسوار الحالية

حَلَّتْ الطرقات من المارة، غادرَ من في السوق على عجل بعدما تزودوا بها جادَ به الحال والمال والوقت القصير، وحده أبو جريس أبقي حانوته مشرع الأبواب، شاهداً على حكاية الحرب التي إنتهت قبل أن تبدأ، أخلى بعض الجنود مواقعهم فوق سور المدينة قريباً من باب الساهرة، بينما حلقَ البَهَّار في سماء المدينة، بدَّلَ بعض الجنود ثيابهم العسكرية بأخرى مدنية، سمعَ أبو جريس أصوات المدافع، وسرعان ما برح البَهَّار بعد أن دهمت فضائه خمس طائرات حربية، أغارت على حارة السعدية والمدرسة القادسية حيث مركز الدفاع المدني، قريباً من حانوت أبي جريس، وما هي إلا ساعات قليلة حتى غادر آخر الجنود، "لا يدرك المكان بعد في أي أيد ظالمة سيكون، هكذا فجأة تُركت المدينة وحدها لتواجه مصيرها المجهول، إذا كان الجند ينسحبون، فلماذا تقصف الطائرات المدارس والأحياء؟ سأل أبو جريس نفسه، تعالت أصوات استغاثة الموظفين المحاصرين في عمارة البريد مقابل باب الساهرة، تناول أبو جريس مُسدساً من جراب في مخزن دكانه، صعدَ درجات السور إلى جوار باب الساهرة، أطلَّ برأسه بين تقاطعين حجريين فوق البوابة الكبيرة، نظرَ من خلال الفتحة الحربية في جدار السور، رأى قوة من الآليات الإسرائيلية والمشاة يتقدمون من متحف المدينة قرب مدرسة الرشيدية، تصاعد في الأنحاء دخان خفيف، رأى طيفاً

عبر مسافة بين لحظتين، ربما عانقها، ربما ضمها إلى صدره، بدا الحلم بعيداً، حلقت أسراب عصافير، غربت إلى مسافة قصيرة، ثم شرقت من جديد، بدت حائرة تحوم على غير هدى، ضجيج الدبابات يصم الآذان، صوب مسدسه نحو بعض جنود تقدموا نحو المدينة متوارين خلف الدبابات، حدّق من الفتحة القتالية، تعالت أصوات المحاصرين في مكتب البريد، أصابت قذيفة واجهة المبنى من الجهة الشرقية، صرخ المحاصرون، تلتها قذيفة أخرى، أطلقت ماري بثوبها الرهباني ووجهها الملائكي، مسح عن جبينه بعضاً من عرق دافئ، سابت كلماته أنفاسه التي هدأت. أحبك، قال دون تردد أو انفعال، ابتسمت راهبة الخمار الأسود، رآها تلامس مصحفاً تدلى من سلسلة ذهبية على صدرها، أطلّت من الشرفة، نظرت إلى خط الدخان، رفعت بيدها قوار الأضاليا، ترنحت أغصانها، ورنّت تيجانها نحو العصافير الحائرة، ضغط على الزناد، فردت شفيتها وزمتهما حتى أقصى الوجنات، تُراها إبتسمت، هل إبتسمت حقاً، أحسّ يداً ناعمة تلامس بحنان وجنتيه، أصابت طلقة أول جنود الغزاة المتقدمين، سقط أمام باب الزهرة، تماماً أمام البوابة، لن يدخلوها ما دمت حياً، أطلق من جديد، هوى جندي آخر، دوى صوت انفجار شديد، انهمر الرصاص من كل صوب، أحسّ بدفء في خاصرته ويد تمسح عن وجنته تعب السنين، فغرت الحفرة فاهها، حدّق في كثيف من ضباب ودخان، مدّ الجندي يده وضعها على كتف فتاته، بدا نهر التاييمز هادئاً، تُراه حدثها عن مغامراته في فلسطين، تُراه قال لها كيف اعترض فتاة على إحدى الحواجز هناك، تُراه... حرك أبو طلال أصابع يده، سمع خفقان قلبه، طارد وعد فراشة ملونة في ساحة مدرسة الترسنطة، رأى سرباً من السنونو حلق عالياً، رنا

إلى فضاء بلا نهايات، صوب أبو جريس من جديد بينما تفرق الوجد والنارينج ومآقي العيون، تقدم إليه، ليس من مدى سوى ما ترفل إليه خطاه، ما كان لما ري أن تقطع المسافة بالاتجاه المعاكس، أدرك أن العمر يمضي على خط الندى حيناً وعلى خط الشوك حيناً، لكنه وإن مضى على الخطين فإنه واحد في الاتجاه، ليس سوى التقدم للأمام وما هناك من اتجاه معاكس، عادت نوائح البهّار حلقت ثم حامت حول جثة وحيدة عند بوابة المدينة قريباً من الأسوار العالية، وفجأة قنبت الشمس¹⁹⁶ وانطفأ قرص القدر الذهبي، أطبق الصمت، سار أنسليموس على خط عمره الوحيد نحو وجهته المحتومة، وغاب في سُرمد وحدته وليله الأخير.

أطلّ الشيخ إسلام من نافذة بيته في حي الواد على جمع من الناس، قال أحد من في الجمع إن اليهود احتلوا بلدة الثوري وهم يتقدمون إلى المدينة من ثلاثة محاور، بينما تقهقر جنود الجيش العربي إلى الشرق بشكل متسارع. قال آخر: ما هي إلا سويعات قليلة حتي يدخل جنود اليهود إلى البلدة القديمة. صرخ الشيخ إسلام بالجمع: كفوا عن النحيب، لن يتخطى أبواب القدس جُند من الغرباء، للبيت رب يحميه، علينا أن نأخذ بالأسباب ونعدّ أنفسنا للمواجهة، وسينصر الله القلة المؤمنة، تدبروا أمركم، ولنخرج إليهم بكل من استطاع حمل السلاح.

- ليس الأمر بهذه البساطة يا شيخنا العزيز، قال أبو رباح، لقد سحب الجند معهم كل أسلحتهم الثقيلة وتقهقروا خلف النهر، لم يتركوا لنا إلا قليلاً من البنادق الخفيفة، ولا متسع من الوقت لتنظيم الرجال،

ليس هناك من قيادة ولا قوة للسيطرة والاتصال، قُطعت خطوط الهاتف، والكهرباء، وطرق المواصلات، ليس سوى قوة صغيرة من الجيش العربي بقيت في ثكنة الشيخ جراح لتأمين انسحاب فرق الجيش من الجهة الشمالية، يبدو أن مصير المدينة قد حُسم في هذه المعركة، نظر إليه الشيخ إسلام بحنق وغضب، وقال:

- ليس المصير سوى إرادتنا نحن، ليس سوى ما نريد، "إن الله جنوداً إذا أرادوا أراد"، فلا تُثبِط عزائم القوم يا أبا رباح، وأنت من مجاهدي حرب 1948، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

- ليس هذا ما أقصد يا شيخنا العزيز، أنا لا أثبط من العزيمة، بل أعقلنها، قدر المدينة وقدرنا قد حُسم في هذه المرحلة، لم تكن هذه حرباً كما نعتقد، لقد انتهت الحرب قبل أن تبدأ، إننا نخوض معركة غير متكافئة مرة أخرى.

- ماذا يعني ذلك؟ سأل الشيخ إسلام بحدة، ما هو التكافؤ؟ أين الخلل، في القوة أم العقلية، أم في الإيمان، أم في التقدم الحضاري والتفوق العسكري، والدعم الأوروبي والأمريكي؟ لماذا ليس لدينا جاهزية؟ من المسؤول عن عدم وجود الجاهزية مرة أخرى؟

- تلك مرحلة لم يسعى ناظموا إيقاعها على منعنا من استعادة ما ضاع منا فقط، وإنما حرصوا على تدمير كل طاقة لنا للحفاظ على ما تبقى لنا. قال أبو رباح، وأضاف:

علينا أن نحافظ على ما نملك من سلاح قليل وذخيرة لنخوض مقاومة طويلة المدى مع الغاصبين، إن خسرنا بقية ما نملك من إرادة وعزيمة وسلاح في هذه المواجهة الخاسرة فتلك هي الهزيمة النكراء، وذاك هو المصير الذي لا نرجو، على كل حال لا بأس من مقاومة دخولهم المدينة

هنا وهناك، ومناوشتهم بما نستطيع، على أن نقتصد بالخسائر، أرواحاً وسلاحاً، هذا سيبقي جذوة المقاومة حيّة.

- هذا هو الرأي يا أبا رباح، قال أحدهم واعدوا لهم، قال آخر.

انحنى الشيخ إسلام قليلاً كأنه يئن تحت حمل ثقيل، ثم رفع القامة وحدّق في وجوه الحاضرين وقد استعاد هدوءه، وقال بصوت واثق لم يخلُ من نبرة حزينة:

- لا غالب إلا الله، ما دام العزم على استمرار المقاومة والجهاد فلن يفلت الأمر من أيدينا، وسيبقى مصير المدينة وأهلها في أعناق كلٍّ من كبرٍّ وآمن بالله الواحد القهار، "إن تنصروا الله ينصركم".

- نعم بالله، قال أبو مصطفى، فلنجهز المدينة لمقاومة تطول، "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل".

- لقد بشرنا جلّ شأنه فقال "لا تهنوا ولا تحزنوا"، إنها القدس، أولى القبلتين بيت الله الذي بارك حوله، لن يتمكن اليهود منه، أقول لكم للبيت رب يحميه، قال الشيخ إسلام بحزم ويقين.

فجأة لمع في سماء المدينة وهج فغمّ الأفق، تبعه صوت انفجار كبير، سقطت قذيفة على بيت الحاج جمعة بائع الفلافل في عقبة البسطامي، تدافع القوم، تناثر الدم على جدران الزقاق، وسُمع أنين المصابين تحت ركام البيت، نهض الرجال إلى ما لديهم من سلاح وتوزعوا على أبواب المدينة.

أغلق أبو طلال باب دكانه بهدوء، بينما تدافع الناس مهرولين إلى بيوتهم، تقدم من فرن أبي رباح، هل أنت جاهز؟ قال، هزّ الرجل رأسه إيجاباً، حمل كل واحد بندقيته وبعض أمشاط من الذخيرة والقنابل.

- لم تعد تتعلل بالمرض يا أبا طلال، قال أبو رباح.
- كنت اعتقدت أن المرض أخطر ما واجهت في حياتي، يبدو المرض الآن أمراً ثانوياً، بل وتبدو حياتي وربما حياة كل عائلتي أمراً ثانوياً أمام ما يهدد القدس يا أبا رباح، ذلك اليوم على رمال الصحراء الساخنة في باير أخذني أبو جريس من عالم ذاتي المحدود إلى رحاب دنيا واسعة، مملوءة بالحب والإيمان والتضحية، لم أعد ذاك الإنسان الذي ينطوي على همه الشخصي، تتملكني ذات أخرى تريد أن تُقدم دائماً، تثور ولا تهدأ.

انضم أبو طلال وأبو رباح إلى مجموعة من المقاتلين تجمعوا في مدرسة القادسية، قرب عقبة البسطامي، توجهوا إلى باب الأسباط، كانت مجموعة من الآليات العسكرية الإسرائيلية تتقدم من طريق باب المغاربة إلى جوار واد قدرون، اقتحم أبو طلال البوابة، وزع وزيد بعض من المتفجرات على جوانب الطريق، وعندما تقدمت الآليات من باب الرحمة، حدث انفجار كبير، أوقف زحف الآليات، غطى أبو رباح وأبو هشام وزيد وأبو طلال الذي دلف إلى خارج بوابة الأسباط.

استتر أبو طلال خلف متراس في مقبرة اليوسفية، وعندما اعتقد الجند المعادي أن المنطقة أصبحت آمنة، تقدم بعض من الجنود باتجاه باب الأسباط، انقض أبو طلال عليهم، أرداهم قتلى على جانبي الطريق، حاول الرفاق أن يغطوا انسحاب أبي طلال، غير أن رصاصة قناص تمترس قرب مقبرة باب الرحمة اخترقت صدره، أطلق الرفاق ناراً كثيفاً، تقدم زيد وسحب أبو طلال الذي سقط على الأرض، عادوا به إلى بيته، تحلق حوله من بقي من عائلة ورفاق، رفع رأسه، سأل: أين أبو جريس؟ ساد الصمت لحظة، قال أبو مصطفى:

- لا بأس عليك أيها الصديق الجسور، لقد قاومتَ الموتَ مراراً من باير إلى هذه اللحظة، وستقاومه الآن

- لقد كنت في مواجهة الموت طيلة عمري منذ الصبا، قارعت المرض، ومن باير إلى الآن واجهت الموت عشرات المرات في سبيل القدس وفلسطين، ولو قدرت لي الحياة فسأواجهه عشرَ مرات أخرى، إن أشدَّ ما يحزنني أن تلك الرصاصة التي أصابت القلب العليل اليوم ستسلبني متعة مواجهة الموت في سبيل وطني مرة أخرى.

سكتت أجراس الكنائس، وغاب صوت الأذان، انحسر ضوء النهار عن أسوار المدينة وأطبق صمت رهيب، انسابت صفحة الأيام، لم تكن تقلبات الزمن وصور الوجوه الواجمة ذات معنى مختلف، بدل الملك الناصر داود حاكم القدس حلة الحرب، وارتدى ثوباً مزركشاً، تأبط يد الملك الصالح إسماعيل¹⁹⁷، تسللا تحت جناح الظلام إلى خيمة القائد الصليبي، وسرعان ما خرجا فاردي الثغر، فرشا لفرسان الهيكل أضلاع المدينة سجاداً من رماد، احمرت وجنة نجم الدين، اعتمر العز بن عبد السلام كوفيته المرقطة، خبأ الورد في الجبال، وخلع عن الملك

١٩٧ الصراع بين أبناء وأخوة الناصر صلاح الدين أدى إلى تسليم القدس للصليبيين مرة أخرى بعد وفاته، وتوقيع اتفاقية يافا سنة ٥٢٦هـ/جري ١٢٢٩م، من قبل الملك الكامل ابن الملك العادل شقيق السلطان صلاح الدين، كان الناصر دواو في صراع مع أعمامه، الأشرف والكامل وبعد استعادته للقدس بعشر سنوات، ساوم عمه الكامل على الملك الصالح أيوب، الذي كان ما زال معتقلاً لديه في قلعة الكرك، بهدف الحصول على دمشق، فأخرجه من السجن بعد سبعة أشهر وبإيعه وعقد حلفاً معه، كان من نتائج الحلف تنازلهما عن القدس وتسليمها للفرنجة مرة أخرى ١٢٤٠

الصالح بيعة القوم، حمله مطر أسود طريداً من الديار^{١٩٨}، صعد الشيخ إسلام إلى سطح منزله، قال الجندي ذو الخوذة الحديدية: هار هبيت بيدينو "جبل البيت بأيدينا" قهقهه آحاد هعام، ورقص جند ذوو جدائل شقراء في ساحة البراق، نظر الشيخ إسلام إلى السماء، انهمر الدمع غزيراً من عينيه، تتمم: يارب البيت، أنا رب الإبل، أنا رب الإبل! ثم استغفر ربه وجثا على الأرض باكياً.

رجع عادل إلى البيت حزيناً وقد شعر بخذلان شديد، كأن قوة خفية أخذته باتجاه مختلف انحرفت به عن واجبه المقدس، وعن أمل والده الذي انتظره طويلاً، ليست الحرب هدفاً، لكن خوضها واجب عندما تصبح قدراً وحتماً، كيف لم يتسن له أن يكون مع والده في جبهة القتال، دلف إلى البيت وهو مغمور بالأسى والحسرة، وربما الحزي أيضاً، عند بوابة الحوش كانت أمه هدى مضطربة، وتهم والدة العجوز للخروج من البيت، سأل عادل:

- إلى أين يا أماه، الوضع في الخارج ليس على ما يرام، لا داعي لخروجكما

نظرت أمه إليه بأسى، وقالت:

- أدهمية والرضيع خارج البيت، إنهما خارج الأسوار أيضاً، ذهبت وطفلها إلى مستشفى المطلع، تمالك عادل نفسه، لأنه يدرك أن الخروج والدخول إلى البلدة القديمة بات أمراً صعباً ولا يخلو من مخاطرة، ودون أن يهول الأمر، قال بهدوء:

- لا بأس يا أمي، إبقى أنت وجدتي هنا، واتركي لي أمر زوجتي

١٩٨ نُفِّيَ العز بن عبد السلام من دمشق إلى القاهرة بعد خطبة الجمعة التي أعلن فيها خلع الملك الصالح أيوب

وطفلي، سأعود بها إلى البيت.

لا يدري أي شعور دفعه لمعانقة أمه وجدته، بحث عن عمته فاطمة، كانت تنزوي في حجرها قريباً من صندرتها القديمة، تعبت في أشياءها وكأنها تبحث عن فاقد ثمين، نادى بصوت منخفض:

- عمتي، أيتها الجميلة الحزينة، هل تعلمي أننا على مسافة قريبة من إستعادة عمتي نرجس وأبنائها، إننا على بعد خطوات من بوابة العبور إلى هناك.

تناولت ربي منديلها وخرجت على عجل، ثم سرعان ما عادت ومعها بضعة صناديق من الأدوية واللفائف والأدوات الطبية، رافقتها بعض بنات الحي، نهضت فاطمة من ركن غرفتها، نظرت إلى ربي، تدفقت دموعها، سحبت أنفاسها المرتجفة فانساب الدمع ورطب الشفتين المتيسيتين من الصمت الطويل، ابتسمت، ضمت ربي إلى صدرها وقالت بحسرة وكأن كلماتها تأتي من هوة عميقة: ألا تضميني إلى الفريق، ابتسمت ربي وهي تعانق عمته بينما دموعها تمتزج على وجنتين ملتصقتين.

كسرت الطائرات هدوء اللحظة بصوتها الهادر، هرعت ربي ورفيقاتها والعمة فاطمة، حملن بعض الأدوية والأدوات الطبية، غسلن الأيدي والوجوه وعقدن صفائهن إلى خلف، ثم ملأن بعض مطرات عسكرية بالماء، لم تكن تقلبات الزمن وصور الوجوه المتبدلة والأيدي الممتدة إلى الماء ذات مغزى مختلف، عاد ابن كباشة والمالح والقيسي¹⁹⁹ من لقاءهم السري إلى قلعة غرناطة، كانت راية شتيقب والراية الملكية على برج

قمارش²⁰⁰، خرج عادل مسرعاً، تسلل من فتحة في الأسوار قريباً من حارة السعدية، لا يعرف مكان تلك الفتحة إلا أبناء المدينة، وهي تؤدي إلى حديقة المغارة على بعد أمتار من باب الساهرة.

كان المشهد صاعقاً، فبينما كان الناس يرقصون في أحياء المدينة داخل الأسوار فرحاً لصوت الطائرات اعتقاداً منهم أنها طائرات عراقية، كان المشهد مختلفاً خارج الأسوار، حيث التزم الناس بيوتهم، وتدافع آخرون بين صفوف من الجند المنسحب باتجاه الغرب، واصل عادل السير، كان عدد من الناس قد تجمعوا قريباً من سوق الجمعة، تحدث البعض عن مذابح يقوم بها الجنود اليهود مثلما فعلوا بدير ياسين، أشفق عادل على الناس من هلع ومن مرارة تجربة أخرى، لكنه بدا أكثر انشغالاً بحاله الخاص، وقلقه على زوجته وابنه الصغير، واصل السير على الأقدام صعوداً إلى جبل الزيتون، كان عبور تلك المنطقة مغامرة خطيرة لأن قناصة متمركزين في الجامعة العبرية يطلقون النار على كل من يسير على ذاك الطريق الذي سقط على امتداده العديد من الشهداء، تفادى عادل الشارع العام وتسلل من خلف سوق الحسبة وحي الطواطة وكنيسة الله، حتى وصل إلى مستشفى المطلع، كانت أدهمية مع بعض نسوة ورجال مختبئين في أحد عنابر المستشفى بعيداً عن العيون لشدة قرب المستشفى من الجامعة العبرية، ما كان متاحاً لعمل أي شيء للطفل، خاصة أن المستشفى كان متجنداً لاستقبال الجرحى والشهداء. قرر عادل العودة وزوجته وصغيره فوراً إلى البيت في الشيخ ريجان

٢٠٠ أطول برج في قصر الحمراء في الأندلس يصل ارتفاعه إلى

مها كانت المخاطر، حاول بعض من في المستشفى ثنيه عن قراره ذاك، لكنهم لم يفلحوا، تسلل عائداً وعائلته من الطريق الذي أتى منه، إلا أن أحدهم قال له إن الطريق إلى باب الساهرة مقفلة قريباً من المتحف، ويُعتقد أن دبابات إسرائيلية تقدمت نحو البوابة، لذا قرر أن ينحرف بمساره نحو الشرق قليلاً من خلف مقبرة خصصتها الأوقاف الإسلامية لليهود المدينة على جبل الزيتون ناحية رأس العامود، ثم اتجه عادل بأسرته إلى باب الأسباط، ومن هناك أخذ طريقه إلى الشيخ ربحان، وما إن أطل قريباً من ستنا مريم، كان الناس يتدافعون شرقاً بعيداً عن تقدم الآليات وجنود اليهود قرب باب الأسباط، انحرف بمساره نحو الشرق مرة أخرى، ثم إلى الجنوب نحو وادي حلوة وعين سلوان، في محاولة للالتفاف من خلف جموع جيش الغزاة، بهدف الوصول إلى باب المغاربة، قريباً من بيت أم نصرت والدة أدهمية في حي الشرف.

كانت أدهمية تضم رضيعها إلى صدرها وهي تسمع أبنه وبكاءه دون انقطاع وبلا حول لها أو قوة، كان المشهد بين باب النبي داود وباب المغاربة أصعب من أن يستوعبه عقل عادل، اندفع جنود ذوو سحنة صفراء باهتة وآليات كثيرة من البوابة الضيقة إلى حي المغاربة وحائط البراق، انحرف عادل بعائلته من دون وعي أو تخطيط نحو الشرق حتى أخذه الاتجاه، حاولا العودة إلى مستشفى المطمع، لكن الطريق الوحيد الذي بدا أنه ترك حُرّاً لحركة الناس كان باتجاه الشرق إلى مدينة أريحا، إندفع الناس يحمل بعضهم على الكتف أطفالهم وبعض سلال من الخبز أو بقجاً من ملابس، أو جراراً وأباريق ماء، ساروا في قيظ صيف رهيب، فيض من النازحين هاموا على غير هدى في طريق باتجاه واحد، تَفَطَّرَتْ قدما أدهمية دماً، وفجأة هوت من تعب وسقطت على

الأرض، كان أنين الطفل الملتصق بجسدها ينساب عبر جلدها ويخترق أضلاعها وتمتزج نبضات قلبه مع نبضات قلبها، فتشحنه بالعزم والقوة من جديد، تواصل السير إلى الأمام، فليس سوى المسير أملاً يمنح طفلها الحياة.

- دعيني أحمل الطفل، قال عادل.
- لا... لا.. دعه على صدري قريباً من قلبي قالت أدهمية.
- ثم نهضت تكابر وتستقوي على ضعفها وألمها، تضم صغيرها إلى صدرها، انحرف جمع الناس إلى الشرق بإرادة لا وعي تاه في غبش البأس، جموع تكدسوا أمام مخيم عقبة جبر، بكاء أطفال وصراخ نسوة، حرّ وقىظ وغبار وشح في الماء والطعام، ما كان لعادل أن يصبر على حال كذاك، كان الطفل يذوي بين يدي أمه شيئاً فشيئاً، بينما عرق والدته اللزج يغطي وجهه الصغير، تخطى عادل جمع الناس باتجاه عين الديوك في محاولة لصعود الجبل من جديد، بعيداً عن وادي الغور السحيق، كانت جموع من الناس تنزل الجبل باتجاه الوادي، قال أحدهم إن الطريق إلى قرى شرق رام الله باتت مغلقة، انحرف عادل إلى الشرق مع الجموع التائهة، تحطم جسر من الخشب قريباً من مغطس المعمودية من قصف طائرة معادية، انزلقت قدم أدهمية عند الحافة الغربية من خضرب النهر، أمسكها عادل، خارت قواها وأصابها الخفّ، لم تعد تدري، هل تلك نبضات قلبها التي ترتجف أم نبضات قلب الرضيع الملتصق بصدرها، انحنى عادل، ضم زوجته وصغيره إلى صدره.
- لماذا يحطمون الجسر؟ سأل أحدهم.
- كي يعبر الناس بلا مركبات ودون متاع، قال آخر
- وهل يبيع البلاد لهم مفروشة، قال نازح عجوز يجر بغلاً

بحمل مئاعاً قديماً.

فجأة جحظت عينا أدهمية، ثنت رأسها بانكسار على وجه الصغير، توقف خافق على يسار الصدر عند الحدّ الفاصل بين النهر وشریان الوجد، إسترقت أدهمية النظر من خلف ستار النافذة في الطابق العلوي في بيت أم نصرت في حي الشرف، دققات من نسيمات رطبة لامست وجهها، تفتح الورد في ربيع عيون خضراء، غير أنها أسدلت الستار من خجل، وبقي الأمل ظلّ الانتظار الوحيد.

تقدمت ربي بحذر نحو مدرسة القادسية قرب باب الساهرة، سقطت عدة قذائف في محيط المكان، تجمعت بعض النسوة حول بوابة المدرسة، حاولن فتحها، لإخراج المحاصرين داخل مبنى المدرسة، أغارت الطائرات من جديد، تشتت الجمع، ارتفعت أصوات المحاصرين، حاولت ربي الاحتماء بجدار قريب من بيت مسودة، سمعت نداء المحاصرين داخل المدرسة، كانوا يناشدون من أجل إسعاف الجرحى، إعتلت ربي سور البيت المجاور، وتسلفت من هناك إلى داخل مبنى المدرسة، ربما ساقتها الأقدار سبباً لإنقاذ الكثير من الجرحى داخل المبنى.

تمكن عدد من أبناء الحي من فتح البوابة الكبيرة، وبدأوا بإخلاء الجرحى والمحاصرين، عادت الطائرات من جديد، أصيب المبنى إصابة مباشرة، كانت ربي هناك، تمسح وجع المقاتلين من أبناء المدينة، لكن شظية تحطت نافذة ثم أخرى أصابت ربي بعمودها الفقري، كانت إصابتها بالغة نقلت إلى بيتها بالشيخ ربحان، ترنحت أوراق شجرة التين، بَغَشَت السماء على غير ميعاد، وتميلت أغصان المدادة العجوز، صرخت هدى وانتحبت، بينما جثمت فاطمة إلى جوار ربي، أمسكت بيدها، حدقت

- ربى بعيني والدتها، قالت:
- أعطيني قطعة علكة.
- مضغت، ضغطت بأسنانها، حركت شفيتها بقوة، نظرت إلى أمها بعينين حزبتين، قالت:
- اخرجي أماء من الغرفة، اخرجي أرجوك.
- نظر من في الغرفة بعضهم إلى بعض باستغراب، ارتفع صوت ربي الحزين:
- اخرجي أمي.
- أجهشت الأم، انساب الدمع على وجنتي ربي، خرجت أمها من الغرفة وهي تحديق بعيني ابتها الدامعتين، حركت ربي شفيتها بشدة، وما إن توارت أمها خلف الباب، رفعت ربي رأسها وفيأت شعرها، ابتسمت لصبي ما برح ينتظر على ناصية الطريق، ثم أرخت رأسها وسكنت.
- لا تخرجُ روح صبية في حضور أمها، قالت فاطمة وغابت من جديد.



سجدة

هَرَعْتُ إلى حضن أمي كما يهرع فرخ مذعور، كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها صوت مدفع الإفطار، سخر إخوتي مني ضاحكين، بدا لي أن أبي ابتسم أيضاً، بينما حدقت عمتي فاطمة بوجوم، ضمتني أمي إلى صدرها، بسمّل أبي، الذي انتهى من فوره من تحضير عصير قمر الدين ونَظَّل الزبيب، تقدم أخي صابر من المائدة مسرعاً حتى لا يفوته شيء من الطعام، وكان قد حضر لتوه بعد أن أخذ بعضاً من قطع الصفيحة باللحم إلى بيت جارنا أبي مصطفى بناء على طلب والدي، وجاء من هناك بقطع من حلوى البقج بالجبنة أعدتها أم مصطفى، دَهَمْتُ أيدي إخوتي أطباق الطعام كأنها سرب من الجراد الحائم فوق حقول القمح، ثلاث أخوات وتسعة أخوة، كادت أيديهم وأجسادهم التي تنحني صفّاً باتجاه المائدة وتستوي صفّاً تحجب عن عيني مائدة رمضان الشهية، ارتشفت أمي جرعة ماء وتناولت حبة تمر وتفرغت لإطعامي بيدها، حتى خَشِيتُ أن يلتهم إخوتي كل ما على المائدة من طعام، فلا ينالها شيء، رفعتُ رأسي حدَقْتُ بوجهها، ابتسمت راضية ودَسْتُ بمني مزيداً من الطعام، نظرَ أبي إليها بعطف، غير أنه قال بصوت حازم: تناولي طعامك، فأنت أيضاً صائمة، ابتسمت وقالت:

- مجد صائم أيضاً، لكن صومه درج الصخرة لأنه "بوبو صغير".

فرحت لأنها أشادت بي، لم أفهم ما تقصد بدرج الصخرة، وكانت في الصباح طلبت مني الصيام درج الصخرة، وأطعمتني متأخراً ما قبل

أذان الظهر، ما إن انتهى إخوتي من تناول الطعام حتى غادروا البيت وعادوا بعد وقت قصير مع عدد كبير من أطفال الحي، تجمعوا بحوش البيت، غنوا لي، وفرحت كثيراً، وفرحت أُمي وأعطتهم بعض الحلوى، وأخرج أبي من جيبه بعض النقود وناولها لأكبرهم سنًا.

وكويسه يوحيا

مجد لينا يوحيا

وعريسه يوحيا

ولا بدر يوحيا

ضو القمر يوحيا

حق العروس يوحيا

وتعد فلوس يوحيا

أعطونا حلونا

حلوا الكيس وأعطونا

جاي علينا جاي

صحنين بقلادة

ورغفين شليه

ورغفين حليه

فيها الخوخ والرمان

حيا الله يا بلاد الشام

حلو الكيس وأعطونا

لولا مجد ما جينا

صحبني والذي معه إلى السوق بعد أن غادر الصبية راضين فرحين بما نالوا من قروش وحلويات، كنتُ متشوقاً لهذا المشوار الذي وعدني به والذي منذ عدة أيام، لبست بنطالاً من القماش الأزرق وقميصاً أخضر ذا رسومات كثيرة، كان والذي قد اشتراه لي من محلات الحرباوي

في شارع صلاح الدين، وحذاء من باتا في حارة النصارى اشترته لي أمي، كانت ليلة رمضانية صيفية، اكتظ فيها السوق بالناس، خاصة أمام محلات الحلويات، توقفنا عند أحد محلات الحلوى، عرفت الرجل الذي يقف إلى جوار سدر كبير للقطايف وعلى يمينه قدر كبير من القطر وضع على قرص نار خافت لبابور أخرس، إنه أبو وليد نوفل جارنا من عقبة شداد، كان المحل أشبه برواق طويل، ربما زاد على خمسة عشر متراً، وعرضه لا يقل عن خمسة أمتار، اصطفت الطاولات والكراسي على طول المحل، دفع أبي عدة قروش لرجل أبيض الشعر جلس إلى كرسي خلف طاولة صغيرة عند مدخل الباب، ثم جاء لنا صبي يلبس مريلة بيضاء بصحنين من القطايف، قال لي أبي إن هذا محل جعفر أشهر محلات الكنافة في القدس، ووعدني أن يأتي بي مجدداً لتناول بعض الكنافة يوم العيد.

كان أبي يلقي التحية على صاحب كل دكان يمر إلى جواره، فيناديه بائع السوس، أحلى كباية سوس للعريس الصغير، كنتُ أتلفت حولي بحثاً عن العريس، بينما ينحني الرجل فينسب السوس من إناء مزين بالدناديش ويناولني الكباية، تناولت رشفة واحدة لم أكررها، كان طعم السوس مرّاً، ضحك والدي وأخذ الكباية وارشفها باستمتاع، الأمر الذي بدا لي غريباً. طلب مني أبي أن أقف إلى جواره ولا أبرح مكاني، عند محل اكتظ أمامه الناس، قال لي إنه محل أبو جمال شاور بائع المشهيات الذي فرد جاطات كبيرة لأنواع من المشهيات في واجهة المحل، وعلق شنبراً كبيراً أنار أجواء المكان، تصدرت صنية ملائى بالشنكليش البسطة الكبيرة، وأخرى باللبنه المعجونة بالشطة، وثالثة بمخللات القرنبيط الأصفر، واللفت زهري اللون، والباذنجان

الأسود الصغير المحشو بالجوز، والخيار الصغير مثل أصابع الأطفال، ثم الشمن الأحمر الحراق، والشطة بالزيت، اشترى والذي قطعة من الشنكليش ولبنة وشمناً وبعض المخللات للسحور، كنتُ قد تعبت من المشي، فحملني أبي على كتفه بينما حمل باقي ما اشتراه من السوق بيديه. كانت الأضواء قد زينت أحياء المدينة، وانتشرت الفوانيس بأضوائها المتلاثلة فوق بسطات الخضار وأمام واجهات الحوانيت وفي أيادي الصبية في الأزقة والحارات، وفي طريق عودتنا إلى البيت مررت وأبي من زقاق مُعتم قرب بيتنا إلى جوار الشيخ ربحان، كانت الأضواء الكهربائية تنير الطرقات الرئيسية والأسواق، بينما لا يصل نورها إلى الأزقة والأحياء الداخلية للمدينة، ما إن وقفنا أمام باب المقام، حتى سمعت أبي يقول:

السلام على سيد المقام، وقرأ الفاتحة وطلب مني أن أردد خلفه ما قال، ثم أخبرني أن في هذا المقام يرقد شيخ جليل، أضاء أبي شمعة وبدا في نظراته كثير من الحب والتقدير للمقام المهيب، سألته ماذا تعني كلمة يرقد، قال أبي إنها تعني أن الشيخ ينام هنا، ثم قال لي إنه وهذا الشيخ رفاق درب طويل، وطلب مني كلما مررت من قربه أن أقرأ الفاتحة وأقول السلام على ساكن المقام، وأرشدني كيف أحضر له زيتاً وأشعل له الشموع كلما سنحت لي فرصة قبل مغيب الشمس، سألت أبي إن كان الشيخ من أقاربنا، فقال إن الشيخ أعز من أي قريب.

بقيت عبارات أبي غير المفهومة مطبوعة في ذاكرتي، حتى قصت علينا جدتي قصة شيخ جوال، كان يخرج من مقامه ويتجول في أحياء المدينة ويزور الناس في البيوت، بدت القصة عادية بالنسبة لي، بل أقل إثارة من قصة الجنية السمراء، حتى قالت الجدة إن الشيخ ربحان مات قبل

ألف وأربعمئة عام، بدا الرقم كبيراً، فهمت أنه زمن طويل، رغم أنني لم أكن أفهم تماماً ماذا تعني كلمة موت، إلا أنها كانت تثير الخوف والرهبة في داخلي، وزاد من خوفي ما سمعته كثيراً من إخواني وأخواتي كلما شتمهم أحد وقال "إن شاء الله تموت"، كانوا يتفضون خوفاً وغضباً، ويردون الشتيمة، لمن قالها: "إن شاء الله أنت تموت"، بدا لي أن الموت شيء مخيف لا يحبه الناس، لذا أصبح اقتراي من المقام أمراً أخشاه كثيراً، وكنت أشجع نفسي على تنفيذ ما طلبه والدي مني اتجاه الشيخ، عندما أكون برفقة أحد من إخواني الأكبر سناً، وكنت أحاول إخفاء خوفي الشديد، حاولت ذات مرة أن أطل على داخل المقام من نافذة صغيرة إلى جوار الباب، كان الظلام دامساً، إلا من شمعة صغيرة كادت تنطفئ، شاهدت شيئاً يشبه واحداً من القبور التي شاهدها في مقبرة باب الأسباط، عندما رافقت والدتي ذات خميس إلى حمام ستنا مريم، مع اختلاف أن هذا الشيء الغريب يلبس رداءً أخضر.

في تلك الليلة المليئة بالأحداث الغريبة، سمعت إخواني يتهايمسون، ويطلون من نافذة الغرفة إلى الطريق، سمعنا ديبب أقدام تقترب من نافذة البيت، كانت ليلة مضيئة خطف القمر نورها من شمس نهار ولى، بدأ قلبي يخفق بينما أطرقت السمع إلى وشوشات إخواني وهمساتهم، وسرحت أفكارى بقصص الغولة التي سمعتها من أمي وجدتي، وأضفت لها من مخيلتي المزووعة ما أضفت، حتى شعرت بيد تمتد إلي، فصرخت مذعوراً، فإذا به أخي فوزي الذي يكبرني عدة أعوام يقف قرب فراشي، وسرعان ما وضع يده على فمي وقال: هوس، وطلب مني أن أتبعه إلى النافذة المطلة على الطريق، قال: أنظر، ألقى نظرة حذرة، فرأيت خيال رجل على الجدار المقابل للنافذة، نبذت حييات

كثيرة على مسامات يدي وتسارعت نبضات قلبي، قال أخي: أتدري من هذا؟ تحفز سمعي للإجابة، فإذا به يقول: إنها عامورة الحي تتنكر بهيئة رجل يسير على الجدار، فزعت خوفاً، وكدت أهرب إلى حضن أمي وجوار أبي، فضحك وباقي إخوتي المتكومين في زوايا الغرفة، أشفق أحد إخوتي عليّ وقال: لا تحف، وطلب مني أن أقرب من النافذة أكثر، ترددت قليلاً ثم اقتربت بحذر، فرأيت رجلاً يسير وقد اقترب من دكان العم أبي طلال، قال أخي: هذا أبو بدوي صندوقه جارنا، ضارب مدفع رمضان، إنه يتوجه إلى مقبرة باب الساهرة لإطلاق مدفع الإعلان عن بدء فترة السحور، ويختمها قبل الأذان الثاني بقديفة أخرى، سيحشو مدفعه التركي القديم ببعض الخرق البالية وبعض البارود كما قال أبي ويقذفها إلى السماء، سألت: وهل أبو بدوي جارنا هو عامورة الحي التي أخبرتني عنها جدتي؟ ضحك إخوتي من جديد، منذ تلك الليلة كلما شاهدت أبو بدوي يمر بالجوار أثناء هوي مع صبية الحي تسللت هارباً من الخوف.

كان بعض إخوتي يشعرون بالغيرة من دلال أمي وأبي الزائدين لي، لذا كان لا بأس لديهم من القيام ببعض أعمال تلحق بي بعض الخوف والجزع، لكنهم لم يذهبوا بهذه الأفعال بعيداً، ربما خشية أن أشكوهم لأمي، أو إشفاقاً ورأفة بحالي، قد لا يدري إخوتي كم خزنت تلك المزحات البسيطة البريئة من مخاوف داخلي، رافقتي على مدى زمن طويل، وربما أثرت كثيراً في شخصيتي وسلوكي، وجعلتني حذراً متردداً حتى في أبسط الأمور، وما هي إلا لحظات حتى سمعنا ديب طبل من بعيد، هربت إلى أبعد حد في الغرفة عن النافذة المطلة على الطريق، قريباً من فراش أخي الكبير صابر، الذي كان ما زال يغط في نوم عميق،

كان الصوت يقترب شيئاً فشيئاً، وكلما اقترب اكتظت الغرفة بهمسات ووشوشات وإطلالة من بعض إخوتي عبر النافذة، حتى جاء صوت ضربات على طبل متناغم مع صوت جميل، طب طب، تطب طب، كانت هذه نغمة ضربات الطبل بيد أبي نوح مُسحر حِينا وبعض أحياء مجاورة، صوته الصداح الذي لا يخلو من بحة جميلة، ينادي: قوموا تسحروا يا عباد الله، كان الصوت يصدع آذان الليل الصامت.

سرعان ما أثيرت جنبات البيت وحجراته، كما بدأت الأنوار تتألى من نوافذ البيوت المجاورة، بدأنا نسمع صوت البابور والصحون والأواني الآتية من مطبخ بيتنا، وصوت أم مصطفى تنادي على أم رباح لتقرضها بعض أرغفة الخبز لأن أبا مصطفى تأخر في المقهى ونسي شراء خبز للسحور، كانت أُمي تُعد السُفرة إلى جوار حوض الماء تحت شجرة التين، ولا تكف عن ذكر أخي عادل الذي أخذته الحرب إلى بلاد الغربة، كما تقول جدتي.

بعد المدفع الثاني وقبل الأذان الأول، وضعت جدتي ملايتها السوداء التي تغطي كامل جسمها إلا وجهها، ولبست أُمي ملايتها البيضاء، كذلك فعلت عمتي فاطمة وأخواتي، أما أنا وباقي إخوتي فقط لبسنا ملابسنا المعتادة وخرجنا لصلاة الفجر في المسجد الأقصى، إلا أخي صابر تناول سحوره وعاد إلى النوم، مررنا بمقام الشيخ ربحان، قلنا ما عَلَمْنَا أبي أن نقول: السلام على ساكن المقام، وقرأنا الفاتحة وترحمنا على روحه الطاهرة، طلب مني والدي أن أتقدم من نافذة المقام وأشعل شمعة سرعان ما تلاً لأضوؤها داخل حجرة كان يلفها الظلام، حدّقت بإمعان هذه المرة داخل الحجرة، فكأنني رأيت رجلاً ضخماً الجسم ينام متوسداً يده وقد تلحف بحلة خضراء وغطى رأسه بعمامة بيضاء، مثل

التي يلبسها الشيخ قاسم، ذاك المسن الذي يضماني إليه وأشعر بيده المرتجفة تططب على كفتي، بينما تُعد له أمني طعام العشاء قبل أن يغادرنا إلى بيته كل مساء تقريباً.

دلفنا من بوابة باب الغوانمة فتلاً لأت أضواء حول القبة الصفراء، كان الناس يفيضون من كافة أبواب الحرم، وما إن تخطينا قريباً من باب المجلس حتى سحبني أمني معها، صعدنا وأخواتي إلى قبة الصخرة حيث تصلي النساء منفصلات عن الرجال، كنت أرغب بالانضمام إلى إخواني وأبي الذين صلوا بالمسجد الأقصى، عندما عُدنا إلى البيت كان النهار قد بدأ يكشف أستار الليل على مهل، مثل كائن وئيد الخطى ليس على عجلة في شيء، فيتبدد الغبش بهدوء وتظهر الأشجار الخضراء البعيدة على الجبال المقابلة.

في المساء وقريباً من موعد مدفع الإفطار، بينما استلق بعض إخواني هنا وهناك في حجرات الغرفة، وفي أنحاء الحوش وقد بدا عليهم التعب والإرهاق من شدة الصوم في نهار صفي حار، نشطت أخواتي وأمني وحتى جدتي ووالدي في إعداد وجبة الإفطار، كانت أمني تعد طبق الإفطار الأساسي، من الفاصوليا البيضاء مع قوادم الخرفان، وكان أبي مشغولاً بإعداد شراب السوس والخروب، حيث تعود على ترطيب بودرة السوس ونشرها في الشمس حتى يسودّ لونها ثم ينقعها في إناء فخاري كبير، بينما كانت إحدى أخواتي تعد شراب وحلوى الموردية من الملبن الحلبي والجوز.

طرقت سعده صبية التور الجميلة باب البيت، كانت تلبس ثوباً طويلاً زاهي اللون يلف قدّها المياس، بينما يتدل منديلها الأبيض الشفاف على رقبتها وعنقها الطويل، وتنساب بعض من خصلات شعرها الأسود

على عينيها الحوراء، كانت تحمل بيدها تنكة كبيرة، هرَّعَ إخوتي الكبار، خاصة أخي صابر، نحو الباب لمناولتها بعض الطعام، ندهت جدتي عليه وزجرت باقي إخوتي ومنعتهم من الاقتراب من الباب، ثم أفرغت نفسها لتلك الصبية الجميلة بعض طعام في إنائها الكبير، تابعتُ الصبية بعيني ولا أدري لماذا لم تزجرني جدتي مثلما فعلت مع إخوتي، ثم رأيت جارتنا أم مصطفى تفرغ في نفس التنكة التي تحملها سعدة بعضاً من طعام، لا بد أن بعضه اختلط ببعض، سألت جدتي عن الأمر فأخبرتني أن سعدة هي فتاة من عشيرة النور التي تعيش قريباً من أسوار باب حطة، وأنها وأخريات يجتمعن الطعام في مثل تلك التنكات ثم يضعن ما جمعن في سدر كبير، ويتناول من ذلك الطعام المختلط بعضه ببعض كل أبناء العشيرة مجتمعين في وليمة كبيرة عند مدفع الإفطار، كان هذا أول عهد علمي عن تلك الجالية في القدس.

ذات مساء جيء بأخي صابر إلى البيت جريحاً مُهشم الرأس محمولا على كتف عدد من أبناء المدينة، الذين أخبروا والدي أن عدداً من الجنود اليهود انهالوا على أخي صابر ضرباً بأعقاب البنادق لأنه حاول أن يُخلّص سعدة من بين أيديهم، حيث كانت قد شتمت أحد الجنود شتيمة لا يليق إعادتها، كما قال أحد الذين رافقوا أخي صابر لجدتي وأضاف آخر: خلعت الفتاة نعلها وضربت أحد الجنود، الذين انهالوا عليها ضرباً بينما وقف الناس بعيداً مذعورين وقد أسقط في أيديهم، لم يكن هناك أحد قادراً على إنقاذها إلا صابر، هجم مثل أسد على الجنود، كاللأحدهم الضربات، خلّص سعدة من بين أيديهم، فأطلق أحد الجنود الرصاص، وتكاثروا على صابر فسقط على الأرض مغشياً عليه، عندها تجمعهر عدد كبير من الناس وتمكنوا من سحب أخي صابر وأحضره

إلى البيت قبل أن يعتقله الجنود، كما أخبرنا الرجال قبل أن يغادروا. من ذلك اليوم تغير سلوك معظم أهل المدينة مع سعدة، وأصبح لها منزلة مختلفة في عائلتنا، خاصة من جدتي ووالدي الذي طلب من أمي عندما تعطيها بعض الطعام أن لا تخلطه بعضاً ببعض، بل أن تضعه في مطبقيات، وبتنا لا نرى فيها تلك الشحادة النورية، بل فتاة من فتيات المدينة، حتى جاءت إحدى الجارات وقالت لوالدي إن ولدها الذي يبيع اللوتو قرب باب الساهرة قال لها إن أخي صابر قد تشاجر مع المارة وأصحاب الدكاكين الذين يتحرشون بسعدة، وإن هناك علاقة مريبة تربط أخي صابر بسعدة، وإن على والدي أن تحمي أخي وأن تنأى به قبل أن يتورط في علاقة لا تحمد عقباه مع فتاة ليست من ثوبه ولا من مستواه. وأضافت أن سعدة لا تجد غضاضة بكيل الشتائم التي لا تليق لأي كان، وربما أن لها كما قالت تلك الجارة، أستغفر الله، علاقات سيئة مع بعض شباب المدينة، وبعض من أصحاب الحوانيت والبسطات.

عندما عاد أخي صابر إلى البيت، سمعتُ أمي تطلب منه الابتعاد عن سعدة، لكنه ثار وشتتم من يسيء لسمعة سعدة، وقال لأمي: رغم أن لسان سعدة سليل، إلا أنها أكثر شرفاً من كثير ممن ينالون من سمعتها، وإنها أكثر شجاعة ومروءة من الكثيرين، كانت تلك نقطة تحول في علاقة أفراد عائلتنا بسعدة مرة أخرى، زجرتها جدتي وطردتها ليلة العيد عندما جاءت لأخذ بعض الطعام، والغريب أن سعدة ذات اللسان السليل لم تُسئ لجدتي بكلمة واحدة، بل قالت: ساحك الله يا جدّة، فتقدم والدي وأعطاهما بعض الطعام، لكنه طلب منها أن لا تعود إلى بيتنا مرة أخرى. تركت سعدة مطبقيات الطعام أمام باب الحوش وتوارت والدمع يسيل من عينيها، عندما عاد صابر إلى البيت تفادى

الجميع إخباره عن شأن سعدة، أما أنا فقد تملكني شعور مختلف تجاهها، كان أول إحساسي بالاختلاف في رؤية الأشياء، غير ما ترى أمي أو أبي أو من حولي، شعرت أن ما أقدمت عليه جدتي ووالدي تجاه سعدة غير عادل وليس مبرراً، بل هو الظلم بعينه، لكنني لم أعلم كيف أُعبر عن شعوري هذا إلا عندما رأيت أخي صابر، فأخبرته ما حصل بشأن سعدة، نظر صابر إليّ باستغراب، وخرج وعلامات الحسرة والألم تعلو محياه، حتى أنه لم يتناول إفطار اليوم الأخير من رمضان معنا لأول مرة في حياته.

كنا بانتظار إعلان رؤية هلال العيد، بدا الانتظار صعباً وطويلاً بالنسبة لي، فأنساني موضوع صابر وسعدة، وما أن أعلن الشيخ من على المنذنة الحمراء رؤية هلال العيد، حتى اكتظت الأسواق بالناس، خرجت برفقة أمي وأخواتي إلى سوق العطارين، ابتاعت لي أمي طبقاً جديداً، فرحت به أشد فرح، كذلك فعلت مع أخواتي، بينما رافق أبي باقي إخوتي وابتاع لهم حللاً جديدة، كان منظر السوق مثيراً للبهجة، حيث انتشرت الأضواء في كل مكان، وتعالّت أصوات الباعة تصدح وتندخل بعضها ببعض، كانت ذبائح الأغنام وهَبَرَاتُها معلقة أمام محلات بيع اللحوم وقد غُرِزَ في بيزاتها بعض ضمم من البقدونس أو أوراق العنب، وانتشرت البسطات على جنبات الطريق على طول السوق بالملابس والهدايا والفاكهة والحلويات والخضار، حتى ظننت أن الباعة قد أحضروا إلى السوق كل ما في الدنيا من أشياء، أخذني والدي إلى محلقة أبي فؤاد في باب السلسلة التي اكتظت بالأطفال والصبية والرجال، حتى اعتقدت أن دوري لن يحل حتى صباح العيد، غير أن أبا فؤاد ولا أدري لماذا تجاوز عمن قبلي، وقال:

- جاء دور سيد فرقة التدمير، مجد الصغير.
- نظرت حولي لربما أن هناك مجد آخر بالجوار قال أبو فؤاد وهو ينظر إلي:
- عمن تبحث أيها الصغير ليس بالمدينة من مجد سواك.
- ثم وضع قطعة من الخشب فوق ذراعي الكرسي الكبير ورفعني فوقها، قال أبي مبتسماً "نمرة اثنين" يا أبا فؤاد.
- كانت أمي قد انتهت من بعض أمرها وحضرت إلى باب المحلقة واصطحبتني معها، بينما ظل أبي في انتظار دوره في المحلقة، عندما عدنا إلى البيت مررتُ ووالدي بمقام الشيخ ربحان، سلمتُ على ساكن المقام وأضاءت شمعة كبيرة، فلا شك أن للشيخ نصيباً من العيد مثل الجميع، كانت أصوات البوابير قد امتزجت مع أصوات قوالب الكعك ومعمول العيد بالعجوة والجوز تأتي من نوافذ البيوت، فيها لك أن المدينة قد تحوّلت إلى مطبخ كبير، تفوحُ منه رائحة الطعام واللحم المطبوخ، أشعلتُ أمي بابور الكاز الكبير وملأت القازان الكبير أيضاً بالماء، وأخذت الصغار منا صبية وبنات واحداً بعد آخر وواحدة تلو أخرى إلى طشت واسع وضع على أرض غرفة البنات بعد أن أحلتها وأوصدت بابها، عندما جاء دوري خلعت ملابسني بنفسي بينما صبت أمي بالكيله بعض الماء على رأسي وليّفت جسمي بالصابون النابلسي ثم "نشفنتني" بحنان شديد وقبلت وجنتي وألبستني بيجامتي الجديدة، بعد ذلك تابع الكبار منا على طشت الماء والقازان حتى آخر الليل.
- وضعت ملابسني الجديدة إلى جوارني في فراش النوم، بما في ذلك حذائي الجديد، واستيقظت مبكراً قبل نداء الفجر، لبست وإخوتي حلالاً جديدة، كان مرأى ملابسنا الملونة ووجوهنا النضرة بعد حمام العيد بهيا يبعث البهجة في النفوس، سمعتُ أمي تقول لأبي: لم يكن هناك من

داع لبيع جميع العنزات، كان يكفي بيع واحدة أو اثنتين، بما يضمن شراء حاجيات العيد من طعام وملابس للصغيرين فقط، أما الكبار فيمكنهم أن يتفهموا صعوبة الأحوال التي نمر بها مع هذه المحنة، أو ربما اكتفوا بشراء بعض الثياب من سوق الباشورة. أجاب أبي: لم أقوى على حرمان أي منهم فرحة العيد، انظري كيف يتلأل الفرح في عيونهم رغم كل ما نمر به، إنهم أطفال يا هدى لا شأن لهم بكل ما نعاني، إنني أدعو الله ليلي ونهاري أن أظل قادراً على تلبية احتياجاتهم، مسحت أمني دمة تساقطت من عينها، وتوارت كي لا تراها أختي الكبيرة التي ولجت الغرفة فرحة تزهو بثوبها الجديد.

أخذت مكاني أول الطابور في غرفة والدي، وقفنا أمامه الأصغر فالأكبر وكان قد وضع إلى جانب وسادة سريره بعضاً من النقود، فرحت كثيراً بليرة من الورق وعشر أغورات من المعدن وضعها أبي بيدي، بينما كانت أنظار إخوتي من خلفي تسترق النظر لمعرفة قيمة عيدتي، نظر أبي بملامة شديدة إلى أخي صابر، عندها تذكرت سعادة من جديد، لكنه ناول صابر عيدتي ولم يراجعها لماذا تغيب عن طعام الإفطار، قبلنا يد أبي واحداً تلو الآخر، خرجنا ووالدي إلى صلاة الفجر وصلاة العيد في المسجد الأقصى، ما إن انتهينا من الصلاة حتى تجمع الناس في ساحات الحرم الشريف، تبادلوا التهاني بالعيد، لكن مسحة من حزن كانت تملأ عيون الكبار، بينما تراكض الصغار من حولهم فرحين في حللهم الجديدة، بدأ فيض الناس ينساب شيئاً فشيئاً باتجاه باب الأسباط لزيارة القبور في باب الرحمة، تحركنا نمسك أيدي بعضنا بعضاً في ممر زقاق ضيق يفصل باب الرحمة واليوسفية عن باب الأسباط، كدت أشعر بالاختناق وأنا أعبر من هناك، تمسكت بيد أبي، الذي رفعني بشدة

فوق كتفيه، تنفست الصعداء، حتى انفرج كربنا أمام مقبرة الشهداء، كانت بعض النسوة يفتشْنَ الأرض ويبيكين إلى جوار بعض القبور، بينما يُوزع آخرون من الشباب حبات الغريبة والخبز الأصفر المعجون بالعصفر على المارة، كانت المقبرة تعجُّ بالحياة، حتى كأن العيد أيقظ من في القبور، فرح زاحم الأحران في طياتها، فامتزجت ضحكات الأطفال مع وهوات النساء وعويلهن، سعدة كانت هناك، تفتش الأرض عند بوابة المقبرة اليوسفية، تمدُّ يدها بصمت، رفعت رأسها، نظرت إلينا، التقت عينها الكحيلتان بعيني صابر، تجاهل أبي النظر إليها، وحثَّ أخي صابر على الإسراع.

في طريق عودتنا مررنا على كثير من بيوت أقاربنا، بعضهم نَقَدنا بعيدية والبعض الآخر اكتفى بالتحية والسلام، وكذلك فعل أبي، قريباً من وقت الظهيرة، عُدنا إلى البيت كانت أمي قد جهَّزت خروفاً محشياً كبيراً، سمعت جدتي تقول لأمي: لا شك أننا سنعاني سنة كاملة بسبب مصروف يوم واحد، ربما كان الأجدر لو أمسكت وعمر أيديكما في هذا العيد، حتى لا ترونها فارغة حتى العيد المقبل.

مؤتمر أولياء القدس

شيء ما سرق النوم من عيني عمر، تقلب في فراشه حتى أتاه نداء الليل الأول من الشيخ جميل الدويك "أبي ذياب" ما قبل الفجر، انساب النداء فملاً قلبه المضطرب سكوناً، مدَّ يده إلى الماء، انسابت صفحة الأيام، لم تكن تقلبات الزمن ولا الوجوه الممتدة إلى الماء ذات مغزى مختلف، تقف شواهدنا على بوابة الأنبياء وطريق الآلام حارساً لرسالة أنبياء الله التي انبثقت من هذا الشرى الطاهر، قال عبادة بن الصامت. ما غير عمر طريقه إلى المسجد الأقصى، لكنه أحسَّ برغبة شديدة للسلام على سيد الحي الشيخ ريجان حاضر الليل، ثم التفضل بالتحية نفسها على قبور وشواهد الأولياء والأمراء والشهداء في طريقه إلى باب الأنبياء في الحرم الشريف، تخطى عتبة البوابة الخضراء الكبيرة، كانت ليلة مظلمة جفاها القمر وعزها الضوء إلا من نجوم بعيدة أنست دوماً الإطلال بنورها البعيد على قبة الصخرة، دقق عمر النظر في ساجد ذي حلة خضراء وعمامة ناصعة البياض، استقبل القبلة المشرفة في محراب زكريا، بدا الرجل ذا طلة لا تخلو من هيبة مألوفة، سلَّم إلى يمينه، التقت عيناه بعيني عمر، حدَّق عمر بالرجل طويلاً ولشدة ما كانت دهشته وقد تحقق من شخصية الرجل، إنه الشيخ ريجان، حاضراً قيام الليل في ساحة الأقصى المبارك.

- السلام على عمر، قال الشيخ وكأنه وإياه على ميعاد.
- وعلى سيد أولياء القدس السلام، قال عمر بلهفة وصوت

متهدج.

- طال العهد واشتعل فودُ رأسك شيباً أيها الحفيد.
- لا ينجل شيء من أوانه يا سيدي، ورغم شيب الرأس فإن عظمي لم يهن وكذلك عزيمتي.
- ببح²⁰¹، أراك لم تفزع هذه المرة.
- لا يفزع في بيت الله المبارك وفي حضرة الشيخ الكريم إلا من كان في قلبه ريب.
- أبليت حسناً وأصحابك في الحرب الأخيرة، وإن عوّزكم الحيلة وخانكم الأمراء.
- أخشى أننا خذلناك مرة أخرى أيها الجد العزيز.
- الحياة جهاد مستمر يا ولدي، للباطل جولة وللحق جولات، قُـم بعض ليلك، فإن لي بعد ذلك شأنًا معك.
- يَمَم عمر شطر القبلة وصلّى إلى جانب الشيخ في المحراب، وما أن انتهى حتى نظر إلى الشيخ ذي الحلة الخضراء، والجبهة العريضة التي تشع نوراً وضياء، لم تغيره السنين، وكأنه رآه بالأمس، وليس قبل خمسة وعشرين عاماً، ابتسم وتقدم من الشيخ وبادر بالقول:
- لقد شغلني سؤال منذ أول لقاء لنا عند مقامك المبارك، لماذا أنا؟ لماذا اخترتني من غير أبناء الحي والمدينة لتلك المهمة الجليلة يا سيدي؟
- أول ما دفعني إليك أنك جاري، والجيرة حق، وللجوار حقوق، عندما قَدِمْتُ أنا مع خير الصحاب إلى بيت المقدس، وعزمت

على الجوار فيها، عرفت أن لهذا الجوار حقوقاً أولها حق الرباط وليس آخرها حق الحماية والجهاد، إن لك ما لي، وعليك ما علي، أنت من وسط القوم، لست ممن رحره العيش فبطر، ولا أضناه الحجن والصادي فكفر، ثم بعد، اخترتك لعهد الناس فيك، فأنت رجل لا شوب عندك ولا روب²⁰²، وأنت في الناس قوي أمين، لست أبلاً ولا بكنّذح، ولم يكن في جدك أو هزلك بشك، لم تُدالس ولم تُوالس، ودون ذلك فكل صفة قابلة للتغير والبذل.

- بارك الله رباطك وجهادك يا سيدي، لقد منحنتني ثقتك العزم والقوة، وقد عَبرْتُ بهما بَدلاً كثيراً.

- أما أنا فقد شغلني أمر منذ مدة، فهل لك أن تُجلي عني ما خفي، ما هذا الذي يَعْبُو في مرقي فجأة إذا أطلّ الناس ولا مسوا شيئاً على جانب الجدار، ثم تختفي العَبْوَة²⁰³ فجأة إذا غادر القوم ولمسوا ذاك الشيء مرة أخرى؟!

- إنها الكهرباء يا سيدي، فقد ولى زمنُ الزيت والقنديل والشموع.

- ولم ولى يا بني؟ إنني أكره هذا الكهرباء، إنه يَبْوُج ويبرق فجأة ويخطف الأبصار، وما أن يغادر القوم حتى يُطفأ فجأة ويلفُ الظلام مرقي من جديد، لا روح في هذا الكهرباء ولا حياة، بينما النور الذي ينبعث من قنديل الزيت والشموع يجلي الدجى ويبقى حتى بعد أن يغادر أصحابه، فأنس بروحهم البهيجة وأنفاسهم الطيبة وشعلتهم الباهرة، التي تظل حية حاضرة في المكان تتمايل ذبالتها مع نسيم الهواء

٢٠٢ لا غش ولا تخليط

٢٠٣ جمع عبى وهو الضوء

العبار من نافذة المقام، فيتلاً ظلها على الجدران، وعندما يخبى ضوء القنديل رويداً رويداً، يفتنُّ إليه أحد المارة، فيرفده بالزيت أو يشعل شمعة جديدة، وهكذا ينبعث الضوء في جنبات مرقد فيملاؤه حياة حتى يُطل الفجر من جديد.

- لك عهدي وعهد أبنائي يا سيدي، أن نضيء مقامك شمعاً وزيتاً وقناديل وبهجة ما دمنا أحياء نخطو على هذه الأدمة.

- قد لا تتصور البهجة التي غمرت قلبي والفرح الذي عمَّر روعي والسرور الذي اجتاحت مقامي، عندما أضاء ولدك مجد الصغير شمعته الصغيرة عند نافذتي، ما أن أشعلها حتى بعث الأمل في جنبات المكان، وأذهب الغمَّ وقشَع فحمة الليل عني.

- أنت شيخ الحي وسيد أولياء المدينة، صاحب القدر العالي والشرف الباذخ، لك قلوبنا مشاعل، إن عزَّ الزيت في القناديل يا سيد الحضرة المباركة.

- باركك الله ولدك وصحبك يا ولدي، لست سوى عبدا لله ومولى رسوله عليه السلام، جندي من جنود الإسلام، والآن اسمح لي، هل لك أن ترافقني إلى التنكزية، إن هناك صحباً لي أحبوا أن ييسروا إليك ويأنسوا بك قبل نداء الفجر.

- حُزِم من النور تجمعت في رواق واسع فسيح، يُطلُّ على حائط البراق. اخترت اللقاء هنا تأسيساً بذكرى الحبيب عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، قال الشيخ ربحان وأتبع: هنا حطَّت الفرس المأمورة وربَّطت بمشيئة من الله بين قُدسٍ وقادِس، بين أولى القبلتين والبيت العتيق في مكة، هنا وعد الآخرة، وعباد أولي بشس شديد، قال تعالى "وإن عدتم عدنا"، وأجبت وبعض قومي دعوة الله، وأبى كثيرون، وفسدوا

في الأرض مرتين، فساداً كنا على يقين أنه آت، لكن شيئاً ما أَرَقَّ مضاجع الشهداء الذين قَدَّموا حياتهم في سبيل الله وحماية هذا الثرى المقدس، لذا أراد بعض صَحْبِي من أولياء المدينة وشهادتها أن يَأْنَسُوا إِلَيْكَ يا عمر ويسألوك، فخذ مجلسك إلى جوار حسام الدين بن شرف الجراحي، لتطل بوجهك على القرمي شمس الدين محمد بن عثمان التركماني، بين الوجوه كما ترى من غاب عنك جسده وبقي في الجوار عهده وعمله، ومنهم من تعرف وتألف، ومنهم من كان سابق عهدك، فلم تُدرك ولم تعرف، بقيت شواهدهم منارات حقَّ على عهدٍ لم يُخلع وجهادٍ لم يُقطع، لم يَأْسُوا يوماً على ما فاتهم، صبروا وصابروا، ورابطوا وصدقوا ما عاهدوا الله، وما بدلوا تبديلاً. اسمع وأنصت واصبر على ما يقال، لعل كلمة طيبة مثل شجرة مباركة تطرح ثمرًا طيبًا، أو قولاً سديداً مثل شمعة تضيء ظلام هذا الليل الذي طال.

سادت لحظة صمت، حدَّق عمر في الجمع، مسح بعض حبات من عرق سالت على جبهته، أزال بعض غبش في العينين من شدة وهج باج نوره وانبعث في فسيح الرواق، رفع رأسه، قال:

- يكاد وعيي يلحقُ بالنور في فضاء المكان، ويكاد إدراكي يطفو على سطح الزمن لتصافح يديَّ أيادي حراس الحلم، أبدأ بالسلام على من حضر المقام، وأستشهد بموسى عليه السلام فأقول: بلى، ولكن ليطمئن قلبي، ومالي حاجة أن يصير الجبل دكاً، ولكنني أردت أن أبعث في القلب طمأنينة وسلاماً لأخرج من برزخ الشك إلى يقين الإيَّان.

انفرجت أسارير الشيخ ربحان لفصيح البيان من عمر، بعد طول سنين منذ إلتقاه أول مرة أمام مقامه، تذكره فتى بطيِّط القول مشوش التفكير، مَصُوف النفس، ضوعه الفزع والبَدَع، هشاً فاقد القدرة، ضعيف

اللسان. تابع عمر وهو يُنقل عينيه بين من ألف من الوجوه ومن جهل:
- هل يُظهر لي أحدكم بالحجة والبيان كيف لمن غيبه الموت أن يُطوِّع الزمن ويصوغ العلة ويحضّر شاهداً حياً في الواقع والمكان من بعد موت، كيف لمن ارفأنت نفسه في برزخ وعدّها أن تفتق البُهرّة بين موتها وبعثها، كيف للماضي بجلال من حَجَب أن يحطّ في هذا الرواق بلا عجب.

- انظر إلى قلبك، قال رجل بهي الطلة، حسن الهندام، أنا أبو مدين، شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني، ليس للقلب إلا وجهة واحدة يوجه إليها، الجهل أن لا تَعْرِف، وأغنى الأغنياء من أبدى الحقّ له حقيقة من حقه، وأفقر الفقراء من ستر الحقّ عنه حقه، ولعلك ممن أغناه الحقّ بحقه، فهل اطمأن من الحقّ قلبك، أم تراك إلى الفقر والجهل ترنو بعقلك؟ كلّ موضوع الإيمان يا ولدي عقليّ وغير محسوس لا نراه بالحواس وإنما ندركه ببصيرة العقل، وإلا فما مغزى أن تُؤمن، ولو كان الإيمان غير ذلك لاستوى فيه المؤمن والكافر، الجسدُ يا بني من عالم المحسوس، وهو أداة الإحساس بالزمن والمكان، أما الروح فهي من عالم الأمر "وقل الروح من أمر ربي"، وهي تخضع لعلّة الزمان والمكان عندما تَسْكُن الجسد، أما بعد أن تغادره فإنها تتحرر من علة الزمان والمكان.

أنا يا بُني من ذكرتُ لك اسمه، ولا أدعي فضلاً سوى ما نلت من فضله، أوقفني الملك الأفضل صلاح الدين بن يوسف بن أيوب، ابن الناصر المجاهد صلاح الدين الأيوبي كرم الله اسمه ونصره على الدوام، وأدام شامس نهاره وسوط جهاره، فما غابَ عنا حَبَّارٌ من أثره، إلا من خذلان تُبِعِه، أوقفني عزّ فضله حي المغاربة ليكون مقاماً ورباطاً

لتلاميذي بعد النصر المؤزر، الذي بُذل في سبيله الغالي والنفيس، وساءني أن الغزاة الجدد، هدموا رباطي ودمروا وقفى، واستولوا على حائط البراق مربوط الفرس الذي حطَّت على قدر، لتجعل من هذا المكان محطَّ أفئدة الناس، حدث هذا على مرأى منك وقومك يا عمر، لم يبد منك ومنهم زود بعزم وهمة يرد الظلم ويدفع الباغي عن حياض الأمة، فهل لك يا ولدي أن تُظهر لي بالحجة والبرهان، لم تَكْهَمْتُمْ²⁰⁴ وتقاعستم عن حماية البراق ومعه رباطي وبيتي، ولم تركتم ساح الوغى، فسقط في أيدي الأعداء أقدس ثرى.

أنهى أبو مدين شعيب فصيح كلامه، وانطوى إلى مجلسه ومقامه، وضع حسام الدين شرف الجراحي يده على كتف عمر، وقال:

- كنتُ أميراً في جند الناصر صلاح، طيب الله ذكره وأمه رفعة وفلاحاً، أمرني فصر بنا الحصار على المدينة، وبقينا على ذلك وقد طال الأمد فلم نعرُ حيلة، حتى خضع القوم لمشيئة أميرنا أباً وولداً، وأوفدوا إلى خيمته طائعين مستسلمين في ذلٍ وحسد، اعلم أطل الله عمرك أنه ما تم لنا ذاك الفتح المبين إلا بعد أن جمع الناصر شتات الأمة التي أصابها الضعف والشقاق، فردّها إلى عهدّها سلماً وكفاحاً. وعندما أتى ليّ اليقين، رقدت في قبري أمين فوق ربوة طيبة، كرمني أهل الديار، وجعلوا من مقامي مزاراً. وفجأة وعلى مسافة من بضعة أيام شهدتُ حول مرقدي واقعة عجيبة، استبسل فيها بعض من الجند وشدوا العزيمة، بينما وارىت وجهي خجلاً، وقد رأيت البعض يهرب في زي النساء بلا خجل أو حياء، أخشى أنكم قد ولجتم إلى الحرب أشتاتاً وفراقاً ورياء، جئت إلى

مجلسكم هذا لوما ورجاء، اسألك أيها الحفيد عمر، من غير اسم الحي الذي أرقد فيه، من حي الشيخ جراح خير جند الناصر لدين الله صلاح إلى حي الصديق شمعون من ليس نعرف من أين لاح.

يا عمر، قل لمن جهل مقامي وراوده أن يستبدل على خرائط الوهم قيامي، أنا شيخ الجهاد حسام الدين الجراح، لا أبدل شاهد لحدي بثقل الأرض ذهباً أو مدها من ثرى وبطاح.

تراك تعرف يا عمر من يقابل حضرة الجراح مجلساً في الرواق قال الشيخ ربحان: إنه أزهّد الأنصار، أحد ثلاثة، أبو الدرداء وعمر بن سعد، قال المفضل عنه إنه يقوم الليل حتى ينبلج الصباح، إنه شداد بن الأوس بن ثابت.

- أنا هو قال الرجل الذي إنبعث من طلته النور وأتبع: تركت إمارة حمص حتى أرباط في بيت المقدس، أدرك يا ولدي أن بكم أخياراً، نافحوا بالدم عن الديار، لكن طاب فجرك والنهار، لا يصلح الأمر إذا ساد في القوم رويضة أو فجار، إن شئت فبلغ عني قولاً في الجنة والنار: "إن كانت الدنيا أجلاً حاضراً يأكل منها البر والفاجر، والآخرة أجلاً مستأخراً يحكم منها ملك قادر، أعلم وأخبر، ألا إن الخير كله بحذافيره في الجنة، وإن الشر كله بحذافيره بالنار، وإن الشهادة أقرب للجنة من دار العمار"، إن لهفي عليكم أن يطالكم من الله غضب على ما أسلفتم، فاستدركوا عهدكم وما فاتكم، لا تركنوا إلى الحكام إن ضلوا، فلا طاعة لمخلوق في معصية، وإن أعظم الجهاد قول حق عند إمام فاسق، اختلف القوم في معاوية وليس لي في شأن الحكم عليه رأي ولا آية، لكنني يوم رأيت فيه عوجاً ونكاية، صرخت في حضرته، فأبرق له أمير المؤمنين عمر ردعاً وكفاية، إن كان لك في القول عبرة

وعند الناس رأى وخبرة، فبلغ عني لا يذود عن الحق إلا سيف وراية "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت".

نهض من مجلس إلى يمين الرواق رجل طيب القسمات نضر الجبهة واثق الخطوات، تقدم من مجلس عمر، سلم وجلس، ثم قال:

- إنني رغم ظلام الليل أرجو نهاره، ولي أمل بطفل صغير، يحمل إلى مقام الجدّ زيتة وناره، حدثني عنه ذات يوم شيخنا أبو ريحانة، طيب الله مقامه، أنا يا ولدي عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم من بني سالم بن عوف، من الخزرج.

ولدت في المدينة قبل الهجرة بثمان وثلاثين سنة، أسلمت وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخي أوس بن الصامت، وزوجته خولة بنت ثعلبة التي أنزل الله فيها "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله"، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير" (سورة المجادلة).

نحن من بيت له شرف الوفاء والرباط والقوامة، ما خذلنا الله يوماً وإن تولى البعض أو استهان، كنتُ من أوائل الذين أسلموا من الأنصار، وذلك في السنة العاشرة من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، أي قبل الهجرة بثلاث سنوات. ومنذ أسلمت، لم يكن من مشاهد من مشاهد الإسلام إلا وحضرته، ولم يغزُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، غزوة ولم يُحمل لركب إلا وكنت معه وأبليت، إنني ممن بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة الأولى، مع اثني عشر رجلاً، وذلك قبل أن تُفرض الحرب، بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا

نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي بيهتان نفترية من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف. وتمت بيعة العقبة الثانية التي فيها النصر والحماية، وقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم"، فقلنا: يا رسول الله نبايعك. فقال: "تبايعوني على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والنفقة في العسر واليسر، لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنة". فبايعناه على ذلك، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأَنْصار: "أخرجوا منكم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس"، كنت أحد نقباء الخزرج، بايعناه على الدعوة والجهاد في سبيل الله.

نحن من الرعيل الأول الذي عاش خير حياته وأعظمها وأثرها مع الرسول الكريم،، الرّعيل الذي صهره الجهاد وصقلته التضحية، وعانق الإسلام رغباً لا رهباً، وباع نفسه وماله. نحن من الرعيل الذي رباّه محمد بيديه، وأفرغ عليه من روحه ونوره وعظمته. كنتُ واحداً من أربعة قادة على رأس أربعة آلاف رجل، أرسلهم الخليفة مدداً لعمر بن العاص لفتح مصر.

غادرت إلى فلسطين، وجعلتُ إلى جوار الأقصى مقامي ومركبي وقيامي، حفظت في عنقي البيعة، حتى جاءت الطامة، يوم سقط مقامي أسيراً لا لذنبي مني ولا لتقصير، وقعت بيت المقدس في أيدي اليهود، بعد أن تحلى ونقض القوم العهد، تُراكم يا ولدي تنزعون عني شرف البيعة، وقد أفنيت عمري دونها بلا ندم ولا رجعة، ربما لا يعرف بعضكم معنى أن تعهد في عنقك لرسول بيعة، لن أرقد في مقامي بعد اليوم في راحة، ويبيعتي إلى رسول الله مستباحة، أشعر أنني

سأحمل وزركم، بما فرطتم من أمركم، رأيتك عازماً على القيام، والقوم في الجوار نيام، فرأيت أن تعلم معنى البيعة فعلاً وتواصلها في الأجيال عهداً، فإذا انتهيت يا ولدي من قيامك ليلاً، فاجعل خاتمة صلاتك وتراً لفجرٍ عظيم .

خطر لي أن أعلمك أمراً: يوم حضرني الموت، قلت لمن حولي أخرجوا فراشي إلى صحن الدار ثم اجمعوا لي مَوَالِيَّ وخدمي وجيراني ومن كان يدخل عليّ، فجمعوهم، فقلت إن يومي هذا لا أراه إلا آخر يوم يأتي عليّ من الدنيا، وأول ليلة من الآخرة، وإني لا أدري لعلّه قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء، والذي نفس عبادة بيده، هو القصاص يوم القيامة، وأحرج على أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلا اقتصّ مني قبل أن تخرج نفسي، فقالوا:

بل كنت مؤدباً، فقلت "اللهم اشهد".

أما وقد برأت ساحتي ومقامي من حق العباد قبل وفاتي، فإني اليوم أخشى على نفسي من هوانٍ حاق بكم، رغم يقيني بعدل العادل الكريم، وفردية السؤال والحساب والتأنيب، فلا تزر وازرة وزرة أخرى، لكن ما جرى ليس عجز لحظة أخيرة، بل تراكم في الانحراف عن النهج والمسيرة، وعهود تخللها صمت الغالبية على الضعف والخيانة والخذلان، الأمر ليس حرباً ومضت، أخشى أن يطالنا والسلف شيئاً مما أساء الخلف، جئنا بك إلى بطن التاريخ، لأن بعضه إن لم ينقل بالتواتر زيّفه الحكام بالتباهي والتفاخر، أعلم بني أنك تعيش على بقعة ليست مثل بقاع الأرض، بل إنها أرض المنشر والمحشر وبقعة من بقاع الجنة، فيها يتداخل زمن الأرض وزمن السماء، واذكر إن أصابك الكلل أو دهمك الملل، قوله تعالى: "واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم

- خاصة" أتم الرجل قوله، وعاد إلى جوار صحبه.
- لقد أنس صحبي بك يا عمر، فاتعظ وعِظْ، ولا تأسُ لما سمعت، ما أنت إلا رسول بين عهد مضى وعهد يطول، اعلم من يقين، أنك أمين على رسالة وبيعة وحكاية، قال الشيخ ربحان. حدّق عمر في وجوه الحاضرين التي أنارت الرواق مثل أهلة في سماء صافية.
- ماذا عن مجد؟ سأل القرمي إلى جوار عمر.
 - هُيئ لي أني رأيته أثناء حرب 48 عند باب النبي داود، أجب عمر.
 - تقول هُيئ لك؟ سأل الشيخ رفاعة الهاشمي المكي (الشيخ مكي).
 - أجل، أجب عمر.
 - هذا مستحيل، قال أبو الوفا البدري.
 - لماذا يا سيدي؟ أجب عمر.
 - لو كان مجد في جنباتكم يومها ما هزتم قط، قال محمد الإخشيدي مؤسس الدولة الإخشيدية.
 - من المؤكد أنه هُيئ لك أنك رأيته، قال سيف الدين القيمري.
 - من شدة حاجتك أن يكون إلى جوارك في تلك اللحظة، لا شك أنك تهيأت أنه هناك، لكنه حتماً لم يكن، قال الشيخ حسن، وهز الأمير بدر الدين لؤلؤ رأسه موافقاً قول القيمري.
 - ربما كان معي بالقسطل، قال عبد القادر الحسيني.
 - لم يهتدوا إليه بعد، قال الشيخ ربحان، انهضوا إلى فجركم، لعل لحظة يتلاقى عندهما فجر عهدان تُضيء طريقاً لتائه في المغربين.
 - حدّق عمر ملياً في وجوه الحاضرين، في نظرة وداع دافئة، أطلّ من بين الجموع وجه عزيز، حدّق بعمر، من بين جموع حاضرة، أولياء وشهداء وأمراء المدينة، إنه والده، أبو عمر، بائع الحليب، شهيد معركة البراق،

تقدم عمر حيث أبوه، بدا أنه يُحدثُ كهلاً يتأبط رفاع من الجلد ويشير إلى عمر، دقق عمر في وجه الرجل واستدعى ما في الذاكرة من صور وناس، تذكر الصورة المعلقة على جدارٍ في مكتبة الخالدي، أجل إنها صورة الحاج راغب الخالدي مؤسس المكتبة الخالدية، مدَّ الرجل إليه بالرفاع، مد عمر يده، نظر إلى والده، كان هناك في صحبة الأولياء، يوم الفاتح من فجر الوعد الناهض، لوَّح لعمر وابتسم.

الجزء الثالث

نقش على رقيم

أُحِبُّ اليقظةَ لكنني أُحِبُّ النومَ أيضاً
لأنني أنتظرُكَ هناكَ في أحلامي
وأنتَ تسيقظين

خطوة بين عالمين

بدا وجه الأرض جافاً، شققه العطش والانتظار، في غيبوبة الجسد تسللت روحي وعبرت حدود الوهم الفاصل بين قلبك وجغرافيا الحرب، هامت في الأنحاء تبحث عن وجهك، فزاحمتها ذاكرة الرصاص، وركام الأيام المتكدسة على جسد الوطن المسفوح، تُخلق روحي عالياً في فضاء المدينة، تطوف فوق الأسوار والدكاكين وبسطات الباعة

تُطل على أسطح المنازل في البقعة والقطمون، تُلوح لثيابٍ تُركت على حبال الغسيل، دون أن تلمها يد بيضاء ناعمة قبل الغروب، ترافق سرب حمام يحوم فوق أشجار اللوز في عمواس، ثم تحلق هاربة من بندقية صياد عابث، تضرب الهواء بأجنحتها تهرب إلى أقصى مدى من زمن وحكايات، وروحي المشتاقة لحضنك الدافئ وعينيك السوداء الجميلة، تواصل التحليق فوق غمام الحلم وتنساب إلى غفوات الجسد المثخن بالجراح، وتمحط من تعب عند الحدّ الفاصل بين الجرح وورد البستان، فأستشق رحيق الأزهار التي زرعتها بيديك، وسقيتها من ماء قلبك، كان سيف اللحظة يوم غاب القمر حاداً حدّ القطع، وكان الظلام يغشي الوجوه، وفي تقلبات المواسم تاهت تفاصيل المكان، خشيت أن أطيل السفر وتتوه روحي في دروب بعيدة، لكنني في تلك اللحظة أحسست أنني أخلق على هدى من رائحة جسدك، دهمتني جوارح أعملت فيّ مخالبتها فمزقت أسمال ضعفي، وكشفت ستري وعجزي، وغرزت

أنيابها في لحمي حتى طحنت عظامي، وغاصت فيّ حتى بلغت حنايا القلب، هناك أطبقت أنياب الجوارح القاتلة على إرادة وعبي، عندها لم أعد أخشى الموت، كان أعظم ما خشيته "أن أصحو ولا تكوني هناك". ما إن خلعت الحرب رداء النار، حتى تكأأ الناس وتكدست الجموع على طريق في الاتجاهين من القدس وإليها عند عقبة المنزل، سرعان ما اختفى الحدّ الفاصل بين من عبروا ومن عادوا وما عادوا، وجوه تُحدّق في ريب وفي أمل في الوجوه، وجوه بلا أشكال أو أسماء. فجأة دون استهلال طويل ومقدمات درامية، ودون ضجيج ذي مغزى، انهارت جدران الزمن الهارب إلى مدى بلا نهايات، وتكشف وجه الحقيقة عن زيفٍ وخداعٍ بصري لزمن ضاع بين لحظتين، ومدينة فصّلت بخطوة واحدة بين عالمين، هي لحظة بدا كل شيء فيها غريباً، لحظة لكيمياء اللقاء المر، امتزجت بها ذرات الحزن ومشاعر الحسرة والهزيمة والألم، مع أيونات الحنين واللهفة والإشتياق، لحظة لموعّد جاء على غير ترتيب، مع مدينة قسمتها وجمعتها كيمياء الحرب، لحظة خطت بها الأقدام مرة أخرى على شوارع وطرقا طالما تاقت لها، وغمر الصدر عبير شدّ ما سعى إليه، وأطلت العيون على بهاء من مشاهد اشتاقت إليها.

لحظة انتظرها زيد طويلاً، بصبر وشوق وحنان، مسح حبات من العرق اللزج فوق الجبين، وضع يده على الصدر فوق خافق لا يكف عن الحنين، أخرج حافظته، نظر إلى الصورة، أدرك معنى الدمعة المناسبة على الحد وقد إختلطت بكحل العين، ومعنى ابتسامة الثغر الرائعة الغريبة، في لحظة واحدة وكبسة زر واحدة تجسد واقع المدينة، حزنها وفرحها، كبسة زر تمكنت من خداع الزمن الذي أخذ نرجس بعيداً لكنه احتفظ بها هنا، تماماً فوق خافق لا يكف عن الحنين، لامس

زيد بيده خصلة شعر سوداء انسلت من تحت إكليل ثوبها الأبيض، تراك ما زالت تضرّفين جديلتك في شرفة البيت عند الظهيرة، أم لعلك أرسلتها خلف الظهر وقد شابت من قهر الزمن وطول السنين، رفع رأسه نظر إلى أسوار المدينة، ثم حدّق بالصورة بين يديه من جديد، قال لنفسه: نرجس مثل القدس تمر عليها السنين، لكنها تبقى نضرة الوجه فتية الطلة لا تهرم ولا تشيخ.

وقف أمام الجدار، كان على يقين دائماً أنه سوف يسقط يوماً وتفتح بوابة مندلبوم المشؤومة، لكنه لم يتصور أبداً أنها ستفتح من الجهة الأخرى، تقدم بخطوات مترددة، اجتاز الحيز الممنوع على الفرع، مسافة باتساع البعد وزمن الفراق، مسافة من خطوة واحدة، فصلت بين عالمين.

تقدم خطوة واحدة فعبّر لحظة واحدة سجلت تاريخاً لزمنين، تدافعت الجموع فيضاً من الاتجاهين، لحظة صادمة وفرحاً بطعم الفاجعة، هنا بعض من أهل المدينة عبروا إلى شطرها المخطوف من جديد لكنهم ما عادوا، ومفاجأة بطعم النصر لبعض آخر، عبروا إلى الشطر اليتيم من المدينة ليمسحوا ما تبقى هناك من ذاكرة، احتكت الأجساد بعضها ببعض، وتلاقت العيون بالعيون في صمت حذر، فجأة اختلط الجمع حتى تلاشت وجوههم وغابت هوياتهم وتاهت اختلافاتهم وصراعاتهم، وما عدت تعرف أيّاً عبر من هذا الاتجاه، وإيّاً جاء من ذاك، توقف زيد برهة من زمن، نظر إلى الخلف حيث حي المصرة وباب العامود، كان الجمع ينساب نحو المدينة كأنه سيل ماء فك من محبسه، بينما طوقت دبابات الجيش الغازي الأسوار الحزينة، كان المشهد أقسى من أن يستوعبه الوعي، تملكته رغبة بالبكاء، انسابت دمعة على خده، ضاقت أنفاسه وانقبض صدره، أحس أنها لحظة لقاء مر، لقاء

تكبله القيود وحلم تأسره الأحران، بدت المدينة في الجهة الأخرى مألوفة كما غادرها آخر مرة، إلا من بعض اختلاف في سحنات المارة، وفي لافتات الشوارع والخوانيت، التي بدت غريبة لا تنتمي للمكان، دفع جسمه بين الحشود، تفحص الوجوه، عله يراها تُطل من بين الجموع، نرجس زهرة القلب التي ضاعت في زحمة الرصاص، تخطى مشهد الازدحام إلى حي الشماعة، بدا له أن المدينة في جزئها الآخر لم تواجه حرباً أو دماراً، كانت بعض المحلات مغلقة كأنها في عطلة نهاية الأسبوع، لم تتغير حتى ألوان أبوابها وأقفالها منذ سنة 48، كانت بعض عربات الجند تسد الطريق إلى البقعة، لذا فكر أن يتجه غرباً من مامبلا إلى الشيخ بدر، ومن هناك ينزل الوادي ثم يصعد إلى القطمون.

عند سفوح الكولونيالية اليونانية لم يكن المشهد غريباً إلا من بعض بيوت وعمارات قامت مكان حقول اللوز، رفع رأسه نظر إلى أعلى السفح لا يكاد يصدق ما ترى عيناه، أين ذهبت حقول القمح، وأين هي البيوت، أين أنغام شبابات الرعيان وثغاء الشياه، أين قبة مقام الشيخ بدر، كأن غولاً ضخماً ابتلعها، أخذه الخوف وهو يتفحص السفح بحثاً عن الحياة التي اكتظت هناك، عند أعلى سفح الجبل من الجهة الشرقية، قامت هناك قبة بيضاء غريبة الشكل ليست مثل قبة أحد المسجدين اللذين يذكرهما من زيارته السابقة للمكان، مفلطحة يتوسطها رأس مدب، وعند أعلى قمة الجبل كان هناك مبنى مربع الشكل محاط بأسوار حراسة مشددة، عرف لاحقاً أن القبة البيضاء لمبنى متحف إسرائيل، والمبنى الآخر المربع لمقر الكنيست الإسرائيلي، أما حي الشيخ بدر فلم يبق له أثر يذكر، وكأنه ما كان هناك يوماً، بناسه وبيوته ومسجديه وأشجار زيتونه وحقول سنابل، ليس سوى الحصى في وادي الصرار وشجرة

صبار ظلت شاهداً على هوية المكان، كان مشهداً يبعث على الحزن ويغمر القلب بالحسرة، لكن عمر واصل سيره نحو القطمون. قطع المسافة بالاتجاه المعاكس، ربما....، وربما بالزمن المعاكس أيضاً، أغمض عينيه، "أحب أن أنام كي أراك في أحلامي تستيقظين"، تراجعت في ذهنه صور وأفكار، دوي المدافع ورائحة الدخان، ابتسامة نرجس، براءة الفرخ على محيا فوزي وضحكات جمال، كلما اقتربت خطاه من البيت، تسارعت نبضات قلبه، تُراهم هناك في غرفة النوم يهجعون بسلام، تخيل أن نرجس تُطل من شرفة البيت وترع إليه في شوق شديد، تخيل جمال يركب دراجته الحمراء ذات العجلات الثلاث، يعبر بها فوق الممر الحجري ويلتقيه عند بوابة البيت الكبيرة، رأى فوزي يعدو إليه حبواً وسط الصالة الواسعة، لا يكبر الأطفال إذا غابوا أبداً، تبقى صورهم وضحكاتهم ودموعهم كما كانت مهما مرت السنين والأيام، أفاق من حلم اليقظة فوجد نفسه أمام بوابة البيت الكبيرة، شعر كأنه يعود من عمله ظهيرة يوم مشمس جميل، تقدم خطوة أخرى، تسارعت دقات قلبه وتصيب حبات العرق على وجنتيه، لامس زخارف البوابة القديمة وقد علاها بعض الصدأ، ما زال كل شيء كما كان، شجرة الصفصاف تفرد ظلها بحنو على عشب الأرض حتى بدايات الممر الحجري، والهندابة التي هرمت لكنها تنبسط وتلرز لياتها على كلكل الأرض لا تسليخ عنها أبداً، والصبار بأشواكه العنيدة يحمي أجزاء السور الغربي من المتطفلين، والأفواس الحجرية فوق الممر تظلله بخطوط طولية متساوية، كل شيء كما كان، إلا زهرة الأضاليا، بدت مصفرة منحنية التيجان، لحظة من حلم أفلت من بين أصابعه، سحب نفساً عميقاً، وخطا بعزم نحو مدخل البيت، اتكأ على الأعمدة الحجرية

العملاقة، تدفق في شرايينه إحساس أليف، نظر إلى يسار البوابة، لم تعد أرجوحة الفرح تصل بين شجرة الصفصاف وشجرة الجميز، حلت مكانها أرجوحة من الحديد الملون، بدت دخيلة على مشهد الحديقة، نظر إلى الأعلى، أطلت من الشرفة الأمامية بقبعتها المزركشة وثوبها الباهت، بدت غريبة لا تنتمي للمكان، صرخت بلغة عبرية ذات لكنة أوروبية بضع كلمات فهم أنها تطلب منه أن يقف مكانه، أزاح في لحظة الغبار عن سطح ذاكرته، استدعى ما تعلمه من كلمات عبرية في غابر الأيام في حي الشرف، سألها: من أنت؟ وماذا تفعلين هنا؟ هزّت رأسها باستغراب وسألت بغضب: بل من أنت؟ وماذا تريد؟ قال: هذا بيتي، أين زوجتي وأبنائي؟ توارت بسرعة لافتة إلى داخل الشرفة، دون أن تجيب، لم يشفع لها نصر اللحظة المفاجئة، انتظر برهة، وما إن همّ بالدخول إلى البيت، حتى خرج إليه رجل غريب الهيئة محمر الوجنة، نحيل الوجه، بارز العينين، موشوم الساعدين، في منتصف عقده الخامس، بادره الرجل:

- اذهب من هنا لسنا بحاجة إلى عمال. إنتفض زيد، واقشعر بدنه، ثم للم نفسه المبعثرة على طريق في الاتجاهين، أخذ نفساً عميقاً كأنه يسحبه من غور عميق، وقال بهدوء:

- لست باحثاً عن عمل، هذا بيتي، تركت زوجتي نرجس وأبنائي جمال وفوزي هنا.

هزّ الرجل ذو الوجنة المحمرة رأسه، وحدّق بوجه زيد، وقال:

- إذاً، هذا أنت.

ثم تدارك الرجل نفسه، رفع رأسه ونظر إلى الشرفة خلفه، كانت المرأة ذات القبعة المزركشة قد عادت إلى هناك، أشار بيده نحوها، وقال:

- لا يوجد غير هذه المرأة في هذا البيت، إن كانت لك، فلا مانع عندي من أن تأخذها إن كان لك طاقة عليها، وابتسم بطريقة لا تخلو من سخرية.

تغيرت قسما ت زيد، وطففت على وجهه إمارات التوتر والغضب، وقال بصوت حازم: هذا بيتي، أنا صاحب هذا البيت والمكان، فمن أنت؟
- أنا مردخاي وهذا البيت لي، استأجرته من الدولة، وتلك على الشرفة هناك زوجتي ليثا، وهذا الواقف قرب النافذة ابني روبن، وتلك إلى جواره ابنتي شولا، ما من نرجس وما من جمال أو فوزي هنا، لا يترك المرء زوجته وولديه هكذا ببساطة، ثم يأتي بعد تسعة عشر عاماً، ليقول كنت هنا، وليسأل أين هم، أنت في المكان الخطأ وفي اللحظة الخطأ، ربما عليك أن تبحث في مكان آخر.

ثم أدار الرجل وجهه إلى الشرفة ناحية زوجته وإلى النافذة ناحية ابنه وابنته، وأخذ نفساً عميقاً، ثم عاد وحدّق بعيني زيد، وقال:

- قد أنفهم وضعك، "لكن التاريخ لا يكتب على سطح واحد مرتين"، كنت في زمن ما هنا، لكن ذلك الزمن مضى، أقدر أنك تسعى للقاء أبنائك وزوجتك، قد يكون جيش الدفاع قد صنع لك معروفاً فقرّب المسافة بينك وبينهم، بعد أن عبر إلى الجزء الآخر من المدينة، لكن ما زال عليك أن تبحث عنهم، ليس من شيء لك هنا، أما الآن فلدي ما أعمله ولا رغبة لي بمراجعة التاريخ ولا وقت لي أضيعه معك، قال مردخاي.

حدّق زيد في وجه الرجل، ثم جالّ نظره أنحاء البيت، كل جهة فيه، لم يتغير شيء، ذبلت بعض الأزهار لكن الأشجار العنيدة بقيت منتصبة، وإنّ هداية الهرمة ما زالت تلتصق بالأرض، مثل طفل يعبّ من صدر

أمه، والصبارة العجوز تعاند المتغير في المكان، البوابة الصغيرة التي كانت تؤدي إلى الحديقة من الجهة الغربية أغلقت، بعض من صدا طال زخرفاً يحمل اسم العائلة على بوابة البيت الكبيرة، وجه مردخاي النجيل بصفرة لافقة، ما عدا ذلك لا شيء مختلفاً، قد تقطع المسافة بالاتجاه المعاكس وقد تبدو الأشياء كما كانت على جنبات الطريق، لكنك ربما لم تصل، لأن التاريخ لا يكتب على سطح واحدة مرتين، رجع زيد خطوة إلى الخلف، نظر إلى السماء بزرقها الصافية، رفع يده، مسح دمة انسابت على خده ومضى.

تغيرت أشياء كثيرة، إلا المشهد في حاكورة الدار في حي الشرف، جلست فيكات إلى جوار زوجها تتلو آيات من ذكر كريم، بملايتها السوداء التي تتدلى من تحتها بعض خصلات من شعرها الأبيض، غير أن الزمن خطّ على وجهها بعضاً من أساه، هرمت حولها الأشياء، إلا أن بعضاً من أزهار وشقائق نعمان أينعت في الجوار، الدوشك بغطائه المزركش الذي بهتت ألوانه ما زال مكانه، البيت بنوافذه ومشربياته الخشبية نخرها سوس العزلة والإهمال، سياج الحاكورة اهترأ وعلاه الصدا، ما عادت أدهمية تُطل من نافذة الطابق العلوي، اعتصم زيد في مرقد وحدته بانتظار لحظة اللقاء من جديد، تراك ما زلت تقرئين نفس الآيات لتزيلي عن نفسك وحشة الوحدة، أم تبعثين الأنس في جوار المكان وتسامرين ساكنات تحت هذا التراب، ماذا تبقى لك وقد غادر القوم حيهم مكرهين؟ ماذا تبقى لك سوى هذا القبر بحجارته القديمة وبعض أزهار وشقائق نعمان؟ تراك تُمني النفس بما مضى من عزّ وجاه، أم تأكل الحسرة أحشاءك على زمن طوى آخر صفحات صفائه تحت جنازير الدبابات.

ماذا تقرئين؟ قال.

رفعت رأسها، أزاحت خصلات شعرها البيضاء وأخفتها تحت ملايتها السوداء التي امتدت الى أسفل كتفيها، بدا وجه الرجل ذي الشعر الأجدد مألوفاً، لكن نظراته بدت غريبة لم ترق لأم نصرت.

- من أنت؟ سألت .

- ألم تعرفي من أكون يا أم نصرت، معك حق، لقد خلعت قبعتي وثوبي القديم، وأزلت سوالي الطويلة المتلوية، وتركت عكازي، استعصى الزمن في جوار هذا القبر، وبدّل حالك وشاخت نضارة وجهك، لكنه أضاء في فضاء آخر، وبدّل حالي أيضاً حتى كدت لا تعرفيني، حدّقت أم نصرت بعينيها المتعبتين في الرجل، وقالت بفتور:

- إذا أنت الجار يعقوب، عسى سارة بخير والأولاد.

- تغير كل شيء يا أم نصرت، إلا أنت، لولا أن الأشياء من حولك قد بكت لا اعتقدت أنني أطل عليك ذات يوم مما خلا لأستقرض بعضاً من الطحين، كأنك لم تتركي مقعدك هذا منذ ذلك الحين، سارة توفيت، أما الأبناء فهم بخير وقد أصبحوا جنوداً في جيش الدفاع، تغير كل شيء يا أم نصرت كما قال غولدشتاين، أصبحت لغتي هي العبرية وقومية أبنائي يهودية، صُهرنا على طيلة تسعة عشر عاماً في مرجل كبير، حوى أقواماً من بلاد كثيرة، لكن شيئاً داخلياً بقي على صلة بهذا الحي، ربما يقف اليوم أبنائي وأبناؤك في خندقين متقابلين، في البداية كان ذلك إجباراً لا خياراً، لكنه مع الوقت أصبح خياراً، وربما لدى الأبناء خيار مع القناعة الراسخة والإصرار، أرى ذلك بوجه أبنائي، بسلوكهم، بمدى الكراهية التي في قلوبهم لكل ما هو عربي، وكأنهم يريدون أن يتقموا من ماض كانوا به عرباً، أو كأن في مشاعرهم دونية أمام يهود

آخريـن من قوميات أوروبية؁ أرادوا أن يشـتوا لليهود الآخريـن أنهم تحـرروا من نجس ماضيهم العربـي؁ لذا فهم أشد كرهاً للعرب؁ بل أكثر قسوة تجاههم؁ مع ذلك بقي لك ولأهل هذا الحي في قلبي بعض من مودة؁ أرجو أن لا تذهب بها مشاعر العداء الناتجة عن الحرب.

- تغيـرت كثيراً يا يعقوب؁ قالت أم نصرت.

- كلنا تغيـرنا؁ قال.

- ربـما؁ لكن ذلك لا يغيـر من حقيقة واحدة: إنني ما زلت هنا اقرأ من كتابي أمام قبر زوجي وسيد أجداد العائلة.

- سرعان ما سيغيـر هذا أيضاً كما قال روبيشتاين.

- ماذا تقصد؟

- سترحلين من هنا وسيزال هذا القبر.

- دون ذلك روحي.

- يا أم نصرت؁ عليك أن تعترفي بالواقع؁ لقد انتهت الحرب؁ وهزمت قواتنا كل الجيوش العربية مجتمعة؁ لم يتبق لك أي أمل؁ انتهى كل شيء؁ حتى أنا نفسي كنت أشعر أن شيئاً ما يدفعني لاحترام هذا المقام باعتباره جزءاً من أرض مقدسة؁ وازعاً مرتبطاً بعقيدتي وإيماني؁ أما اليوم فقد انصهرت تلك المشاعر؁ انصهرت مشاعري الدينية بالقومية الجديدة؁ قوميتي اليهودية أعلى شأنأ من دياتي اليهودية؁ باختصار صهيونيتي أهم من يهوديتي؁ ما عادَ هذا المقام يعني لي شيئاً.

- ما الذي يدفعك للعودة إلى هنا إذاً.

- لا بد من فكرة تربط مكونات قوميتنا الجديدة؁ التي شكّلها يهود من قوميات مختلفة؁ عانوا من التمييز الديني في بلادهم؁ كان هناك ضرورة لتوظيف بعض الجغرافيا التوراتية وأجزاء من التاريخ لتطوير

فكرة جاذبة.

- حتى لو كان على حساب تاريخ وحاضر ومستقبل الآخرين.
- للآخر وجه قاتم في ثقافتى الجديدة، إنه الغوييم، وجوده ثانوي .

- لا أفهم ما تقول.
- أعلم، لو كُنْتُ فهمت ذلك منذ زمن، لما كنتُ أنا ما أنا الآن، ولا كنت أنت ما أنت عليه الآن .
- هذا ليس عدلاً.
- العدل مفهوم مضلل، ضد الطبيعة التى أوجدت الاختلاف فى كل شيء.
- سنقاومكم.

- من الذى سيقاوم، زيد، فوزي، عبد الله التل، فرقة التدمير؟ لن يكون لهم قبلٌ بما نملك من قوة وبأس، وما لدينا من تحالفات ومصالح مع قوى العالم الكبرى، ربما لا تعلمين، فى هذه اللحظة وأنا أحدثك أن زيدا وآلآفاً آخرين مثله قد اعتقلوا، أنت لم تدركي بعدُ قوانين الصراع الجديدة، ولا فكرة لديك عن توازن القوى بيننا وبينكم.

بعزيمة لا يناها الضعف تلقت نبأ اعتقال زيد، لم تهن، لم ترمش، ظلت بشموخها فى وجه الريح، نظرت إلى يعقوب نظرة تنم عن الأسف وقالت:

- أنت قصير النظر يا يعقوب، ولا تفهم التاريخ، ولا قوانين الجغرافيا، لأنك لا تعرف إلا أجزاء منهما، على هذه الأرض طُحنت أوهام إمبراطوريات أعظم من دولتكم التى لم يمتحنها الزمن بعد، ربما ربحتم معركة، ولكن عليك الآن أن تعلم أن المقاومة ستفجر فى

وجوهكم يوماً ما، وعسى أن يكون قريباً، ستواجهون زيداً من جديد
وفوزي وبن يحيى فرحات وأبناءهم وأحفادهم، وستبقى المقاومة
وستتصر، لأنها ظاهرة تاريخية لا تنتهي ولا تهزم فهي تستند إلى قانون
يصعب عليك فهمه الآن، وستدرك معناه في حينه، لا تعيش مع
الاحتلال.

التيه

مضت سنتان على انتهاء الحرب، كانت صعبة وقاسية على العائلة، خاصة جدتي التي جنأ ظهرها وأبهَضها الهم وباتت تحملُ باقة من الأمراض، وتكاد الحسرة تأكل أحشاءها حزناً على ابتتها نرجس التي خطفتها وابنيها حرب، وغيبَت ذكراها وأملَ عودتها حرب أخرى، كذلك لحال عمتي الأخرى فاطمة الحريدة²⁰⁵ التي كُنْتُ في ركن غرفتها، عمتي الحاضرة الغائبة، التي تحوَّلت حياتها إلى يوم انتظار طويل لا ينتهي، وكثيراً ما أصبحت تهيم على نفسها بالأسواق على غير هدى، تُحدق في الوجوه حيناً وبالسما من فوقها حيناً وبجدران الطريق حيناً، كأنها تبحث في المكان عن مكان آخر، وفي الزمان عن زمان آخر وفي الوجوه عن وجوه أخرى، وحين تكلُّ من تعب بَلْهَسها الذي لا ينتهي في حرٍّ أو في قَطْر، تجدها إحدى الجارات إما قابضة بصمت في إحدى زوايا ومسطبات المسجد الأقصى، أو ساجدة لصلاة في غير وقتها في قبة الصخرة المشرفة، حتى بات بعض أهل المدينة يعتقدون أن بها مَساً أو فَرْدَعاً، وظن بعض آخر أنها فتاة مَبْرُوكَة، وأصبحت معروفة لكل أهل المدينة باسمها فاطمة المبروكة، ليس كما كانت، وكيف كان يذكرها الناس في غابر من الأيام، السَّت فاطمة معلمة المدرسة صاحبة الرأي والمشورة، تحوَّلت إلى فاطمة المبروكة المسكينة التي تثير شفقة الآخرين، وكثيراً ما تعرض لها بعض صبية الحارات المجاورة وضايقوها وألحقوا بها الأذى.

كُنت تراها تقف أمام صيدلية عدنان الحلاق في شارع صلاح الدين، تردد بشكل هستيري طلبها الحصول على حبة بيضاء كان قد وصفها لها أحد الأطباء المختصين بالأعصاب منذ فترة طويلة، كنوع من محبطات مراكز الخيال والوهم في مواعيد محددة، ويبدو أن آثار تعوُّدٍ ظهرت عليها نتيجة تناول هذا الدواء، مرتبطاً بشكل شرطي في ذهنها بلون حبته البيضاء، فكانت تقول أعطني حبة بيضاء، أعطني حبة، وتظل تكرر تلك الكلمات بسرعة هستيرية من دون توقف وبشكل يبعث على الشفقة، أحياناً، وعلى الضحك أحياناً أخرى، ولا تتوقف حتى تحصل على حبة بيضاء، وقد تعود الصيدلي إعطاءها حبة من الأسبرين بدل الحبة المقصودة، حتى لا يتحمل مسؤولية أي أذى يلحق بها، وكثيراً ما شوهدت تقف أمام محل جعفر للحلويات في خان الزيت تردد بنفس الإصرار جملة أخرى، تقول: "جعفر أعطني من الأحمر".

لم يعد الكثيرون من أبناء المدينة يُصدقون ما يقوله الكبار منهم عن فاطمة التي كانت فتاة جميلة تتقد حيوية، تتقن عدة لغات، وكان يَعْتَدُّ برأيها سادة المدينة ووجهائها، أصبح الكثيرون يظنون أن حكاية فاطمة المعلمة المناضلة ما هي إلا واحدة من قصص الخيال التي تروىها الجدات للأحفاد، مثل قصة الشيخ ريحان وقصص الأولياء والصالحين أمثال الشيخ مكّي والقرمي وغيرهم، وربما أن فاطمة واحدة من هؤلاء الصالحين، ربما اعتقد البعض أن فاطمة تلك التي يتحدثون عنها لم تكن، أو أن فاطمة المبروكة هذه سيصبح لها مقام يزار بعد موتها مثل المبروكين والصالحين وأصحاب الكرامات من البسطاء الذين قضوا حياتهم في الصلاة في جنبات المسجد الأقصى، مثلما حدث مع الشيخ عبد الذي أخذه قوم من بلدة بدو من قرى شمال غرب القدس في أواخر سنوات

عمره، رعوه وكرموا وأجلّوا أمره وفصيح قوله وجرأته على قول الحق، خاصة أمام طغاة الاحتلال الذين تعاقبوا على المدينة منذ بدايات هذا القرن، وعندما مات أقاموا له مقاماً كأحد الصالحين المبروكين.

أثقلت حالة التيه التي تواجهها عمتي وهي هائمة على وجهها بالطرقات على كل أفراد أسرتنا، إلا أننا ومع الوقت تعايشنا مع حالتها تلك، وكنا نرى في ذلك، مع ما يلحقه من أذى بسمعة ومكانة أسرتنا، خياراً أفضل وأرحم من حبسها بالبيت بين أربعة جدران أسيرة وحدتها وتيه وغيها، الذي كانت تستعيده فجأة ومن دون مقدمات، خاصة عندما تُذكر عمتي نرجس أو عندما تسمع أحداً ينادي عليّ بصوت مرتفع: مجد، كانت إذا سمعت اسمي هذا تلتفت يمينا ثم يساراً بشكل مفاجئ، وكأنها تبحث عن أحد بالجوار، ثم تتحدث مع جدي بها تجود به الذاكرة بحبوية تبعث على الانبهار، وسرعان ما تُحبو تلك الحبوية شيئاً فشيئاً وكأنها ذبالة قنديل تذوي وتنطفئ، لم يفلح الأطباء ولا أصحاب الكرامات من شيوخ أو شيخات في علاج عمتي فاطمة أو استعادتها، كانت حكايتها مثل حكاية عمتي نرجس وعمي عادل، خطفتهم الحرب وغيبتهم، وبقيت حسرتهم في ذاكرة ووعي العائلة لا تغيب.

يوماً بعد يوم، بدأ الهمُّ يأكل نضارة جدي حتى أقعدها المرض في سريرها وإلى جوارها صندوق مليء بأنواع شتى من الأدوية، التي غالباً ما كانت تخطئ في مواعيد تناولها، فتلقي في فمها من هذا النوع مرتين أو أكثر بدل مرة واحدة، وتنسى هل تناولت من هذا النوع أو ذاك، خاصة بعد زواج أخواتي اللواتي كنَّ يُنظمن لها فترات تناولها لطعامها وأدويتها وفقاً لإرشادات الدكتور عبد الله صبري، الذي كثيراً ما كان أخي صابر

يحملها إلى عيادته في طريق الآلام إلى جوار الهوسبيس .
كانت والدتي تُحاول جاهدة مساعدة جدتي في تنظيم أمور علاجها
وطعامها، لكن جدتي كانت ترفض ذلك، لأنها لا تريد أن تُلقِي بحملها
في سنوات عجزها على كاهل كِتَتها، وكانت تقول لأمي: أنت صاحبة
حمل ثقيل "الي فيك بكفيك"، ثم تصرف نهارها في دعاء بالكِ حزين
يشلح القلب، وهي تتضرع إلى الله أن ترى والدي الذي أسره جنود
الاحتلال، أو أن تُكحل عينها برؤية عمتي نرجس وابنيها، وأن يرد الله
فاطمة إلى حيويتها ونضارتها ووعداها الذي تنتظر ويعيد عادل إليها .
كانت جدتي تبتهل إلى الله أن ترى ذلك قبل أن يريحها الله من ألم حياة لا
تطاق، وكثيراً ما كانت تدعو أن يهدي الله أخي صابر ويجنبه رقة أبناء
الحرام، وكانت تشدني إلى سريرها بيد ترتجف كلما تقدمتُ لأقبل يدها،
وتقول بصوتها المتهدج: إياك يا ستي ورفقة أبناء الحرام. كنت أعتقد
أنها تقصد أبناء الحرامي الذي سرق بيت جارنا خليل، وعندما سألتها
عنهم وأين يكونون، ضحكت، كانت تلك هي المرة الأولى والوحيدة
التي سمعت بها ضحكة جدتي، حتى أن أمي هرعت فرحة لصوت
ضحكتها، ودعت الله أن يجعل ذلك فآل خير علينا. سألتُ أمي عن
كثرة دعاء جدتي وتضرعها إلى الله، بدا لي أن قائمة طلباتها من الله طويلة
جداً، فأجابتنني أن الله آجلاً أو عاجلاً سيحييها لأنها طلبات تراكت
منذ زمن بعيد، توفيت جدتي يوم الجمعة صباح عيد الأضحى، رحلت
دون أن تُكحل عينها برؤية والدي أو تفرح بخبر يعيد الأمل بعودة
نرجس، أو استعادة فاطمة لنفسها. خيم الحزن والأسى على بيتنا لفترة
طويلة، لم تنقش ظلاله إلا يوم أُطلق سراح والدي، وأذكر كيف عادت
بعض بهجة إلى وجه أمي التي ما إن يعود زوجها إليها حتى تأخذه

الحرب من جديد، أذكر يومها كيف نهضت أُمي عن طبق الغسيل مسرعة عندما سمعت صوت أبي وهرولت متخطية حوش الدار إلى الحارة، مفرعة الشعر، ملطخة الكفين برغوة الصابون البيضاء، وقد علت زغرودها وانهمرت الدموع من عينيها المتعبتين.

كانت عودة والدي قد بعثت الحياة في جنات بيت عزّ فيه الفرح منذ زمن طويل، لكن الأمور لم تتغيّر كثيراً، خاصة أوضاع أسرنا الاقتصادية، حيث بدأت الحياة تقسو وبدأ الرزق يضيق ومتطلبات الحياة في ظل الاحتلال أصبحت قاهرة لا تطاق، لم تُسعف أخي صابر شهادته الجامعية، وسرعان ما اختار لنفسه حياة مختلفة فيها الكثير من الإثارة والالتباس، ولم تكن العائلة في حالة تمكنها من السيطرة عليه، أخذته موجة تعيّرات هائلة اجتاحت المدينة، طال أثرها أكثر ما طال فئة الشباب، الذين كانت مساحة احتكاكهم بالحياة في الجزء الآخر من المدينة أوسع من غيرهم، وبدأ للكثيرين من أبناء حيّنا أن أخلاق أخي صابر وتصرفاته باتت تشبه تصرفات شبان اليهود في غرب المدينة، فقد أطال شعر رأسه حتى أصبح أكثر طولاً من شعر أُمي، وتدلت من عنقه سلسلة تحمل شكل توتم غريب يظهر من قميصه المفتوح إلى أسفل صدره الذي تبرز منه عضلاته من شدة التصاقه بجسده، كان أكثر ما أحزن أبي ما آل إليه حال عمّتي فاطمة ووفاة جدتي دون أن يراها، بكى أبي مثل طفل صغير يوم خروجه من السجن، وعندما سألت عن جدتي، صمت الجميع، حدّق أبي بالعيون من حوله، بينما قُلْتُ مبتسماً وكان قد ضمّني إلى حضنه: إن جدتي انتقلت للسكن في السماء إلى جوار الله، كما قالت لي أُمي يوم وفاة جدتي، إن الحياة دار أجرة مؤقتة بينما الآخرة دار ملك دائم، بكى والدي وتساقطت دموعه على مرفقي، حتى أنه

أجهش بالبكاء، عندها نظرتُ إلى أُمي وكنت خائفاً وقد تسارعت نبضات قلبي، خشية أن أكون قد قلت شيئاً لا يليق عن جديتي. بدأت الحياة تعود شيئاً فشيئاً إلى المدينة، عاد باعة الكعك إلى الساحة المقابلة للبريد أمام باب الساهرة إلى جوار محلات النوفوتيه والأقمشة والبقالات التي فتحت أبوابها، وبدأ شكل جديد من الحياة يدب في شرايين المدينة، اكتظت الأسواق بالعابرين من غرب المدينة، ولم يعد بالإمكان ألفة الوجوه التي تتبدل في الطرقات على مدار الساعة، وظهرت في أرجاء المدينة، خاصة باب العامود وباب الساهرة وباب النبي داود، أعمال ومهن جديدة، تسببت في تسرب الكثير من الأطفال من مدارسهم للعمل في الشارع، حيث انتشروا يحملون قطعاً من القماش وسطاً من الماء، يمسحون سيارات العابرين من اليهود، من أجل بضع أغورات، وكثيراً ما تشاجر بعضهم مع بعض ومع العم بحر، ماسح السيارات الشهير في باب الساهرة، الذي وضع له ثلاثة براميل كبيرة من الماء خلف الجدار الأيمن لباب الساهرة في الساحة الخارجية التي استخدمت كموقف للسيارات، خاصة سيارات تكسي المدينة.

كان العم بحر يقف وسط الساحة بقميصه الشباح الأسود، وبنطاله الجلدي اللامع، وصدره المكشوف الذي يُظهر عدداً من السلاسل الذهبية والعقود الملونة التي تتدلى من حول عنقه، كان العم بحر صاحب الأمر والنهي في شأن الساحة في باب الساهرة، وهو الذي يتحكم بالسيارات المسموح لها بالركون بشرط أن تخضع للغسيل على يديه مقابل نصف ليرة، بينما انتشر عدد من الصبية يحملون علب العلكة ويجوبون الطرقات والمطاعم والمقاهي ويتدافعون بين السيارات العابرة

في الشوارع وعند إشارات المرور التي بدأت تظهر عند مفترقات الطرق، وأذكر أن أخي صابر قال لأمي إن سيارة عابرة قرب باب الساهرة قد داست طفلاً كان يحمل علبة علكه وينادي "ماستيك" أي علكة، وأن الطفل مات على الفور، توزع عدد آخر من الصبية والشبان في غير مكان، يسلقون عرائيس الذرة في "كازانات" من التنك يضعونها على بابور محمول داخل عربة خشبية بثلاث عجلات، كنتَ تسمع نداءهم من البعيد وهم يقولون "تيرس حام" أي ذرة ساخنة، بينما كبرت هموم أم ناصر وأم جعفر جوهرتي السوق اللتين لم تتحنيا أمام عواهل الزمن، لم يعد أبو الوليد البيتوني يشغل بالهما، بل أصبح الرجل عوناً لهما من تهديد شرطة البلدية التي تطارد بائعات الخضار في أسواق القدس، تصادر بضاعتهم أو تدلحها على الأرض وتدوسها بالأقدام، كان أبو الوليد يدس أصفاط المرأتين تحت رفوف بسطة دكانه كلما لاح وجه ذلك الشرطي العربي المدعو "شارة" الذي كان أكثر قسوة على من في السوق من مزراحي اليهودي.

وكان أغرب تحول في حياة السوق في مدينة القدس عبّر عن حالة التيه التي تمرّ بها، هو قيام الكثيرين من أصحاب الحوانيت، خاصة في سوق البزار وباب الخليل وحي الواد، بتغيير أعمالهم ومهنتهم وحرفهم اليدوية، التي بدأت تختفي شيئاً فشيئاً ولم يبق سوى القلة من العطارة والمنجدين والنجارين والحدادين والنحاسين ومعامل الفاخورة والزجاج، حتى أن بعض بائعي الخضار واللحوم والبقالة تحولوا إلى محلات سينتواري، التي اصطف بعضها إلى جوار بعض، حتى جعلت من السوق متحفاً مفتعلاً لقطع تذكارية مصنعة، يفترض علاقتها بتاريخ المدينة، بينما في الحقيقة لم يكن يربطها بالتاريخ شيء، اللهم إلا

ادعاءات بعض الباعة لزبائن السوق الجدد بأن هذا الشمعدان يعود لباركوخبا، وذلك مفتاح القيامة الذي أعطته الملكة هيلانة للجد الأقدم لبائع التذكارات، مدعياً أن عائلته منذ مئات السنين قيّمة على أبواب المدينة، وتلك قبعة يعقوب النبي، كل تلك الادعاءات التي تفتقت عنها عقول الباعة المتحمسين لتسويق بضاعتهم، اعتمدت على قناعة هؤلاء الباعة في مهنتهم الجديدة، بسداجة المشتري الباحثين عن تاريخ ما وتذكارات ما وهوية ما، تربطهم بالمدينة وتجعلهم يشعرون أن لهم شيئاً في هذا الاكتظاظ من التاريخ الذي يلفظهم، حتى أن أحد الباعة وقد استغشم عن أخي صابر بسبب شعره الطويل، ذات مره، وكان أخي يتأبط يد راحيل اليهودية، أراد صابر أن يشتري لراحيل تذكراً من البلدة القديمة كما طلبت، فسأل البائع عن قطعة منقوشة من الخشب، فقال البائع إن القطعة المنقوشة هي مزنونة موسى التي حملها يوشع بن نون²⁰⁶ معه عندما دخل إلى المدينة، وأنه توارثها جداً عن جد بعد أن خبأتها عائلته طيلة تلك العهود، فضحك أخي صابر ساخراً، وقال: متى خلعت هذه الخشبة من بلوطة بيتك ونقشتها يا أبا السعيد؟ فصاح أبو السعيد: "أجى مين يعرفك يا بلوط".

ولم يخلُ الواقع الجديد مما يبعث الفرح في نفوس الباعة وأهل المدينة في ظلّ هذا المشهد البائس المشوه، فقد كانت رؤية الخيارات القادّيات من المثلث والجليل والنقب، بأثوابهنّ الفلسطينية الفضفاضة الملونة بالورد والياسمين، وهنّ يعبرن زرافات إلى أسواق المدينة، ما يبعث بالنفس البهجة والسرور، كان الباعة يطرقون السمع بمتعة كبيرة لتلك اللهجة

٢٠٦ خليفة سيدنا موسى عليه السلام في بني إسرائيل، قاد بني إسرائيل في حصار أريحا

الجليلية الجميلة، التي اشتاقت لسماعها الأذان. بَشَّتْ المدينة باستقبال هؤلاء الفلسطينيين الذين صمدوا على أرضهم هناك، من الجهة الأخرى للبوابة الغربية، ورغم النهاية المذلة للحرب، كان بعض من فرح يغمر عيونهم، بعد أن لَمْ شمل الكثير إلى عائلاتهم وأسرهم، وبدأ أن هناك فروقاً ما في مستوى المعيشة ومستوى الوعي بالهوية وربما بالمستوى الحضاري بينهم وبيننا، كانوا أكثر تميزاً وثقة بالنفس، خاصة أننا بقينا في ظلِّ حُكم مغلق عجز عن النهوض بالمدينة حضارياً، ثم شيئاً فشيئاً لا تدري كيف بدأت تظهر علامات التميز بيننا وبينهم، وأظنها بدأت من بعض الجهلة وبعض الإذاعات العربية التي أصبحت تُطلق عليهم تارة عرب إسرائيل وتارة عرب 48، وأخرى تدعوهم بعرب المثلث والجليل، أو عرب الداخل، اليوم أدرك أن كل ذلك كان لنزع الصفة الحقيقية عن كونهم أوضح الفلسطينيين هوية وانتاء، سعى الاحتلال وبعض العرب وربما بعضنا إلى الحفاظ على جدار بوابة من فصل وهمي بين أبناء شعبنا الواحد، مهاجرين ونازحين، ضفراويين وغزيين ومقادسة، لم يكن بمقدوري أن أتصور أن عمتي نرجس وابنيها اللذين لا أعرف لليوم مكان سكنهما، هم آخرون، أو أنهم عرب إسرائيل، فقط لكونهم رفضوا مغادرة أرضهم، كان كل ذلك تعبيراً عن التمزق الذي أصاب الهوية الوطنية الفلسطينية.

لقد كانت الصدمة شديدة وفقدان التوازن كبيراً، لذا سرعان ما تحوّلت القدس إلى بازار كبير للعرض، وسوقاً ومطعماً واسعا للمأكولات الشعبية الشرقية التي يعيشها الإسرائيليون والسياح. كُنْتُ ترى مطعم أبي علي في شارع صلاح الدين يعجُّ باليهود منذُ الصباح الباكر لتناول "الخموص" على حدِّ تعبير أبي داود، رجل المخابرات

الذي بات لا يغادر ذلك الشارع كأنه ولد هناك، صباحاً كنتُ تراه في مطعم أبي علي يتناول الحمص، وعند الظهيرة في مطعم أبي حسن يتناول المقلوبة، وعند العصر يلعب طاولة الزهر مع أحد أصحاب المحلات، وفي المساء في غرفة التحقيق يعذب أحد أبناء المدينة، بدا أن المدينة تبدل وجهها في لحظة تيه وهروب إلى الأمام، من دون تدقيق في مخاطر التغير المفاجئ في روح المدينة وبنيتها وأحوالها.

شولا

لمدرسة المار يوسف، قرب باب الخليل، مكانة خاصة في نفسي غير أي مكان آخر، كل مكان آخر هو حيّز لوظيفة ما، هناك حيّز للنوم وحيّز للإقامة وحيّز للهو وحيّز للعمل وحيّز للسياحة وهكذا، أما مدرسة المار يوسف في القدس فهي حيّز الروح، هناك تفتحت روحي على الحياة، وخطا عقلي خطواته الأولى في ميادين الدنيا، هناك تعلمت الحرف الأول، عبقرية العقل الإنساني في سعيه لمعرفة ذاته وأدوات التعبير عنها، اللغة، ذلك الابتكار العظيم للإنسان، لولاها لكانت قدرة الإنسان محدودة ضعيفة في نقل معارفه وتجاربه المكتسبة، التي تم تراكمها وتطوير الاستفادة منها مرحلة بعد أخرى، حتى كانت هذه الحضارات المتنوعة بجلالها وعظمتها، وتلك الابتكارات والإنجازات المبهرة.

في مدرسة المار يوسف، كان الصف الأول والكتاب الأول، دار ماري في يافا، دار نوري في يافا، ماري جار نوري، نوري زار ماري، في مدرسة المار يوسف كان المعلم الأول والصديق الأول، أولى مراحل تطور مشاعري وأحاسيسي خارج إطار العائلة، الإحساس بمعنى الصداقة أن يكون لك شخص تهتم لأمره، شخص لا تستطيع أن تمارس لهواً أو جدّاً من دونه، شخص يشاركك مغامرة اقتحام الأشياء لاكتشاف العالم من حولكما، أن تلهو وإياه، تضحكان لأبسط الأشياء معاً وتبكيان معاً، وربما تتشاجران لأبسط الأسباب أيضاً، وتعودان كأن

شيئاً لم يكن، شخص تفتقده إذا أدبر أو غاب، وتهش له إذا أقبل أو أقام. في مدرسة المار يوسف، أول إحساسات الاختلاف عن الآخر، وأول خفقات القلب لأنثى، بدايات التعرف على أبعاد أخرى للعاطفة الإنسانية، أن تكون هناك أنثى ليست أختك وليست أمك، أنثى أخرى تدقق في ملامح وجهها بشكل مختلف، أنثى أخرى تتهجد في عيونها قصائدك الأولى، أنثى أخرى تحس من خلالها أن للحياة معنى أجل.

مع كل ما تعتمر به نفسي من حب لمدرسة المار يوسف فإن عهدي بها لم يطل لفترة طويلة، حتى دهمتنا الحرب وأخذت نسرين وصديقي ربيع إلى حيث لا أعلم حتى يومي هذا، أول صديق وأول خفقة لقلبي الصغير، أخذتهما الحرب إلى حيث يغيب الناس ولا يعودون.

بعد أن استعادت المدينة قليلاً من توازنها الذي هزته هزيمة حزيران، فتحت المدارس أبوابها من جديد، سجلني والدي في مدرسة مجج، خلف مقر الشرطة الأردنية القديم غرب واد الجوز، كانت المدرسة عبارة عن عدة غرف صغيرة، تقابلها ساحة صغيرة بالكاد تتسع لأطفال لا يطيقون الحشرة في حيز ضيق، وتتملكهم رغبة دائمة للركض والقفز واللهو. وعلى الرغم من العناية المميزة لهذه المدرسة بتلاميذها، بما كانت تقدمه لهم من وجبة غذاء ساخنة يومياً، فإنها لم تلق في نفسي ما لقيته مدرسة المار يوسف، قلقت أمني عليّ دائماً لبعُد المدرسة عن بيتنا في البلدة القديمة، فما كادت تمضي عدة أشهر حتى نقلتني إلى المدرسة البكرية، فضائي الجديد مع الحياة. ورغم أنها كانت مدرسة مقتصرة على الذكور فقط، وليست مثل المار يوسف، حيث لا نسرين هناك ولا أنثى تشتاق إليها كل صباح، فإن المدرسة البكرية احتلت مكانة مميزة لدي، هناك استعدت مرة أخرى بعضاً من ذلك الإحساس بالانطلاق

والاندماج مع الآخر، الذي سلبتني إياه الحرب اللعينة، كرهت الحرب دائماً لأنها تأخذ أبي عنا وتسبب الألم والبكاء لجدتي، رحمها الله، حسرة على عمتي نرجس، وقيل إنها قد تسببت بها تعانیه عمتي فاطمة وأخذت أخي الكبير عادل وزوجته بعيداً عنا، دائماً كرهت الحرب ولم أعلم لماذا تنشب، ولماذا يقتل الناس فيها.

تقع المدرسة البكرية إلى جوار باب الأنبياء الذي تغير اسمه إلى باب الملك فيصل بعد زيارة ملك السعودية إلى المسجد الأقصى، تعبر إلى هناك من تحت زقاق معتم مسقوف إلى منتصفه ثم تدخل إلى ساحة المدرسة، التي تتكون من طابقين من بوابة خشبية كبيرة، إلى يمين ساحتها الداخلية غرفة صف كبيرة خصصت روضة للأطفال الصغار، أدارتها معلمة جميلة اسمها الست فاطمة العلمي.

في الجهة المقابلة تقع المنافع والحمامات، التي نُقلت لاحقاً إلى الجدار الغربي لتوسيع مساحة الاستيعاب الصفية لأبناء المدينة، إلى جوارها غرفة صف كبير خصصت روضة أطفال، إلى جانبها غرفة تتبع البوفيه، كنتُ أبيع فيها الشاي لصالح عثمان، الرجل الذي تضمن كنتين المدرسة، الذي يقع مقابل غرفة الشاي تماماً، وإلى يمينه عدة صفوف أخرى، إلى جوار النافذة الثانية للغرفة تصعد درجاً طويلاً إلى الطابق الثاني للمدرسة، بجناحيه اللذين يُطل أحدهما من الجهة الجنوبية على ساحات المسجد الأقصى، بينما يطل الآخر من الجهة الشمالية على بيوت باب الأسباط وباب حطة.

صباح اليوم الأول وقفت في الطابور في ساحة المدرسة إلى جوار البوابة الكبيرة، حيث اصطف التلاميذ كلاً إلى صفه بالترتيب، من الصف الأول إلى السادس، علماً أن بعض شعب لكل مرحلة كانت ترتب

(أ، ب، ج) مقابلنا على مسطبة منبسطة في أعلى منتصف الدرج وقف معلم يحمل بيده عصا قصيرة، كان هو أيضاً قصير القامة، حاد الصوت والمزاج صباحاً، لكنه طيب القلب حنوناً باقي النهار، عرفت لاحقاً أن اسمه الأستاذ جمال طوطح، أشار إلى أحد الطلاب باسمه، صعد ذلك الطالب إلى جوار المعلم، قرأ تجويداً سورة الفاتحة، وسرعان ما عاد إلى مكانه، أعطى المعلم إشارة فأنشد الطلاب بصوت واحد مرتفع نشيد المدرسة:

جمال بلادنا الشجرة فروي غصونها النضرة

وقم وازرع ولا تقلع لنجني الزهر والثمرة

ذهب النشيد القديم مع الحرب، عاش المليك، الذي أنشدناه مع التلاميذ في مدرسة المار يوسف، أصبح الآن لكل مدرسة نشيدها الخاص، الذي يقرره مدير المدرسة، سبجان مُغيّر الأحوال. جلستُ في مقعد في الطرف الأيمن من الصف الأول إلى جوار تلميذ طويل القامة نحيف الجسم يدعى رفاعي زيتون، الصديق الأول بعد ربيع، وهو طفل أكثر هدوءاً من ربيع وأقل حركة، لكنه تميز بخفة ظل لافتة وذكاء حاد، تنافسنا (أربعة أطفال) على الدرجات الأولى في الصف: رفاعي زيتون، عبد السلام مسوده، مهند حسن، وأنا، كنت مميزاً في قراءة الشعر والأناشيد، وكثيراً ما صحبني معلم اللغة العربية الأستاذ محمد الجولاني معه كي أقرأ قصيدة أمام المدير أو المعلمين الذين صفقوا لي دائماً بعد الإلقاء، وربما صحبني إلى أحد الصفوف الأعلى مني كالصف الخامس والسادس كي أقرأ أمامهم، لتحفيزهم على الاجتهاد، ما أهبجني اليوم أن رفاعي زيتون المهندس الناجح تميّز وأصبح أحد

شعراء المدينة البارزين.

بعد أن أنهيت الصف الرابع، تعرضت مكائتي بالتفوق وزملائي الثلاثة الآخرين إلى هزة حقيقية، عندما نُقل إلى صفنا طفل عبقري موهوب، رُفع مرة واحدة من الصف الثاني إلى الصف الخامس، خطف منا الأضواء، وأخذ اهتمام المعلمين، كان طفلاً صغيراً بكل شيء، بعواطفه وأحاسيسه المرهفة وخبراته الاجتماعية، وكان قد عانى كثيراً من ضعف في قدرته على التكيف معنا، خاصة وأنا كنا نكبره بعدة سنوات، أما عندما يأتي الأمر للدراسة والعلم فإنه تفوق علينا جميعاً وبسهولة لافتة للإنتباه، كانت علامتنا الأربعة قبل انتقاله إلى صفنا متقاربة، بين التسعين والخمسة وتسعين، بينما كانت علامات أسامة السراج ابن باب حطة، الطفل المتفوق، الذي كان والده مدرساً في المدرسة الرشيدية، كانت علاماته مائة بالمائة دائماً في كل المواد، فلم يحدث أن وجد في إجاباته الشفوية أو الكتابية خطأ واحداً، كان يجيب وكأنه يقرأ من كتاب، وفي مادة الحساب ثم الهندسة لاحقاً كان يعطي نتائج أي مسألة قبل أن يحلها المعلم على السبورة، الأمر الذي شكل إحراجاً للمعلمين في بداية عهده في صفنا، وأقدر أنه لو لقي هذا التلميذ اهتماماً خاصاً في حينه من مدرسة مؤهلة وطواقم خاصة، لكان أحد معجزات عهدنا، وربما كان هناك آخرون مثله، لم يتنبه إلى عبقريتهم أولياء أمورهم غير المتعلمين على عكس والد أسامة السراج.

في الصف الثالث كان علينا أن نبدأ تعلم اللغة العبرية مع معلمة يهودية اسمها شولا، كان يطيب لها أن تقول بافتخار ظاهر، كلما سُألت عن اسمها:

- أنا شولا ابنة السيدة ليثا والسيد مردخاي، نحن من القطمون.

بمجرد ذكر القطمون، كان يخطر على بالي عمتي نرجس وأولادها الذين لم أرهم بعد، ولا نعرف لهم مكان سكن حتى الآن، لكن، لا يمر يوم في بيتنا دون أن يذكروا، حتى أصبحوا الغائبين الحاضرين.

الست شولا في أوائل العشرينات من العمر، شقراء الشعر بيضاء البشرة، تلبس تنورة قصيرة إلى فوق الركبة، وقميصاً ضيقاً يظهر مفاتن جسدها وأثداءها النافرة، رغم مظهرها الذي يوحي بالدعة والطيبة، إلا أنها غالباً ما تعاملت معنا بازدراء، حتى أننا كنا نشعر أنها تقرب من لمس أي واحد منا، كأننا جرذان صغيرة مقرفة، فما يكاد أحدنا يقترب منها عن غير قصد، حتى تنتفض صارخة، الأمر الذي دفعنا للمشغبة بحصتها خاصة، وبتنا نتعمد إلقاء الطباشير عليها، أحياناً، وهي تدير ظهرها للكتابة على السبورة، أو نتعمد الاقتراب منها، ودفع بعضنا بعضها عليها أحياناً أخرى، كان مدير المدرسة الأستاذ أنطوان من مدينة الناصرة، يهرول على صوت صراخاتها ليهدئ من روعها، وقد كان معلماً مثقفاً، هادئ الطبع لم أشاهده طيلة وجودي في المدرسة يحمل عصاً أو يعاقب تلميذاً عقاباً جسدياً أو تعنيفاً لفظياً، بدا متفهماً تماماً لأسباب استحالة التأقلم بيننا وبين المعلمة شولا، لاحقاً قامت المعلمة شولا وبناءً على قرار جهة ما، بتعليم اللغة العبرية لأساتذة المدرسة في حصص خاصة بعد العصر، كانت شولا على قدر من الجمال، ولأن ملابسها قصيرة تظهر مفاتن جسدها فقد لفتت انتباه المعلمين وأثارت اهتمامهم، وكثيراً ما سمعنا تندر بعضهم على بعض بسبب نظراتهم التي تمتلئ رغبة تجاهها، وكنا عادة ما نحاول استراق السمع لأحاديث المعلمين حول المعلمة شولا، بدأنا نشعر أيضاً تملل الست فاطمة والمعلمات الأخريات التي نُسيِت حتى أسماؤهن من شدة اهتمام معلمي

المدرسة بشولا، فهذا يريد أن يتناول القهوة معها في غرفة المعلمين، وذلك يُحضر لها الحمص من بيته، وآخر يريد أن يرافقها الطريق حتى الباب الجديد، كي لا تتعرض لتحرشات المارة.

ذات يوم طلب مني الأستاذ عزت، أستاذ العلوم، أن أدرس ابنه مازن وفادي في بيته الكائن قرب باب الساهرة خلف البريد اللغة العبرية، خاصة أنه علم أنني المتقدم على الآخرين بهذه المادة، لاحظت أن الأستاذ عزت كان يسترق السمع إليّ أثناء تدريس ولديه، ذات يوم سألتني المعلمة شولا إن كنت أدرس لأبناء الأستاذ عزت كما يقول المعلمون، أجبتها إنني أفعل. سألتني هل أقوم بأي خدمات أخرى للأستاذ عزت، فأجبت أنه يعتبر أنني فاهم درس العلوم وكنت كذلك، لذا كان يرسلني كي أشتري له خبزاً من مخبز الصواف قرب سوق القطانين، فطلبت مني أن أكف عن ذلك، ثم طلبني المدير في اليوم نفسه وسألني عن الموضوع، كنت في حيرة من أمري، فمن ناحية شعرت أن المدير غاضب من الأستاذ عزت، بينما لم أكن أنا أشعر بأي حرج من مساعدته في تدريس ولديه، أو شراء الخبز له، خاصة أن الأستاذ عزت كان على علاقة مع أبي بحكم الجيرة، لذلك كذبت لأول مرة في حياتي، وأنكرت أمام المدير أنني أقوم بذلك، الأمر الذي أغضب الست شولا مني، بينما قال: الأستاذ محمد أستاذ اللغة العربية أمام تلاميذ الصف: إن بينكم بطلاً صغيراً منع فتنة أرادت افتعالها سيدة يهودية تحت ذريعة حقوق الطفل، وربت على كتفي أمام الطلاب، وقال: إن ما قُمتَ به اليوم ليس كذباً، وإنما دفاعاً عن قيم ليس بمقدور سيدة مثل شولا أن تفهمها، لم أفهم تماماً ما قصده الأستاذ محمد، لكنني شعرت بارتياح أن ما قمت به لا يُعد كذباً.

كُلفت المعلمة شولا بتدريسنا مادة تدعى المدنيات، وهي مادة باللغة العربية عن دولة إسرائيل، حدودها، نشيدها الوطني، علمها، بعض من تاريخها وأهم قادتها، وكان قد كُلف بالعام السابق تدريس هذه المادة أستاذ من مدينة حيفا اسمه محمود، الذي لم يفتح ذلك الكتاب أمامنا طيلة العام، بل كان يقص لنا في الحصة قصصاً عن حيفا وعن البحر ووادي النسناس وجبل الكرمل، وأحياناً كان يطلب من أحدنا أن يقص علينا قصصاً عن القدس، وكان شديد الشغف بسماع أي شيء عنها، أما الست شولا، فبدأت أول درس من تلك المادة عن العلم الإسرائيلي، قالت: إن الأزرق والأبيض هما اللونان الوطنيان لدولة إسرائيل، أما الأبيض فيرمز إلى السلام وصفاء الدولة ونقاء عرق شعبها العظيم، والنجمة بين خطين أزرقين هي نجمة داود الملك كما قالت، أحد أكبر ملوك إسرائيل قبل ما يزيد على ثلاثة آلاف عام، الأمر الذي استغربناه، وسألناها يومها هل الملك داود هو نفسه سيدنا داود، فتجاهلت الإجابة عن السؤال، ثم تابعت فشرحت ترميز الخطين الأزرقين في العلم، اللذين يرمزان إلى نهري إسرائيل الكبيرين النيل والفرات، الأمر الذي استفز مدرس الجغرافيا والتاريخ محمد القرايين عندما سألناه عن ذلك.

في العام التالي بدأت شولا تتكيف مع وضع المدرسة وأجواء مدينة القدس، فأصبحت أقل قرفاً من السابق، فإذا صدف أن اصطدم بها أحدنا، كانت تكتفي بإخراج منديل من شنطتها تمسح مكان الصدمة دون صراخ، وأحياناً أبدت تعاطفاً معنا وأخذت تلاطف بعضنا، بل وتقدم لنا بعض العلكة، وكثيراً ما حدثتنا عن قيمة الإنسان التي يجب أن يحافظ عليها وأن تحترم ولا تهان، وأن لا يُستغل الإنسان بأي شكل،

حدثتنا عن حقنا في التعبير عما يجول في خاطرنا دون خوف من رقيب، وعن أهمية نبذ كافة أشكال العنف، خاصة العنف والعقاب الجسديين، قالت بصوت حازم: لا يحق لأي معلم أن يضرب أيًا منكم مهما كانت الأسباب، وإذا تجرأ أي معلم على ذلك، فعلينا فقط أن نخبر الست شولا، ثم تطور الأمر وطلبت من أحد التلاميذ أن يخبرها عن القصص التي يقصها علينا مدرس التاريخ ومدرس التربية الدينية.

ذات يوم دخلت شولا إلى الصف وطلبت منا وضع كتاب المدينيات أمامنا، حظي النحاس جعلها تقف أمام مقعدي مباشرة، أخرجت الكتاب من الشنطة ووضعت على سطح المقعد وكنت قد رسمت على جلده الخلفية علم فلسطين، الذي علمتني رسمه عمتي فاطمة في لحظة من لحظات وعيها النادرة، وشطبت علم إسرائيل عن جلدة الكتاب الأمامية، ما إن حطَّ نظر الست شولا على كتابي، حتى احمر وجهها عندما رأت العلم الفلسطيني، استشاط غضباً، سألتني بحدة: ما هذا؟! قلت ببراءة: علم فلسطين. أي فلسطين؟ صاحت، قلت: بلادنا هذه. قالت هذه إسرائيل يا غبي، وصفعتني على وجهي بعنف شديد، مرة تلو أخرى، صارخة: دمرت الكتاب وشوهت العلم أيها التافه الحقير، حطمت نظرية بوروشوف^{٢٠٧}، ومزقت وجه هرتسل^{٢٠٨}، وفي لحظة تحولت المرأة الشقراء ذات الأيدي الناعمة التي

٢٠٧ يهودي روسي من منظري الاشتراكية الصهيونية، تقوم نظريته على التفريق بين الأمة والطبقة، من وجهة النظر الاجتماعية والثقافية، فهو يعتبر الأمة باقية بينما الطبقة متغيرة، وهي فكرة مناقضة تماماً للاشتراكية الشيوعية

٢٠٨ أبو الحركة الصهيونية وأبرز زعمائها

بذلت جهداً كبيراً لإقناعنا بنعمتها واختلافها وحرصها على التعبير الحضاري عن النفس بعيداً عن الخوف والترهيب، تحولت إلى وحش كاسر، بطش بي، بكيت، كانت وجوه التلاميذ تُحْدق بتلك المرأة بخوف واستغراب لا يخلوان من حُنى شديد، عندما خرجنا من المدرسة كان الأستاذ رمزي قد كَفَّ عن مرافقتها إلى الباب الجديد، كما تعود بعد ضغط المعلمين الآخرين وسخريتهم، وكان وَقْعُ ما حصل معي شديداً على زملائي بالصف، لم نكن ندرى لماذا، فكثيراً ما عاقبنا المعلمون على أخطاء نقوم بها أحياناً، بعضهم القصيرة على باطن أيدينا، ورغم شدة ألم العقاب ذاك، ما كنا نشعر بإهانة أبداً، بدا ما قامت به الست شولا معي مختلفاً، وربما ذكرني ذلك بكلام والدي: "لا تصفع أحداً على وجهه، فالوجه هوية الإنسان".

أحسّ زملائي بالصف أن الأمر يخصهم جميعاً، عندما خرجت شولا من المدرسة تجمعنا كافة أبناء الصف خلفها، وأخذنا نضرب بشدة على حقائبنا الدراسية بأيدينا وهتفنا بأعلى الصوت: مدرستنا عربية مش لشولا اليهودية، حاولت زجرنا، ودفعنا إلى الخلف، لكنها عجزت، ارتجفت يداها، وبدت على وجهها ملامح الخوف والهلع، ونحن نسير خلفها ويتعالى هتافنا على طول الطريق، وما إن وصلنا قريباً من مستشفى الهوسبيس حتى اختلط بنا أطفال آخرون، ثم كثير من المارة رجالاً وفتياناً، لم ندر من أين أتوا، اختفت شولا بين الجموع وما عُدنا نراها، بينما هتفنا مدرستنا عربية مش لشولا اليهودية، هتف الكبار ممن انضموا إلينا ولا ندرى لماذا فعلوا ذلك، هتفوا القدس عربية مش يهودية، ثم غيروا هتافهم، صرخوا بأعلى أصواتهم: يسقط، يسقط الاحتلال، القدس عربية، الله أكبر، الله أكبر، فلسطين عربية.

وما إن خرجنا من باب العامود حتى هرعت قوة من الشرطة الإسرائيلية بالعصي لتفريق الناس، كان بعض رجال الشرطة يحملون البنادق ويطلقون النار على الجموع، وآخرين منهم ألقوا باتجاهنا قنابل انبعث منها دخان أبيض ورائحة غاز خانق، جعلت عيوننا تدمع، وأصابنا جلودنا حكة شديدة، كانت تلك أول مظاهرة شاركت فيها، تفتحت بعدها مداركي تدريجياً على معانٍ جديدة للحياة: معنى الوطن، معنى الهوية، فهمت لماذا كان الأستاذ محمود من حيفا يطوي كتاب المدينت، ويُلقي به بعيداً على طاولته ويقرأ لنا من ذاكرة المكان قصصاً عن حيفا والناس هناك.

برمان وتنوفا 209

تدافع الناس أمام محل أبي حامد باب الزاهرة، لشراء قوالب خبز البرمان الذي يوفر الجهد والمال كما قال أحدهم، لا داعي أن تشتري الطحين وتُخزنه بعد، ولا حاجة لأم العبد أن تتعب أيديها وهي منكبة على لجن العجين والعرق يتصبب من جبينها، ثم لا داعي لحمله إلى المخبز وانتظاره ساعات، هذا قالب كبير من الخبز بخمسة وعشرين أغورة، يا بلاش أربعة منه باليوم تكفي لعائلة من خمسة عشر نفراً، غير أن أمي ومعظمنا أيضاً لم نستصغ طعم خبز البرمان، قالت أمي: أستغفر الله، هذا ليس خبزاً، انه مثل الكاوتشوك، لذا كان لا بد من تقسيمه بالسكين، معظم من في البيت، والأطفال خاصة، يأكلون اللب ويتركون القشرة، بينما الكبار يأكلون القشرة ويتركون اللب، توازن منطقي لم يخطط له أحد.

في ظهيرة أحد الأيام سمعت العم أبا رباح الفران، الذي أطلق سراحه بعد أبي بعدة شهور، عندما كنت عائداً في طريقي إلى البيت من مدرسة البكرية، يقول لأبي وقد كانا يجلسان إلى دوشك بالٍ من القش، إلى جوار الفرن.

- آخ على أيام زمان، يا أبا عادل، كما ترى أصبح نهاري مملاً طويلاً، أكاد لا أغادر هذا المكان إلا للصلاة في الأقصى، لقد ضعف

٢٠٩ برمان هو المخبز الأكبر في إسرائيل، وتنوفا هي الشركة الأكبر لمنتجات الألبان

العمل بالفرن بعد أن تحوّل الناس لخبز البيرمان، وما عادوا يحضرون عجينهم ليخبز في فرني، نقد مالي وضاق حالي، حتى تركني صبية الفرن وذهبوا للعمل في مخبز بيرمان الإسرائيلي في القدس الغربية، أفضل الموت جوعاً على العمل في مخبز بيرمان، ماذا عسانا نفعل يا صديقي، ساق الله أيام العز، هزّ أبي رأسه بأسى، وقال:

- "لا تشكيلي لبكيلك" يا صديقي، ما عادَ الناس يشترون الحليب من عندي، وكلما طرقت باباً في الصباح الباكر قيل لي: متأسفون يا عم عمر، اشترينا من حليب تنوفا فهو أوفر وأقل سعراً، وفيه من المواد الحافظة ما يجعله قادراً على الاحتفاظ بطعمه وجودته عدة أيام. قبل عدة شهور وحتى لا يفسد الحليب لدينا صنعنا من معظم منتوج البقر لبنة ولبناً رائباً "وبطلوع الروح" سوّقنا منتوجنا لأن معظم الحلايين فعلوا ذلك، فزاد الأمر عن حاجة السوق، بعد مدة قصيرة قال الناس لنا لقد اشتريتا لبنة تنوفا، فهي أرخص، قمنا بتجيين وتلبين معظم منتوج الحليب وخفّقنا الباقي لبنَ مخيضٍ وزبدته، وعلى الرغم مما يحتاج هذا النوع من العمل من جهد ومال "كسّد عندنا وبار لأن الناس اشتروا حاجتهم من منتوج تنوفا، "وين أروح، شو أعمل"، لا أدري، خفضت السعر، لكن أسعار تنوفا أرخص، لأنها تنتج سلعاً محمية بينما تلك الحماية لا تشمل منتوجنا، مستحيل لبائع مثلي أن ينافس شركة كبرى مثل تنوفا تلك "بظهرها حكومة"، أنا مثلك بفضل أموت ولا أعمل بشركة تنوفا، لكن ما العمل، عائلتي كبيرة، مسؤولياتي كبرت، ومعظم أولادي على مقاعد الدراسة كما تعلم.

وأشار أبي بيده إليّ، وكنت قد جلست إلى حجره، وتابع:

أما ولدي صابر رغم حصوله على شهادة عليا، فلم يتحصل إلا على

عمل رث في المصانع أو الفنادق الإسرائيلية، وهو يعمل يوماً ويبقى عشرة أيام بلا عمل، بالكاد يحصل مصروفه، تكاد بقراي تفنى فلم نعد نستطيع توفير البرسيم والخلطة والرعاية لها، أتعلم يا صديقي، نحن قوم لم تحتل بلادنا فقط، وإنما سُرقَت أرزاقنا وخبز أطفالنا أيضاً، لم يتركوا لنا "عاجة ولا جاجة"، لا أدري كم سنصمد أمام هذا التحدي بل التهديد.

قال أبو رباح:

- لعلّي لا آتيك بجديد، لقد علمت من أبي إبراهيم الخدرجي أن المزارعين الذين يحضرون له الخضار من عدة قرى تركوا الزراعة وذهبوا للعمل بالمصانع الإسرائيلية أو بقطف البرتقال والفراولة في الكيوتسات، بعد أن كَسَدَتْ بضاعتهم وسَلِبَتْ أراضيهم، حالنا من حال البلد، الجميع يعاني ونكاد نُطحن في هذه المَخْمَصَة ولا حول للناس ولا قوة.

بعد فترة بسيطة تَدَاكَاتُ²¹⁰ الديون على أبي وَخَلَجَتْهُ الهموم، فباع بقراتنا جميعها، وظلّ حزيناً لمدة طويلة عليها، كأنها بعض أبنائه، اشتراها سمسار تعود أن يجول المدن والقرى الفلسطينية لشراء البقر والأغنام من العرب لصالح شركة تنوفا.

مرضت أمي ولزمت الفراش لما يزيد على أسبوع بسبب بيع البقرات، وبكت بكاء شديداً، وظلت غمامة الحزن تخيم على البيت مدة طويلة بعد ذلك، وكثيراً ما رأيت أبي يعبر إلى ما كان يسمى بخور البقر، ويخرج من فوره ليقول لا حول ولا قوة إلا بالله، أكاد أنسى أنها ليست هنا،

مع خروج البقرات من بيتنا، خرجت البركة من البيت كما تقول أمي، وحلّ مكانها الفقر والعازة والخُفّات²¹¹، فبعد أن عمّ خير هذا البيت على كثير من البيوت، في زمن الشدّة، بات يرجو عطاء الناس.

- أحمدي الله على كل شيء، يقول أبي لأمي عندما يسمع منها ذلك، ويضيف: لا تمنّي على الناس عطاءك ولو بينك وبين نفسك، فما أعطيت يوماً إلا ما أعطاك منه الله.

اضطر أبي للعمل في مصنع للطباعة وصناعة الكرتون في دير ياسين، "التي أصبح اسمها كريات شأؤول"، بعد أن تنبّلت خطوط الحياة به وضاحت به الدنيا.

- كان قرار العمل "عندهم" أشدّ قسوة على نفسي من الموت طحناً تحت مدحلة.

هذا ما سمعت أبي يقوله لأمي بعدما أيقظني ذات يوم بعد عودته من صلاة الفجر، وصحبني معه إلى حيث يعمل كما وعدني، جهّزت لنا أمي كسرتين من الخبز المحشي بالبطاطا المقلية وزراً واحداً من البندورة، مرّنا بمقام الشيخ ريحان، قرأنا الفاتحة وسلمنا كالعادة على ساكن المقام، كنت أنظر إلى وجه أبي يكاد الدمع يتفجر من عينيه، وهو يتمتم ما لا أسمعه أمام مرقد الشيخ ذي الهيبة والوقار، عبرنا من حارة السعدية إلى باب الساهرة، كان الطريق يعجُّ بالعمال المتجهين للعمل في المصانع الإسرائيلية، كانوا يجرون أجسادهم جراً، وتظهر على مخياهم آثار التعب والإرهاق والنعاس، كانت معظم البقالات قد فتحت أبوابها في تلك الساعة المبكرة، خاصة بقالة أبي حامد، ودكان طبش

الصغيرة تحت سقف الزقاق في باب الساهرة، مقابل مكتب تكسي المدينة الذي شرع أبوابه أيضاً، وعجّت الحركة في ساحة السيارات أمام البوابة الكبيرة بالسائقين وبسطات الكعك، والمارة من العمال الذين كانوا يحملون بأيديهم أكياساً من النايلون الأبيض، تظهر من خلالها كسرة خبز وحبة بصل أو خياراً أو كعكة بالسمن وبعض حبات من الفلفل.

توجهنا إلى موقف باص امجد رقم 12، مقابل حلويات الأرز والسوق التجاري، كان هناك جمع كبير من الناس يتدافعون لركوب الباص، حتى أنني كدت أختنق بين أجساد العمال المتدافعين، كان أبي يشدني إليه وهو يزاحم العمال، الذين يسعون للصعود إلى الباص كي لا يتأخروا عن أعمالهم ويلقوا ما لا يرضون من صاحب العمل اليهودي، لأن عقوبة التأخير ربما تكلف العامل الطرد من العمل حتى لو كان التأخير خمسة أو عشر دقائق، كما قال لي والدي، لذا كان التزامهم أمام بوابة الباص لا رحمة فيه ولا مساومة، كبيراً أم صغيراً، رجلاً أو امرأة، حبست أنفاسي وأنا أعصر بين أجساد العمال المتدافعين، حتى نجح والدي بشدّي إليه بعد جهد وعراك، ثم تنفس الصعداء عندما إعتلى بي سلم الحافلة، فذلك إنجاز لا يستهان به، وقفنا بين المقاعد في الممر الضيق المكتظ بالعمال، كانت الحافلة تسير بسرعة كبيرة، وتكاد تحسب الشوارع والعمارات التي تسير الحافلة إلى جوارها تفر هاربة بالاتجاه المعاكس، كنتُ أسمع شخير عامل غط بالنوم مسنداً رأسه إلى النافذة، وآخر يلقي بثقل جسده على عامل إلى جواره، فيصرخ الآخر غاضباً، فينظر الغارق في شخير، ينظر من حوله ثم يحدق من نافذة الباص، يطمئن على موضع سيرها، ويقول دون أن يعير غضب جاره أي اهتمام

"لسه شوية"، ويغط بالنوم من جديد.

وقَفَّت إلى جوار والدي فتاة دون العشرين من عمرها، رأيت والدي يجاهد في إبعاد العمال عنها ولو بضعة سنتمترات، وكانت أخرى تذود عن نفسها متأففة بلا جدوى، توقفت الحافلة أكثر من مرة، نزل بعض العمال وصعد غيرهم، أمام سوق محني يودا، نزل عدد كبير من العمال وفرغت بعض المقاعد، هَشَّت الوجوه وبَشَّت مستبشرة مرتاحة بعد كل ذاك الضيق، جلسْتُ ووالدي في المقعد الأخير، إلى جوارنا جلست سيدة يهودية صعدت إلى الحافلة من سوق محني يودا، نظرت إليَّ بازدراء، وشَدَّت ثوبها بعيداً عني، وأزاحت نفسها ما استطاعت، وكأن بي لوث أو نجس قد يصيبها، توقفت الحافلة مرة أخرى.

- هنا، هيا بنا، قال أبي.

نزلنا بسرعة، كانت هناك لافتة كتب عليها باللغة العبرية ثم الإنكليزية ثم العربية جفعات شأوول، تلة بارعة الجمال. رغم اكتظاظها بالمباني والبيوت إلا أنها احتفظت بسر جمالها، من خضرة وأشجار عالية، قال أبي: لا تُصدق هذه اللافتة، لأن كل ما كتبوه زيف وكذب، هذه البلدة اسمها دير ياسين وليست جفعات شأوول، بل إنها إحدى قرى القدس التي تم تدميرها وقتل أهلها وتشريد من تبقى منهم أثناء حرب ثمانية وأربعين، وقد بنيت على أنقاضها هذه المباني، إن جارتنا أم محمود وابنها خالد الذي تلعب معه في الحارة من هذه القرية، لا تنسَ هذا يا مجد الصغير، لا ادري لماذا يناديني الناس مجد بينما يناديني والدي مجد الصغير، عندما وصلنا إلى المصنع كاد المعلم سالم وهو يهودي عراقي كما فهمت لاحقاً، كاد أن يطردني ووالدي من المصنع، قال لأبي: من هذا؟ وأشار بغضب نحوي، فتسمَّرتُ مكاني خشية أن ينالني بيده، قال أبي

إنه ابني الصغير، صاح الرجل الذي يضع على رأسه قبعة سوداء صغيرة يسمونها "كيباه": وهل تعتقد أننا افتتحنا قسماً لرياض الأطفال في هذا المصنع؟ خذ ولدك وانصرفا من هنا ولا تعودا، اضطرب أبي وبهت وجهه، وربما شعر كأن الأرض تهوي تحت قدميه، قال لي لاحقاً إنه شعر بالندم لأنه صحبني معه إلى هناك، أراد أن يعرفني على دير ياسين بلدة صديقي من الحي خالد، وقبل أن يهم أبي بالخروج خطر لسالم هذا أمر، فقال لوالدي: تعال، لا تذهب، إجلس إلى ماكينة الخريس، واترك الصبي لي، كدت أبكي وقد تركني والذي مع هذا الرجل اللفظ، كان في عيناه حَوْل وحين زجر أحد العمال ظننت أنه يزجرني، بدا أبي في تلك اللحظة في حالة ضعف لم أره في مثلها أبداً، قال الرجل ذو القبعة الصغيرة التي تغطي جزءاً من الرأس مشيراً إلي: اتبعني، لا تحف، ثم أشار إلى صفوف من الورق، وقال:

- خذ ورقة من هذا الصف ثم الذي يليه وهكذا حتى آخر صف ثم ضع ما تجمعه هنا، أسحب باليمنى وأجمع باليسرى، بهذا الشكل، ستجد أن هذه لعبة جميلة تسليك حتى ينتهي والدك من العمل، هل تعلم اسم هذه اللعبة؟ "أسوف نيروت"²¹² كانت اللعبة متعبة شاقة مجهددة، وقفت على قدمي عدة ساعات أتحرّك من صف من الأوراق المكتوبة بأحرف عبرية إلى صف آخر حتى عشرة صفوف، وعندما تتجمع عشرة بترتيب تسلسلي أضعها في مكان محدد، بعضها عكس بعض، فهمت لاحقاً أن هذه اللعبة في الحقيقة هي تجميع لصفحات كتاب خرج من الطباعة، وهو رواية انتقام الآباء لكاتب يهودي اسمه

- يتسحاق تشامي تُشبهه العربي بطير متوحش ملتهب العينين.
جاء أبي بعد عدة ساعات عندما حان وقت "الفرصة" وهي فترة
- استراحة الغذاء التي تستمر نصف ساعة فقط، رفع ظهره المتعب من الجلوس إلى ماكينة خياطة الكتب طوال خمس ساعات ونصف من دون أي راحة، انتبه أبي إلى ما أقوم به من عمل، غضب وقال:
- ما هذا الذي تفعله؟ كف يدك عن هذا الورق اللعين.
- طلب مني الرجل ذو القبعة السوداء أن أقوم بهذا العمل، قلت بخوف وحيرة:
- ما كادَ والدي يلتفت حوله حتى سمع صوت المعلم سالم يقول بنبرة أمره:
- دعه يتدرب، ربما احتاج للعمل مبكراً مثل غيره من الأطفال العرب. تناولنا من زوادة الطعام التي أعدتها والدتي رغيفاً من الخبز محشواً بالبطاطة المقلية وزر من البندورة وحبّة من الخيار هي كل طعامنا ذلك اليوم، انكبَّ عدد من العمال العرب قريباً من جدار ساحة المصنع على طعامهم وقوفاً أو متكئين إلى مسند من الحجر، بعضهم لا يتجاوز الثانية عشرة من العمر، والبعض الآخر فتيات أو نساء في منتصف العمر، بينما جلس العمال اليهود إلى طعامهم حول طاولة في غرفة الطعام وكنت استرقت النظر إليها عند مروري بجوارها إلى الساحة، كل العمال اليهود كانوا مسؤولين، وإن كانوا أجراء، كانوا يلقون الأوامر علينا جميعاً، حتى اختلط الأمر عليّ واعتقدت أنهم جميعاً "معلمون وأصحاب العمل"، أما الأجراء فليس سوى نحن العرب، عرفت لاحقاً أن صاحب المصنع يهودي ألماني عجوز اسمه مناحيم،

كان يجلس في غرفة صغيرة بالطابق العلوي، طلب مني المعلم سالم أن أحمل إليه كوبا من الشاي دون سكر، حدجني العجوز من تحت نظارته الصغيرة وقبعته السوداء، وتناول مني الكوب دون أن ينبس ببنت شفة، كان أمامه حبتان من الزيتون وقطعة صغيرة من الجبن الأصفر وشرحة واحدة من المرتديلا، "ولحمنيا" (كسرة خبز) أشار بأصبعه إلي أن أخرج، كما أنه ينفض عنه حشرة حقيرة.

في تمام الساعة الرابعة توقف هدير الماكينات دفعة واحدة، نهض العمال متثاقين متعبين يفردون أجسادهم، جاء والدي الذي بان عليه التعب الشديد، بينما لم أكن أنا أفضل حالاً منه، وقبل أن تغادر المصنع جاء المعلم سالم وأعطاني ليرة ونصف، وقال لوالدي: كلما كانت لديه عطلة من المدرسة أحضره معك، فهو صبي نشيط، انتظرنا باص العودة رقم 27، قال لي والدي: هذا الباص الذي سنأخذه آت من بلدة قريبة اسمها عين كارم، لي صديق منها قضيت معه فترة من أهم فترات عمري، حولتني من بائع حليب بائس، إلى تاجر من أجل الوطن والحرية، ابتسمت فهذه عبارات مألوفة لدي، حكته لي جدتي دائماً عن سيرة والدي، فعاد إلي شعوري الذي اهتز وأنا أرى أبي في تلك الحالة أمام هذا المدعو سالم، شعرت بالفخر من جديد لاستعادة شعورنا معي منذ نعومة أظفاري عن والدي الغائب في سجون شتى، لأنه تاجر من أجل وطنه، وصلنا إلى منطقة قال فيها لي والدي: هذا شارع الملك جورج، سوف نزل هنا. ثم واصلنا سيراً على الأقدام في الاتجاه نفسه، قال لي: هذا شارع يافا وتلك سينما تصيرون التي فجرتها فاطمة البرناوي واختها إحسان ابنتي القدس السجيتين الآن، وقبل أن ننطفئ يساراً إلى تفرع آخر من الشارع، أشار أبي بيده إلى مبنى قديم، قال: هذا سجن

المسكوبية، قضيت فيه زمناً في أقبية التحقيق قبل أن أنقل إلى سجن بئر السبع. وصلنا إلى منطقة بدت لي لأول وهلة حديقة كبيرة، قال والدي: هذه مقبرة مامبلا "مأمن الله"، ثم أشار إلى قبر تفهضه الشقوق وتكسوه الأشواك، وقال: هذا قبر جدك، شهيد معركة البراق. في الطريق من عقبة المنزل قرب فندق النتردام، شاهدنا العم أبي رباح، الذي أغلق فُرنه وأصبح يعمل في مخبز للkek الإفرنجي قرب الشماعة، كان يحمل تحت إبطه قالبين من خبز البيرمان بينما يحث الخطى متلفحاً كوفيته البيضاء خجلاً ومطأطئاً الرأس عائداً إلى بيته.

زمره

كانت تجوب الشوارع وتطرق أبواب البيوت، تنهشها عيون المارة، ويأكل البعض لحمها بألسنتهم، وربما تعمد أحدهم لمسها أو كشف بعض سترها، هي لا تهون على الناس لأنها تعاني من وهن في الجسد يمنعها من الذود عن نفسها، لكنها بلا سند من أهل يُحشى بأسهم، وهي تشكو من فاقة وضيق حال، ولأنها كذلك فهي مختلفة، ولدت هكذا بارعة الجمال، دعجاء العيون، بهية الطلة، نحاسية السمرة، خيزرانة القد، لكنها من قوم ينظر أبناء المدينة إليهم بريية واحتقار، وكأنهم ليسوا من خلق الله، يميل الرجال من قومها إلى الكسل والاسترخاء، بينما تكذب نساؤهم وفتياتهم بأدنى أنواع العمل، وربما البائس منه والمشبوه، يسهل استغلالهن بسبب من حاجتهن وفقرهن، إلا سعادة، ولا يخلو الأمر من مثلها، كانت مثل لبوة شرسة، دفعته الحاجة أن تمد يدها للآخرين، فيعطيهما هذا ويمنعها ذاك، ويزجرها أقعس عن حانوته ويدعوها دنيء النفس إلى خفاء عن أعين الناس خلف ستار أو وراء باب، فتهرب وهي تنهال عليه بالشتائم واللعنات، وربما أوسعته ضرباً بنعلها البالي، صبية بعمر الورد، فارعة القامة، يتدلى شعرها على الأكتاف من تحت غطاء أبيض يغطي منتصف الرأس.

ارتعشت يده بعض الشيء، لكنه سرعان ما استولى على إرادة قلبه، فنظم إيقاعه وهواه، وامتنطى صهوة عقله، وجعله يتحكم بكل خليجة وفكرة وشعور، أمعن النظر في الأشياء أمامه، أسلاك وبعض مواد،

الخطأ الأول هنا هو الخطأ الأخير، قال لنفسه: لذا ركّز في عمله أشدّ تركيز، فكّر ودبر، لم يترك خطأ ولا لصدف نافذة يتسللان منها إلى تدبيره، غطى ما أنجز بساثر يلائم المكان، خطا نازلا درجات البيت بهدوء كعادته، دسّر وكبر وحذر "دستور يا الله"، زمت عجوز في الفناء الأعلى من الحوش شفيتها بامتعاض، وتمت بضع كلمات، ضمت امرأة ذات ثوب فضفاض ساقها عن لجن الغسيل في فسحة أسفل درج الحوش، تنحت أخرى بسرعة عن بوابة مجاورة، ودكّفت إلى منزلها، ألقى تحية الصباح، زمت العجوز شفيتها من جديد وتمتت الكلمات نفسها، أطلت إحدى صبايا الحوش من نافذة قريبة ابتسمت، خطف نظرة من لحظ عينيها، اكتفى بابتسامة فاترة.

وضعت سميرة زوجة الحاج رياض زوادة في خرج الحمار وتربعت على مسطبة في واجهة الحوش، حدّق بها ألقى تحية حارة، وبدت على وجهه ابتسامة واعدة، قُرعت أجراس كنيسة المسكوب، تساقطت على رأسها بعض حبات من الجميز، رفعه أحدهم على أكتافه من فوق سرير حديدي ذي طابقين، أمعن النظر من شقوق نافذة صغيرة محاطة بالقضبان والأسلاك، كان الصباح يبعث في الأفق أنفاسه الأولى، منذ ثلاثة أشهر لم يرَ خيوط الفجر، قضاها في غياهب زنانة موحشة، بسرعة أيها الصديق قبل أن يعود الحراس، قال الرجل ذو الكتف العريض، كانت تُحدّق في بوابة صغيرة خلف الحاجز الحديدي، جلست بسترها الداكنة وثوبها الأسود ومنديل رأسها الأبيض إلى جوار كنيسة المسكوب تحت سيفساء لوحة الآلام، مسيح المدينة في اللوحة يرزح على ركبتيه تحت الصليب، متكئاً على ظلال وجهه فوق الرماد، تُطوق رأسه الأشواك، بدت هدى جزءاً من لوحة الفسيفساء، كانت

شاردة الذهن، نحيلة الجسد، ظلالٌ من تعب أسود طوقت جفניה، وكشفت ثنايا الجفن عن عيون ساهرة، ربما غالب زمرد النوم من تعب في عتمة الرنزانة فنام، لكن النوم جفا أمه منذ غاب، ربما أرهقته قسوة التعذيب على مدار تسعين يوماً فسقط مغشياً عليه بعد أن خانت قواه، إلا أنها بقيت تكابد آلامها وتصارع وجعها، ولا تترك للوهن نافذة إلى إرادتها، شحنت عزيمتها بوعد اللقاء، كانت متحفزة لكل حركة عند البوابة الصغيرة، كلما فُتحت تصاعدت نبضات قلبها، واتسعت عيناها وتوهج الأمل في جنبات الروح، وكلما أوصدت على غير ما تمتت، شعرت بحزن وأسى كبيرين.

ثلاثة أشهر، بليلها ونهارها، بل بساعاتها وثنانيتها الطويلة قضتها هناك، كل يوم، قبل أن يتنفس الصبح تكون في ظل لوحة الآلام، تبقى حتى يستنشق النهار أنفاسه الأخيرة، تقف برهة على قدميها وقد أعياها انتظار نهار طويل، ثم تراودها رغبة في البقاء، هنا تحس أنها قريبة منه، ربما كان مستلقياً خلف هذا الجدار، لعله الآن يلوح لها بيده، يبتسم، يبكي، يئن أو يلم، لا شك أنه قريب في الجوار، تُمعن النظر في صف نوافذ عالية، في ضوء كشافات تُبهر العيون، تُحدق كأنها ترى بمنظار، قد يُطل من تلك النافذة العالية ذات الأسلاك الشائكة، يَنْفُضُ الناسُ إلى شأنهم، وتخلو الساحة إلا من بعض مركبات تمر بطيئة كأنها تدوس بطن زمن طري، تعاود التحديق بالبوابة الصغيرة، لعله هناك في غرفة قريبة، تُراه أوى إلى فراش من وحدة موحشة كي ينام، تكاد تشعر بأنفاسه الدافئة، تُراود نفسها للبقاء، يصرخ حارس من خلف حاجز أمام البوابة الكبيرة، يدهمها حراس يركبون البغال، يركلها أحدهم بقدمه من فوق الحصان، ترجع خطوة إلى الخلف، تلتصق بجدار

اللوحة، إنها على استعداد أن تمضي ما تبقى من عمر تحت فسيفساء الألم والعذاب، من أجل نظرة إلى عينيه أو لحظة تضمه فيها إلى صدرها. تعود أدراجها قريباً من أعلى عقبة المنزل، يُطلُّ تمثال للآم العذراء تشير بيدها نحو المدينة، ويخطف القمر بعضاً من ضوء نهار، تواصل سيرها نحو البيت، تُلقِي بنفسها على السرير، يتوسد الليل أضلاعها المتعبة، يأخذها الفكر إلى هناك تحت فسيفساء الآلام، تتقلب في فراشها، تُراه ينام على فراش أم تلسع الأرض جسده ببرودتها القاسية، تَمَتُّ لو تفرّد له أضلاع صدرها سريراً، وأن تجعل من جفني عينها غطاء. لا تقوى على الراحة وهو يبيت على برد اليابس، تنزع عنها الغطاء، تهبط إلى وجع الأرض، تَمُدُّ يدها إلى كوب الماء، تَتَغَشَّرُ منه، تُراه يأكل ويشرب، أم يمنعه الجلال الطعام والشراب، تُنحي الكوب عنها، تتمنى لو تعصر الروح وتقطع لحمها من أجله شرباً وغذاءً، تنساب صفحات الأيام، كان يعدو إلى حضنها مسرعاً هارباً من أقل مصدر خوف أو تهديد، حتى لو كان صياح الدجاج، تَمَتَّت لو هرب إلى حضنها من جديد، إلى عشه الأمين.

بسرعة قال الصديق قبل أن يعود الحراس: ما كاد زمرد يهم بالنزول عن أكتاف رجل ذي همة عالية، حتى أخذته عيونه المتحفزة بعض أمتار من بوابة الكنيسة، أمعن النظر، إنتظر، قال لصاحبه، رآها إلى يمين أمه، قلبٌ آخر في حنايا الصدر إلى اليمين تماماً، قريباً من فسيفساء الآلام، تجلسُ هي أيضاً هناك، تساقطت على رأسها بعض حبات من الجميز، فيما أطلت خصلات شعرها من تحت غطاء أبيض يغطي منتصف الرأس.

ما عاد أخي صابر يخشى جنيات الليل التي حدثني جدتي عنها قبل أن

تذهب للسكن إلى جوار الله، حدثتني كيف كادت الجنة تلتهم جسده بينما جعلت من أخي عادل شجرة مدت أغصانها إلى أسوار المدينة، أصبح صابر، شاباً يافعاً في بداية الثلاثين من عمره، أنهى دراسة التاريخ من جامعة بيروت العربية، لم يتزوج رغم إلحاح أمي وأبي، كانت سعدة جرحه المفتوح، كان شجاعاً عندما قال لوالدتي إنني أرغب في الزواج من سعدة، جُنَّ جنون والدتي، وبدا أن والدي يواجه صراعاً مريعاً، سَمِعْتُ ذات يوم يقول لأمي: ليس ذنب المسكينة أنها ولدت في تلك البيئة، لولا كلام الناس لما عارضتُ زواجه منها. لم أفهم لماذا تعتبر بيئة سعدة بيئة مرفوضة من أهل المدينة، لماذا يخشى والدي زواج صابر من إحدى فتيات تلك البيئة، تمنيت لو زرتها هناك، عندما يتحدثون عن مكان سكنها يهياً لك أنها تسكن في عالم آخر، بينما لا يبعد حي النور في باب حطة حيث تسكن سعدة عن بيتنا أكثر من خمس دقائق سيراً على الأقدام، قريباً من عقبة حب رمان وبرج اللقلق، أدركت لاحقاً أن والدي كان يتحدث عن بيئة تاريخية وليست جغرافية، ربما جغرافيا تاريخية، تُعبر عن ثقافة أخرى، الثقافة الأخرى هي التي تضع الجدران والحواجز بين الناس، أكثر مما تضعها الحدود، سألت أخي صابر ذات مرة:

- أين تسكن سعدة؟
- في قلبي، أجب، إنه أوسع من حيز الدنيا الذي لا تجد لها مكان فيه.

الحب والشعور بالانتماء أكبر صاهر للاختلاف، لا مكان فيه لحدود مهما كانت عازلة، العادات والتقاليد والايولوجيا والجغرافيا، حتى التاريخ أو اللغة، إنه أقوى من أن يُأسر أو يُحد، يكفي أن تشعر بالحب

والانتباء إلى شخص أو فكرة أو مكان حتى تجد نفسك تترك كل شيء، بل تضحي بكل شيء من أجله.

مع ذلك بدا أن زواج صابر من سعدة مستحيلاً، سألت أمي: لماذا ترفضين زواج صابر من سعدة؟ أجابت بهدوء، لكن باقتضاب يُقفل باب أسئلة أخرى: عاداتهم غير عاداتنا، سألتها: من هم؟ قالت أهلها. ونظرت إليّ بامتعاض، توقفت عن مزيد من السؤال حتى لا أُثير حقّ أمي عليّ، ثم سألت أخي صابر: ما هي العادات؟ قال هي الآخرين فينا. مع الوقت تعلم صابر كما بد لي أن يهرب من مواجهة الآخرين فيه، فترك لنفسه العنان سهراً وهواً في أحد فنادق شارع الزهرة، ذات مساء سمعت أمي تشكي أمر صابر لوالدي، وترجوه أن يفعل شيئاً من أجله، قالت: افعل شيئاً حتى لا يضيع الولد. أصيب والدي في تلك الليلة بذبحة صدرية كادت تودي بحياته من شدة حزنه على صابر، حتى أصبحت أمي تخفي كثيراً من أخبار أخي عن والدي حتى لا تعاوده "الجلطة" كما قالت، ثم كثفت جهداً كبيراً لإقناع صابر بالزواج من نجوى ابنة العم أبي رباح، التي كان صابر يميل إليها في صباه، لكنه أبى الزواج منها، بل وربما عزف عن فكرة الزواج أيضاً.

- أنت لا تعرف شيئاً، قال المحقق، لقد عدنا إلى أرضنا بعد ثلاثة آلاف عام، كنا هنا دائماً، إلا بضع سنوات، دعك من هذه المجنونة عالة
- الآثار كاثلين كينون²¹³، وآرثر كوستلر²¹⁴، وغيرهما من

٢١٣ عالمة آثار اعلنت أنها حفرت وبحثت في طبقات ومواقع مختلفة في القدس، لكنها لم تجد أي أثر للهيكل أو ما يدل على وجود تاريخي لليهود في القدس

٢١٤ كاتب يهودي صاحب رواية جمهورية الخزر، له نظرية تفيد أن دولة يهودا لم تكن في فلسطين ابدا

اللاسامين، تاريخنا هنا على هذه الأرض لا جدال فيه، ترويه قصص أنبيائنا، ربما أنك درست التاريخ، لكنك لا تعرف شيئاً عن الجغرافيا التوراتية، جبل البيت لنا، حتى كعب الأحبار²¹⁵ لعنة موسى عليه أقر بذلك.

- رضي الله عن كعب، أجاب صابر، بعض من تدعوهم لا ساميين يهود ملتزمون بيهوديتهم أكثر مما تفعل أنت، سقطت أوراق التوت عن حكايتك الأسطورة، أنت طارئ على هذا المكان، تخلط بعمد بين أشياء لا واصل بينها لتصنع منها نسيجا يخدم روايتك، التاريخ بالنسبة لي يقوم على الإضافة المبدعة، بينما يقوم عندك على الشطب والهدم وإلغاء الآخر، ألا ترى ما تقومون به من هدم لتاريخ المدينة أول إبداع لكم فيها كان إدخال الجرافات وهدم حي المغاربة ورباط أبو مدين، وما زالت جرافاتكم تقتلع البيوت في كل مكان، وما زلتم تغلقون دور العلم وتسرقون الوثائق والمخطوطات كما فعلتم بالتنكرية، تريدون أن تغيروا هوية المدينة، تسعون إلى تهويدها قصراً، أنت لا تملك ثقافة لتاريخ المكان، الفرق بيني وبينك أن ثقافتي وتاريخي ليسا مستجدين، بل دائمان ومستمران، أما ثقافتك فهي نثار من أماكن شتى، وتاريخك

ليس سوى إلباس الوهم ثوب الحقيقة، بثقافتي وإيماني أدرك أن القدس كونية المكانة والثقافة والتاريخ، بينما أنت تسعى لحبسها في حدّ سجنك وثقافتك وعنصريتك الكريمة، إن أعضبك التاريخ الذي يحلو لك أن

٢١٥ هو كعب بن ماتع الحميري، من يهود اليمن، أسلم بعد أن أيقن من نبوة سيدنا محمد لما وجده من صفاته في التوراة، ولازم الخليفة عمر ودخل معه إلى القدس، للبعض موقف من تفسيره لبعض صور القرآن

تمحو من صفحاته ألفي عام، فعليك بالأنثروبولوجيا وعلوم الإنسان، لقد جئتم بالناس من شتات الدنيا وفكاك القوميات، لماذا لم تعترف أن أعرق جامعات العالم هارفارد والسوريون وغيرهما قد كُفّت عن اعتماد توراتكم الحالية مصدراً للتاريخ، ليس في الجغرافيا ما هو توراتي، أنت تتحدث بحق القوة، وليس بقوة الحق، ستزول القوة يوماً وسيبقى الحق، نحن فسيفساء المكان، لوحة الآلام والأمل، ليس من أثر ولا حجر ولا سطر في رقاع لكم فوق هذا التراب ولا تحته، وليس في بطن المدى من الأيام ما يعطي روايتك حقَّ طرد الآخر والحلول مكانه، "عابرون أنتم"، وإن طُردتُ مقابل نظمها من جنة نوبل²¹⁶، يعقوب منا وإن شوهته الحرب.

- هل تظن أن عبوتك القاتلة التي جهزتها من بعض أسلاك وكبريت ستهزمنا، أنت واهم، ضعوا على رأسه الكيس، خذوه واشبحوه حتى تتصلب عظامه، وتتشنج شرايينه، وتتجمد أفكاره اللعينة مع دمائهِ الوسخة ورائحة هذا الكيس النتن، قال المحقق. وضع يده على بلاطة ذات لون قرمزي مدببة، تحسسها جيداً، ارتصفت جنباً إلى جنب على مدى طرقات المدينة وحاراتها، بأحجامها المختلفة وألوانها المتعددة، يميزها واحدة عن أخرى، وإن بدا أحياناً كثير من التشابه بينها، محدبة تماهي تقوس بطن الأقدام وهي تلامسها، تربطه والأصحاب معها رفقة وألفة، كانوا يسمونها تروس الأرض، كانت دائماً جزءاً من قانون اللهو واللعب في عقبة شداد والمالوية والبسطامي وباب حطة، يعرفها بلاطة بلاطة، جعل بعضها مساند للعبة "الطقة

٢١٦ من قصيدة لمحمود درويش يقول فيها أن اليهود في فلسطين عابرون بين الكلمات العابرة

والجري"، وبعضها الآخر زوايا وحفرًا للجلول، وغيرها مخابئ لأشياء صغيرة، منذ أيام انتشرت في أنحاء المدينة فرق مدربة على خلع بلاط المدينة، خلعوا ثوب الأرض الجميل في البلدة القديمة، تركوها عارية مدة من الزمن، تنن خجلة تحت أقدام المارة، سرقوا ثوبها وألبسوه رداءً لأرضية متحف يهودي في تلة بعيدة، مدَّ أحدهم يده إلى ثوب سعدة، تعتمد أن يكشف عن سترها، "كشف الله ستر أمك"، صرخت بوجهه، وقذفته بفردة نعلها البالي، نهشتها العيون وأكلت لحمها، مسدت بيدها على طول ثوبها الطويل، فردته، جلست على التراب قريباً من مدرسة القادسية، سترت بثوبها المفرد عري الأرض، زمت شفيتها، أخذت تراقب فتيات القادسية بمراييلهن الزرقاء المرقطة الزاهية وحقائبهن المدرسية، هزّت رأسها بحسرة، شدّت غطاءً أبيض إلى منتصف رأسها، ومدّت يدها للمارة على الطريق.

رفض صابر تعليم مادة المدينيات في إحدى مدارس البلدية، رأى أنها تسطو على التاريخ في وضح النهار، لذا أقبل من عمله في المدرسة العمرية، وعمل في أحد الفنادق الإسرائيلية في بيت فجان، أخبرني أبي أنها تقع على أراضي عين كارم، يصعب أن تُحدد توجهات أخي صابر أو تتوقع أفعاله، تراه نافراً متقلب المزاج، رافضاً، مختلفاً، أو هادئاً منزوياً، وصل إلى مسامع أمي من نفس الجاره التي تأتي بالأخبار من ابنها بائع اللوتو، قرب البريد أول شارع صلاح الدين، أن أخي صابر أصبح يتناول الكحول، ويرافق مومساً يهودية اسمها راحيل، طلبت الجارة من أمي أن لا تخبر صابر عن مصدر معلوماتها، اشترى أخي صابر دراجة نارية، الأمر الذي أزعج والدي ووالدي، وكاد والدي يتعارك معه بسبب هذا الأمر. قضت العمة فاطمة ليلة كاملة إلى جانب

صابر، فهي رغم انطوائها على نفسها، كما يقول زوج عمتي زيد، تحضر وعياً وتعاطفاً مع كل صاحب شكوى أو بلاء، بدا أن أخي صابر يُدرك ما تود عمتي فاطمة أن تقوله من دون أن تنبس ببنت شفة، قال بصوت عالٍ، اطمئني لن تكوني يا عمتي إلا مرفوعة الرأس مني. دعت أُمي الله أن يهديه ويبعد عنه أولاد الحرام وأضاف جدي وبنات الحرام أيضاً، بدا أخي صابر للكثيرين شاباً عابثاً، رغم قلبه الحنون وشهامته، كان يبكي من أجل متسول لا يجد طعاماً، وربما أعطاه ما يملك من مال أو طعام، كان رفضُ العائلة زواجه من سعدة أكثر ما كسر قلبه وملاه حسرة ولوعة، كما سمعته مرة يقول لعمتي فاطمة من دون أن تحجب، لقَّبه أهل القدس "زمرّد"، أن تحمل لقباً يطلقه الناس عليك مهما بدا غريباً يعني أنهم أضافوا إلى اسمك وربما إلى شخصيتك تميزاً جديداً، لا تطلق الألقاب على مجهول لا يعني الناس أمره، سواء أكان اللقب أو الكنية ذماً أم مديحاً كما قال لي ذات مرة، كان صابر يتكَبَّبُ بقلادةٍ من زمرّد قرمزيٍّ لامع.

قالت جارتنا والدة بائع اللوتو لأُمي إن صابر لا يكف عن صحبة مومستين يهوديتين، بدت الكلمات غريبة على أذني، لكنني فهمت أنها تعني أمراً سيئاً جداً، لأن أُمي شهقت وضربت على صدرها، وقالت: الله يعفينا ويعفيه. وأضافت: "استري علينا يا أم فلان"، قالت المرأة إن ابنها قال لها إن المومستين تجوبان شوارع القدس يومياً، وتنتقلان بين المقاهي العربية، تلقاها أحياناً في مقهى بلاط الرشيد شارع السلطان سليمان، وأحياناً أخرى في قهوة الغاوي خلف البريد في باب الساهرة، وربما ذهبنا إلى قهوة مغيبو في حارة السعدية، كأنهما مكلفتان بتدمير أخلاق شباب القدس، كثيراً ما شوهدت راحيل تركب خلف صابر

على الدراجة النارية، لذا أصبح الناس يتوجسون منه، وقاطعه الكثيرون منهم، ولولا الاحترام الذي يحظى به والدي وباقي أفراد أسرتنا لقاطعه كل من في المدينة، لم يكن صابر يعبأ بكلام الناس، كان من أوائل أبناء المدينة الذين تخطوا حدّها الفاصل للعمل في أحد الفنادق الكبيرة هناك. أزالّت البلدية المصاييح المربعة العسكرية كاكية اللون عن عهد مضى، وبدلتها بمصاييح فضية اللون تتدلّى منها لمبات كبيرة، استمرت شركة كهرباء القدس العربية تمّدّ المدينة وعدداً من مدن الضفة الغربية بالكهرباء، لكن بلدية الاحتلال كانت لها مآرب أخرى من هذا المشروع، فوزعت الإنارة في أحياء محدّدة، أرادت من خلالها أن تُطل على ليل المدينة المليء بالأسرار، أراد الإسرائيليون أن يؤمنوا طريقاً تحرسه العيون على مدار الساعة لحائط البراق الذي أصبحوا يسمونه حائط المبكى.

أغلقت والدي غرفتها وبكت حتى عاد والدي، كان لا بدّ من إخباره أن صابر استأجر بيت مستقلاً له في حوش أبو فرحة، حاولت أمي ثنيه عن رغبته في الاستقلال، لكنها لم تفلح، كانت تقارن بينه وبين شقيقه الأكبر عادل الذي كان مطيعاً، كاد يشبه أباه عمر بكل شيء، وكانت تتحسر كلما تحدثت عن أي منهما، لأن الحرب الأولى أخذت منها بكرّها وتكاد الحرب الثانية تفقدها آخر، كان الجميع قلقاً على صابر، شيء ما في داخل والدي في المدة الأخيرة جعله يغير سلوكه تجاه أخي صابر، فأصبح يعامله باحترام وحبٍّ شديدين، بدا أبي أقل قلقاً من والدي وجدتي عليه، لذا شجعه على الاستقلال، بل ودفع عنه أجره عام كامل لأبي مسلم الحرباوي صاحب البيت الذي استأجره صابر، رغم ضيق سعة اليد لدى أبي، لم تطمئن أمي لفكرة الانفصال إلا عندما علمت

أن البيت الذي سوف يسكنه يجاوره الحاج رياض، بائع الكاز وزوجته سميرة الصديقة المقربة من العائلة منذ ما قبل النكبة.

قال أبو مُسْلَمٌ لصابر عندما سلمه مفتاح البيت:

- ستعبر إلى سكن طيب قديم مبارك أيها الجار الجديد. رغم كل ما قاله الناس في حقك، أنا لم أبال، لأنني أعرف قَدْرَ والدك وعائلتك، وعدا ذلك فإن لي خبرة بالرجال، ما إن أنظر إلى عيني الرجل حتى أدرك قَدْرَه، إني أرى فيك روح جدك رحمه الله، على أي حال، هاك مفتاح البيت، ليس عليك إلا التخلص من دوشك إنجليزي قديم متهرئ في الغرفة الكبيرة، نحن لا نحتاجه، كان قد أدخله الدرك الإنجليزي عنوة إلى الغرفة منذ زمن بعيد، عندما جعلوا منها نقطة مراقبة على طرقات الحي، عليك أن تكسره إلى قطع صغيرة فلا يمكن إخراجه من بوابة البيت الضيقة، كان الدرك من الإنجليز رفعوه بحبال من على السطح عندما أدخلوه إلى البيت.

- عليك أن تربطها من الأسفل حتى الأعلى بحبل غليظ، ولا بد من لفها ببطانية من كافة الجهات، حتى لا ترتطم بالجدار، قال أبو مُسْلَمٌ لكبير الحمالين بينما كان يشرف على إخراج الدوشك القديم الذي كسره صابر إلى قطع صغيرة ويتابع إدخال العفش الإفرنجي الحديث الذي أحضره صابر.

أجاب أبو فايز كبير الحمالين:

- المشكلة بالثلاجة وطقم الكنب، لا يمكن إدخالهما من بوابة هذا الدهليز الضيق، أما التلفزيون فربما تمكنا من إدخاله من دون حافظة الكرتون الكبيرة.

- ليس سوى أن ترفع هذه الأشياء الغربية من على السطح

- بحبال غليظة، قال أبو مسلم وأدار ظهره لصابر الذي كان يخرج بأخر قطع الدوشك البالي، وتابع وهو يرنو بفكره نحو أزمان خلت:
- هكذا هي القدس لا تدخلها الحضارة الغربية إلا عنوة، ولا تخرج منها إلا حُطاما لا يبقى منها سوى أثر هنا أو أثر هناك.
 - تجمهر عدد من أبناء الحي أمام بيت أخي صابر لمشاهدة حدث فريد لم يسبق أن رأوه من قبل، لقد اشترى صابر ثلاجة كبيرة وطقماً من الكنب الفاخر، وتلفزيوناً، فرح والذي كثيراً بأخي صابر وقال: والله الي طلع منو ما طلع من حدا. أما أمي فقالت: الله يسترنا من المخبا والي جاي.
 - ارفع ببطء، قال أبو فايز.
 - قف ضربت بالحيط، ارفع بس، خدشت الثلاجة، ارفع من جديد، نعم هكذا.
 - يكفي أمسكتها، قال حمال آخر تدلى نصف جسده من أعلى سطح البيت، حتى خشينا أن يسقط من هناك، بينما أمسك به حمالان آخران بالحبال، نظر عدد من أبناء الحي إلى الأعلى، تعلقت قلوبهم بهذا الصندوق الكبير أبيض اللون الذي يسحبه أولئك الرجال الثلاثة إلى السطح، أطلت معظم نساء الحي من النوافذ ليرقبن المشهد الفريد.
 - من أين له ثمن هذه الأشياء؟ سألت أم مصطفى جارتها المطلة من النافذة الأخرى.
 - طول عمره صبي مدلل، حتى بعد تخرجه من الجامعة لم يعمل لمساعدة والده، قالت أم رباح، بنبرة لا تخلو من غيرة ربما كانت بسبب عزوفه عن الزواج من ابنتها نجوى.
 - "ليش إنتو ما بتعرفوا إنه صابر الي صار اسمه زمرد يعمل الآن في فندق عند اليهود وبحصل إشي وشويات" في كل شهر، ولا

بتفكري لساه عايش على الملايم تاعت بيع الحليب، أي السنسال "شيتو" بسوى ألف ليره، قالت نعمة بلهجتها المقدسية الساحرة. بيت أخي صابر الذي كان منبوذاً ومعزولاً بات يعج بالزوار، وأصبحت النساء يدعين أنهم يزرن أم عادل وليس بيت صابر، قضيت وعدداً من أطفال الحي وبعض النسوة المساء في بيت أخي، الذي انتقلت إليه أُمِّي مدة من الزمن، استمتعنا بمشاهدة عجيبة التلفزيون، جلسنا على الأرض مذهولين، أمام هذا الصندوق الصغير الذي يتحرك داخله الناس ويتكلمون، "شي صور متحركة وشي صور ثابتة، ورؤساء وملوك، وأخبار وأغاني، وجبال وأنهار، إشي باخد العقل"، قالت أم مصطفى لزوجها.

ورَّعت أُمِّي علينا شراب الليمون المثلج، وخصتني بكوب آخر وقطفاً من العنب نتشه الأطفال من يدي، وبين الفينة والفينة كانت أُمِّي تقول مفتخرة لضيفاتها:

- "وضعت الشراب بس ساعتين بالثلاجة صار زي الثلج".
- ثم عرضت على جاراتها معاينة الثلاجة وطقم الكنب، الذي اكتظت به الغرفة وبدا نشازاً في فنائها لا يمت للمكان بصله، فتحت أُمِّي باباً صغيراً أعلى الثلاجة، وتابعت:
- هذه تسمى فريزر، هنا يمكن وضع اللحم والخضار والفواكه لأسابيع من دون أن تتلف.
- ثم فتحت بوابة كبيرة أسفل الأخرى، قالت:
- هنا مكان الجبنة، هنا للماء، "شوفوا" هذا طقم كنبات إيطالي.
- زمت أم مصطفى شفيتها بامتعاظ لا يخلو من استغراب ونفور، وحسد أيضاً.

تعود أهل الحي الذهاب إلى بيت أخي زُمرّد كما يطيب لهم أن يسموه لمشاهدة التلفزيون، بدءاً من الساعة الخامسة مساءً، حتى العجوز أبو خضر، جار أخي الذي بالكاد كان يرى بعينه، كان يجلس ملتصقاً بالصندوق العجيب، لا تتعد عيناه سوى بضعة سنتمترات، أشدُّ متعة له كانت أن يستمتع بمشاهدة سميرة توفيق. بدأت أمي تمتعض من الزوار، وأخذت تُغلظ معاملة الأطفال وتتعمد ذلك أمام أمهاتهن، عليهن مجردن ولا يعدن بأطفالهن مجدداً، مع الوقت ورغم إلحاح الأطفال الذين لم يأبهوا بمعاملة أمي القاسية لهم، قلَّ عدد الحاضرين إلى بيت أخي زمرّد الذي لم يبدِ امتعاضاً قط مثل أمي، بل بدا فرحاً بالأطفال، خاصة وهم يطلقون الضحكات فرحاً واستمتاعاً بمشاهدة التلفزيون، لكن كثيراً من رجال الحي باتوا يخشون أن يطال أبناءهم شيئاً من سمعة أخي صابر، وربما راودتهم وساوس تتعلق بنسائهم وبناتهم، الأمر الذي أدى تدريجياً إلى توقف الجميع عن الحضور إلى بيت أخي صابر، خاصة بعد أن اشترى أبو نافذ من مقهى جابر تلفزيوناً كبيراً، أقمنا وأمي وبعض إخوتي وأخواتي ما يزيد عن شهر في بيت أخي، حتى تدمر والدي من غيابنا فعدنا إلى بيتنا، سمعت من أمي أن تلفزيون أخي صابر سبب الكثير من المشاكل بين نساء الحي وأزواجهن، وقالت إن أم مصطفى طلبت أن يشتري لها زوجها تلفزيوناً، وإنها قالت له غاضبة:

- "شو هو صابر ابن بائع الحليب أحسن منك"، فأجابها:
- إنه يعمل في فندق إسرائيلي، من أين لي مثل دخله الشهري؟
- روح اعمل "عندهم" مثله، لا عيب ولا حرام، الناس بدها تعيش.

بينما أجاها أبو مصطفى بغضب:

- صلي على النبي يا مرة واقصري الشر، لعنة الله على التلفزيون والثلاجة وعلى صابر.

نقلت أُمي هذا الحديث الذي دار بين أم مصطفى وزوجها إلى والدي وتمتت: لسه الله يسترنا من المخبا.

أصبح مقهى جابر قرب باب الساهرة أهم أماكن اللهو والسهر لأهل الحي والأحياء المجاورة لمشاهدة التلفزيون، الأمر الذي أثار حفيظة خطيب الجمعة، الذي وعظ الناس بالابتعاد عن هذا الشيطان المدعو تلفزيون، خاصة أن أعداد المصلين في صلوات المغرب والعشاء والفجر قد تناقصت، وإن تجنب بمهارة الإساءة لرواد المقهى أو مالكة العم أبي نافذ.

غاب أخي زمرد عدة أيام عن بيتنا، وكان منذ استقل في بيته الخاص متعوداً أن يتناول عشاء معنا يومياً، ثم يغادر إلى حيث لا يعلم أحد قبل أن يعود إلى بيته، طلبت مني والدتي أن أذهب حيث يسكن، وأن أطلب منه الحضور إليها، كانت تلك المرة الأولى التي يُطلب مني عمل بهذا المستوى، الذهاب من حيناً في الشيخ ريجان إلى الحي المجاور عقبة شداد وحدي من دون رفقة من أحد، جهّزت نفسي فقد بدا أن المهمة العظيمة التي كلفتني بها أُمي تتطلب استعداداً لا يليق إلا بالفتيان، دلفت من البوابة الصغيرة إلى زقاق مُعتم وضيق لكنه طويل، عبرته مع أُمي عشرات المرات، لكن لشدة خوفي بدا كأنني أعبره لأول مرة، كنتُ أرتعد خوفاً وحمدت الله أنني كنت قد حفظتُ بالأمس، "قل هو الله أحد"، وقرأتها في سري عدة مرات حتى تجاوزت الزقاق إلى ممر نحو اليسار، كانت تقف هناك امرأة سمينة أمام بوابة خشبية صغيرة يحتاج

اليفع إن أراد العبور منها أن ينحني إجباراً، كانت المرأة قد عضت بأسنانها الغليظة على عدد من ملاقط خشبية صغيرة مثل التي تثبت أمني بها الغسيل، وتحمل على رأسها لجن غسيل كبيراً، كانت أنفاسها تترجر، حتى اعتقدت أنها تترجرني لسبب لا أعلمه، لذا حدثت عن طريقها حتى تخطتني.

عند منتصف فناء واسع في الحوش، جلست امرأة أخرى أمام بوابة بيت معتم وقد شممت عن ساعديها، وفحجت رجليها عن لقان من الفخار، كانت تدعك داخله قطعة من الكشك بهاء فاتر، عندما سمعت وقع أقدامي صممت رجليها، وشدت اليها غطاء رأسها، وما إن دقت بالعابر إلى الممر واطمأنت، حتى عادت إلى تفحيج رجليها واسترخت من جديد، انعطفت إلى اليمين وتحفرت لصعود درج طويل، ومن دون وعي مني دسنت ذنب هرة كانت قد انزوت أسفل الدرج لترتوي من بقايا ماء في حفرة صغيرة، مع صراخ الهرة لم أدر كيف صعدت الدرج إلى ساحة الفناء العلوي للحوش، كان هناك عدد من الفتيات الصغيرات، يلهون بنط الحبل، ويلعبن "شبرا قمرا شمس نجوم"، ضحككن من هلهي وهروبي من الهرة الصغيرة، نظرت إليهن بابتسام رغم ما أظهرن من سخرية تجاه حالي.

تابعت سيري إلى غرفة أخي، في أعلى الدرج من الساحة العليا لحوش أبي فرحة، حيث جلست عجوز، تحرس أعواد الملوخية المفروشة على حصيرة إلى جوار الدرج، حتى لا ينثرها أو يدوسها الصغار، وما إن رأته حتى صرخت من دون أن تكلف نفسها التدقيق في وجهي، اذهب من هنا وإلا كسرت رجليك. إصفر وجهي وتسارعت نبضات قلبي وتسممت مكاني لا ادري ماذا أفعل، هل أعدو من أمامها مسرعاً

إلى بيت أخي أعلى الدرجات، أم أعود أدراجي إلى أمي خائباً فاشلاً في المهمة الأولى التي كلفتني بها، بقيت على ارتباكي وحيرتي برهة من زمن، حتى صاحت مرة أخرى فسمعتها المرأة التي تصعد إلى السطح بغسيلها، وقالت وهي تقاوم أنفاسها المتعبة: دعيه يا حَجَّة، إنه أخو صابر. حدَّقت العجوز في وجهي وحدجتني بنظرة غريبة، ثم أراحت نفسها جانباً وفتحت لي طريق الدرج إلى أعلى، ولا أدري لماذا قالت بصوت عالٍ بعد أن أشاحت وجهها عني: "يلعن صابر ويومه"، فضَحِكْتُ بصوت مرتفع من شتيمتها المرأة التي تدعك الكشك في أسفل الحوش، احترتُ في فهم ما يدور حولي، وغالبت حيرتي وخوفي وتخطَّيتُ العجوز مسرعاً إلى أعلى، شدَّما كان ذهولي عندما طرقت الباب الخشبي المتهالك لغرفة أخي صابر، فإذا بسعدة ترفع شالاً أبيض يغطي نصف رأسها تهَمُّ بالخروج، ارتبكت سعدة للحظة، لكنها قالت بهدوء: صابر ليس هنا، ربما يعود إلى بيته غداً، وانحنت وقبلت وجعتي بحنان، وجاءت ببعض الفواكه والحلويات من ثلاجة أخي وأطعمتني بيدها، كانت فتاة تفيض حباً وحناناً، الأمر الذي جعلني لا أفهم لماذا لا تقبلها أمي زوجة لأخي صابر، قلت:

- طلبت مني أمي أن أطلب من أخي صابر أن يذهب إليها.
- إذاً عليك أن تعود لأملك وأن تخبرها أنك لم تجده في البيت.
- ثم نظرت إليّ برجاء، قالت:
- هل تشاركني سرّاً لا يبوح كلانا به إلى أحد. قلت من فوري:
- أجل.
- وقد تلمست لذة أن يكون بيني وبين أحد سر لا يطلع عليه الآخرون، قالت:

- لا تخبر أحداً أنك رأيتني هنا.
- أجبث وقد تبادر إلى ذهني أنها تطلب مني ما لم اعود على فعله.
- إن أبي قال لي إن من يكذب يذهب إلى النار.
- هذا صحيح، لذا عليك أن لا تكذب إن سألتك أمك عني، لكنها ستسألك عن أخيك صابر فقط.

بدا لي ما قالته وجيهاً، عُدت إلى أمي وقلت إنني لم أجد أخي في بيته، وأضفت من دون وعي مني: وسعدة أيضا ليست هناك. من سعدة؟ قالت أمي باستغراب، أعدت من ورائها بارتباك: من سعدة؟ شهقت عمتي فاطمة، وهي تشرب رشفة ماء من دلو البئر، فهرعت إليها أمي وربتت على ظهرها حتى استعادت أنفاسها، لشدما لمت نفسي على ذكر سعدة من دون مبرر، وحمدت الله أن خلصني من هذا الموقف الذي كدت أفشي فيه أول سرٍ أغلقتُ عليه داخل أضلاع صدري.

بائع اللوتو مقابل البريد في أول شارع صلاح الدين أخبر أبي أنه رأى أخي صابر آخر مرة صباح يوم السبت الماضي، كانت راحيل، فتاة المقاهي، تركب خلفه على الدراجة النارية، كما قال، عادَ أبي غاضباً حزيناً، علمنا لاحقاً من المحامي أن أخي زمرد كان قد دعا راحيل لقضاء يوم مشمس جميل في البحر الميت، قال لها: ربما من الأفضل أن تستأجري سيارة من القدس الغربية، ولناخذ معنا عدة الشوي والمشروبات، كانت الطريق إلى البحر الميت لا تخلو من صعوبات وكانت مقتصرة على اليهود وقليل من العرب، بسبب كثرة الحواجز العسكرية التي تنتشر على الطريق باعتبار البحر الميت منطقة عسكرية، حتى أنها تخلو تماماً من المتنزهين بعد الساعة الرابعة عصراً، ويلقى العرب المتجهون إلى هذه المنطقة صعوبات كبيرة، وربما قضوا ساعات

أمام حواجز التفتيش التي كانت تفتش سياراتهم بل وملابسهم، راحيل الواثقة من نفسها وجدت في صابر أو زمرد صيداً سهلاً يمكنها من الاطلاع على أخبار المدينة ونقلها لضابط المخابرات في المسكوبية يومياً. استأجرت السيارة المطلوبة وعانقت صابر وهو خلف مقودها وقبلته على مرأى من المارة، هذا ما قاله بائع اللوتو لأبي وسمعتة يقوله لأمي التي ضربت على صدرها واستعازت بالله من الشيطان الرجيم: عرفنا بعدها من المحامي طبقاً لإفادة راحيل أنهما انطلقا بسرعة إلى البحر ونزلا عند منطقة الفشخة، حيث تجمع عدد من الرجال والنساء الإسرائيليين بمايوهات السباحة في حلقة رقص، سرعان ما انضم إليها زمرد وراحيل، بدا زمرد واحداً منهم بشعره الطويل وشاربه الحليق، جذبته إليها بخيلاء، عانقته وقبلته ولا مست كل جزء في جسده، ثم انطلقا معاً إلى البحر، تعبت راحيل، استلقت على الأرض إلى جانب زمرد، الذي تسلل من جوارها إلى حقل من قصب السكر، الذي ارتفعت سيقانه حتى غطت رأس زمرد.

سار إلى نقطة محددة كان يسترشد إليها بورقة أمسكها بيده، انحنى، أزاح بعض أعشاب وبقايا قصب ملقى على الأرض، حفر مدى نصف متر في الأرض، وسّع الحفرة، أخرج كيساً ثقيلاً سار به إلى السيارة، أخفاه في صندوقها الخلفي، عاد واستلقى إلى جوار راحيل، تذكر النداء من صوت فلسطين صوت الثورة الفلسطينية، من شجرة الزيتون المباركة إلى دراجة البحر، الرسول أمين والبحر مالح.

تناول وراحيل طعام الغداء، ضحكا ولعبا ورقصا، ثم ركبا السيارة عائدين إلى القدس، عبرا كل الحواجز العسكرية من دون صعوبة ولا تفتيش، وعندما وصلا إلى القدس، قال زمرد لراحيل: أريد أن أختم

هذا اليوم بدعوتك للعشاء في مطعم فندق الملك داود، نسهل على أنعام موسيقى الروك الرائعة، انتهت السهرة قرابة الساعة الثانية عشرة ليلاً، قال: دعينا نعيد السيارة إلى الشركة، وكان يعرف أن الشركة المذكورة مغلقة، لكنه ضمّر أمراً، قالت: أبقِ السيارة معك حتى الصباح، نلتقي ونعيدها إلى الشركة لأنها مغلقة الآن، ترك زمرد راحيل ومضى إلى باب الأسباط، ركن السيارة إلى جانب مقبرة باب الرحمة، حمل الكيس، سار به إلى عقبة شداد، سلمه إلى جاره أبي هشام في حوش أبو فرحة. أيام قليلة وأفادت المدينة على صوت انفجار كبير في سوق محني يودا، سقط العديد من الصهاينة قتلى وجرحى، وسقط معهم الصمت والاستكانة اللذان بدأ على المدينة بعد سنة من الاحتلال.

نظرت إلى السماء الصافية، كان سرب من طيور غريبة يفترّ هارباً فرعاً لشتات من الوجها، بينما امتدت قصبات النور إلى أفاريز القلب، وحلق الرخ والبلت فوق هامة الزيتون، استعادت المدينة هويتها.

وصل صابر إلى حوش أبو فرحة بعد الانفجار بقليل، ألقى التحية على سميرة التي جلست على قرص الدرج تنظر إلى البعيد، وما زال بخار قدر العكوب يلوح أمام عينيها، ألقى تحية الصباح، ابتسم، نظرت سميرة إلى وجهه، كان نضراً مضيئاً بشكل لافت لأول مرة، ابتسمت له، صعد درجات الدهليز الضيق إلى حجرة بيته الوحيدة، خلع عقد الزمرد الذي طوق رقبتة، ألقى به إلى سلة بجوار السرير، ونام.

اقتحم الجند بيت أخي صابر، حطموا الأثاث الجديد والتلفزيون، نبشوا كل شيء، حتى أنهم حفروا جوانب من الجدران، ونزعوا خلفية الثلاجة وما أبقوا شيئاً إلا فتشوه، ثم عصبوا عيني أخي صابر كما قالت سميرة واقنادوه وهم ينهالون عليه ضرباً، بكت أمي بكاءً شديداً

وتنقلت من سجن إلى سجن ومن مركز توقيف إلى آخر بحثاً عنه، بما في ذلك مكاتب الصليب الأحمر، إلا أن أحداً لم يدها إلى مكانه، ذات صباح طرق أحدهم باب بيتنا، كان أحد شباب القدس الذي أطلق سراحه من سجن المسكوبية، أخبر أمي أن أخي صابر في ذلك السجن، وأنه سوف يقدم إلى جلسة محاكمة يوم الاثنين المقبل، أي بعد أيام ثلاثة، ويمكنها رؤيته وهو في الطريق إلى قاعة المحكمة التي لا تبعد عن السجن سوى مسافة قصيرة، في اليوم المذكور رافقت أمي إلى سجن المسكوبية، صعدنا عقبة المنزل سيراً على الأقدام، نفس الطريق التي رافقت أبي فيها عندما عدنا من العمل وزرنا قبر جدي في مامبلا، عند أعلى التلة يمينا من عمارة طنوس التي كان بها مقهى أوروبا الشهير كما قال لي والدي، انحرفنا إلى اليمين ومن جوار مبنى البلدية في الطريق إلى المحكمة ثم إلى المسكوبية، منعنا الحراس من الاقتراب من البوابة، فجلسنا في ظل كنيسة المسكوب المجاورة، كانت عدة نساء يفترشن الأرض في ذلك المكان، يحملن بأيديهن بعض الأطعمة، وكلاً كانت تنتظر خبر أو إطلالة لولد أو والد، لمحتُ إلى اليسار من مجلسنا فتاة تجلس تحت شجرة حمير تغطي نصف رأسها بشال أبيض، كانت عيناها شاخصتين مُحدقان بالبوابة الصغيرة خلف الحاجز الحديدي، تقدمت قليلاً كي أميّز وجهها، إنها سعدة تجلس هناك، خطر لي أن أخبر أمي، لكنني ترددت، نَظَرْتُ سعدة ناحيتنا نظرة خاطفة، التقت عيناها بعيني، ابتسمت، وعاودت التحديق بالبوابة الصغيرة، التي لم ترفع أمي أيضاً نظرها عنها منذ وصلنا، قضينا ساعات طويلة حتى جاء المساء، قالت إحدى النساء لأمي:

- إن لم يخرجوه للمحكمة كما قال لك ذاك الشاب، فإن ابنك

يواجه قضية خطيرة، "هدول VIP يَحْتِي"، يدخل القضاة إليهم في قسم الزنازين، ولا يخرجون بهم إلى قاعات المحاكم طيلة فترة عزلهم . بدت الكلمات غريبة على أذني، سيرة أخي صابر كانت دائماً مكتظة بكلمات جديدة على أذني، زنازين وعزل، VIP، وقضية خطيرة، لم تكن أُمي في وارد شرحها لي في ذلك اليوم، لذا اضطربت حتى سألت أبي . انتظرنا مع كثير من أهالي السجناء أمام بوابة السجن قريباً من كنيسة المسكوب الروس، إلى ما بعد صلاة العشاء، حتى طردنا الحراس من هناك، فعدنا إلى منزلنا، وبقينا نعود إلى أمام سجن المسكوبية كل يوم، ننتظر إلى ما بعد المساء فيطردنا الجنود. حضر والذي عدة مرات معنا خاصة يومي الجمعة والسبت، وهما يوماً عطلته، كانت سعادة تأتي كل يوم تجلس بصمت طيلة النهار وتبقى حتى بعد أن يطرد الجنود الناس، لَمَحَتْهَا أُمي ذات يوم، ترددت في الحديث معها، وذات يوم، وقد كان مائراً شديد البرودة تكوم المنتظرون من نساء وأطفال ورجال في زاوية مغطاة لكنها لا تقي تماماً من المطر، إلى جوار الكنيسة، نظرت أُمي إلى حيث تجلس سعادة تحت شجرة الجميز، وقد تبللت ثيابها وغطاء رأسها، لكنها بدت شاخصة بالبوابة هناك من دون حراك كأنها جلمود صخر، سحبتني أُمي من يدي وتقدمت من سعادة، قالت:

- ماذا تفعلين يا ابنتي هنا؟ هل اعتقلوا أحداً من أهلك؟

نظرت سعادة بحسرة وألم في عيني أُمي، بينما برقت عينيها، وسالت دموعها، كذلك أُمي التي احتضنتها بحنان، ثم انضمت سعادة إلى مجلسنا أمام كنيسة المسكوب، وكانت تنهض بين الفينة والأخرى تحضر لي ولأُمي ولبعض النسوة بعضاً من طعام أو شراب، ما يزيد على شهرين ونحن وسعادة لا نفارق مجلسنا أمام بوابة السجن، هناك

نشأت ألفة كبيرة بين أمي وسعدة، حتى أطلّ أخي صابر ذات يوم من بوابة السجن، برفقة عدد من الجنود، كان مُكبّل اليدين والقدمين يجرُّ نفسه جرّاً، كان شاحب الوجه، نحيل الجسم، لفَّ السواد ثانياً عينيه وبدأ عليه إعياء شديد، نهضت أمي تعدو باتجاهه حافية، لم يخطر لها أنّها خلّفت نعلها وهي تعدو إليه بسرعة باكية، كذلك فعلت سعدة، نظر صابر ونادى بأعلى صوته أمي، زجره الجند بعنف، ودفَعوا أمي بقوة إلى الخلف، ألَقوا بها أرضاً، اقتحمت سعدة طوق الجنود، انهالوا عليها ضرباً لكنها واصلت اندفاعها باتجاه أخي صابر، تعالت أصوات النساء عالياً، تدافعوا لحماية سعدة التي سقط شالها وسال الدم من رأسها، لكنها وصلت إلى صابر، طوقت عنقه حتى ضربها أحدهم ضربة شديدة على رأسها فسقطت أرضاً.

حُكِمَ أخي صابر 19 مؤبداً ومائة وخمسة وثلاثين عاماً، هذا النوع من الأحكام لا يوجد إلا في إسرائيل، التي تحسب سنوات السجن بأعداد قتلى وجرحى العمليات، لم تنقطع أمي ولا سعدة عن زيارة واحدة من زيارات أخي صابر، كانتا تخرجان كل أسبوعين بعد صلاة الفجر، وكنتُ رافقتهما أكثر من مرة، كنا نأخذ الحافلة من أمام مقر الصليب الأحمر في واد الجوز، إلى سجن بئر السبع في صحراء النقب، ومنتظر وعدداً من أهالي السجناء ساعات طويلة، في حرّ الصيف وفي برد الشتاء، حتى ننال زيارة لمدة نصف ساعة، أو يُطل علينا جندي أجناً الظهر ليقول: "ما في زيارة روح البيت"، رفضت سعدة أن تتزوج أخي صابر من دون رضی عائلته كما قالت، لكنها كانت تتردد على بيته لتنظيفه وترتيبه واعداد الطعام له وتغادر قبل أن يعود، كما علمت أمي من العمة سميرة جارة أخي صابر، تغيرت نظرة أمي إلى سعدة، لكنها

لم تبدل موقفها من عائلة سعدة، شيء ما تغير في بيتنا، بل ربما تخطى جدران البيت إلى الحي بل إلى المدينة بأسرها، ما عاد باعة البسطات وأصحاب المحلات يتحرشون بسعدة، التي أصبح الغطاء يغطي كامل رأسها، وبثُ أسمع الناس وأنا برفقتها أحياناً، يقولون: افسح الطريق للأخت سعدة.

في العطلة الصيفية عُدتُ إلى العمل في مصنع سالم في دير ياسين، كان لا بدَّ من العمل، خاصة أن المصنع تخلّى عن خدمات أبي، الذي أصبح عاطلاً عن العمل، أصبح أبي حادَّ الطَّبع، عصبي المزاج، سريع الغضب، سرعان ما يثور لأبسط الأسباب، الأمر الذي ترك أثره على أجواء البيت.

حتى المددادة العجوز ذبلت أوراقها وما بقي منها سوى بعض أغصان ناشفة وبئر ماء أهمل وجفَّ وما عاد إرتوى من أرض ولا من سماء، والحوض وظل شجرة التين، مرقد أحلام أبي كما كانت تقول أمي، حبرت وتغيرت أوراقها ودهمها البعوض والذباب، إخوتي أخواتي الذين أصبحوا يتناوبون الثياب صغيراً عن كبير، وكثيراً ما صحوْتُ على أصوات شجارهم من أجل سترة أو قطعة لباس، أصبح البيت مكاناً بائساً كثيباً، علاقة أبي بأمي التي تميَّزت بالسلامة والمحبة والتفاهم، اضطربت، فأصبح أبي ينفر في وجهها ويصرخ لأنفه الأمور، وأحياناً من دون أسباب، بينما كانت أمي تُطرق في انكسار دون شكوى أو كلام، كان لا يحتمل أن يُطلب منه إحضار شيء من متطلبات البيت، مهما كان بسيطاً ولا يُطبق أن يسمع أن أمي اشترت من مال التأمين حلة لها أو لأخ أو أخت من أخواتي، كان ينتظر عودة والدتي من البريد في اليوم العشرين من كل شهر بفارغ الصبر، الذي كان يسمى "يوم

القبضة، كانت النساء ينتظرن في طوابير طويلة، حتى ساعات متأخرة من النهار أمام باب البريد قرب باب الساهرة، لقبض رواتب التأمين، ثم تنتشر النسوة بعد ذلك في الأسواق، إلى محلات الأحذية والنوفوتيه، التي أصبح أصحابها يُعدون لهذا اليوم بضاعته الخاصة التي تخدم حاجات النساء وأذواقهن، أما مساء العشرين من كل شهر، فكان وبالأعلى أجواء معظم عائلات القدس، ولم يفلت أي بيت من طوشة وشجار، بين النساء وأزواجهن، سمعتُ العم أبا رباح ذات مرة يصرخ في وجه زوجته أمام باب البيت وقد خرجت "حردانة" إلى دار أهلها، الأمر الذي لم تفعله طيلة عشرتها معه في خوالي أيام القرن الهائثة، قال لها:

- مع السلامة، "درب يسد ما يرد"، "أنت بتفكري مصاري التأمين إلك، هدول مصرياتي، اليهود بقصوا عشر أضعافهم ضرايب من لحمي، وبرجعولي الفتات من التأمين، مش قابله تفهمني لا انت ولا غيرك، "عوري إنت واليهود وتأمينهم".

كنت أستيقظ الساعة الخامسة صباحاً، أحمل زوادي مما قُسم، تُحضرها لي أمي وأخرج إلى العمل، أستقل "باص إيغد" الحافلة رقم 12 وأعود بالحافلة رقم 27، أقوم بالجولة التي أخذني بها والذي ذات يوم، أقفُ باب المسكوبية في المكان نفسه الذي كُنتُ انتظرُ به مع أمي خروج أخي صابر، لا أدري ما هي الدوافع التي تسوقني إلى هناك، خاصة وانني أعلم أن أخي صابر قد نُقل إلى سجن بئر السبع ولم يعد في سجن المسكوبية، ربما كنت أستعيد ذكريات الانتظار المر في هذا المكان، وربما كُنتُ أعد نفسي لأمر ما، بعد المكوث لفترة من الوقت تحت شجرة الجميز التي كانت تجلس تحتها سعدة بانتظار أخي صابر، أتوجه كل يوم إلى مقبرة ماميلأ أزيل بعض الأشواك عن قبر جدي، ذات مرة دهمني

رجل طويل القامة، يضع على رأسه قبعة تشبه القبعات التي يضعها رجال الشرطة، لكنه لا يلبس ثيابهم، كان يضع مسدساً على خاصرته، سألني بحدّة:

- ماذا تفعل؟

قالها بلغة عربية ركيكة، قُلت:

- أنظف قَبْرَ جدي، قال:

- ومن قال لك إن جدك في هذا القبر، أجبت:

- والدي، قال ذلك

- - اذهب ولا تعد إلى هنا، ممنوع الإقتراب من هذا المكان.

بينما كان كثير من المتنزهين اليهود يلهون أو يسترخون في حديقة قريبة، عقدت عزمي على دوام الحضور إلى هناك كل يوم، كنت أقفُ على مسافة تمكّني من معاينة المكان، وعندما أطمئن أن أحداً لا يراقبني أعبر مسرعاً، أقرأ فاتحة الكتاب، وأنزع عن قبر جدي لو شوكة واحدة. مقبرة مامبلا أو مأمن الله، بحجارتها القديمة التي نمشها السواد، وشواهدا المتروكة ونقوشها التي تحمل أسماء رجالٍ حُمِلَ التاريخ على اكتافهم، فكانت تظهراً لصورة من البطولة، التي ظللت بوشاح من الظلمة والآنزواء، وذاكرة منسية دُفنت تحت ركام العجز والإهمال. كانت زيارة مامبلا أول عهدي في مواجهة الخوف وتحدي التهديد، وأول إحساسي بمشاعر القوة التي تولد في مواجهة الظلم والقهر، وربما كانت أولى نباتات وعيي الوطني لمفهوم النضال من أجل هدف ما، أو معتقد أنتمي إليه، جدي، هويتي، تاريخي، وهذا التراب.

عهد أخير

احترار الناس في البلدة القديمة، لماذا يُنزع ثوب الأرض، كان عشرات العمال يخلعون بعناية فائقة بلاط المدينة القديم وينقلونه بواسطة الشاحنات من باب العامود وباب الأسباط إلى جهة مجهولة، تعرّت المدينة تماماً من ثوبها الجميل، وبقيت هكذا لفترة طويلة، ثم ألبست ثوباً من حجارة هجينة، أريد لها أن تبدو قديمة.

اقتحم عدد من الجنود بيت أم نصرت في حي الشرف وبيوت مجاورة، بعد أن أُخلي الحي من أهله ونقلوا إلى مخيم كان أُعد قبل الاحتلال بسنة واحدة، وقف يعقوب أمام أم نصرت التي أمسكت بشاهد القبر وعصا لوّحت بها في وجه الجند.

- أسألك بعهد الجيرة والخبز والملح، أن لا تجعلني مهمتي صعبة يا أم نصرت، أرجوك أن تغادري البيت بهدوء، سوف نسمح لك بأخذ حاجتك معك، ونوصلها إلى أي مكان تريدين، وإن شئت أبدلناك منزلك البالي هذا بمنزل جديد في حي جديد في بيت حنيننا، في حي نسبية، رحل إليه العديد من جيرائك، لن يتغير عليك شيء، سوى التخلص من رطوبة وعفونة جدران هذا البيت العتيق.

- ليت الخبز كان جمرًا والملح كان سماً ولم أقف أمامك في مشهد كهذا، لن أغادر بيتي ولن أبدله بقصور الدنيا وجنان الأرض، أخرجوا من بيتي أيها اللصوص أيها القتلة الفجرة.

- يا أم نصرت، لماذا ترفضين فهم الواقع؟ لقد تغير كل شيء

حولك، لا حول لك ولا قوة ليس بمقدورك منعنا من الاستيلاء على البيت، إن لم تخرجي فوراً، سأدير ظهري وتخرجين بالقوة.

- خست أيها الجبان، ومن قال لك إنني أحتمي بمثلك.

أشار يعقوب بإصبع إلى جنود انتشروا في أنحاء البيت، القوا من النوافذ الأواني والأثاث والملابس القديمة، القوا صندرة أبو نصرت والدوشك والذكريات المكتظة على الجدران، صورة الباشا بشاربه الطويل، وصورة نرجس وزيد في ساحة البيت في القطمون، أوراق الطابو وشهادة الميلاد، وبعض من جنيهاات فلسطينية، ضربت أم نصرت بعصاها على رأس جندي حاول أن يدفعها خارج البيت، قاومت بعزيمة لا تلين، لم تصرخ، لم تستنجد الناس، وقفت وحيدة تضرب بعصاها الصخر، تفجرت ينابيع من دماء، هوت بعصاها على رؤوس الجند ولوحت بكل اتجاه حتى دوت رصاصة واحدة، كأنها سهم مصوب، اخترقت قلب البليّة²¹⁷، أحست بلسعة النار، مدت يدها أمسكت بشاهد القبر، أسندت رأسها إليه وهمست: اليوم أوفيك عهد آخر، لكنه عهد أخير.

أدرك الناس لماذا جردت القدس من بلاطها وثوبها القديم، ثم ألبس الثوب لأرض المتحف الإسرائيلي الذي شيد على تلال معتصبة في الشيخ بدر، كما نُقلت المسروقات من صفحات التاريخ وكنوز المدينة من مخطوطات ووثائق وقطع أثرية إلى المتحف الجديد، نقل ثوب المدينة، لم يبدو أن لعقل المزور حدود، ألبست بيوت حي الشرف بحجارة موائمة لثوب الأرض الجديد، أريد للمدينة أن تأخذ طابعاً آخر، يوحى بالقدم، لكنه قدم مختلف عما عهدته المدينة وعُرفت به، إنه قدم مزيف،

غيروا كل شيء: أسماء الأحياء والشوارع والطرق، حتى أسماء البيوت، وضعوا على بوابة بيت أم نصرت صورة لبشر الماء والطابونة وكتبوا تحتها عبارة "إلى أسفل هذا البيت الذي يبدو حديثاً، يقوم في الحقيقة أحد الأبراج المتبقية من فترة الهيكل الثاني 585 قبل الميلاد"، الطابونة التي بناها جدُّ والدي بيديه وسُمي الحي باسمها منذ ذلك الحين، درجة الطابونة، والحاكورة التي جَبَلَتْ طينة سورها عمّة أبي شهنده التي سميت الحاكورة باسمها "حاكورة شهنده" رُيفت سيرتها ووضع لها اسم آخر، هو برج الهيكل الثاني.

لم يسلم بطن الأرض من عقل ضال، يبحث عن بقايا اسطورة لفظها العلم وأنكرتها وقائع الأبحاث، لم يعد مخطط كاندل الخبيث الذي حصر المدينة من الشرق وضيق الفضاء على المظهر العربي الاسلامي كافياً، لشطب ما أبدعته يد التركيان المهندس العمراني المبدع خوجا سنان²¹⁸، والخطاط أحمد قرّة²¹⁹، والفنان الفارسي عبد الله التبريزي²²⁰، جلبوا للمدينة يداً آثمة لا تدرك موقع المدينة في التراث العالمي، باعتبارها جوهرة من جواهر التراث الانساني، جاؤوا بمسكوفيتش²²¹ ليخلع بالبلدوزر ما خطته إبداعات حضارات توالى دون أن تشطب إحداها الأخرى، دُمّر فسيفساء الإبداع الإنساني للمدينة تاريخاً وحاضراً،

-
- | | |
|---|-----|
| المهندس الذي صمم قبة الصخرة | ٢١٨ |
| الخطاط الذي خط الآيات الكريمة على محيط القبة | ٢١٩ |
| الفنان الذي أبدع الزخرفة داخل وخارج القبة | ٢٢٠ |
| مخطط عمراني اسرائيلي شوه عملية التخطيط العمراني لمعظم المدن والبلدات الفلسطينية، من خلال اعتماد الصور الجوية بعد تحديدها كمخططات عمرانية، خلافا لعلوم التخطيط العمراني، وذلك بهدف حصر المدن والقرى الفلسطينية ومنع امتدادها، خدمة لسياسة الأستيطان، وهناك مسكوفتش آخر ملياردير قام بتمول الاستيطان في القدس | ٢٢١ |

جغرافيا وديمغرافيا.

وسَّعت المدينة إلى مدى أخرجها من محيطها المألوف، لم تعد أم ناصر بائعة التين من قطنة ولا أبو النور بائع الشياه من السواحة جزءاً من المدينة، حلَّ مكانهم صالون "تكفا من بقعات زئيف، وكريخيات آرييه في معالي ادوميم، أقاموا تُخْنِت آب²²² ومخطط المركز ومتروبولين اورشليم" والقدس الكبرى والقدس العظمى، دفعوا سكان المدينة لمغادرتها تحت وطأة الاكتظاظ وعدم السماح للفلسطينيين بالبناء. كانت الأحداث تتوالى، والأحزان يُداكم بعضها بعضاً، لم يترك لنا الاحتلال نافذة للفرح إلا أففلها. هزل جسد والدي، وأصبح لا بد له من الاتكاء على عصا، لكنه أبقى على التزامه الفروض الخمسة في المسجد الأقصى مهما كانت الظروف، ومهما اشتد به المرض. كان حزيناً لأنه يقوم الليل في البيت، فلم يعد يفعل ذلك، كما اعتاد، في المسجد الأقصى، لأن شرطة الاحتلال أصبحت تمنع الناس من قيام الليل هناك، وتتحكم بمواعيد الدخول والخروج من المسجد الأقصى، وتقفل أبوابه بعد صلاة العشاء وتُشرعها في أوقات معينة للمستوطنين، في أخطر تهديد لوجودنا على هذه الأرض، لأن الصراع، كما قال لي والدي، ليس على الأرض فقط، وإنما أيضاً على الفكرة والرواية والتاريخ. تسارعت ماكينة التهويد للمدينة بعقلها الجهنمي، دون هوادة، غير أن زملاء صابر واصلوا العهد والطريق، من محني يودا، إلى الدراجة

٢٢٢ المخطط العمراني الذي الغى المخطط العمراني العربي، وتوسعت المدينة به إلى الشمال ٧٣ كم، اخرجت منها كل المناطق المؤهلة للفلسطينيين من أجل إقامة المستوطنات التي حاصرت القدس

الهوائية، إلى الثلاجة ثم الزلاجة والغيتار، والعطار²²³، من المطران كابوتشي إلى الشيخ أبو طير، ومن أبي هشام الهنيني إلى أحمد زمرد، وعلي جده، ومحمد الافغاني، ورياض وزكي الملاعبى، وعلاء البازيان، وعلي المسلماني، وهاني جابر، وفؤاد الرازم، وفواز بختان، وسمير أبو نعمة، وإبراهيم عليان، وياسين أبو خضير، وعصام جندل، وعبد الناصر وطارق الحليسي، وعبد الله الحواس، ومازن أصلان، وفاطمة وإحسان البرناوي وسليم الشلبي، وإبراهيم أبو دية، وعبد القادر وفيصل الحسيني، وفائق الأنصاري، وحياة البليسي، والفتى صباح عبد الغني، وتيسير طه، وجبر سرور، ومحمد أبو عكر، وبدوي كاشور، ومحمود الكرد، وموسى أبو عيده، وأبو جمال مراغة،²²⁴ وجنود مجهولين كثر على طول الطريق الطويل، لم تستسلم المدينة يوماً، كان شعارها الدائم لا تعايش مع الاحتلال.

٢٢٣ أسماء عمليات مقاومة ضد الاحتلال

٢٢٤ رموز من شهداء القدس وأسرها ممن جعلوا القدس عصية على الاحتلال

نءاء الفرء

أصبيت عمتي فاطمة بحالة غريبة بعد عودتها من الحرم الشريف، هرولت إلى غرفتها، دست يدها تحت السرير، ثم خرجت تعدو، رفعت رأسها، حدقت طويلاً إلى الأعلى، وبحلقت في المدادة العجوز، ضاق جفنها وانفرج، استدارت، نظرت إلى غرفتها في لفنة مباغنة، ضمت منديل نرجس إلى صدرها، استلقت على الأرض، كانت تنظر إلى صندرة أحفنها تحت سريرها بعيداً عن العيون، نهضت بشكل هستيري، ثم جلست وتسمّرت في مقعدها كأنها فرع من شجرة التين سقط وتيبس في المكان. في المساء حاولت والدي أن تدخلها إلى غرفتها، لكنها تشنجت، وأصبيت بالإغماء، حملها والدي إلى سريرها، وبقيت عدة أيام تحافي الطعام والشراب، كانت أمي تنقط في فمها بعض الماء بين الفينة والأخرى حتى لا يهلكها الجفاف، تدهورت صحتها، وبقيت على ذلك حتى اعتقدنا أنها ستفارق الحياة.

ذات صباح نهضت من سريرها بشكل مفاجئ، اغتسلت ولبست أبهى ثيابها وقرزلت شعرها إلى الخلف مثل صبايا الحي، بالرغم من هرمها واعتلال صحتها، أشرق وجهها، وظهرت على قسماها مسحة من الجمال، بشرة فاتحة السمرة، ونور نجمتين كحيلتين، وأنف دقيق، لم تتمالك أمي نفسها وقد رأت عمتي فاطمة على هذه الحال، أقبلت عليها وأطلقت زغرودة فرح، قبّلتها، وبسملت، وحمدت الله، وصلت على رسوله ألف صلاة وسلام.

- بسم الله ما شاء الله، اللهم صلّ على سيدنا محمد، "يخزي العين"، يا حفيظ يحفظك من كل عين ومن شر الناس وشر الوسواس الخناس، يا كريم، قالت أُمّي وهي تنهال على عمّتي فاطمة عناقاً وقُبْل. ابتسمت عمّتي، وقبّلت وجنة أُمّي وبديها، هرول والدي على إيقاع نداء الفرح الذي هجر بيتنا منذ زمن طويل، نظر إلى عمّتي، لمعت عيناه، تقدم منها، عانقها وربّت على كتفها كأنه يدلّل طفلاً صغيراً، نظرت إلى عينيه ومسحت بكفها على جبينه، قبّلته وتقدمت نحوي، جثت على ركبتيها، عانقتني بعطف وحنان، بقيت على ذلك حتى رفعتها أُمّي، وجهزت لها إفطاراً شهياً، تناولته معنا حول حوض الماء الذي جف، وخرجت وهي تنظر إلينا من دون أن تنطق بكلمة.

لم تعد عمّتي فاطمة إلى البيت منذ عدة أيام، خيم جوٌّ من الحزن والكآبة على البيت، استنفّرنا كل أفراد العائلة ذكوراً وإناثاً، كباراً وصغاراً، بل ومعظم سكان حيّنا للبحث عنها. بحثنا في كل مكان تعودت التجوال أو المكوث فيه، في باحات الحرم الشريف وداخل المسجد الأقصى وقبة الصخرة، حيث تعودت أن تقضي جزءاً من نهارها، وفي الأسواق والشوارع، لم نترك المستشفيات ودور المسنين، وحتى مخافر الاحتلال وسجونهم، وغير ذلك الكثير من الأماكن. عمّتي، بالرغم من شرودها المستمر عن الواقع، وحالة التيه والحلم الطويل الذي تعيش داخله، تملك من الحب والحنان ما يمكن أن يملأ الكون بأسره، وأنا على يقين من أنها تملك من الوعي والإدراك الكثير، لذا كنت، خلافاً لأفراد أُسرتي الذين كدّهم البحث وأقعدهم الهمّ، مقتنعاً أنها على الرغم من تَوّهاها ستعود.

مخطوط المدينة

لا يكف الحاكم الجديد يتحدث عن العدل والسلام ونبذ العنف وأمن الناس وكفايتهم من خبز وماء، في ليله ونهاره وخلوته واجتماعه، شعاره "أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف"، ولا تكف اللجان عن اللقاء من أجل مصلحة العباد، لا يألون جهداً، ولا يتركون عمداً ولا سهواً، يدورون كالرحى في المكان، مربوطون إلى ساقية بلا ماء ولا ميزابان، بعيون عصباء يلهجون؟

يحتاج الناس السلام كما يحتاجون الهواء، لكن الهواء لا يقايس بالماء، ولا تقايس الحرية بالسلام، كلاهما من حقيقة الحياة، من باعنا الوهم على أنه الأمل؟ والضلال على أنه الحقيقة! إننا أكثر الناس حُباً وحاجة للسلام، لكن ما قُدم لنا ليس سوى وجه آخر للهزيمة، مقابل امتيازات شخصية للبعض، فلا يمكن لحركة تحرر وطني أن تبقى ممثلة لشعبها عندما تأخذ تفويضها من المحتل، إن كل المفاوضات التي كانت والتي ستكون ليست سوى تحسين لشروط الاستسلام، وما الحديث عن الأمن والعدل والسلام، إلا نزوع من الحكم العاجز لراحة ليست في مكانها، وورع أو تقوى من غير إيمان، وحرص على دنيا فانية وتجارة خاسرة دُفعنا إليها، عندما ضعفت الثورة وعجز الحكم والنظام العربي عن النهوض بمسؤوليات الأمة الكبرى.

منذ عادت بعض طيورنا المهاجرة من نَعُور²²⁵ غربتها، ساومها الصياد على أعشاشها وعلى أغصانها وأشجارها، وحاصرها وجعل من الحقل سجناً، مَنَعَ فيه الطيور من التغريد، والأفكار من التحليق أبعد من حدِّ رؤوسها، لم يكن ذلك غريباً، لكنَّ أغرب ما حصل، ولم يتصوره عقل، أن يصبح حراس السجن هم السجناء أنفسهم .

قال العجوز من حي الشيخ ريجان لمحدثه في ظلِّ شجرة السرو والانتظار عند بوابة الأقصى، أو ربما هذا ما لهج به في سره: لا خوف من عسس، لكن سخرية من الهرم والعجز. قبل لقاء سيدة الحكاية وقبل أن يدخل في غيبوبة من رصاصة أصابته بينما كانت تستهدف حمام البيت. قال وهو ينظر إلى سحببات الدخان الكثيف، لا تقتلوا الحمام، رائحة غاز خائق، تسابب الدموع على خديه، لا وقت للبكاء، قال لنفسه، أزيز الرصاص هجزع²²⁶ الواهمين بالحلول السهلة في رام الله، جنود بخوذيات حديديه يطاردون الناس والحمام، البعض ما زال ساجداً، لا تنتهي الصلاة في المسجد الأقصى، عساكر الاحتلال لا تعرف مواعيد الصلاة، هراوات وتروس صلبة بأيدي الأفواج المتقدمه من الجنود، وبنادق ورشاشات في أيدي الفوج الخلفي، قناصون على أسطح المدرسة التنكزية، فوق حائط البراق، إنهم يقنصون الحمام، صاح أحدهم، لا تدخلوا المسجد بالبساطير، نادى الشيخ محمد حسين، لعنكم الله أيها السفلة الحاقدون، ارفعوا الجرحى.... صرخ أبو كامل أبو زنيد، عليكم بهم لا يوجد حجارة، لا بأس اقدفوهم بالأحذية، إف 41، اف 42، و45، إن وجد، احملوا الشهداء، من الذي سقط.

٢٢٥ غربتهم البعيدة

٢٢٦ أخاف الجبناء

منذ متى وأنتم هنا؟ سألت العجوز من حي الشيخ ربحان، منذ رجعنا بعد إتفاق أوصلو، أجاب جريح على سرير مقابل، رجعنا يا جده إليكم إلى بيوتنا إلى أهلنا إلى أرضنا، عدنا لنقاتل معاً ونصمد معاً ونموت معاً إن شاء القدر أن نموت، ونحيا معاً ما شاءت لنا الحياة.

- ربنا يطول عمرك يا ستي.

قالت العجوز من الشيخ ربحان وهي تهز رأسها حسرة وألماً، وتابعت:
- صحيح إنكم رجعتن، لكن عادل وأدهمية ما عادوا، ورجس لليوم ما لقيناها يا ستي، وصابر ما زال سجيناً، وفاطمة التي غابت مع حلمها الطويل، منذ النكبة لم تصدق أن ما تحياه هو واقعها البائس المرير، ظلت تائهة لم تعد لنفسها ولم يحملها حلمها بالاتجاه المعاكس ثم اختفت وربما قضت قبل أن تعود بحلمها إلى لحظة بدايته القاسية كي تستيقظ قبل أن يبدأ الحلم المزعج من جديد، زي ما إنت شايف يا ستي، لم يرجع عادل ولا نرجس ولا فاطمة ولا صابر، الله يحملك ويهديك ويشفيك يا ستي، أضافت العجوز من الشيخ ربحان، ورفعت بيدها كمادة بيضاء مرنخة بالماء، وضعتها على رأس زوجها المحموم.

انتشر جند الاحتلال في كل زقاق وحارة، سدوا الطرقات وأبواب المدينة والمسجد الأقصى، منذ ساعات الليل المتأخرة، منعوا الناس من الخروج من بيوتهم، دهموا دار الأيتام وتكية خاصكي وعقبة السرايا والخالدية.

أغلقت السيدة هيفاء الخالدي، مديرة مكتبة الخالدي، البوابة الخارجية للمكتبة، وقالت بهدوء للمرأة المسنة التي عكفت على مخطوط المدينة منذ أيام ثلاثة:

- لا عليك يا سيدتي، يمكنك المبيت هنا يوماً آخر، قد

يُمنع التجوال.

افتح يدك، أغلقها، شدي الرباط فوق الكوع، اقْبِضْ وأرخ، أجل هكذا، امتلاً الكيس، الذي يليه، هل تعاني من السكري، هل لديك أمراض معدية، أقْبِضْ يدك، خذوه بسرعة إلى غرفة العمليات.

- قلتِ إنكِ تعرفين عدداً من أهلي وأجدادي؟ سألت السيدة هيفاء ضيفتها، هل تعرفين حسن وغالب ويعقوب وعادل وكامل الخالدي، والمربي أحمد سامح الخالدي، وحسين أفندي الخالدي، رئيس وزراء الأردن سنة 1958.

- أعرفهم جميعاً، الأستاذ أحمد سامح الخالدي أعرفه منذ كان معلماً ثم أميناً لهذه المكتبة، وحسين أفندي أعرفه قبل أن يصبح رئيساً للبلدية ثم رئيساً للوزراء، هو الذي منحني شرف التدوين في هذا المخطوط، عندما كان يشغل موقعك هنا، كنتُ آتي إلى المكتبة برفقة رسام شاب، كان صديقاً لسيد الحكاية وعَيْنَه التي كانت ترصدُ له الأعداء، كنا نأتي لِنُدَوِّنْ أسرار المدينة وحكاياتها، كنتُ أَدَوِّنُ بالكلمات من دفثري هذا، وكان هو يُدَوِّنُ بالريشة والرسم. أجابت المرأة وهي ترفع رأسها بهدوء، وتحقق في جنبات المكان، ثم ابتسمت، وتابعت:

- كيف تسير الأمور في الخارج؟
- الوضع جدُّ خطير، جنود الاحتلال يطلقون الرصاص وقنابل الغاز بشكل هستيري، لقد سدوا الطرقات وأغلقوا أبواب المدينة، أجابت السيدة هيفاء.
- إذاً، أن لي أن أذهب، أشكرك على صبرك وطيب الضيافة، لقد أتممت ما جئت من أجله.

- هل دَوَّنتِ في المخطوط كلَّ ما في دفترِكَ الصغير هذا؟
- دفتري هذا رفيق عمري، إنه دفتر صغير، غير أن فيه الكثير من سجل الخالدين، كنت أدوّن فيه أحداثاً خشي الناس تدوينها، وأحفظ فيه سيرة لأبطال حرص مدوّنوا الحكام على مسحها من الذاكرة وحذفها من التاريخ، كنتُ أتمنى ذات يوم أن أقدم دفتري هذا إلى صاحب الحق فيه، قبل أن يدهمني الحلم الطويل، لكنّ سيد الحكاية قضى في غربته الموحشة قبل أن يتم النصر وقبل أن أصحو، إنني أعهد بدفتر المدينة إليك، لعلك تُبقيته أو تنثرين حروفه على صفحات الزمن وجدران المدينة. أما الآن، فاسمحي لي بالذهاب، لعلي أتمّ واجباً انتظر زمناً طال.
- آتني لك الخروج وكل الدروب موصدة، والموت يتحفّر عند كل زقاق وباب.
- لا عليك، فالخوف من الموت لا يطال إرادة حرة تسعى لواجبها، والموت آخر ما يخشاه قلب مثل قلبي.
- لا بأس، سيطروا على النزف حتى تفرغ إحدى الغرف، أعطوا الجريح حقنة مورفين، أترويين، استدعوا أطباء الضفة، الحواجز تمنع الأطباء من الوصول، خابروا الصليب الأحمر، خابروا الهلال الأحمر، خابروا الأمم الحمراء، والأمم الصفراء، الأغنياء، الفقراء، حطموا الحواجز، لا تسمحوا للجنود بالدخول، أغلقوا الطريق من ثغرة الغرب وفوهة الناتو، تصدوا لهم، امحوا الناس في عقبة شداد، في حي الراهبات، في حي الواد، في عقبة الخالدية، في مار إلياس، يا سيدة اللجن، نفدت

حجارتنا، أحضري بعضها إلى هنا، لا تهلك، أعطي بعض ما تملك،
 إنهم يهربون، طاردوهم حاصروا المخفر، حاصر حصارك، أحرقوه،
 كم عدد من بالداخل؟ لا تسمحوا لهم بالخروج، إنهم سيكون كالنساء،
 يخبثون، افتحوا الباب، دعهم يخرجون، إنه اليمني صاحب الكيباه²²⁷،
 أنا أعرفه كان يقنص الحمام، دعه يمر، لا تضربوهم، هم الآن عُزل من
 السلاح، وهل حل حمامنا النووي عندما تساقط فوق القباب، دعهم
 يمرون، نحن لسنا مثلهم، فكوا الحصار عن المرواني، الناس تحتق
 بالداخل، تقدموا، أعطني، آه أُصبت، القناص من جديد، إنه الأثيوبي،
 بل الأشكنازي، الألماني، الروسي، الأمريكي، لا أدري من أين أتوا.
 ما كان للحواجز المنتشرة في كل حارة وزقاق أن تمنع فاطمة من الوصول
 إلى باحة الأقصى، الذي تحاصره قوات الاحتلال من كافة الاتجاهات،
 كانت تعلم أن أخاها عمر هناك، فهو لا يتخلف عن فرض صلاة أو
 مواجهة مع الاحتلال هناك، تخطت الجنود نحو أحد المداخل الخفية
 للحرم الشريف، تلك التي لا يعرفها سوى أبناء البلدة القديمة، عبرت
 إلى أحد البيوت قرب باب الغوانمة، وفي لحظات كانت داخل ساحات
 الأقصى المحاصر، تخطت الجموع تحت أزيز الرصاص ورائحة الغاز
 المسيل للدموع، سارت بثقة كأنها تسير إلى كلية البنات في يوم ربيعي،
 ما كان لرائحة الغاز المسيل للدموع أن تحجب عنها عبق النرجس
 والياسمين ورائحة المسك والطيب التي تنبعث من دماء الشهداء الذين
 يُحملون فوق الأعناق.

٢٢٧ قبعة رقيقة وصغيرة تغطي جزء من الرأس يلبسها اليهود
 المتدينين

كانت تعلم أين تجد عمر، وصلت إلى أقرب مسافة من حدّ المواجهة بين الجنود وجوع المواطنين، رآها تعدو بين الجموع، كان يزجر بعصاه جندياً أمام بوابة المغاربة، عاد مسرعاً، صرخ: فاطمة... فاطمة. تقدمت، نادى بلهفة: عمر...

- أين كنت يا أختاه؟ بحثنا عنك في كل مكان، أصابنا الذعر، خشينا أن مكروهاً قد أصابك، أو أن خطاك تاهت ولن تعودى. سأل من دون أن ينتبه إلى أن عمى عادت إلى وعيها وقدرتها على الحديث والكلام.

صحوتُ من حلمي الطويل فجأة، فوجدتُ نفسي في مكتبة الخالدي لا أذكر كيف وصلتُ إلى هناك، ولا كيف قدّمتُ نفسي للسيدة هيفاء الأمانة على ذاكرة المدينة من أجدادها جيلاً بعد جيل، لا أذكر سوى أنني كنت أجلس إلى المنضدة القديمة نفسها، ويدي دفترى الصغير ومنديل نرجس، كنت أدوّن في سجل المدينة، سجل الخالدين، تلفتُ حولي فلم أجد صديقنا الرسام الشاب من حي الواد، أدركتُ حينها أنني أعيش عهداً آخر، دوّنتُ ما أخفيته عن عيون العسس وحكام الظلام، كنت أخفض ضوء المصباح وأخطُ بقلمى بعد أن ينام الناس يوميات الجهاد والثورة ضد المحتل، أحفظُ وصايا عبد القادر وأبودية وكلمات وعد الذي كان يتقدم الصفوف في كل معركة، ويحب البقاء في الظل إن تعلق الأمر بالفخر والتباهي والحديث عن الذات، كان هناك في معركة عصيرة الشمالية في آب ١٩٣٦، وفي معركة عرعر في ٢٠ آب ١٩٣٦، وفي عين دور، شرق الناصرة، في ٢٦ آب ١٩٣٦، وفي موقع نمره جنوب الخليل، وفي باب العمود هنا في القدس، رداً على استشهاد صديقه سامي الأنصاري، وفي معركة القطمون الأولى مع رفاقه

في الجهاد: ضيف الله مراد، وكامل حتاحت، وأديب الخياط، وعبد الرحمن أبو عوف، والشيخ إبراهيم حداقي، وفي بلدة الخضر التي جرح فيها القائد الشهيد عبد القادر الحسيني عام 1936، كان سيد الحكاية حاضراً معنا بالرغم من سنوات غربته الإجبارية في العراق وتركيا وألمانيا والنمسا وفرنسا، وبعد عودته متخفياً على متن باخرة إلى بيروت ومنها إلى دمشق ثم إلى القدس من جديد وبعد جريمة الانفجار الأول في باب العمود في ١٣-١٢-١٩٤٧، والثاني ٢٩-١٢-١٩٤٧، ونسف فندق سميراميس في ١٥-١-١٩٤٨، وانفجار باب الخليل في ٧-١-١٩٤٨، تلك الجرائم التي قام بها الصهاينة وأدت إلى مقتل ٥٥ فلسطينياً وجرح ١٢٢ أسس سيد الحكاية فرقة التدمير، لتلقي الرعب في قلوب الصهاينة، خاصة بعد العملية الكبيرة الناجحة في شارع هسوليل وصحيفة البالستان بوست في ١-٢-١٩٤٨، التي كانت واحدة من أجراً العمليات الفدائية، لعلك تذكر أن النار بقيت مشتعلة في الشارع مدة ثلاثة أيام، ثم جاءت الضربة الموجهة لهم في قلب المنطقة التي يسيطرون عليها من مدينة القدس التي احتوت على مبانٍ كان يمارس الإرهابيون الصهاينة نشاطاتهم منها، وأهمها بناية الهستدروت التي كانت تشغلها آنذاك قيادة الهاغاناه، ثم جاءت عملية نسف دار الوكالة اليهودية في ١١-٣-١٩٤٨، تلك العملية المميزة التي قام بها البطل أنطون داود، وبعدها نسف مستعمرة ميكور حاييم في ١٣-٣-١٩٤٨ التي شارك فيها زيد غنيم ومصطفى الناجي، ثم عملية حي المتفوري في ٢٣-٣-١٩٤٨، ثم عملية قافلة كفار عصيون في ٢٧-٣-١٩٤٨، وعملية طريق القسطل في ٥-٤-١٩٤٨، ومعركة القسطل في نيسان التي استشهد فيها القائد البطل عبد القادر الحسيني،

ثم عملية قافلة هدايا المسلحة في ١٣-٤-١٩٤٨، التي أطلق الصهاينة إثرها النار من الجامعة العبرية على حي الصوانة، فاستشهد الشاب جمال طوطح ٢٢٨، وعملية مستعمرة النبي يعقوب في ١٧-٥-١٩٤٨، يومين بعد إعلان دولة الاغتصاب، وكذلك نسف السكة الحديد بين القدس ويافا، ثم معركة باب الساهرة، وزرع الألغام لمنع احتلال البلدة القديمة، ومعركة القطمون الثانية.

وبعد، لا يمكن أن ينسى الدور المشهود لفرقة التدمير في إخراج اليهود من حي الشرف وعقبة غنيم ودرجة الطابونة، ما سمي بمعركة حارة اليهود في البلدة القديمة، التي أدت إلى استسلامهم وإخراجهم من البلدة القديمة، وإصابة سيد الحكاية في هذه المعركة بأكثر من عشرين شظية إثر انفجار عبوة زرعها الصهاينة، بقي أكثرها في جسده حتى بعد وفاته، بقي سيد الحكاية حاضراً في ميدان الوغى، فما زالت جبال القدس تشهد له معركة بيت سوريك في 19-8-1948 شمال غرب القدس، التي تشرف على الطريق بين السهل الساحلي والقدس، ضد قافلة التموين والتسلح والإمداد لعصابات الصهاينة في القدس. أشد ما أحزنني ولوّع قلبي حسرة يا عمر، بعد كل هذا النضال والجهاد والتضحيات، دهم المرض سيد حكايتي، فمات وحيداً في غربته الموحشة بلا أنيس أو رفيق، ليتني كنت معه لأضمه إلى صدري وأغرسه في ضلوعي، كان صباح دمشق يوم الاثنين²²⁹ 25 من ذي الحجة

٢٢٨ . خال المؤلف

٢٢٩ اليوم الذي توفي فيه في دمشق القائد البطل فوزي القطب أنبل شباب القدس وأمير مجاهديها.

1408 هـ، الموافق 8 آب عام 1988، يوماً عادياً بالنسبة للكثيرين، مرّ من دون أن يستوقف أحداً، غير أنه كان أكثر الأيام قهراً وألماً في حياتي بعد غياب نرجس، لعلك تذكر الحالة التي انتابني يومها، بعد عودتي من الأقصى، ربما ظننت مثل الآخرين أنها إحدى نوبات غيابي خارج اللحظة والزمن تحت تأثير الأوهام التي أخذتني إلى حلمي الطويل، يومها أغمي عليّ، وحملتني أنت إلى سريري، ما لم تعرفه أنني التقيت في ذلك اليوم شقيقة سيد الحكاية السيدة نادرة في الحرم الشريف، وقد نقلت إلي نبأ وفاته في دمشق.

هل لنا اليوم وبعد هذه السنوات من الغياب والغفلة، مع هذا السجل الحافل بالنضال، أن نبقي سيد الحكاية في الظل؟ أعلم أنه كان يفضل هذا، وشاء أن نكتب عنه بالتلميح لا بالتصريح، لا خشية من حاكم ولا دفعاً لتهديد، لقد كان صيته يجلجل في كل أرجاء الوطن، وكان مجرد ذكر اسمه يُلقي الرعب في ساكني المستوطنات الصهيونية، لكن اسمه لم يعد ملكاً له اليوم، إنه ملك الأمة، بل إن سيرته العظيمة أصبحت شأنًا عاماً، تهتم كل فلسطيني وعربي وحرّ في هذا العالم، في حكايتنا ذكرنا كل أسماء صحبه ورفاق دربه، ورمزنا لاسمه بالوعد والمجد، وأخفيتُ أنا ذكراه طيلة هذه السنين في حنايا القلب وفي صندرتي الخاصة، بعيداً عن العيون، آمَنْتُ أنَّ زَمَنًا سوف يأتي ستفجر فيه وصاياه وكلماته ينابيع الثورة من جديد، ما تَعَبْتُ مِنَ الانتظار، وما كان الانتظار عبثاً، انظريا عمر من حولك، إنهم اليوم أمامك في ميدان المواجهة، أبناءك، وأبناء زيد، هذا معتصم وذاك رامي، وهناك حفيدة أم نصرت فيكات البكر التي أخذها الموت باكراً "رُبِّي"، ثم فيكات الصغيرة التي غنّت للمجد وللثورة، وأحمد على الدرب يمضي، وأبناء أبي مصطفى وأبناء أبي

هشام، وأبناء عبودة غيث وأبناء أبي منصور وأبناء أبي بدوي حجازي، والسدمير، جميعهم هنا في القدس، هنا.

كنت أدرك أنك ووالدي وكل من في البيت تعلمون أنني أنتظر وعداً، وأعلم أنك وأبي احترمتهم وعدي هذا وكفيتهموني سؤال من، وسؤال الشك بجدوى الانتظار، لقد كانت وصية والدي لك أن تحترم خيارى نبراساً طالما افتخرتُ به، كُنتَ خيرَ أخٍ وخبيرَ صديقٍ وخبير أبٍ بعد والدي، وكانت زوجتك هدى خير أختٍ وخبير أمٍّ بعد أمي، كثيراً ما خطر ببالي أن أحدثك عن الوعد الذي انتظرت، غير أننا، مع كل ما كنا نمتلكه من وعي وعلم، كنا أسرى زمننا، نملك قلوباً لها أن تحفّق، لكن بصمت، ولساناً له أن يبوح، لكن بقيد.

كان عمر يُنصت لفاطمة بفرح وشوق، لم يكن صخب المواجهات في ساحة الحرم ليمنعه من الإنصات، ولا ليمنع فاطمة من فيض نهر الذكريات.

في حمّة المواجهة وتزاحم الجرحى والشهداء تعود فاطمة، قال عمر لنفسه، اغرورقت عيناه وكاد يجهش من الفرح، فاطمة تعود هذه المرة، كما كانت فتاة المدينة، ألسّت فاطمة، صاحبة الرأي الراجح، التي أحبّها الناسُ، وكنت تسمعهم يقولون هكذا قالت الست فاطمة، فتاة الحي، معلمة المدرسة، ابنة بائع الحليب، مصدر فخر الحي واعتزازه، فاطمة التي أحبّها الجميع، زملاء الدرس وأهل المدينة، وتمناها الكثيرون؟ فاطمة تعود اليوم كما كانت.

تقدم نحوها، عانقها، نظرت إلى ما خطه الزمن على مُحيا أخيها، أدركت أن تلك مرآة لما خطه الزمن على مُحياها، في تلك اللحظة دهمتها صورة وعد، ما زال يافعاً نضر الوجه، لا يكبرُ الغائبون، ابتسمت، التفتت

نحو عمر، قالت:

- أما آن لك أن تعرف والناس من هو الوعد الذي انتظرت، لا أشك أنك عرفت صاحب السيرة التي رويتها لك الآن، لأنك واحداً من أبطالها، ولعل الأمر ما زال ملتبساً عليك، ثراك تقول لنفسك: هل من المعقول أن يكون هو؟

- كنت دائماً أهم بالسؤال، ولم يخطر ببالي أحد بعينه، كنت أحجم لأكيفك حرج السؤال.

- مجد، إنه مجد، مجد هو الوعد الذي انتظرت.

- مجد ابن الشيخ نامق، مجد سيد الميادين، وقائد الفرسان والمجاهدين.

- أجل، وآن لنا أن نرفع الستار عن الرمز ليحتل سيد الحكاية مكانه في سجل المدينة والخالدين، الوعد الذي انتظرت وانتظره الناس هو القائد مجد الثوار، الفارس المناضل، رئيس فرقة التدمير ومؤسسها فوزي نامق القطب أمير المجاهدين²³⁰.

- يا الله! ليتك تسمع يا سيد المقام، ليتك تسمع يا شيخ ريجان، ليتك الآن معنا، طلبت مني أن أعود به إليك، إن فوزي الذي غاب عن رفد مرقدك بالزيت والنور والطيب كان منهمكاً بإيقاد شعلة الثورة والإعداد للمجد والوعد والنصر الأكيد، كان على خطوة مني وأنا الغافل ومثلي من قضاو دهرًا غافلين.

- طال الانتظار يا عمر، غير أن فوزي قضى قبل أن يكتمل الوعد.

٢٣٠ المولود في القدس عام ١٩١٧ المتوفي في دمشق عام ١٩٨٨.

بسرعه يا أحمد، لا وقت للدموع، أعطني الحماله، ضعه هنا، إسند الرأس برفق، يبدو الجريح طاعن السن، خُصَّب الدم لحيته البيضاء، رصاصتان فوق القلب تماماً، اركضوا إلى باب الأسباط، ما الذي يتساقط على الحماله؟ حمام قتيل، افتحوا الطريق لسيارة الإسعاف، وأنجحوا الفضاء للحمام، ضعه هنا بورك بكم، عودوا إلى ساحة الحرم، دعني أرى وجه الجريح، من يكون، لا وقت للتدقيق في وجوه الشهداء، اذهبوا، سقطت حمامة وغاب الغمام، بسرعه انطلقوا هيا سيموت الرجل، سيارة أخرى، عشر حمالات أخرى، انقل الطفل أولاً إلى الإسعاف، لا... الطفلة أولاً، المرأة، المسن، الشاب، قائمة الموت أوسع من جدول الأعمال، انطلقوا بسرعة، أدخلوا السبيل للجرحى، أدخلوا السبيل للحمام، لا متسع لمزيد من الجرحى في مستشفى المقاصد، خذوهم إلى مستشفى المَطَّلَع، الجرحى والشهداء في الممرات الخارجية هناك، خذوهم إلى مستشفى الفرنساوي، إلى الراهبات، إلى البيوت، إلى الحارات، أنقذوا الجرحى، أنقذوا الحمام.

وقف إلى جانب السرير، هل سيعيش؟ سأل أحمد، من تكون؟ أجاب الطبيب، أنا أحمد وهذا الجريح أبي، إنه الحاج عمر حارس الحمام.
- إصابته بليغة جداً، إنه في غيبوبة، الأعمار بيد الله.

أمضى الليل إلى جوار سرير والده، اكتظ المستشفى بالناس، واكتظت البيوت بالزغاريد والأعراس، كل الوجوه مألوفة، الزوار والجرحى، الشهداء والحمام، كلهم من هنا، وجوه معفرة بتراب الأرض، وعيون ملحفة بالحزن والأمل الذي لا ينتهي، هذا جمال من البلدة القديمة، وتلك أم ناصر بائعة العنب، وذاك إلياس من دير اللاتين، وهذه سعاد من سخنين، والدكتور من الناصرة، وجميل من الخليل، والشيخ من أم

الفحم، من بيت لحم، من غزة، من نابلس، من الطيرة من مجدل شمس، من قلقيلية، من التعامرة من السواخرة، من طولكرم، من أريحا، من الشمال من الجنوب، كانوا جميعاً هناك، أمام بوابة المغاربة، عند سبيل قايتباي، وبركة النارنج، في ساحة الكأس، كانوا يصلون ويثرون الحبّ للحمام.

- إنه يُتمتم أحياناً يا دكتور، قال أحمد.

- من الذي يُتمتم؟ سأل الطبيب

- والدي، ألا تسمع؟

- هذا مستحيل يا بني، لا يمكن له أن يتمتم، إنه في غياب تام، أرى أنك مرهق، لماذا لا تذهب وتستريح قليلاً؟

- لكنه يُتمتم، وحين أضع يدي إلى جوار يده، يمسك بيدي ويُتمتم

- يا سيد أحمد أنت منذ يومين لم تنم، والدك في غيبوبة تامة، لا يمكنه أن يُتمتم أو يمسك يدك، إنه الإعياء، تبدو لك أمور ليست حقيقية، أرجوكم خذوا هذا الشاب من هنا، قال الدكتور لأهل الجريح.

- لا تعتب عليه يا دكتور، لقد تعرض لضغط شديد، اشترك بالمواجهات طيلة النهار ثم نقل الجرحى وحمل الشهداء، حتى أنه حمل والده إلى سيارة الإسعاف دون أن يدري أنه والده، قالت إحداهن.

- اتركوني، سأبقى إلى جوار أبي، أنا بخير، لست متعباً، قال لي إنه ذاهب للأقصى، قلت له: لا داعي لذهابك اليوم، ستكون هناك مواجهات صعبة، وأنت شيخ مُسن، لن تستطيع الجري.

قال أبي:

- لماذا الجري؟ الإرادة سلاحي، سأضربهم بعصاي هذه، قد يضعف الجسد ويشيخ، أما الإرادة فلا تشيخ يا بني.

- قم معي وسنعود بالصباح، أنت متعب، إنك تتصبب عرقاً، قال أحد الأصدقاء.

- اتركوني سأبقى إلى جواره، إنه أبي، كان دائماً هناك، عند ساحة الكأس، تحت شجرة السرو التي تعانق السحاب، أحبّ الأقصى وأحب الحمام.

- اذهبوا أيها الأصدقاء، أنتم من يحتاج إلى راحة، أما أنا فسأبقى هنا أنتظر الصباح، لقنّاهم درساً قاسياً، لن يعود ذو الكرّش الضفدع ثانية إلى الأقصى، أبي يُتمّم ألا تسمعه؟

- هذا مستحيل، هكذا قال الطبيب.

- الطبيب لا يفهم شيئاً، أبي يُتمّم

غادر كثير من الزوار، غفي المرافقون من تعبٍ، ناموا على المقاعد وفي ممرات المستشفى، إلا أحمد، مسح على جبين والده بكفه مررها بهدوء، انحنى قبل وجنة أبيه، إنه يتمّم قال، نظر حوله، كان السكون يلف أركان المكان، قرب أذنيه إلى فم أبيه

- أنا هنا يا أبي، قريباً ينبلع الفجر، إني أسمعك... هل تسمعني؟

لا تقلق ستكون بخير، رأيّتك تضربهم بعصاك، ورأيّتك تحدث سيدة هناك، لقنّاهم درساً، لن يعود صاحب... يدي... آه، تريد يدي،

إليك يدي، أين الطبيب؟ إنه يُمسك يدي، أين أنتم؟ اقْبِض عليها، الكرّش الضفدع ثانية، كل الوطن مشتعل، لا تقلق نحن لها، ها... ماذا

تقول؟ أجل هكذا، أين أنتم، ماذا تقول؟ لا افهم يا أبي.. أنا هنا لن أغادر، سأبقى هنا أنتظر الصباح، جميعنا سنبقى هنا، لن نُهزم، ستكون

بخير... نعم أسمعك جيداً، أيها الطبيب، إنه يتكلم، ألا تسمعون؟ إنه يتكلم، لا يغيب صوت الحق، اسمعوا إنه يوشوشني، يقبض على يدي،

أجل أسمعك يا والدي، أسمعك جيداً، ماذا؟ أوراق؟ في أي كهف؟

المقام، تحت الرقيم، نعم، الشيخ ريجان، أوراق من؟، لا اسمع من راغب الخالدي؟، أين؟، تحت رقيم الضريح، لا تقلق سآتي بها، تريدني أن أسلمها؟ لمن أسلمها؟ لا أسمع، أبي أسلمها لمن؟ لا أسمع، أبي، لما تركت يدي؟ أبي... من؟ لا ترحل، أنا هنا، جميعنا هنا، في القدس هنا، أبي، أبي، أيها الطبيب، أيتها الممرضة أين أنتم؟ أين الناس؟ لن نرحل، سنبقى هنا، في القدس هنا.

- أجهدت المرأة من الشيخ ريجان وأسبلت عينا زوجها عمر، ثم هرولت إلى الغرفة المجاورة، عندما علمت أن طاقم الإسعاف أحضر امرأة عجوزاً من الشيخ ريجان إلى المستشفى، كانت أصيبت في ساحة الأقصى حينما كانت تصد بجسدها النار عن فتیان المدينة، كان وجهها مضمخاً بالدماء، وكانت تقبض بيدها على منديل أبيض، عرفت المرأة من الشيخ ريجان أنه منديل نرجس، وعندما مسح الأطباء مِحْيَا العجوز الجريحة، أشرق وجهها البسام، فجثت هدى فوقها، فيما ضمت فاطمة منديل نرجس إلى صدرها، وقضت.

في القدس هنا، سنبقى وحبنا، نرفع الكف في

وجه المخرز

نقاوح الريح

في مامبلا اقتلعت جرافات المحتل قبور الموتى والشهداء، غير أن
أرواحهم ما زالت تُخلق في سماء المكان، في مامبلا أيضاً هدم المحتل
كلّ الأجزاء الداخلية لعمارة الأوقاف الفخمة، بينما أبقوا على واجهتها
الخارجية، جوّفوا المبنى كما جوّفوا التاريخ وفرغوه من محتواه، ودون
أن يدركوا بقيت واجهة المبنى هي وجه الذاكرة المسروق وشاهداً على
غباء المحتل وعنصريته وإجرامه، هنا مقابل مقبرة مأمن الله "مامبلا"،
أسفل شارع جوليان، سيذكر الناس المعرض العربي للبضائع الشرقية
التقليدية، سيذكرون المنتجات الجلدية من مصر، واللحف والحرامات
من العراق، والأدوات النحاسية من بلاد المشرق والفواكه المجففة
والأقمشة المقصبة من دمشق، والبُسط الصوفية من غزة وبئر السبع،
والأشغال اليدوية والمطرزات من المجلد، العطور من لبنان، والأثاث
من يافا، الصابون من نابلس، وتحف الزيتون والزجاجيات الملونة
من مصانع القدس، المأكولات الشعبية من مختلف المدن الفلسطينية،
والمخطوطات من المغرب والحجاز، والكتب النفيسة من العراق.

ربما أثقل الزمن والخطوب كواهل أم ناصر بائعة العنب، لكنها كانت على موعد مع زغرودة طال انتظارها فرحاً بولدها ناصر وهو يفتح عيادته في بيت دقو التي ربما عوضت الناس عن مستشفى الهوسبيس الذي أغلق والمطلع الذي حالت الأسوار والحواجز دون الوصول إليه، حوّل أبناء شنار الغاضب من العرب والانجليز والناس أجمعين محل أبيهم من مزود المدينة بالتموين إلى بيع الأحذية الستاتية، وتحوّل محل الهدمي للألبان والأجبان إلى مطعم للوجبات السريعة، ومطحنة القمح والفاخورة إلى سنتواري، وغادر حمدي شاور أبو جمال من وطء الضرائب إلى رام الله، وغير اسم محله من كل شيء شهى إلى شنكلش، غير أن رساماً شاباً ما زال يخط بريشته طريقاً لباب الواد، ويتلفت بين الفينة والفينة إلى طاولة خلفه لم يعد يجلس إليها صاحب القبة ولا صاحب المنشأة، لأن أحدهما لدغته حشرة في أحد الأنفاق التي حفرها في المدينة، فيما قضى الآخر تحت ردم مقهى في شارع سليمان. وتبدلت فرقة الجنود الإنجليز قرب الكنيسة بغيرها من الجنود الصهاينة، لكنهم لا يظهرون في لوحة الرسام الشاب الذي لا يكبر ولا يشيب، فهو عازم على إخراجهم جبراً من اللوحة، لأنهم ليسوا جزءاً منها، وليسوا جزءاً من هذا المكان، فهو ما زال أيضاً يزور مكتبة الخالدي يدون بالريشة صور الخالدين، وما زالت المدينة بين الفينة والأخرى تهتز تحت أقدام الغزاة، رغم أن السلام أتعبها أكثر مما أتعبتها الحرب.

ربما شاب زبوبا، لكنه ما زال هنا في القدس هنا، يهتّ عقْدَ حبله ويدعو إلى الصلاة والجهاد، وما زال أبناء أبا رباح يُحْرَكون موقد النار في عقبة شداد، وما زال رجب بسمته البريئة يَحْبُج ويَضْرُد في وجه جنود الاحتلال.

سنبقى هنا في القدس هنا، لا نحتمي بجغرافيا السياسة، لكننا نحيا في
حضر جغرافيا التاريخ، ولنا المستقبل، سنبقى بعيداً عن عيون خوابل
الليل، وسلطة المال، والمقاعد الوثيرة، وبطاقات الرجال الهامين، ووهم
الإنجازات والأولويات السخيفة والصراع على الجيفة، سنبقى هنا في
القدس هنا، وحدنا نقاوم الاحتلال، نتناول الطعام وحدنا، ونشعل
النار وحدنا، نُلقي الأزهار وحدنا، نوَلد الأفكار وحدنا، نرفض ما
نشاء، ونصرخ كما نشاء، يُكبل الاحتلال أيدينا بالأصفاد والسلاسل،
ويحبسُ بالجدار أنفاسنا، لكننا سنبقى هنا في القدس هنا، أحراراً نُخلق
مثل بواشق عنيدة مع الرخّ والحُمير والبَلّ والعتق والحمام الطاهر في
سما مدينة كانت وستبقى عاصمة الأرض والسما.

نقش على رقيم

طلب مفتاح المقام من المتصرف في البيت المجاور، تتمم، السلام على ساكن المقام، ضغط زر الكهرباء على جدار المدخل، توهج لهب قنديل بعيد، لفحته أنفاس روح غامضة، شَمَّ عقب بخور طيب، رقد الشيخ في ضريحه على فسيح من سجاد باهت، احتضنته جدران تعانقت عند سطح القبة المدملكة، تدلت من سقف القبة ثريا ذات مصابيح ثلاثة، نثرت أنوارها في ثلاثية الحيز وأبعاد الزمن، تموجت وتداخلت أشعة الضوء المُبْهِرة مع عِلَل اللحظة وَعَبَرَتْ حَدَّ الأثرمان، ففَشَع لِيَّاحٌ²³¹ الفَلَقِ سحابة الوهم عن ظِلِّ الحقيقة، بدا شاهد الضريح بوشاحه مثل عمامة بيضاء، تلفع الضريح بعباءة داكنة الخضرة، تلا فاتحة الكتاب، سجدَ على ركبتيه، لمس نقشاً على رقيم الضريح، دَسَّ يده في فتحة أسفل الضلع الأيمن للضريح، حَرَّكها، شعر إنه فعل هذا من قبل، تعالت أصوات الدَّرَادِبِ، وَخَبَّتْ خيول، نظر إلى النقش من جديد، أخرج يده بانفعال، مَرَّرها على الدَّبَّج المحفور بإتقان، تزامت بذهنه الأفكار والذكريات، امتزجت واختلطت مع ثريا الأبعاد الثلاثة، ما عاد يفرق بين ما تولده الأفكار من أطيف وما تستدعيه الذاكرة من صور وأحداث أو ما تستقبله الحواس من مشيرات.

شعر بحرارة اجتاحت جسده ورأسه، خيّل إليه أن دفقاً كخب الخيول يجري في شرايينه، وخيولاً تصهل في روحه، رأى نفسه قادما من ملامح

فرح قديم وسط جمع من الفرسان بلحاهم البيضاء وعباماتهم، بسيفهم ورماحهم وزيّهم الحربي، دَجُوا حتى أَطْلَوْا من على تلة عالية إلى مدينة تحيط بها الأسوار وبواسق الأدواح، عَبَرَ مسافة بين لحظات متداخلة، تحرر من وعائه الفاني وتناثر في عالم اللامحسوس، "يوم يكون الناس كالفراس المبتوث" صورة القارعة، تلازن القوم على ققعاق البرق وأصابوا من لهاث القلب سراب الأمنية، بدا الحلم أقرب من لعاع الأرض، نمت أزهار الأمنيات، وتفتحت أوراق التينة وتمطت أغصان المدادة العجوز، وفاض ميزابان القلب إلى حوض البيت، وذهب النَّعْ عن بئر الحياة، رأى أسراباً من الحمام تُخلق فوق منارة في وسط المدينة، انفلج الأزرق الممتد وفارت أضواء منارة في بهرة²³² التل، لمعت وفردت نورها فتلاً وعبر حدود الدَّراري وصعد إلى مدى بلا نهايات.

فجأة انقطع البث، غابت الصورة وتوقف الاستقبال، وعلا في الأنحاء بكاء أطفال ولَدَم ونحيب نساء، تساقط الحمام، شعرَ بوخز النقش على أصابعه الطرية، تلفت حوله، اختفت جدران المقام، عادَ البث من جديد، شاهد كهلاً يجوب الأزقة ويزمُّ على سيجارة الهيشة بفمه الأدرد، وشاباً يفترش الأرض ويرسم لوحة لمعالم الطرقات، وفناة تَحْطُّ كلمات في دفتر صغير، ثم تُنونس ضوء المصباح وتغالب جفونها المتعبة، توهجت صفحة الجدار، حضرَ فرسان وترجلوا من على جياد

البرق، سجّوا شهيداً على رمال من زعفران، دماؤه رطبة بلون الحناء،
شقائق نعمان وأزهار برية نامت على تلال المكبر، عباءة خضراء فارعة
الأطناب امتدت ضمّت المدينة والأسوار، فتاة عيناء أطلت من نافذة

قريبه، صغار ركبوا صهوة الغيم، وطفلة افترشت سحاباً طائراً وقبلت
عصفوراً كان ينزف حبّات من ودق وبلور، رأى نفسه "نازلاً من نحلة
الجرح القديم إلى تفاصيل البلاد"، رأى يديه تغرس في الأرض نقشاً
على رقيم من صلصال:

"لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً".
دسّ يده بالفتحة أسفل الضلع الأيمن من لحد الوعد الجديد، حرّكها
بحدّة، عادت جذران المقام، بحث بوعي عن لِقَافٍ من جلد الماعز،
كان دائماً هناك، لامست يده لطيف بنان، اقشعر بدنه وغالبه البكاء،
سَحَبَ إليه رقاعاً من جلد عتيق، بدا كالورق لكنه ليس ورقاً، خطّ
بممداد كالحبر، لكنه لم يكن حبراً، وزُين بما يشبه الرمل لكنه ليس رملاً.
في أوسط الرقعة الأولى بين ظلالين، امتدا من حدّ البعد الأول من
علة المبني للمجهول، في قُدَس، ومرفوع الفاعل المخضّب بالجلنار في
قادس، كُتِبَ بخط كوفي:

"بيت المقدس جنة الأرض وبوابة السماء".

قرأ رقاعاً تلو رقاع، تلك حكاية مدينة، تاريخها، ملامحها، جبالها،
وديانها أنبياءؤها، أُنْقِيَاؤها، أشقياءوها، عقلاؤها، مجانينها، أزقتها،
مقدساتها، بيوتها، أسوارها، حُكامها، ظُلامها، خُدامها، شيوخها،
أولياؤها، رُهبانها، بائع الحليب، بائع التمرية، السقا، باعة الكعك
بالسمسم، صانع السيوف، حاذي الخيول، النّحاس، المنجد، الراوي،

الرسام، الوليد، الشهيد، من ذهبوا، من جاؤوا، من أخذوا، من وهبوا، من نهضوا، من قعدوا، من هانوا، من تفانوا.

- السلام على سيد المقام، قال، والسلام عليك يا أحمد.

قال المتصرف خادم الحضرة المباركة الحاج أبو صبيح، ثم نظر إلى الفتى، بدا كأنه والمقام والشيخ والرقيم شيء واحد.

- وعلى متصرف المقام السلام، قال أحمد.

ما كان أبي كاتباً ولا مؤلفاً ولا بائع حليب، كان صانع أحذية "كندرجي" بلهجة أبناء القدس، بسيطاً مثل أبناء المدينة، جاهد كما جاهدوا، كد كما كدوا، أحب المدينة، حجارته، سماءها، هواءها، أشجارها، أسوارها، ناسها الطيبين، كان عضواً في فرقة التدمير التي قادها القائد الفارس فوزي القطب، لكنه ما كان كاتباً، جُل ما حصله من علم هو القراءة التي تعلمها في كُتّاب الشيخ لولو، خاصة قراءة القرآن الكريم، لا أعلم ما هي علاقة أبي بهذه الرقاع، وكيف وصل علمه إليه، ولا أعرف شيئاً عن كاتب الحكاية، ولا الفتاة التي كانت تخط كلماتها في دفتر صغير، ولا عن الشاب الذي يرسم معالم الطرقات ولا يكبر ولا يشيب، ربما تابعت أبا منصور أحياناً في الأسواق، لكنني أجهل ما صلة هذا بالرقاع الذي أمامي، لذا قد يكون ما أضعه بين أيديكم حكاية ليس لها مؤلف، حكاية مدينة ليس لها مثيل، أبطاها المدينة نفسها، أبناؤها أزقتها وحاراتها، أولياؤها وأشقيائها، ذوادها ونخاسها، عقلاؤها ومجانينها، هدوؤها وثورتها، هكذا كانت دائماً مدينة خطتها يد السماء.

صلاة على يافحات القدس

الله أكبر... الله أكبر... يرتدّ الصدى من جنبات جبل الزيتون فيستيقظ
الحنون وتمطى أغصانُ الأشجار، يفردُ اليَمامُ أجنحةَ الطاعةِ ويخلقُ
عالياً من على قمةِ المكبرِ مُلبياً نداءَ الصلاة، تُشدُّ طيور الحُميرُ والرُخُ
واليرخومُ والغُرُوقُ تراتيلَ الفجرِ فوقَ جبلِ المشارفِ، يَهْمُ البَغُشُ
من عينِ المهابةِ نديّ الحاجبِ، وتَفْتَقُ الجونةُ²³³ غيمتها فتسللُ أَطْنَابُ
ذهبيةً من فرزاتِ رموشٍ طحطحها النومُ، تندفقُ براقَةٌ على الفسيفساءِ
وزخرفةِ القاشاني الملوّنةِ بزرقةِ السماءِ وخضرةِ الربيعِ وأنهار الجنةِ،
ينسابُ عَبُّ الشمسِ إلى صحنِ المسجدِ عبرَ أفاريزِ القلبِ المجدولِ إلى
شرايينِ الأَثَابِ والْحَقَبِ المُلَوَّنةِ الموسومةِ على زجاجِ النوافذِ، ثم يترنحُ
الضوءُ حَوْلَ أعمدةٍ مُدْمَلَكَةٍ تميلُ نحوَ القبلةِ في هيامِ صوفي عاشقٍ،
فيبدو المكانُ من أي زاويةٍ تُطلُّ إليه مفتوحاً على المدى أوسع من حيزه
على الأرضِ، لا يُعَيِّقُ البصرَ فيه شيءٌ عن موقعِ سجدٍ أو ركوعٍ، وتفتحُ
صخرةُ المعراجِ أَكْفَ الدعاءِ وترفعُها نحوَ صرةِ القبةِ، تماماً إلى أقربِ
نقطةٍ لبوابةِ السماءِ، يُسَبِّحُ الندى على جبهاتِ العَدَابِ والحصى في وادي
قدرون ووادي الجوز والعنابِ، وينضو المَلَأُ عن سفوحِ الجبالِ الغربيةِ
ظِلَّ الغرابِ، تُحَلِّقُ طيور العُتَقِ والبلتُ والبَهَارُ الهاربةِ من حر الصحرَاءِ

سربا مع حمام الأقصى، ويمتدُّ الأفق الواصل إلى جنبات البيت العتيق،
فينسُمُ الفجرُ الناهض حقاً وحِنَّةً.

هنا على يافعات الجبالِ الأربعةِ المحيطةِ بالقدس، وفي منحدراتها
وأهْضامها ووديانها الوعرة، عبد الله على مرِّ العصورِ وتبارك اسمه
وقُدسَ ذُكره وتعالى جدّه.

ينتصبُ الجبلُ عالياً وتحتضنُ تلاله المتدرجة في حنوٍ نديٍّ رطب،
أشجارُ سرو وحقول زيتون وشواهد وشقائق نعمان، وتتدلّ جداولُ
أزهارٍ وورودٍ على كتفِ السفحِ في زهوٍ حتى منتصفِ الوادي، حيث
ترقدُ بجلالٍ ذهبي بهي بتولِ ناصرية، كانت قد انتبذت من أهلها مكاناً
شريعاً، ويقوم بالجوارِ تمثالٌ للوالدة العذراء، يُطلُّ براءة فرح هادئ على
مدينة لم تُقصِها النار ولا هجمات المغول، يُتوجُّ إكليل غارٍ وياسمين
رأس عروس المدينة، نجلاء تتضوع أنسامها على الربى مسكٍ ونُسكٍ
وبخور، وقريباً من وسطِ التلِّ تشمخُ قبابٌ من ذهبٍ، تتلألأ وتراقص
شموس فرح صغير، تُداعب ملائكة الميлад ورهبان الدير، ويفوحُ في
الأزقة عبق نبوي عتيق، يتناثرُ مع رذاذ من نور.

وعلى ميمنة التلِّ تمتدُّ يدٌ طاهرة تمسحُ من على جبين النجار غبار السفر
ودموع مرتا²³⁴، فيقوم أليعازر من الموت ألف مرة، وتحلم حنة²³⁵
بالبشرى، ورُسل الفرس وحقل رعاة، وكانت قبل انبلاج الفلق نذرت
ما في البطن محرراً وجاءت على قدرٍ لتفرش في الأنحاءِ قرنفل صبح

٢٣٤ أخت اليعازر الذي أخرجه المسيح من القبر وأحياه بإذن الله

٢٣٥ والدة السيدة مريم العذراء

وتنام، ويُلامس طيفاً تُمام²³⁶ أبيض زخرف الأرضِ وصدر
 يواكيم²³⁷ وأطراف بنان أدماء الدمع، فصار خضبا ذا عقب يخرج من
 جوارٍ ليس في فضاء الدنيا أقدس ولا أطهر ولا أطيب منه، يضمُّ حناناً
 من لدن، ورحمة وسبباً للنور وسعفات نخيل مجدول، وألوان شعانين،
 وشموعاً، وغناء، وتراتيل صلاة، وأطفالاً يفتحون مع رنات جُلجلٍ
 يُوقظ الفجر، فيهبط الغمام إلى سماوة البيوت ويفيض الجبل زرافات
 من راهبات وردية، يتقدمن مزامير الطور وطبول العيد، وراكب أتان
 يُعيد مسار الأشياء ويُبقي البسمة فوق شفاه ثكلي، ينظرُ مِلء القلب
 ومِلء العين، أما تتأمل في صبر صامت قدرون²³⁸، وتلامذة الوادي
 والأسوار، وشواهد من ذهبوا، ووجوه الناس ومن حضروا، وتحرس
 ميلاداً يتجدد وحضارة أمة تنهض منذ خمسة آلاف عام.
 يمتدُّ الجبلُ على مدى أفقٍ دائري يحيطُ بأسوار المدينة، مكبراً لزمان
 ما زال طرياً، يفرّد البعْش عباءته على كتفِ الجلمود وحصى الوديان
 وحجارة الجدران، وتهمُّ عيونُ الورد ويطرَبُ وجه الصخر، وتبيضُ
 الأرضُ ثم تعدو فوق الوهدة خيول تصهل من هرج، وتغوصُ رماح

٢٣٦ طيف العشب ، المقصود مشهد خيال العشب المنعكس من الجبل
 على بلاط الرخام في غرفة القبور الثلاث، في أعلى كنيسة الجثمانية
 ٢٣٧ عمران والد السيدة العذراء
 ٢٣٨ وادي قريب من أسوار القدس كان يلتقي فيه السيد المسيح مع
 تلاميذه

في صدرِ دَيْلَمٍ²³⁹ الدار، فيفرشُ الجندُ بساطَ النصرِ على الربوعِ الحرةِ
مشاعلَ وخياماً وجموعاً لم يغييها المور، من ركبوا صهوةَ الزمنِ وسابقوا
ريحَ الاقتلاع، من رسموا على ناصيةِ الحكايةِ ظلهم، ووشموا على جبهةِ
الزمنِ روحهم، وحفروا في الصخرِ وفي عمقِ الأرضِ هويتهم، فحبلَ
الطوطُ وجاءَ بهم، فانتشروا في حلاقيمِ البلادِ سنابلَ قمح
وتللاً من تينٍ وصبارٍ وزيتون، وبلداتٍ وقرى، خياماً وبيوتاً للناس،
جداولٍ ومزارعٍ وَيَعْسُوباً وحقولاً وأغناماً، ومواويلٍ وكوفياتٍ وجوزاً
وأرغولاً وزغاريدٍ للعاشقين.

لا يغيبُ الميلادُ وإنْ غابَ الفرح، يحضرُ رسولاً لمجد الله في العلا، سلاماً
ومحبة، وهداهد تقررر وسيولاً تغرغر في الهضبات، وخلفَ شاهق
الأسوار ثريا تغزر ثوب الغراب فتصدع أجراس تعانق هامة البلور
وعرجون المآذن، فيفيض الناس من طيَّاتهم²⁴⁰ رجالاً ونساء، يولدون
ويكبرون، يزرعون ويحصدون، يطحنون ويعجنون، ويصمدون.
ومن شَبَّاء لابتُ في الدجى عبرت بارقة كالسهم فختت حدَّ الأفق،
فانبج²⁴¹ الباهر وهتك أسرار الظلام، وتدلت على صدر الأفق لآلئ
احتضنت ياقوتة الصبح فأيقظت تلال الانتظار، وفتح المدى عيون
الفلاة فانساب الدفء رويداً وملاً أوردت الهواء، ثم زحف نحو أسوار

٢٣٩ العدو

٢٤٠ بيوتهم

٢٤١ ظهر

المدينة، فلامس في شغف سحري صفحات القبة الذهبية المباركة ثم

ومض في الأنحاء رذاذاً فضياً غمر جبهات ملائكة الإسرائ وهي ترافق
براقاً مُطَهَّماً ما زال يحن لفارسه. أسرى ليلاً مع نسائم حب أزلي من
القادس وعتيق البيت الأول، إلى قديم القدس وثاني بيت وضع للناس،
ثم حلق في سماوات الله، حتى أبواب العرش وسدرة المنتهى، فكان
قاب قوسين أو أدنى، ثم دنا فتدلى ورأى من آيات الله الكبرى، ثم عاد
وأسرى بضعا وألف سنة، ثم عرج وأقصى، تلك فرس ملائكية مُجَنَّحة،
تَهْمُرُ بفارسها الكون، لكنها تعلم أنها تعود لتطأ به قدراً هو ميناء الله
الوحيد على الأرض.

لِلْمَها أن تبكي دماً على كابيتولينا²⁴² التي غادرت أسرار ييوس²⁴³ حين
غاب الرجال، وأن تلامس بالبنان ثرى تخضب من بَصرة²⁴⁴ النَّعْ²⁴⁵
المتشلسل²⁴⁶ على كُلِّكَل²⁴⁷ الروح، وأن تغسل القلب من جند البلاط
ورومان المعبد، لييوس أن تسأل جويتير²⁴⁸ إلى متى ستسكن خوابل
الليل بطن العتمة، وتخرمش الوعي بأخايلها وتنشر ريشاتها السوداء

٢٤٢ اسم القدس قبل الفتح الاسلامي

٢٤٣ اسم القدس الكنعاني

٢٤٤ البكاء الذي يضعف النظر

٢٤٥ التراب المبتل

٢٤٦ الذي ذهب لحمه وقل

٢٤٧ صدر

٢٤٨ معبد وثني بناه الرومان في القدس، يعتقد أنه على جبل موريا

نفس موقع المسجد الأقصى

ورعبها وتقيم ولائم عواهنها وتروي أساطير الدمار، لا براءة من شك

الربيع المسفوح دماً، فيهوذا²⁴⁹ ينشر على صفحة الآلام تنن الخيانة، من كان يعلم أن تلميذاً من قدرون سيثي بالمعلم ويأكل الافخارستيا²⁵⁰، كُنْتَ تغمس الخبز في نبيذ القلب وشواشي الروح، وتعلم أن العشاء أخير، اسخريوطيون والموت مُتَعَلِّدٌ في فَوْعَةِ السم والأنحاء والأشياء، سماً أو صلباً لا فرق ما دام الموت فداء، يهوذا يتجول في جثمانية البستان، وإن تحفى بألف ثوب، في القائد والحاجب والكاتب والناسك والعابد، إنه يهوذا لم يمت ما زال حيا في الأنحاء، يُحرك النار والأشجار وألف مرتزق وسمسار، اسخريوطيون في كل مكان، قل لنا يا ميثياس من كان يهوذا وكيف خان، وكيف سلم ابن الإنسان.

لإيلياء التي تعبت من قهر تيطس²⁵¹ ويهودية باركوخبا²⁵²، لقسطنطين يوم رفع شارة النصر على وثنية جوبتير، ولهيلانة الأم وهي تفرد عبادة المحبة على صخر الجلجلة، لَوْهُوَهة النساء يوم ابتلعت عتمة يوليان نهار المحبة وجاءت بوحوش الليل، لإيلياء اليوم وقد عاودها يوليان الكرة تلو الكرة، وفاض من حولها المدى عن خواء الثائرين على ضفاف

٢٤٩ يهوذا الأسخريوطي الذي خان المسيح
 ٢٥٠ أحد الأسرار السبعة، وهو تذكير بالعشاء الأخير بتناول رقيقة
 من الخبز المقدس
 ٢٥١ حاصر القدس ودمر معابد اليهود وقمعهم الأمبراطور الروماني
 الذي
 ٢٥٢ قاد العصيان ضد الرومان عام ١٣٢

الانتحار وأسرار الحصار، ومعمعة الخبر على يراع الروح ولغة الشقاق، لإيلياء أن تستيقظ من سبات الحياء وتقشع أقنعة الضلال وتنضو عن وجه اللاهوت لباس الناسوت ليتوهج النور في جنبات الكون، وتكشف عن وحدانية الحق في العهدين، وعن بلور الحقيقة في عيني أريوس، وبراءة أرناؤس، وهرطقة الغنوسي، وجدل الفتنة في انفصال ووحدانية الطبعيتين، ولإيلياء بعد أن تحطَّ على صدر حكيمها الدمشقي صفرونيوس²⁵³، حارس القبر وسيد الدير، وحامل مفتاح كنعان، من ملكي صادق²⁵⁴، من فرد القلب خبزاً، وسكب الروح حلياً للأنبياء. لصفرونيوس أن يحمل مندبل القديسة فيرونوخيا²⁵⁵، وهالة القمر، وأن يمسح الودقة عن عين الغزال، وله أن يقوم على راعوفة البئر في جيحون ليغسل أقدام النَّوِيِّ، ويفتح القلب، وينزع من على جبين السيَّار في المَور شوك الجلجلة، وله أن ينزل عن ازدواجية الانتماء، ويُبعد الهمج²⁵⁶ والبُدا الروماني عن قطع الدير، وله أن يأتي بالناردين وخصلات المجدلية، وأن يقشع عن سَمَاوَةِ البيت حزن السنوات ووجع الصلب وسياط الدَّيْلَم والظى وضلال بيلاطس ووصايا الرومان، وله

-
- ٢٥٣ بطريرك القدس، الذي سلمها سلماً للخليفة عمر بن الخطاب بعد حصار ستة أشهر
- ٢٥٤ الملك الكنعاني العادل، الذي بنى القدس وزاره فيها سيدنا إبراهيم عليه السلام
- ٢٥٥ الفتاة التي ساعدت المسيح على النهوض عندما سقط وهو يحمل الصليب
- ٢٥٦ الذباب الصغير

أن يخرج من عباءة روما وقلنسوة ديونسيوس اكسيجنوس²⁵⁷، ويؤرخ لميلاد جديد، وله أن ينقش الكلف زعفراناً على وجه قدسه العربي. حينها سيهبط آدم من علياء خطيئته فوق نواهد الراهون²⁵⁸ وسيخطو أول مشوار الوعد على جلدجلة الآلام والرسالات، يُكمل طوافه حول الأسوار يدور بين زمن الأرض وزمن السماء، يستمع لتسايح الملائكة ولحكايات الناس، يتعلم من جديد بأمر الله الأسماء كلها وينسمُ عقب الريحان.

ما بكى عمونوئيل²⁵⁹ يوم ولد كما الأطفال، وما امتشق سيفاً يوم احتفلت روما بعيدها الرابع والخمسين بعد المائة السابعة من هزيم الرد والهزج، لكنه أنطق المهد والنَّجاء والأسول سلاماً، ونضا عن هامة اللحظة غبش الموت، ولن يبكي الناس يوم يموت، لأنهم يعلمون أنه سيُبعث ليملاً الأرض حُباً ويزرعها مجداً وكلاً ووثاماً.

لصفرونيوس أن يخرج من باب القبر فصحا عربياً يُقسم في الناس أنَّ الناصري قام، وله أن يفرش الأمل فاروقاً يترجل كنعان، التي ما غادرت أسمها العربي يوماً، وإن بدل الطغاة ثوبها، ما بدلت جلدها، وبقيت بيتاً للروح وللمقدس، ولها العهدة ما عَمَرَت الأرض، ولها الناس والأعياد والأعراس والفقراء والأمراء والشهداء، ولها أن تطوي

٢٥٧ هو ديونسيوس الصغير، الراهب الذي وضع التقويم الميلادي،

بعد التقويم الروماني، الذي بدأ من بناء روما وامتد إلى ميلاد المسيح

٢٥٨ الجبل الذي هبط عليه سيدنا آدم عليه السلام

٢٥٩ اسم من أسماء سينا المسيح عليه السلام

سنوات التيه وعهد التغريب وحملات الفرنجة وجيوش المغول، ولها أن تهدم بيت الخراب وزمن السراب ودجل الدعوة للقبلة دون صلاة. ولبيت المقدس أن تطفى نار الفتنة، وتُطيح بحرب الإخوة، وتغسل الأسوار والسرادق وأزقة الطرقات وجبين الأمة من عار الأمراء، من هادن الدَّيْكم وترك العاني في بطن الظلمات، من اغتال فراشات الحلم وعانق الغرباء، من استجار من نار بيته بالرمضاء، ذاك وإن كان أخو الناصر أو سمى نفسه العادل أو الأفضل أو الأشرف أو الكامل، ليس له من اسمه إلا الخواء، لأنه هو الخائن والظالم والقاتل والماجن والهامل، من عاد بالفرنجة وفريدريك وشذاذ الأفاق.

ولابن منكلا²⁶⁰ والعز بن عبد السلام وعبادة بن الصامت وشداد بن الأوس أن يرفعوا القامة مرة أخرى، ولأبواب الرحمة أن تُفتح كي يعبر من جديد الأيوبي الناصر لدين الله صلاح.

تم بحمد الله

في القدس

2014 - 2 - 23

٢٦٠ الأمير داود بن منكلا، الذي قُتل من حاول اغتيال صلاح الدين، وابن منكلا من قادة وامراء جيش صلاح الدين

الشيخ ربحاُ